مكسيم غوركي



مكسيم غوركي

المؤلفات المختارة في ٦ مجلدات

المجلد ٣

أقاصيص

ترجمة المحامي سهيل ايوب

دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة المقدمة : **برهان الخطيب**

М. ГОРЬКИЙ

Собрание сочинений
в 6-ти томах
Т. 3

Рассказы. 1892—1906

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

ISBN 5-05-001726-2
ISBN 5-05-001729-7

مقدمة

عندما ظهر الى الوجود اول نتاج ادبي يحمل اسم «مكسيم غوركي» المستعار عام ١٨٩٢ ، كان لمؤلفه ، وهو عامل في مدينة نيجني نوفغورود ، من العمر آنذاك ٢٤ عاماً . الا ان هذا الكاتب كان قد افلح حتى ذلك الحين باستيعاب صنوف الخبَر والمعاناة مما تحفل به الحياة عادة فيما تمثّلها بالقدر الذي لم يستطع احد ممن سبقه وعاصره من الكتاب ان يضاهيه في هذا المجال . بل ومن العسير ايضاً ذكر اسم فنان كلمة آخر تمكن من الأئتلاق مثله والصعود بهكذا سرعة من اوطأ قاع في الحياة الى ذرى الثقافة العالمية .

سيرة حياة غوركي معروفة تماماً للجميع فلا حاجة لأعادة سردها . إلا أننا نذكر فحسب انه حاول ، قبل اعوام من بدئه نشاطه الابداعي وذيوع صيته في ارجاء المعمورة ، وهو الفتى ، ذو التسعة عشرة ربيعاً ، مساعد الخباز آنذاك في أحد أفران مدينة قازان ، أن يضع حداً لحياته باللجوء الى الانتحار . فاي معاناة ساقته الى هذا الفعل ؟ لربما كان مدفوعاً الى حافة يأس مقيم تحت وطأة الكدح الثقيل فى قبو الفرن المظلم الخانق ، الشبيه بزنزانة ، والذي انعكس فيما بعد في «كونوفالوف» و«ستة وعشرون رجلاً وفتاة واحدة» وغيرهما من قصصه ؟ كلا ، فقد اشتغل الفتى قبل ذلك حمالاً ، فلاحاً اجيراً ، ساحباً للمراكب ، وعرف منذ طفولته شظف العيش ، والعمل الشاق اليومي المرهق الصعب . لقد ابهظ كاهله أمر آخر اذن .

كان الفتى قد قرأ عدداً غير قليل من الكتب دار الحديث فيها عن امكانية «تعديل النظام الاجتماعي» وان الشعب لقادر على نيل حريته . ولقد آمن غوركي الفتى بهذا ، وبـدا له ان بامكانه الهام هذا الايمان غيره من العاملين معه في القبو - السجن . الا ان هؤلاء الزملاء انفسهم راحوا يقنعونه ، اذ نشبت في قازان الاضطرابات الطالبية (لعب الدور الرئيسي فيها صديق غوركي العظيم فيما بعد - لينين) ، للتوجه الى الطلاب لضربهم . فلم يجد ، وهو الذي اذهله هذا الموقف فراح يعاني من ازمة روحية حادة ، ما يعينه من كلمات ليشرح لهم فظاعة هذا الامر ، واستولى اليأس عليه تماماً ، فتردد دوي الاطلاق عند الجرف العالي المطل على نهر قازان .

لو كانت الرصاصة ، الموجهة الى القلب ، قد اصابت هدفها ، لما كنا عرفنا شيئاً عن الكسي بيشكوف ، ولما كان هنالك كاتب اسمه مكسيم غوركي ، لكانت حياته انتهت مثلما العديد من الحيوات الفتية في ذلك العهد المظلم الذي حل بعد عقم اتجاه «الخروج الى الشعب» وانحسار المد الثوري وتفاقم نشاط الرجعية . الا أن طريق الرصاصة مرت الى جانب القلب فاخترقت الرئة ، وفتح الفتى عينيه في المستشفى ، وعندما ثاب الى رشده ، رأى اولئك الزملاء من المخبز الذين اوغلوا في جرح روحه عميقاً ، الى جانبه ، اما الآن فقد قرأ على وجوههم القلق عليه ، والتعاطف معه ، ووخز الضمير المشوب بالحب . ففهم : أن ليس هؤلاء الناس ارديائ انفسهم ، بل تلك الظروف التي تحيطهم وتقضي عليهم بالجهل . واذن ، من العار الوقوع في هوة اليأس ، اما الحياة فيمكن ، بل ويجب

تغييرها الى الافضل . ولكن دون ذلك معرفة احسن بالحياة ، بالناس ، بالوطن الأم ، وامتلاك ناصية كلمات وافكار ومُثُل قمينة بأستنهاض الشعب للكفاح .

ومنذ ذلك الحين لم تستطع اي محن ثني ارادة غوركي وليّها ، في وقت كانت المحن والمعاناة والاخطار في حياته من الوفرة ما امكنها ان تكفي مئات الناس . بين عامي ١٨٩١ — ١٨٩٢ اجتاحت ارجاء روسيا كارثة عامة شملت جل الناس ، الا وهي الجوع ، الذي طرد ملايين الفلاحين من اماكنهم في مناطق الفولغا والمحافظات الوسطى ، فساروا عوائل عوائل ، وقرى قرى ، على الطرقات والدروب متوجهين الى الجنوب . بذل ليف تولستوي ، تشيخوف ، كورولينكو ، وغيرهم من الكتاب الروس آنذاك ، الكثير من الجهد لتنظيم المساعدات المقدمة للجياع . لم يكن غوركي وقتئذ كاتباً بعد ، بل واحداً من الجائعين ، فاجتاز معهم اوكرانيا ، القرم ، القوقاز . فيما ضُرب أكثر من مرة حتى كاد يشرف على الموت ، واحتجز غير مرة في مراكز الشرطة كشخص «مشبوه» وعلى العموم فقد اصابه من الاهوال ما يُصعب على المرء احياناً تصور كيف عاش هذا الانسان وسلم من الاذى في نهاية المطاف . إلا أن كل هذا لم يثبط من همته ولم يدفعه الى اليأس كما حدث له من قبل ، بل العكس : أضرم فيه احاسيس الاحتجاج ، وامدّه بمعين لا ينضب من الطاقة ، وها آنذاك اصبح كاتباً .

حظى غوركي الشاب عدة اعوام بالنشر في دوريات ريف الفولغا ، ورغم ان موهبته الطازجة الساطعة جذبت لها في الحال انتباه ابرز فناني الكلمة آنذاك إلا أن شهرته لم تكن

جد عريضة . إلا أن كل شيء تغير عندما صدرت عام ١٨٩٨ اوائل مجموعاته من «القصص والصور القلمية» ذوات الحجوم الصغيرة ، والتي حازت على نجاح كبير وضعه في مصاف اكبر كتاب ذلك الوقت . اما روايته «فوما غورديف» التي نشرت بعد مرور عام واحد على صدور تلك البواكير فقد استقطبت اهتماماً عريضاً كالذي استقطبته رواية ليف تولستوي «البعث» المنشورة في ذلك الحين ايضاً . وعندما ظهرت أثر ذلك رواية غوركي «الاصدقاء الثلاثة» وشرع بنشاطه المسرحي (بخاصة بعد النجاح الذي حققته دراماه الفلسفيـــة العبقريـــة «في الحضيض») ذاع صيته وشاع فتعدى حدود البلـــد وتجاوز المحيط حتى اصبح عالمياً بحق .

سرعان ما انجبت نجاحات غوركى الاولى اوائل الاساطير عنه ، ثم اصبحت هذه الاساطير فيما بعد أكبر ممـــا كانت شهرته تنمو وتتسع . واعلن كثير من النقاد أن ظاهرة شعبية الكاتب الشاب تفسر بالاهتمام الاحتفالي الذي سببته سيرته غير المألوفة اكثر من كونها مرتبطة بقوة موهبته . ولم يكن ذلك صحيحاً : فقد بدأت نجاحاته قبل أن تصبح وقائع حياته معروفة ، بل ان نجاحه الادبي بالذات كان وراء نشر مقتطفات من سيرته في نهاية التسعينات من القرن الماضي . بينمـا رأى كثير من النقاد ان سبب شعبية غوركي تعود الى انـه صور في اعماله اناساً لامنتمين – متشردين ، رسم مشاعرهم وامزجتهم وطموحهم الفوضوي للشخصانية «وحريتها المطلقة» ، وتوافقهم مع آراء فريدريك نيتشه المحتقرة «للجموع» والاخلاق

وكل انواع الالتزام الاجتماعي . ولم يكن ذلك صحيحاً ايضاً ؛ فغوركي صور في اعماله المتشردين والحفاة فعلاً ، وبطريقة ساطعة لم يضاهيه فيها احد من قبل . إلا أنه لم يشاركهم طموحاتهم الفوضوية ابداً ، وكان منذ البداية من غلاة المناوئين للنيتشويّة .

لنأخذ واحدة من اوائل قصصه – «رفيقي في الطريق» . إنها تبدو لنظرة سطحية مجرد قصة – مذكرات او مشاهد من سيرة المؤلف ، فما فيها وصف حقيقي للقاء حقيقي تم بين القاص وواحد من ممثلي «الفيلق الذهبي» المبرقشين (هذا ما كانوا يطلقونه آنذاك على عالم المتشردين) : امير جورجي مفلس انحدر الى حضيض المجتمع ، الا انه لم يفقد كبرياءه ، ولا ثقته بخصوصيته ، وحقه في اضطهاد الآخرين : «المحق مَنْ كان قوياً !» . ينظر القاص لـ«رفيقي في الطريق» هذا كضحية للحياة يستدعي العطف ، وكطفيلي يستثير المزيد من الاحتجاج الداخلي . ولكن ، لِمَ يواصل القاص السير مع «رفيقه في الطريق» هذا مشتغلاً اثناء ذلك قدر اثنين ولاثنين؟ ولِمَ يسمح له ، وهو يرى عقم خطابه الموجه الى هذا «الرفيق» لبناء حياته على اسس «التعاون المشترك» ، بالايغال في الاتكال على الغير والاعتماد على استغلاله ؟ عندما نضع هذا السؤال امامنا نبدأ في فهم ان قصة «رفيقي في الطريق» اعمق بكثير مما تبدو للوهلة الاولى ، وان فيها ، من ناحية الجوهر ، حقيقة نفسية مثيرة للاهتمام ، علاوة على «التجربة» الاجتماعية – الفلسفية . «لقد استعبدني – ، يكتب غوركي ، – فخضعت له وأمعنت في دراسته ، مراقباً كل ومضة تعبير ، محاولاً أن

أتخيل أين واستناداً الى ماذا سيستبيح هذا الشخص لنفسه أن ينطلق في فرض سلطانه على رجل آخر . . .» اراد القاص بكلمات اخرى ان يبين لنفسه : الى اي مدى يستطيع الشر والعنف ان ينموا اليه ، اذا لم يتم التصدي اليهما ؟ فاوصلته النتائج الى ان «رفيق الطريق» هذا (الذي لا عدد لأمثاله) لن يتوقف عند حد معين بنفسه ابداً «في فرض سلطانه على رجل آخر» بل ان حتى اطيب الكلمات لن تجعله من ذاتها يغيـر نفسه . فالمطلوب قلب جذري لكل النظام الاجتماعي الـذي ينجب امثال هؤلاء «رفقاء الطريق» وبضمنهم اولئك الذين كان لهم حظ اوفى فلم ينحدروا الى حضيض المجتمع . انما مكثوا في «أعاليه» .

هنالك اناس متنوعون رسمهم غوركي في اعماله من ممثلي «الحضيض» استدعوا عند الكاتب ردود فعل مختلفة ؛ على احد الخطوط يقف الانانيون ومحبو السلطة «الرفقاء في الطريق» ، وعلى آخر هنالك كونوفالوف وامثاله ، الموزع بين الاهتمام بالعمل والتشرد . ولكن حتى هؤلاء الشبيهين بكونوفالوف يقدمهم الكاتب لا باعتبارهـم نماذج صالحة للحذو ، بـل كـ«قرائن مادية ملموسة لجرائم» العالم القديم ، الذي يشوه الطبائع البشرية ، والمواهب ، وأفضل الطموحات . لقد تعاطف غوركي مع المعاناة التراجيدية للناس ، الذين فهموا الطابع العبودى للعمل القسري ، ولكنه لم يتعاطف مع استخلاصهم الشاهد على عدم المعرفة بالطريق الواقعي الصائب الى الحرية ، اي رفض فكرة العمل وكل مسؤولية امام المجتمع ، والركون الى التمرد الفوضوي ازاءه . لانه فهم ، ان التمرد الفردي لامثال

هؤلاء الناس عقيم ، وانهم باقلاعهم من شاطىء المجتمع غير قادرين على الرسو الى آخر ، فلا يكون في وسعهم ومقدورهم الا الانتهاء في توحد مأساوي .

لقد كانت قصتـه «العجوز ايزرغيل» بمثابة برنامج بالنسبة الى الشاب غوركي : فالاقسام الثلاثة لهذا العمل الادبي تنير ثلاث طرق ممكنة بالنسبة لكل انسان . يتكون القسم الاول من اسطورة عن لارّا (وكما تبين العجوز الغجرية ايزرغيل ، لارّا تعني «المنبوذ ، المطرود») . الفكرة الاساسية لهذه الاسطورة ان ليس هنالك عقاب اشد بالنسبة للانسان من النبذ ، وانقطاع الصلة بالشعب . ان بطل فريدريك نيتشه المفضل «الانسان المتفوق» زرادشت يقول ان «الانسان يكون سعيداً فقط عندما يكون متوحداً» ؛ ولكن حكاية لارّا تؤكد ان التوحد انما هو اتعس مصيريصيب المرء ، بل وحتى الموت كعقاب انما هو اهون شأناً من ذلك . بينما يصور لنا قسم الاقصوصة الختامي ، الذي هو عبارة عن اسطورة حول قلب دانكو المشتعل ، سعادة الانسان المضحي بنفسه من أجل حرية الشعب . فما الذي يفصح عنه القسم المركزي لهذه القصة الثلاثية ، المخصص لمصير ايزرغيل نفسها ؟ انه يقول أن من المستحيل على المرء اجتراح مأثرة وفي نفس الوقت العيش لنفسه ، للحب لسعادته الشخصية ، اي ان يكون دانكو ولارّا في آن واحد – مستحيل ، لأن «نغم الخوف والخنوع» يأخذ في التردد آنذاك في روح الانسان القوي الشجاع ، كالذي كانته ايزرغيل نفسها في شبابها ، ومثل هذا الانسان لا يستثير لدى المقابل الانبهار كما هو الحال مع

دانكو ، ولا الكراهية كما الشأن مع لارّا ، بل الشفقة حسب .

في عام ١٩٠٠ ، على تخوم قرنين من الزمان ، صاغ غوركي عملاً ادبياً نقل فيه موضوعة «العجوز ايزرغيل» من ميدانها الاسطوري الى ميدان الحياة الواقعية . انه الرواية «الاصدقاء الثلاثة» حيث يبدو القارىء وكأنه يقاد ايضاً الى مفترق ثلاث طرق ، عليه ان يختار واحدة منها . عندما انشأ غوركي هذا العمل كان هو نفسه عند مشارف هذه الطريق الجديدة ، المنقذة الوحيدة . لقد اضمرت بواكير اعماله المتميزة بصدق واقعي جرىء ، ونَفَس عال بالنسبة لفنان ذي سيرة جد صعبة ، وتمجيد بطولي «لجنون الشجعان»، كل مؤشرات الفتوحات الفنية العظيمة . ولكن غوركي آنذاك لم يكن قد امتلك بعد ناصية الوعي الاشتراكي ، ولم يستوعب تماماً مهمة البروليتاريا التأريخية . فقد صور الطبقة العاملة في نتاجاته كطبقة مستغَلة ، مظلومة ، مسحوقة ، معانية فقط ، وليس قوة كبرى قادرة على تحرير نفسها وكل الجماهير الكادحة . ولقد كان غوركي بحاجة الى دفعة صغيرة ليحدث الانعطاف في وعيه ، وكانت هذه الدفعة ذلك النهوض الثوري العارم الذي اجتاح البلد في بداية القرن ، والذي استجاب له الكاتب بألهام في «انشودة نذير العاصفة» . اما لقاؤه بلينين فلم يكن اقل دلالة من ذلك ، عبر مؤلفاته وافكاره في البدء ، ثم به شخصيا فيما بعد ، حيث اصبح لينين له صديقاً ومعلماً .

توصل غوركي الى اللينينية بطريقه الخاص كفنان اقلقته القضية الانسانية عميقاً .

ولقد عالج هذه القضية ايضاً ، بسعة وثراء في روايته «الام» المؤلفة عام ١٩٠٦ ، هذا الكتاب غير المعتاد ، ذو القدر غير المعتاد . يمكن التأكيد انه لم يحظ عمل قصصي طيلة تاريخ الادب العالمي تقريباً بمثل هذا العدد الكبير من القراء كما حظى به كتاب «الام» ولم يؤثر كتاب آخر غيره على مصائر ملايين الناس بمثل تلك القوة والمباشرة اللتين كانتا من نصيبه .

يقال عادة ان رواية «الام» تصور حياة الطبقة العاملة ، وكفاحها ضد الحكم الاستبدادي والبرجوازية ، وتنامي وعيها الثوري وبروز القادة والزعماء من وسطها ؛ كل هذا صحيح بالطبع ، إلا أنه معمم اكثر من اللازم .

تصور لنا الرواية في رأينا لا الكفاح الثوري حسب ، بل ، وايضاً ، كيف تجري التحولات داخل انسان الجماهير اثناء عملية هذا الكفاح ولهبه المطهر ، فيحيى ميلاداً ثانيا — ميلاداً روحياً . ها هنا يقص لنا كيف تنبعث روح الانسان وهي تتحرر من الخوف امام آلة القسر الصماء الفاعلة بتأثير الاستمرارية حسب ، امام «وسائلها» من المخاليق المفتقرة لكل مثال ، والتي لا يجمعها مع البشر غير مظهرها الخارجي . ان مبدأ التصوير في النثر ، كما في الشعر ، وكذا في المسرح ، لم يكن ليعتبر مقبولا فيما بعد ان لم يكن يعتمد على معارضة الانسان المتحلل اجتماعياً بالانسان الاجتماعي ، والأنسان الآلة بالأنسان عموما . وكان غوركي اول من استثمر هذا المبدأ لتصوير كفاح الطبقة العاملة ضد النظام الرأسمالي ، فيما اكتسبت موضوعة «بعث» الأنسان معنى فلسفياً عميقاً

وحيوياً في ظل هذا الامر . فاذا كان دستويفسكي ، على سبيل المثال ، يخشى ان يفاقم الكفاح الثوري في نفوس الناس مشاعر العداء ضد بعضهم البعض ، فأن غوركي قد ارانا العكس : ان الكفاح الثوري وحده قمين بتطهير الأنسان من كل الانانيات في داخله . واذا كان «بعث» الأنسان بالنسبة لليف تولستوي يرتسم على طريق تكامله الذاتي الداخلي لا غير ، والمرتبط بانقطاعه عن السياسة ، بفكرة عدم مقاومة الشر ، فأن بطلة «الام» تمتلك الحق فى أن تهتف حالما تضع قدمها على طريق الكفاح : «لن تقتل روحي ، لأنها تبعث !» .

هنالك موضوعتان رئيسيتان في اعمال غوركي ، تكمل بعضهما بعضاً ، وتكشفان عن «سر الاسرار» لعالم مدركاته . احداهما موضوعة «بعث» روح الأنسان ، الذى يربط مصيره بمصير الشعب ، بالتطور الثوري للواقع . والاخرى موضوعة «اندثار الشخصية» كانتقام يصيب اولئك الذين يحاولون عزل ذاتهم عن الجماهير الشعبية والاختفاء عن سيل التاريخ الصخاب . الموضوعة الاولى وجدت مكانها اللائق جداً في رواية «الام» ، اما الثانية فقد حازت على اوسع معالجة ختامية في عمله «الوداعي» الاخير ، نقصد : رباعيته الملحمية «حياة كليم سامجين» .

ولكن لغوركي موضوعة ثالثة اخرى مرتبطة ايضاً بمجمل اعماله . والافضل لتحديد ملامحها ، البدء بواحدة من بواكير قصصه «مرة في الخريف» حيث نرى لوحة عن حياة شاقة باردة جائعة ، وفي بؤرة هذه الحياة امرأة «ساقطة» من اكثر المخلوقات نبذاً ونفياً عن المجتمع . إلا أنه يتضح فجأة ان

هذه المخلوقة قمينة ، في اللحظة الصعبة ، بمد يد العون الى آخر على صلة بالثقافة يعد نفسه كـ«قوة فعالة ذات نفوذ» :

«واستنى ، وردّت اليّ شجاعتي . . . اني لألعن الآن نفسي ثلاثاً ! كم خاطرة سخرية بدت لى في ذلك الحدث الصغير الوحيد انذاك ! — تصوروا قليلاً ! هذا انا منهمك في ذلك الوقت بالضبط في مصير الانسانية بأسرها ، افكر في تنظيم جديد للهيئة الاجتماعية ، وفي الثورات السياسية وأقرأ جميع انواع الكتب الحكيمة للغاية التي كان مؤلفوها أنفسهم عاجزين عن قياس عمقها البعيد المدى . . . وهذه امرأة ساقطة تدفئني الآن بجسدها ، وهي مخلوق بائس ، مسحوق ، مطارد ، لا تملك في الحياة قيمة او مكانة . ولم أفكر أنا أبداً في مساعدتها الى ان مدّت لى يد المساعدة ولم اكن أعرف في الحقيقة كيف اقدّم لها العون لو ان فكرة هذا العون طرأت لي في بال» .

هل هذا امر محزن بالنسبة الى البطل — الراوية ؟ بلى ، محزن ، مر ، مأساوي . ولكن هذا الامر نفسه ، الى جانب العديد من الوقائع الشبيهة ، يعزز في دخيلتــــه الثقة بالحياة وارادة الكفاح . فاذا كان للانسانية ما يزال ثمة وجود حتـــــى في حضيض المجتمع ، حتى في حضيض روح اكثر الناس نبـــذا عنه ، فان ذلك يعني ان الانسانية لا تقهر ابداً . وان حكمة الحياة ، مهما كانت فظيعة رهيبة ، اعلى من حكمة الكتب .

كانت قصة «ستة وعشرون رجلاً وفتاة واحدة» احد اعمال غوركي التى مدت جسراً ، في نهاية تسعينات القرن الماضي وبداية هذا القرن ، بين نتاجه المبكر وبين مرحلة جديــدة تماماً . تحمل القصة تسمية «قصيدة» لصنفها الادبي ، اشبه

بأعمال غوغول ودستويفسكي ، التي قدّر لها ان تنقل مأساوية الواقع ، اكثر من شاعريته .

امامنا مخبز قبو اشبه بزنزانة ، وعماله «البهائم» ، «المكائن الحية» ، الكارهون لعملهم العبودي ، اشبه بسجناء . سلوانهم الوحيد – الاغاني ، صنمهم الوحيد – فتاة خادمة فارغة ، خلعوا عليها مختلف الصفات الفضلى . وها هم يريدون التأكد من صلابة آلهتهم ، في لعبة رهانها روح انسانية . فينزل بهم آنذاك قصاص حق . انه ليس انهيار عالمهم الوهمي ، ولا اسوداد صورة الفتاة المذعورة المهانة من قبلهم فى اعينهم ، فهذا ليس غير خاتمة القصة . اما خاتمة القصيدة فهي تأتي فيما بعد : «توهجت عيناها فجأة . . . وهجمت علينا باستقامة وكأننا لم نكن هناك . . . وسارت باستقامة فخورة بجمالها» . لقد اخطأوا عندما جعلوا من الفتاة ذاتها مخلوقاً خيراً ، واخطأوا اكثر ، وبطريقة لا رجعة فيها ، عندما لم ينظروا اليها كمخلوق خير فعلاً ، اوقظ كبرياؤه .

مواصلاً التطرق لهذه الموضوعة عليّ أن ألجأ الى قصته الرائعة «ميلاد انسان» التي تفتتح كتاب غوركي «في ارجاء روسيا» . ان ما تمتاز به الام – الفلاحة هنا لا الصبر حسب ، انما الصمود الروحي غير المحدود ، فهي رغم سيل المصائب والمعاناة الذي اجتاحها لم تفقد الثقة بمستقبل الوليد في التو «ساكن الارض الروسية الجديد» «الانسان المجهول المصير» متغلبة على اليأس والقنوط . وفي هذا الخصوص ايضاً عليّ أن اعرج الى قصته العبقرية «الاحازين الغليظة» التي تفعم قلب القارئ بالألم الحاد ازاء الناس المهانين ، المداسين في

الاطيان . الا انني اكتفي بالقول ان خط كل هذه الاعمال متوّج بثلاثية سيرة غوركي الشخصية ، بخاصة قصته «طفولتي» التي يكشف المؤلف نفسه عن فحواها في واحدة من استطراداته الفلسفية اذ يقول : «حياتنا مدهشة لا بسبب ان طبقة كل انواع القذارات الحيوانية بهذا السُمك والدسامة حسب ، بل لان عبر هذه الطبقة أيضاً ينمو ، رغم كل شيء وبنجاح ، كل ما هو ساطع وصحي وابداعي ، ينمو الخيِّر ، الانساني ، موقظاً أملاً لا يمحق في انبعاثنا نحو حياة وضاءة كريمة» .

ان هذه الاعمال الادبية التي لا ترحم القارئ ولا تهوّن ابداً من صورة فظاعات الحياة ، تمنحه أيضاً ثقة لا تقهر بأن الانسانية تسير وتتجاوز كل العوائق وكل الحماقات متجهة لا الى الهلاك ، انما الى الانبعاث . فهي جميعاً عن خلود الانسانية في الانسان .

ليس مصادفة ان يتردد نشيد الانسان عالياً في هذه الاعمال بالذات ، صداحاً كما لم يحدث منذ زمن شكسبير ، منذ زمن عصر النهضة . ها نحن نقرأ في قصة غوركي «ميلاد انسان» : «انها لوظيفة استثنائية فائقة ان تكون انساناً على الارض» . لقد اعجب لينين من غوركي لا «الام» ، «انشودتيه» عن العقاب ونذير العاصفة ، «حكايات عن ايطاليا» وحسب ، بل و«في الحضيض» ، «ستة وعشرون رجلاً وفتاة واحدة» و«الاحازين الغليظة» .

تميزت الفترة الاخيرة من حياة غوركي بصعود جديد باهر لعبقريته . فالى جانب «حياة كليم سامجين» وغيرها من الاعمال

الملحمية كتب روائع جديدة مسرحية مثل : «يغور بوليتشيوف وآخرون» ، «دوستيغايف وآخرون» ، الصياغة الثانية لـ«فاسا جيليزنوفا» وكذلك صوره الادبية العظيمة عن ابرز شخصيات العصر . وفي السنوات الاخيرة من حياة غوركي ازداد نشاطه الصحافي والاجتماعي المتنوع بشكل فائق ، فيما اتسم كل ذلك بوطنية الكاتب العالية ، وقوته الابداعية ، وآثار تلك المأثرة ، التي أنارت له آخر ما تبقى من أعوام وايام .

من المعلوم ان غوركي سافر تحت الحاح لينين عام ١٩٢١ الى الخارج للعلاج . فقد كانت مقاومة رئتيه ، اللتين اصيبتا بذلك الطلق الناري القديم ، تضعف باستمرار امام داء السل العريق عنده : حياة الكاتب كانت في خطر . ومع مرور الاعوام لم يختف المرض انما سكن حسب ؛ ولكن غوركي كان دائم الشوق لبلده ، حيث كان البناء الاشتراكي الضخم قائماً على قدم وساق . ومنـــذ عام ١٩٢٨ راح غوركي يعود بلـــده السوفييتي في أشهر الصيف ، فيما كان يضطر لمغادرته والرجوع الى ايطاليا حيث اعتاد بدنه على جوها حالما تحل اشهر البرد والرطوبة . ورغم ذلك قرر غوركي عام ١٩٣٣ البقاء نهائياً في بلده متجاهلاً مرضه الذي كان يفصح عن نفســـه الآن غالباً وغالباً . كان يعلم انه يقصر من أمد حياته ولكنه لـــم يستطع التصرف بصورة مغايرة : فقد وصـــل الفاشست الى السلطة في المانيا ، وعلقت في الجو رائحة حرب عالمية جديدة ، قدّر انها ستوجه رؤوس حرابها الرئيسية الى صدر اول دولة اشتراكية في التاريخ . اصبح غوركي خطيباً ملتهباً يناوئ الفاشية ، وواحداً من قادة حركة الكفاح من اجل السلـــم

العالمي . وكانت آخر الكلمات التي فاه بها مريضاً على فراش الموت ، قبل ان يفقد وعيه : «. . . ستنشب حروب . . . يجب التهيؤ . . .» لقد مات ، مثل دانكو .

لقد مضى أكثر من نصف قرن على غياب غوركي من الدنيا ، ولكنه ما زال يواصل كونه شخصية مركزية في العملية الادبية العالمية ، وما زالت فتوحاته الفنية حتى الآن تحرك هذه العملية الى امام . ولكن ، ألم يحاولوا «دفن» غوركي ، ومنذ بداية طريقه الابداعى تقريبا ! ولنتذكر : ما كاد الكاتب يرتفع بفكره الى مصاف الوعي الاشتراكي ، ويصوغ شخصية نيل ، ومسرحيته «في الحضيض» ، وغيرها من الاعمال ، التي تعتبر اليوم من متون الادب الكلاسيكي ، وبالنسبة لمناهضيه في الفكر ، حتى ارتفعت في الحال صيحات نكراء : «غوركي ينتهي» . وما كاد يرتفع الى ذروة ابداعية جديدة اثناء الثورة الروسية الاولى (١٩٠٥ - ١٩٠٧) ، حتى ظهرت في الحال أيضاً مقالات أشد نعيباً بعناوينها «نهاية غوركي» . ولكن ما الذي تبقى من أمر مؤلفي مثل هذه الاعلانات ؟ أي مصير كان لهم ؟ لقد ظهروا ثم اختفوا ، ولا احد يهتم الآن ببداياتهم أو نهاياتهم .

اما عامل مدينة نيجني نوفغورود (مدينة غوركي حالياً) الكسي بيشكوف ، فنان الكلمة العبقري مكسيم غوركي فما زال يواصل الخطو في ارجاء روسيا والعالم كله ، باعثاً الدفء في قلوب ملايين الناس من الاخيار .

ولا نهاية لطريقه .

ب . بياليك

اقاصيص

(١٨٩٢–١٩٠٦)

ماكار تشودرا

كانت ريح رطبة قارسة تَهبُ من ناحية البحر فتنشر فوق السهب مترامي الاطراف لحناً مكتئباً حالماً تَنشده الأمواج الصاخبة المتكسّرة على الشاطىء ، مثلما تردّده الوشوشة اللطيفة التي تتبادلها الأشجار الجافة المنتصبة على سِيْف البحر . وكانت انسامها تحمل من حين لآخر اوراقاً مغضّنة ذابلة تصبها في النار التي اضرمنا اجيجها فتنفث قبساً من الحياة في لهيبها ، بينما يرتعش ضباب الليل الخريفي فيما يحيط بنا من فضاء ويتبدّد في بعض الاحايين لثانية واحدة قصيرة وكأنه مذعور من شيء مجهول ، كاشفاً لنا السهب عديم الحدود عن شمال ، واليّم العريض اللامتناهي عن يمين ، وشبح ماكار تشودرا ، الغجري الشيخ ، ألى الأمام مني . كان يحرس خيول معسكره الممتدّ على طول خمسين خطوة منا .

كان يضطجع هناك في وضع جليل مفعم جمالاً وقوة ، غير حافل بنفحات الريح المتجلّدة التي تفتح عباءته القوقازية وتعرّي صدره كثيف الشعر لتصفعه دونما رحمة أو شفقة . استلقى متجهاً إليّ بمحياه ، ساحباً الأنفاس من غليونه بصورة رتيبة ، نافثاً من فمه ومنخريه سحباً كثيفة من الدخان ، محدقاً بعينيه من فوق رأسي في العتمة الصموت الخامدة المغلفة بردائها السهب الواسع متحدثاً باستمرار دون أن يأتي حركة يتّقى بها ضربات الريح الجموح .

– إذن ، فأنت تجوب الآفاق ؟ ما اروع ذلك ! لقد اخترت الحصة الفضلى ، يا صاح . هذه هي الطريقة المثلى في الحياة .

تضرب في الآفاق وانظر إلى الأشياء . وعندما تشبع من الرؤية اضطجع ومت . وهذا كل شيء !

واسترسل يقول ، بعدما أصغى متشككاً إلى اعتراضي على قوله «وهذا كل شيء» :

– الحياة ؟ البشر الآخرون ؟ وَيْ ، وَيْ ! لكن فيم تقلقنُك هذه الأمور ؟ أفلست أنت نفسك الحياة ؟ إن البشر الآخرين يحيون من دونك ، وسيحيون من دونك دائماً . أتظنُ حقاً أن ثمة من يحتاج إليك ؟ أنت لست خبزاً يؤكل أو عصاً يُتوكأ عليها ، وليس من هو إليك في حاجة .

– تقول أن يتثقّف المرءُ ويثقّف الآخرين ؟ لكن ، هل تستطيع ان تتعلّم كيف تجعل الناس سعداء ؟ كلا ، أنت لا تستطيع . فليشبْ شعرك قبل أن تنصب من نفسك معلماً لهم . وكي تعلمهم ماذا ؟ إن كل انسان يعرف ما هو إليه في حاجة . والاكثر ذكاء من الناس يأخذون ما يجدون ، والأكثر حماقة لا يجدون شيئاً ، وكل إنسان على حساب نفسه يتعلّم ...

– سخفاء هم ، هؤلاء البشر الذين عنهم تحدثني . يتكدسون بعضهم فوق بعض ، ويسحقون بعضهم بعضاً ، فيما المكان – ياالله ! – ينقصهم على هذه الارض – وهنا أشار إلى السهب إشارة عريضة – وإنهم ليعملون جميعاً دون انقطاع . لماذا ؟ ولمن ؟ ليس من يدري شيئا من ذلك ! انني أرى رجلاً يحرث الأرض ، فأقول في وليجة نفسي : سوف يستنفد قواه قطرة قطرة بهذا العرق الذي يهرق على الأرض ثم ينام في باطنها حيث يتفسّخ . ولسوف يموت أبله أحمق مثلما ولد ،

ولا يترك من بعده شيئاً ، ولا يرى في الحياة من بعد حقله شيئاً .

– يا للشيطان ! أهذا ما خُلِقَ من أجله ؟ ان يقلب الأرض . ومن ثم يموت دون ان يجد وقتاً كافياً يحفر فيه لحده الخاص ؟ أيعرف ما هو طعم الحرية ؟ أيقع اتساع السهوب في نطاق ادراكه ووعيه ؟ أيفرح قلبه حديث أمواج البحر ؟ إنه عبد رقيق منذ ولادته ، عبد طوال حياته ، وفي هذا يقوم كل شيء ! ما عساه يصنع من ذاته ؟ أن يشنق نفسه فقط ، فيما لو ملك شيئاً من نهىً كيما يفعل ذلك !

– فيما أنا رأيت حتى الثامنة والخمسين كثيراً من الأمور ، ما لو كتب على الورق لما وسعه ألف خرج كالذي تحمل . قل لي ، مثلاً ، أي بلد لم امرّ فيه ؟ أنت لن تستطيع . . . بل أنت لا تعرف بلاداً كالبلاد حيث ذهبتُ ، بلى هكذا يجب أن يعيش الإنسان – متنقلاً من مكان إلى آخر ، إمشِ ، ولا تبق طويلاً في مكان واحد ، فما جدوى ذلك ؟ أنظر الى النهار والليل يركضان ، يطارد كل منهما الآخر فيما حول الأرض ، فافعل مثلهما ، ولا تتوقف كي تفكر في الحياة ، كيلا تهرب المحبة من قلبك . ولكن ، إذا ما شرعت في التفكير مرة ، فلسوف تكفّ عن الحب . هكذا تجرى الأمور دائماً . لقد عرفت هذا مرة أنا الآخر ! بلى ، يا صاحِ !

– كنت في السجن في جاليسيا ، فرحت أفكر ضجراً يائساً . فيمَ جئتُ أنا الى هذا الوجود ؟ المرء يملُّ في السجن ، يا صاح . آه ، لشدّ ما يشقى ! ولقد أطبق عذاب أليم على قلبي عندما كنت أنظر الى البرية من خلال النافذة ، أطبق عليه واعتصره في كماشة دونما رحمة . من تراه يستطيع أن

يقول لِمَ يحيا ؟ ما من إنسان يستطيع ذلك ، يا صاح ! ذلك سؤال يجدر ألا يطرحه إنسان على نفسه . عشْ . كل شيء في هذا . تنقّل في أرجاء الأرض ، وتطلّع فيما حولك ، وعندئذ لن تشعر بالتعاسة مطلقاً . آه ، لقد كدت أشنق نفسي بحزامي في ذلك الحين ، لو تدري !

– وَيْ ! تحدثت إلى رجل مرة ، رجل صارم من لونكم ، رجل روسي مثلك . قال : يجب أن تعيش لا كما تريد ، بل كما هو مكتوب في كلام الله . إخضع لله فإنه معطيك كل ما تسأل . . . وكان هذا الرجل يتسكع في أطمار بالية مهترئة . قلت له أن يسأل الله ثوباً جديداً ، فثار غضبه وطردني بالشتائم والاهانات . كان يقول قبل لحظة من ذلك إنه يجب الصفح عن الناس ومحبتهم . كان يجب أن يغفر لي في تلك الحال فيما لو أساءت كلماتي الى قدرته العليّة . يا للأستاذ الجميل ، وربي ! إنهم يعظونك أن تقلّل من طعامك وهم يأكلون عشر مرات في النهار الواحد .

بصق في النار وجنح إلى صمت ، وقد انهمك في ملء غليونه من جديد . كانت الريح تزمجر بشكواها في صوت مخفوت ، والجياد تصهل في الظل المنتشر ، وأغنية شعبية حنون ملتهبة تدفقُ من معسكر الغجر . . إنها نونكا الجميلة ، ابنة ماكار ، تغني . كنت أعرف صوتها المنبعث من أعماق الصدر ، صوتُها مفعمُ الجرس نغمات" رنانة" تتميز أبداً بشيء غريب حانق متسلّط ، أكانت تنشد أغنية أم تلقي سلاماً . كانت مهابة الملكات تظهر متجسدة في محياها المسمرّ باهت اللون ، فيما عيناها الكستنائيتان القاتمتان والمغمورتان بالأخيلة

تبرقان بوعيها لجمالها الطاغي ، واحتقارها لكل إنسان آخر .
ناولني ماكار الغليون قائلاً :
– دخّن ! تغني جيداً هذه الفتاة ، أليس كذلك ؟ وَيْ ، بلى ! أتريد أن تحبك فتاة مثلها ؟ كلا ؟ عظيم ! هذا خير لك . لا تؤمن بالنساء ، بل ابق دائماً حراً طليقاً . الفتاة تُسرُّ وتُفرح عندما تُغمر بالقبلات أكثر مما أُسَرُّ أنا وأنشرح عندما أدخن غليوني . لكن إذا ما قبّلتها مرة ماتت إرادتك في قلبك . إنها سترتبطك اليها بوثاق خفي لن تستطيع له فصماً ، فتضع روحك عندئذ عند قدميها . تلك حقيقة لا مراء فيها ! فاحذر من الفتيات ! هنّ يكذبن دائماً . تقول إني احبك أكثر من كل شيء في الحياة ، لكن جرّب أن تخزها بالدبوس ولسوف تمزق لك قلبك إذن . إني أعرف ذلك ، أنا وَيْ ، وَيْ ! لشدّ ما أعرف ذلك ! هيا ، يا صاح ، أتريد أن أروي لك قصة حقيقية ؟ تذكّر هذه القصة . ولسوف تظل كالطائر الطليق طوال حياتك .
«في ذلك الزمان كان غجريٌ فتىً ، فتىً غجري يدعى زوبار ، لويكو زوبار . وكانت هنغاريا بأسرها وبوهيميا وسلوفاكيا وكل البلاد فيما حول البحر تعرفه . لقد كان فتى لا يُشَقُّ له غبار ! لم يكن في سائر هذه البلدان قرية لم يقسم بضعة من شبانها أمام الله أن يقتلوا لويكو . لكنْ احوال لويكو لم تزدد بذلك سوءاً . ولو شاء حظ أحد الجياد أن يروق في عينيه ، فقد تقوم اذن فرقة كاملة من الجيش على حراسته عبثاً . لقد كان زوبار يسقط عليه ! وَيْ ، وَيْ ! من كان يقدر أن يخيفه ؟ لو أنه رأى ابليس وزبانيته

كلها تأتي إليه ، كن على يقين إذن أنه اذا لم يغمس فيه سكينه في الحال ، فسيرميه بكل تأكيد بسيل من الشتائم على أقلّ تقدير وينزل لطماته على ابواز الشياطين . صدقني ، فأنا مَنْ أقول لك ذلك .

«كانت سائر معسكرات الغجر تعرفه أو تناهت إليها أخباره . كان يحب الجياد فحسب ، ولا يحبُ شيئا آخر . ثم إن هذا الحب لم يك يدوم طويلاً . فعندما كان يملّ ركوب جواد يبيعه ويمنح المال لمن يريد هذا المال . إنه لا يتمسك بأي شيء على الإطلاق . ولو أن الحاجة الى قلبه مسّتك فهو ينتزعه إذن من صدره بيديه ، ويقدّمه لك ما دام ذلك يسرُّك ويرضيك . هكذا كان هذا الرجل ، يا صاح !

«كانت عشيرتنا تعسكر في ذلك الحين في بوكوفينا — وذلك من مضيّ عشر سنوات . وكنا نجلس ذات امسية ربيعية أنا ودانيلو الجندي الذي قاتل مع كوشوط ونور العجوز ورادا ابنة دانيلو وسائر الباقين .

«أتعرف ابنتي نونكا ؟ إنها الملكة بين الفتيات ! بلى ، حاذر أن تقارن نونكا برادا ، فذلك يكون شرفاً عظيماً لنونكا ! أن تتحدث عنها ، عن رادا الجميلة هذه ، تظلّ الكلمات عاجزة مقهورة . لربما أمكن عزف جمالها على الكمان ! وعندئذ ينبغي أن يعرف المرء الكمان مثلما يعرف نفسه .

«لقد ذبحت عدداً كبيراً من قلوب الفتيان . وَيْ وَيْ ! ما اكثر ما يَعُدّون ! لقد رآها في مورافيا ثريّ شيخ ذو ناصية ، فظلّ بعد ذلك مسحوراً بفعل تلك الرؤية . كان يمتطي صهوة جواده وينظر إليها مرتجفاً كمصاب بالحمّى .

كان جميلاً كالشيطان يوم عيد ، يرتدي ثوباً أوكرانياً ثميناً منسوجاً بالذهب ، ويتخصَّر سيفاً مرصعاً بالجواهر الكريمة يتضوأ كالبرق ، لدى كل حركة يأتيهـــا جواده السبوح . وكانت قبعته زرقاء مخملية كقطعة من السماء صافية الأديم . كان فائق الجلالة ، هذا السيد العجوز ! جسَّها بعينيه طويلاً من فوق صهوة جواده ، ثم قال لرادا : «اني أعطي صرة مـن المال في سبيل قبلة واحدة !» . فحوَّلت نظرها عنـه دون أن تضيف شيئاً . فقال العجوز وقد نزل عن تجبُّره مباشرة ، ورمى على قدميها صرة من المال ، صرة كبيرة ، يا صاح : «اصفحي عني ان أسأت اليك ، وتطلعي اليَّ في شيء مـن اللطف على الأقل» . أما هي فأرسلت صرة المال في الغبـار بضربة خاطفة من قدمها ، وكأنها لم تلمحها على الإطلاق .

«تنهَّد صاحبنا ، وخنخن : «اه ، يا للفتاة الغريبة !» ثم ضرب بالسوط جواده ، فإذا الغبار يرتفع سحابة كثيفة .

«لكنه ظهر في الغداة . . صاح في صوت مجلجل كالرعد عبر المعسكر بكامله :«من هو أبوها ؟» . فخرج إليـــــه دانيلو . . . فقال له : «بعني ابنتك . خذ ثمناً لها ما يروق لك !» . فاجابه دانيلو : «ليس سوى النبلاء يبيعون كل شيء ، خنازيرهم وضمائرهم . أما أنا فقد قاتلت مع كوشـــوط ، ولست أبيع أي شيء !» . فتأججت نقمة الرجل الثري ومدَّ يده الى سيفه ، لكنَّ أحد الفتيان نثر بعض المواد اللاهبة في أذن الجواد فانطلق بذلك السيد كالبرق الخاطف . أما نحن فرفعنا المعسكر وغادرنا المكان . . مشينا يوماً ويومين ، لكن ما أسرع أن لحق بنا فجأة . . صاح : «وَيْ أيها القوم

الطيبون ! إن ضميري نقي طاهر أمام الله وأمامكم ! اعطوني الفتاة أتزوجها ، وسوف أقاسمكم كل شيء . فأنا عظيم الثراء !» . كان يغلي ويتأرجح على متن جواده كعشب السهوب تصفعه الريح . ولقد كان في حديثه ما يحملنا على التفكير العميق .

«قال دانيلو في شاربيه : «حسناً ، يا ابنتي . تكلمي .»

«فسألتنا رادا : «إذا دخلت انثى النسر عش الغراب برضاها ، فماذا تصير ؟»

«فانفجر دانيلو ضاحكاً ، وضحكنا معه ..»

«قال : «حسناً ، يا ابنتي . هل سمعت ، يا سيدي ؟ لن تنفع جهودك شيئاً ! فتش بالاحرى عن حمامة ، فهي أيسر منالاً» . وها نحن قد عاودنا المسير .

«أما السيد فانتزع قلنسوته ورمى الأرض بها ، وانطلق خبباً ترتعش التربة تحت حوافر جواده . هكذا كانت رادا ، يا صاح !

«وَيْ ، بلى ! وهؤلاء نحن قعود في المعسكر ذات ليلة نرهف آذاننا . ان موسيقى رائعة تدفُ عبر السهب فجأة ، موسيقى فائقة العذوبة ! كانت تؤرث اللهيب الواهر في الدم الجاري في عروقك ، وتناديك إلى عوالم مجهولة منك . وكنا نحسُ ، جميعاً ، أن هذه الموسيقى تبعث فينا الرغبة في شيء ما لن تمسّنا الحاجة من بعده إلى الحياة ، أو إن لم يكن لنا بدّ في الحقيقة من الحياة فيجب أن نعيش إذن ملوكاً للكون جبابرة عليه ، يا صاح !

«وعندئذ انفصل جواد من الظل ، وتقدّم يعلو صهوته

فارس يعزف ذلك اللحن الجميل . وقف قريباً من النار التي اجّجنا ، وتوقف عن العزف ، وقف هناك يحدجنا بنظراته ، شفتاه مفترتان عن ابتسامة عذبة .

«صاح دانيلو به : «واه ! زوبار ! هذا أنت إذن ؟ هذا هو ، إذن ، لويكو زوبار !

«كان شارباه يتساقطان على كتفيه ويمتزجان بشعره الجعد ، وعيناه تتضؤان أشبه ما تكونان بكوكبين براقين . وكانت ابتسامته شمساً خالصة . كنت تقول إنهما من حديد واحد صُبّا ، هو وجواده معاً . وقف هناك يغمره لهيب الجمر المتوّقد فكأنه يغتسل بالدماء ، يضحك بجميع أسنانه المتألقة النّصوع ! ألا فلأكن ملعوناً إن لم أحبه كنفسي منذ تلك اللحظة ، قبل أن يخاطبني بكلمة واحدة ، أو يحسّ مجرّد وجودي أيضاً !

«بلى ، يا صاح ! إن أمثاله من الرجال يوجدون في هذا العالم ! كان يتطلع إليك في ملء عينيك فيأسر روحك في الحال دون أن تستشعر خجلاً من ذلك . بل كنت تفخر بالأحرى . كنت تصير أفضل في حضرة هذا الإنسان لأن أمثاله من البشر ليسوا بكثيرين ، يا صاح ! ولعلّ ذلك أفضل على أية حال ، إذ لو كان الخير أمراً ميسوراً لما ظلّ الناس يعتبرونه خيراً . ذلك صحيح ، ولكن اسمع بقية القصة .

«إذن ، فقد قالت له رادا : «أنت تجيد العزف ، يا زوبار ! من صنع لك مثل هذا الكمان الرنان ؟» أما هو فأغرق في الضحك ، وأجاب : «صنعته بنفسي . لم أصنعه من خشب ، بل من صدر فتاة أحببتها كثيراً فحبكت الأوتار من

الياف قلبها . وما برح الكمان يكـــذب قليلاً ، لكني اعرف كيف أمسك القوس في يدي جيدا !»

«وتلك محاولة معروفة ، فنحن الرجال نجرّب دائمـاً ان نلقي غشاوة على أعين الفتيات كيلا يلهبن قلوبنا ، بـــل يتسربلن على العكس بالحزن من أجلنا . . . وهكذا فعـــل زوبار ، لكنه ضلّ الطريق وأضاع الأثر . فقـد استدارت رادا عنه وهمهمت متثائبة : «ولقـــــد كانوا يقولون لي إن زوبار على شيء كثير من الذكاء والمهارة ! ما أكثر ما يخطىء الناس !» وسارت مبتعدة . . .

«صاح زوبار متألق العينين ، وهـــو يترجّل عن صهوة جواده : «وَيْ ، وَيْ ، أيتها الفاتنة ! إن لك اسناناً حادة ! عمتم صباحاً ، أيها الأصدقاء ! لقد جئت ازوركم !

«فأجاب دانيلو رداً على كلامه : «كـــن ضيفاً علينا !» وتعانقنا ، وتبادلنا كلمات ، وعدنا إلى مضاجعنا . استغرقنـا في نوم عميق . وماذا رأينا في الصباح ؟ كـــان رأس زوبار معصوباً . . . فماذا حدث ؟ يبدو أن جواده جرحه بضربة من حافره خلال الليل .

«وَيْ ، وَيْ ! لقـــد فهمنا من كان ذلـــك الجواد ! وتبسّمنا في شواربنا . وأطلق دانيلو عن نابيه بدوره . ماذا ؟ أفليس يساوي لويكو رادا إذن ؟ ابداً ! ثم إن الفتاة ، مهما كانت جميلة ، تظل نفسها ضيقـــة حقيرة ، فإن علـّقت رطلاً من الذهب في عنقها فلن تساوي بسبب ذلك أكثرمما هي في حقيقة الأمر . أخيراً . فلنختصر !

«قضينا فترة طويلة في ذلك المكان . كانت أمورنا تسير

KMH

على مايرام في ذلك الزمن. وكان زوبار معنا . كان رفيقاً طيباً بكل ما في الكلمة من معنى ، حكيما مثل شيخ هرأته السنون عليماً بسائر الأمور ، يقرأ ويكتب الروسية والهنغارية ، وعندما يروي بعض القصص أحياناً نصغي إلى حديثه الطليّ ولو استمر في ذلك الحياة بطولها ! أما عزفه . . . ألا فلتضربني الصاعقة إن كان انسان عزف مثله قط ! كان يُمِرُّ القوس على الأوتار فإذا القلب يرتعش ! وإذا عاد بها فإن القلب يغمى عليه . أما هو فيعزف ويبتسم ، وعندئذ تحدوك الرغبة في البكاء والضحك في آن معاً . إن تأوه بائس يئنُّ ويدعو إلى النجدة يخترق صدرك تارة كخنجر مرهف الحدّ ، وتارات أخرى هو السهب يحدث السماء بأقاصيص كثيرة ، أقاصيص مفعمة حزناً وكآبة . فتاة تبكي ، وهي تودع فتاها ، والفتى ينادي الفتاة أن تلحق به عبر السهب العريض ! وعلى حين غرة ، يا لله ، تعلق انشودة حرة ، رشيقة ، وتتفجَّر كالرعد ، فإذا الشمس ذاتها تتأهب ، فيما يلوح ، كيما تتراقص في السماء على ايقاع تلك الأنشودة . . كذلك كانت الحال ، يا صاح !

«كانت كل ذرة في جسدك تفهم تلك الأغنية ، فتصير بكليّتك عبداً لها . ولو أن زوبار صاح عندئذ : «إلى السكاكين ، يا اصحاب !» – فقد كنا ننطلق إذن جميعاً نقاتل بالسكين الشخص الذي يشير اليه . كان يستطيع أن يفعل ما يريد بالإنسان فيلفه على خنصره الصغير . وكان الجميع يحبونه ، يحبونه كثيراً ، سوى رادا التي لم تكن تنظر إلى الفتى الجميل أو تحفل به . وليتها اكتفت بهذا الموقف منه ،

بل لقد ذهبت أبعد من ذلك . فهي تسخر منه دون انقطاع ، تاركة في قلبه اثراً عميقاً . وكان لويكــو يُصرُّ بأسنانه ، ويشدّ على شاربيه ، وتظلم عيناه أكثر من ظلمة الهاوية ، وتشع فيهما أحياناً بروق ترسل الهلع في قلوبنا . إنـــه يذهب ، والليل قد عسكر ، بعيداً في السهب ، فيبقــى كمانه يبكي حتى الصباح – يبكي حرية زوبار الضائعة . أما نحـن فنظلُّ مضطجعين نصغي ؛ ومن حين لآخر نتساءل : ماذا تراه سيحدث بعد الآن ؟ كنا نعرف جيداً أنه عندما تتدحرج صخرتان في اتجاه بعضهما بعضاً فليس ينفع المرء أن يضع نفسه في سبيلهما – لسوف تسحقانه إذن . وكان هذا ما حدث فعلاً .

«كنا جميعـــاً جلوساً إذن ، نتجاذب أطراف الحديث في شؤوننا المختلفة . وراودنا الملل ، فتوجه دانيلو إلى لويكو زوبار سائلاً : «غنّ ، يا زوبار ، وترنّم بأغنية صغيرة تفرح قلوبنا !» فأطال لويكو نظرة على رادا المضطجعة غير بعيد عنه تنظر إلى السماء ، ثم ضرب على الأوتار . . . حينئذ راح الكمان يتكلم فكأنه قلب فتاة عذراء حقاً وفعلاً . وغنّى لويكو :

بقلبي يثور لهيبُ الخيالْ
ودربي بعيد المدى لا يُطالْ
جوادي سبوح ، وزندي حديدْ
فأينَ يكونُ اللقاءُ الجديدْ ؟

«أدارت رادا رأسها ونهضت عن الأرض معتمدة مرفقها ، ثم ضحكت ساخرة أمام عيني المنشد الذي التهب مثل شمس قرمزية :

فَطِرْ ، يا جوادي ، الى الملتقى
أطلَّ الصباحُ ونامَ السَّحَرْ

وإنْ صرتَ يوماً بقرب السّما
حذارِ تَمسُ يداكَ القَمَرْ .

«أواه ! لشدّ ما كـــان إنشاده رائعاً ! ما من إنسان يعرف اليوم يغني مثله ! أما رادا فهمهت ، وكأن كلماتها ماء جليديّ ينصبُ علينا : «يجـــب ألا تحلّق حتى هذا العلوّ ، يا لويكو زوبار ، وإلا هويت متدحرجاً وأنفك في حفرة قذرة توسخ شاربيك الجميلين» .
«رماها لويكو بنظرة غضبى دون أن ينبس ببنت شفة ، واسترسل يغني :

وإن مرّت الشمسُ صبحاً علينا
وكنا ننامُ معاً في الـفراشْ
سنخجل ، نخجل مِنْ ضمّتينا
ونركض في الروض مثل الفَراشْ .

«قال دانيلو : «إنها لأغنية رائعة ! أبداً لم أسمـــع أنشودة مثلها . وليمسخني الشيطان إن كنت أكذب !»
«وكان العجــوز نور يحرّك شاربيـــه ويهزُ كتفيه . والحضور جميعاً مفتونون بأنشودة زوبار الجريئة . . وكانت رادا الوحيدة التي لم تعجب بها .
«قالت : «هكذا سمعت الذبابـــة تبوّق ذات يوم مقلّدة صياح النسر» .
«وقعت كلماتها ، مرة اخرى ، كانصباب الثلج عـــلى وجوهنا .

«قال دانيلو متحركاً صوبها : «لعلَّك تريدين السوط ، يا رادا ، مَا ؟» لكن زوبار ألقى بكمَّته على الأرض وصاح اسود اللون كالتراب : «قف ، يا دانيلـــو ! الجواد الحرون يحتاج إلى لجام من فولاذ . أعطني ابنتك زوجاً لي !»

«فضحك دانيلو ، وقال : «حسناً قلت ! خذها ، إن كنت تستطيع !»

«فقال زوبار : «حسناً !» والتفت نحو رادا مخاطباً إياهـا بقوله : «هيا ، أيتها الفتاة ! أصغي الي برهة ولا تتكبري ! لقد عرفت عدداً كبيراً من النساء ، لكـــن إحداهنّ لم تمسّ شغاف قلبي مثلما فعلت أنــــت . أواه ، يا رادا ، لقـــد استعبدت نفسي ! هيا ! ما يجب أن يكـــون سوف يكون ، و . . . ليس هناك جواد يمكن للإنسان أن يفرّ عليـــه هرباً من نفسه . . . إني أتخذك زوجاً أمام الله وأمام شرفي وأمام أبيك وهؤلاء القوم جميعاً . لكن حاذري أن تقفي حجر عثرة في سبيل حريتي . أنا رجل حرّ ، وأريد أن أحيا على هواي !»

«وتقدم منها ، مطبق الفكيـــن ، متوهج العينين . وهذا هو يمدُّ اليها يده . قلنا في وليجة أنفسنا : «يا عجباً ! هذه هي قد تملكت زمام حصان البيداء !» لكننا رأيناه على حيـن بغتـــة ، قد ألقى ذراعيـــه في الهواء وسقط أرضاً عـلى قفاه ! . . .

«ما هي تلك المعجزة ! ليخيَّل إليك للوهلـة الأولى أن رصاصة أصابت الفتى في ملء قلبه . لكنها رادا ضربـــــت مأبضيه بسوطها المصنوع من الجلد ، وجرّته اليها في عنف مفاجئ جعله يتهاوى أرضاً .

«وهذه الفتاة من جديد مضطجعة دونما حراك ، وابتسامة خبيثة تسرح على شفتيها . نظرنا ما سيحدث ، لكن زوبار اقتعد الأرض آخذاً رأسه بين يديه فكأنه يخاف عليه الانفجار . ثم نهض في هدوء . وغدا عبر السهب دون أن يرى أحداً من الحاضرين . فهمس نور في أذني : «راقبه جيداً» . فانزلقت خلفه عبر السهب تكتنفني ظلمة الليل . هذا ما حدث ، يا صاح !» .

ونفض ماكار غليونه ، وأخذ يحشوه ، فيما تلملمت في معطفي ورحت أتفحّص ، من حيث استلقيت على الارض ، وجهه العجوز المسودّ بالشمس والريح . كان يهزّ رأسه بجلال وصرامة ويخاطب نفسه همساً ، فيتحرك شارباه الأشيبان فيما الريح تعبث بشعر رأسه لاهية متلاعبة . كان أشبه ما يكون بشجرة بلّوط عتيقة أصابتها الصاعقة ، لكن ظلّت مع ذلك متينة ، قوية ، فخوراً ببأسها . . وكان البحر يتابع همساته ، مثله قبلاً ، في أذن رمال الشاطئ في صوت خفيض ؛ والريح تنشر على الدوام وشوشته فوق السهب العريض . وكانت نونكا قد توقفت عن الغناء ، والسحب المتكدّسة في السماء تفاقم من ظلمة تلك الليلة الخريفية .

«كان لويكو يسير مجرجراً أذ ياله ، مطرق الرأس ، مسترخي الذراعين كشريطين متهدلين . حتى إذا بلغ الجرف قريباً من الساقية اقتعد حجراً وصعّد تنهيدة صارخة . كانت أنّته صارخة حتى احسست قلبي يفيض دماً شفقة عليه . لكنني لم أدْنُ منه لأن الكلمات الجميلة لا يمكن أن تفعل

في حفرة الحزن شيئاً . أليس هذا صحيحاً ؟ رائع ! لقد بقي هناك ساعة . ولقد بقي ساعة أخرى . وفي الساعة الثالثة لم يكن قد تحرك بَعْدُ من مكانه .

«تمدّدت على الأرض قريباً منه . كانت السماء صافية ، والقمر يغمر بالفضة السهب بأسره ، والرؤية ممكنة كما في وضح النهار .

«وفجأة ، ماذا أرى ؟ هذه رادا قادمة من المعسكر في اتجاهنا .

«سررتُ بذلك أيما سرور ، وقلت في نفسي : «إيه ! ذلك رائع ! يا لرادا من فتاة جريئة !» وهذه هي تقترب منه ، وهو لا يسمع خطواتها . وضعت يدها على كتفه فارتعش ، وحلّ يديه ، ورفع رأسه . وهذا هو يقفز على قدميه ويمدُّ يده الى سكينه . وَيْ ! لسوف يقتل الفتاة . هذا ما أيقنت منه . أردت أن أستغيث بالقوم في المعسكر ، وأن أركض اليهما ، عندما سمعتُ على حين بغتة «إرم هذا ! وإلا حطمت لك رأسك !» نظرتُ ، فإذا رادا تمسك غدّارة في يدها مصوّبة إياها نحو جبهة لويكو . يا لها من فتاة شيطانية ! فكرت في ثنايا نفسي : «حسناً ! هما قد تساويا قوة ! فما عسى أن يحدث الآن ؟»

«اسمع – لقد دسَّت رادا غدارتها في حزامها ، وقالت لزوبار : – لم آت لأقاتلك ، بل لأصالحك . فارم سكينك !» فرمى السكين وتطلع في عينيها مكتئب الطلعة . لشدّ ما كان ذلك رائعاً ، يا صاحبي ! هذان كائنان يقفان وجهاً لوجه يتبادلان النظر كالوحوش الضارية ، وكلاهما شجاع مقدام

عنيد ! وكان القمر الأضحيان يراهمـــا وكنت أراهما ايضاً . وهذا كل شيء .

«قالت رادا : «حسناً ! «أصغ إليّ ، يا زوبار . أنـــا أحبك !» فهزّ زوبار كتفيه ليس الا وكأنه مقيّـــد اليدين والقدمين .

«قالت : «عرفت كثيراً مـــن الفتيان ، أما أنت فتتفوّق عليهم إقداماً وجمالاً في الروح والصورة . لقد كانوا جميعـــاً يحلقون شواربهم من غمزة واحدة مني ، وكانوا جميعـــاً يتساقطون عند قدميّ ، ولم يكن عليّ سوى أن أريد ! لكن ، ما جدوى ذلك ؟ لم يكونوا على قدر كبير من الشجاعة . وكنت أجعلهم يختنثون جميعاً . لم يتبقّ في العالم إلا قليل ، قليل جداً من الغجر الفرهين ، يا زوبار . أنا لم احـب أحداً قط ، يا زوبار . لكني أحبك أنت . . . إلا أني أحب حريتي أيضاً ! أنا أحب حريتي أكثر من حبي لك . لكني لا أستطيع الحياة من دونك ، كما انك لا تستطيع الحياة دوني . وهكذا فأنا أريد أن تكون لي جسداً وروحاً . أتسمع ؟»

«فأغرق زوبار في ضحكة مقتصبة ، وقال : «أنا أسمع ! وحديثك يبعث الغبطة في نفسي . هيا . استرسلي» .

«قالت : «ولأقل لك ايضاً ، يـــا زوبار : مهما استدرت وتقلّبت فسوف أتغلب عليك وتكون لي . لا تضع وقتـــك عبثاً إذن ، فقبلاتي تنتظرك — ولسوف أقبلك بقوة عظيمة ، يا زوبار ! ولسوف تنسى في قبلاتي حياتك وما طفحت به من مغامرات . . ولن تتردّد بعد ذلك في السهب أغانيك الرقيقة التي تفرح الشبيبة الغجرية كثيراً ، بل ستنشد أغنيات عن

الحب ، أغنيات عذبة لي وحدي ، أنا راداك . . . لا تضع إذن الوقت عبثاً . لقد قلت لك ما عندي ، ولسوف تقدم لي الاحترام غداً ، مثلما تقدمه لأخيك البكر . لسوف تجثو عند قدميّ أمام المعسكر بأسره وتقبّل يدي اليمنى ، وعندئذ أغدو لك زوجا» .

«هذا ما كانت الفتاة الشيطانة تريد ! أبداً لم يحدث مثل ذلك منذ كان الإنسان ! ويقول الشيوخ إن تلك العادة كانت متبعة عند قبائل الجبل الأسود ، أما عند الغجر فذلك لم يحدث قط . هل تستطيع أن ترى ، يا صاح ، إن كان يمكن اختراع ما يفوق هذه الفكرة صفاقة ؟ ابداً ، ولو اعتصرت مخّك طوال عام كامل !

«ابتعد زوبار عنها بقفزة قوية ، وأطلق في ملء السهب صيحة رجل أصيب بجرح في صدره . وارتعشت رادا ، لكنها لم تستسلم . . .

«قالت : «وإلى الغد ! وفي الغد ستفعل ما أمرتك به ، يازوبار !»

«فزمجر زوبار ، وقد مدّ اليها ذراعيه : «إني أسمع ، ولسوف افعل» .

«لكنها لم تتطلع إليه . فأخذ يترنّح كشجرة كسرتها الريح ، ومن ثم سقط على الأرض يهتزّ بالنشيج والضحك معاً .

«هكذا استنفدت رادا اللعينة قوى الفتى بما ساقت عليه من عذابات . ولقد بذلتُ جهداً عظيماً كيما أرده إلى صوابه .

«وَيْ ! لمَ يجب على البشر ، بحقّ الشيطان ، أن

يجرعوا كأس المرارة والأسى ؟ من يعنى بالإصغاء إلى زمجرات قلب إنسان يمزّقه الحزن ؟ وأسفاه . إن ذلك لبلية عظيمة !

«رجعت الى المعسكر ورويت للشيوخ كل شيء . ففكروا وقرروا انتظار ما عسى أن يحدث في الغداة . وإليك ما حدث . . . عندما اكتمل عقدنا حول النار مساء قدم زوبار أيضاً . وكان الاضطراب بادياً عليه . وقد نحل بصورة رهيبة في تلك الليلة الوحيدة . غارت عيناه عميقاً في محجريهما . أطرق بعينيه وقال لنا دون أن يرفعهما : «إليكم ما حدث ، يا رفاق ! لقد نظرت هذه الليلة في قلبي فلم أجد فيه مكاناً لحياتي الحرة السابقة . إن رادا وحدها تعيش فيه ، وهذا كل شيء ! هذه هي رادا الجميلة تبتسم كملكة متوّجة ! إنها تحبُ حريتها أكثر مني ، وأحبها أكثر من حريتي . ولقد قررت أن أجثو عند قدميها . لقد أمرت بذلك كيما يرى الجميع كيف أخضع جمالها البطل لويكو زوبار الذي كان من قبلها يلعب مع الفتيات مثلما يلعب القط مع الفأر . ثم سوف تكون زوجتي ، ولسوف تلاطفني وتقبلني حتى تغادرني الرغبة في إنشاد الأغاني لكم ولا أندم على حريتي ! أليس هذا ما ينبغي أن يكون ، يا رادا ؟»

«رفع عينيه ورماها بنظرة مكتئبة . فأجابت هي برأسها أن بلى ، وأشارت بيدها إلى قدميها دون أن تخرج عن صمتها أو تلين . أما نحن فكنا نرى دون أن نفهم شيئاً . بل كنا نودّ مغادرة المكان كيلا نرى لويكو زوبار يترامى عند قدمي الفتاة ، ولو كانت هذه الفتاة رادا نفسها . كان في ذلك ما

يدعو إلى الحزن والرثاء والألم . . .

«صاحت رادا بزوبار . . «هيا !» . فقال : «وَيْ ! وَيْ ! لا تتعجلى ! فذلك آت من غير بدّ . وسيتوفر لك الوقت حتى يبعث الملل في فؤادك . . .» وانفجر ضاحكاً ، فإذا ضحكه أشبه ما يكون برنين الفولاذ . قال : «وهذا كل الأمر ، أيها الرفاق . ثم ماذا ؟ ثمَّ بقي لي أن أجرّب ما إذا كان قلب رادا قاسياً بمقدار ما أرادتني أن اتصوَّره . لسوف أجرّب اذن ، فاصفحوا عني !»

«لم نجد الوقت الكافي كيما نخمّن ما يريد زوبار أن يفعل . فإذا رادا متكوِّرة على الأرض وقد غابت في صدرها سكين زوبار حتى المقبض . وفغرنا أفواهنا دهشة مصعوقين حائرين . . .

«وانتزعت رادا السكين ، ورمتها جانباً ، وضغطت على جرحها بخصلة من شعرها الأسود . وابتسمت . وقالت في صوت واضح النبرات : «وداعاً ، يا زوبار ! كنت أعرف أنك ستفعل ما فعلت . .» وأسلمت الروح . . .

«أفهمتَ الفتاة ، يا صاح ؟ ألا فلأكن ملعوناً في الأبدية ! فلقد كانت فتاة شيطانية حقاً .

«زمجر زوبار على مدى السهب : «بلى ، سوف أجثو عند قدميك ، يا ملكتي المتغطرسة !» وارتمى ارضاً ، وضغط بشفتيه على قدمي رادا الميتة ، وجمد دون حراك ، فنزعنا عمراتنا ، وبقينا وقوفاً في سكون .

«ما عسانا كنا نقول في مثل هذه الحال ، يا صاح ؟ وَيْ ! بلى ، لقد قال نور : «يجب أن نشدّ وثاقه !» . . .

لكن الأيدي ما كانت لترتفع لتشدّ وثاق زوبار . لم يكن انسان يرضى أن يرفع يديه . وكان نور يعرف ذلك . لوّح بيده مدللاً على عجزه وانصرف عن المكان . بينا تناول دانيلو السكين التي رمتها رادا ، وحدّق فيها طويلاً محركاً شاربيه الأشيبين . لم يكن دم رادا قد جفّ عنها بعد ، وكانت نصلتها معقوفة مدببة . ثم اقترب دانيلو من زوبار وغرس السكين في ظهره ، في موضع القلب تماماً . لقد كان الجندى العجوز دانيلو والد رادا ايضاً !

«قال لويكو بوضوح ، مستديراً نحو دانيلو : «احسنت صنعاً !» ولحق برادا .

«ونظرنا . . كانت رادا مستلقية قابضة على صدرها بيدها الممسكة بخصلة الشعر ، وعيناها المفتوحتان تشخصان إلى السماء ، وعند قدميها تمدّد الشجاع لويكو زوبار وقد تبعثر شعره على وجهه فأخفاه .

«بقينا وقوفاً مستغرقين في التفكير . كان شاربا العجوز دانيلو يرتعشان ، وحاجباه السميكان مقطبين . إنه يشخص إلى السماء ولا يقول شيئاً . أما نور الأبيض الشعر فانطرح ووجهه الى الأرض ، وطفق يبكي بعنف هزّ جسده هزاً .

«كان ثمة ما يستحق البكاء ، يا صاح !

«. . . وهكذا فأنت تجوب الآفاق . حسناً . إذهب في طريقك اذن دون أن تتلفت إلى الوراء . إذهب قدماً . لعلّك لا تفنى عبثاً . ذلك كل شيء ، يا صاح» .

لاذ ماكار بالصمت ، وأخفى غليونه في كيس طباقه ، وضمّ ازاره على صدره . أخذ المطر يهطل ، والريح تقوى ،

والأمواج تزمجر في صخب ونقمة . واقتربت الجياد واحداً إثر واحد من النار التي تنطفئ . وبعد ان حدّقت فينا بعيونها الواسعة الذكية وقفت دون حراك مطوّقة إيانا بحلقة ثخينة .

صاح ماكار بها في صوت مداعب :

– هوب ، هوب ، أ'وي !

وصفع براحة يده عنق جواد اسود ، جواده المفضل وخاطبني قائلاً : – لقد آذنت ساعة النوم .

ولفّ رأسه بمعطفه القوزاقي ، واضطجع على الارض معتصماً بالصمت .

لم تكن بي رغبة في النوم . حملقت في ظلمة السهب ، فإذا شبح رادا الجميلة باهرة الحسن يسبح امام عينيّ . كانت تضغط بيدها خصلة من الشعر الأسود على الجرح في صدرها ، والدم يسيل قطرة قطرة من خلال أصابعها الدقيقة الملفوحة ويتساقط أرضاً مثل كواكب حمراء مشتعلة .

إلى الوراء منها ، قريباً جداً ، تحلّق هيئة لويكو زوبار الشجاع . إن تجاعيد كثيفة من الشعر الأسود تغطي محياه حيث تتقاطر عبرات باردة كبيرة . . .

واشتدّ تهطال المطر ، فيما البحر يرتّل نشيده الاحتفالي الجنائزي باكياً الغجريين الجميلين لويكو زوبار ورادا ابنة الجندي العجوز دانيلو .

كان كلاهما يدوّم ويدوّم ، في تناسق ودون ضوضاء ، في ظلال بهمة الليل ، ولويكو زوبار الجميل عاجز أبداً عن الإمساك برادا المتكبرة .

١٨٩٢

رفيقي في الطريق

١

التقيته في ميناء أوديسّا . وطوال ثلاثة أيام متعاقبة ظلّ اهتمامي منجذباً الى ذلك المظهر البشري المتأرجح القوي ، وذلك الوجه الشرقي الذي تؤطره لحية جميلة . ما اكثر ما كان يبرز أمامي على حين فجأة : فألمحه منتصباً على مدى ساعات طويلة على غرانيت الرصيف ، منحنياً على قمة عصاه يمد نظرات غائمة الى مياه الميناء المتلاطمة من عينيه السوداوين اللوزيتين . وكان يتدحرج أمامي اكثر من عشر مرات في اليوم وحركاته تدلُّ على انه لا يبالي بهذا العالم مقدار ذرة . من عساه يكون ؟ . . . . شرعت أراقبه . أما هو فعمد من جانبه ، وكأنه يتقصّد لفت انتباهي ، الى البروز أمامي أكثر فأكثر الى أن ألفت أخيراً رؤية بزته العصرية المخططة على شكل تربيعات ، وقبعته السوداء ، وخطوته المتكاسلة ، ونظرته المكتئبة المتبرمة المتبلدة ، وغدوت أتعرّف عليه من بعيد . كان تواجده ههنا في الميناء غريباً تماماً بين المراكب البخارية والمراجل الصافرة ، وقعقعة السلاسل ، وصياح عمال الأرصفة ، والضجيج الجنوني الذي يعم الميناء بأسره . جميع الناس ههنا قلقون ، متعبون ، وجميعهم يصخبون ، ملوثون بالسخام ، ينضحون عرقاً ، يتنادون ويتشاتمون . وفي ملء تلك الجلبة الصاخبة تتجوّل تلك الطلعة الغريبة لرجل يتسم وجهه بضجر مميت – فهو

لا يبدي اهتماماً بأي شيء ، ينأى عن الناس ، وينطوي على نفسه .

عثرت عليه أخيراً ، في اليوم الرابع ، في فترة تنـــاول الغداء ، فعزمت على اكتشاف هويته كائنة ما كانت النتائج المترتبـــة على ذلك . جلست غير بعيد عنه ، وقد وضعت أمامي رغيفـاً من الخبز وبطيخة ، وجعلت آكل وأنا أراقبه وأتساءل عن أنجع وسيلة في مبادئته الحديث .

وقف مستنداً الى كومة من صناديق الشاي يحدّق حواليه في فتور ، متلمساً عصاه بأصابعه فكأنها مزمار في يديه .

كنت أرتدي ثيـــاب متسول وأحمل على ظهـري حبل الحمالين وقد تلطخت بهباب الفحم ، وكان يصعب عليّ أن أخطو الخطوة الاولى في الاقتراب من مثل ذلك الغندور . وما أثار دهشتي ، على أية حال ، هو أني لمحت عينيه مركزتين عليّ ، وشعرت أنهما تضطرمان الآونة بلهيب حيوانـــــي جشع لا يبعث على سرور . فقررت أن قضية ذلك الذي يبعث على فضولي هي الجوع ، فألقيت حواليّ نظرة سريعـــة ، واستوضحته في صوت هادئ :

— أتريد شيئاً تأكله ؟

انتفض مجفلاً ، معريـاً في جشع شيئاً أشبه بمائة من الأسنان المكنونة القوية ، واسترق حواليه نظرة متشككة مثل نظرتي .

لم يكن ثمة من يعيرنا التفاتـاً . ناولته نصف البطيخة وقطعة من رغيف الخبز المصنوع من القمح . اختطفهمـــا واختفى ، وأقعـــى وراء مجموعة من الاقفاص . كان رأسه

يبرز بين حين وحين لحظات ، وقـــد ارتدت قبعتـــه الى مؤخرته ، كاشفة عن جبهتـــه المغمورة بالعرق المسفوعة بتأثير الشمس . وكان وجهه يشعُ بابتسامـــة عريضة ، وهو يغمز لي لسبب لا يعرفه سواه ، دون أن يتوقف فمه عن المضغ ثانية واحدة . أومأت له أن ينتظرني ، وذهبت أحصل على شيء من اللحم ابتعته ورجعت به إليه ، وأعطيته إيـاه ووقفت الى جانب الأقفاص كمن يحاول أن يخفيه عن عيون السابلة . كان حتى ذلك الحين يسترقُ النظر حواليه مثل حيوان يلتهم فريسته ، وكأنه خائف من أن يختطفهـــا شخص منه . وجعل الآن يتناول طعامه في مزيد من الطمأنينة ، لكن في كثير من العجلـة والحيوية بحيث آلمني التطلـّع الى ذلك الرجل الساغب اليائس ، فأوليته ظهري .

– أسكرك ! أسكرك كثيراً !

قال ذلك بروسية ركيكة رثة وهزني من كتفي ، ثم قبض على يدي ، واعتصرها في يده وراح يهزها بصورة تبعث على الألم .

ولم تمض خمس دقائق حتى راح يروي لي قصته .

هو الأمير شاكرو بتـــادزه ، جورجي الأصل ، والابن الوحيد لأبيه الملاّك الثري من كوتايسي ، وكان يعمل موظفاً في سكة الخطوط الحديدية «القوقازية» ، ويقيم مـع صديق له . وقد اختفى هذا الصديق فجأة حاملاً معه جميع أموال الأمير شاكرو النقدية وممتلكاتـه الثمينة ، فانطلق الأمير في أعقابه . وقد سمع ، مصادفة ، أن ذلك الصديق اشترى تذكرة الى باطومي ، فأعجل الأمير خطواته وراءه على الفور .

وتبيَّن في باطومي أن ذلك الصديق رحل الى أوديسّا . وعندها تقرّب الامير من شخص يدعى فانو سفانيدزه ، وهو حلاق – صديق للأمير يماثلـه عمراً ولا يماثله بنية – واستعار هويته الشخصية ، وانطلق الى أوديسّا ، وهنا أخبر الشرطة بموضوع السرقة فوعدته بالعثور على اللص ، فانتظر طوال أسبوعين ، وأنفق كلّ ما يحمل من مال ، وهذا هو اليـوم الثاني الذي لم يتناول فيه كسرة من خبز .

أصغيت الى قصته التي زركشتهـا بعض الشتائـم واللعنات ، وراقبته ، وصدقت ما قال ، وشعرت بالأسف على ذلك الصبي – كان فى حدود العشرين من عمره ، بالغ السذاجة بحيث لا يعطيه المرء هذا العمر أيضاً . وما أكثر ما كان يشير ، وفى سخط عميق ، الى الصداقة المتينة التي ربطته باللص الذي سرقه أشياءه ، بحيث ان والده العبوس ما كان ليتوانى عن «قطع عنقي» «بخنجر» إن فشل ولده في استعادتها . وخطر لي أنه اذا لم يتواجد من يمدُّ يد المعونة الى هذا الشـاب فإن المدينة الشرهة ستبتلعه في جوفها . كنت أعرف كم كانت الاشياء المبتذلة أحياناً تبتلع صفوف اليائسين ، وهذا الأمير شاكرو تنفتح له فرصة الانخراط في تلك الجماعة الفاضلة ، لكن التي لا يوليها المرء أحتراماً إلا بصعوبة فائقة . أردت أن أساعده . فاقترحت عليه أن نذهب الى رئيس الشرطة ونطلب منه تذكرة ، فبانت عليه ملامح الارتباك ، وأخبرني أنه لن يذهب . لماذا ؟ بدا أنه لم يسدد المالك أجر إقامته ، وحين جرت مطالبته به عمد الى ضرب أحدهم . ومنذ تلك الفترة وهو يختبىء عن الأنظار

واثقاً من أن الشرطة لن تشكره على أنه لم يسدد الأجرة ، كما لن تشكره على الضربات التي أنزلها بذلك الشخص . وهو لا يتذكر ، في هذا الخصوص ، ما إذا كانت ضربة واحدة ، أم ضربتين ، أم ثلاث ضربات أم أربع .

وقد عقّد هذا الوضع القضية . وقررت اننى استطيع الاستمرار فى عملى الحالى الى ان اكسب ما يكفى من مال فأعيده الى باطومي ، لكن ، واأسفاه ! فان ذلك دلّ على أنه يتطلب فترة طويلة لأن شاكرو ، وقد أسقمه السغب ، شرع يأكل الآن ما يأكله ثلاثة رجال أو أكثر .

في تلك الفترة ، ونتيجة لتدفاق الناس من المناطق التي ضربتها المجاعة ، كان الأجر اليومي فى الميناء منخفضاً ، وإذا أبقينا الأمر سراً فيما بيننا فقد كنا ننفق من الثمانين كوبيكاً التي أحصل عليها قرابة ستين كوبيكاً على الطعام . وبالاضافة الى هذا كنت اتخذت قراري قبل لقائي بالأمير على الرحيل إلى القرم ، ولم تكن تراودني رغبة في الاقامة طويلاً في أوديسّا . وهكذا اقترحت على الأمير شاكرو أن نرحل معاً على قدمينا وفقاً للشروط التالية : إن لم أتمكن من العثور على رفيق يرتحل معه إلى تيفليس فسوف أرافقه شخصياً حتى إذا عثرت له على هذا الرفيق اتجه كل منا في سبيل .

نظر الأمير الى حذائه الأنيق ، وقبعته ، وبنطاله ، ومرّ بيده على سترته ، وأغرق في التفكير برهة ، وتنهد طويلاً ، وأبدى أخيراً موافقته على الفكرة . وهكذا انطلقنا معاً سيراً على الأقدام من أوديسّا الى تيفليس .

٢

حين وصلنا الى خيرسون كنت قد عرفت في رفيقي شاباً بسيطاً مستسلماً للحزن لم يتحصّل على شيء من ثقافة ، يسعد حين يكون شبعان ويشقى حين يكون جوعان ، وعرفت فيه حيواناً شديد البأس طيب السريرة .

أخبرني في الطريق أخبار القوقاز ، وقصص حياة الملاكين الجورجيين ، وأنباء حفلاتهم اللاهية ومعاملتهم للفلاحين . كانت أقاصيصه شيّقة ، لها نكهة خاصة ، لكنها تركت فيّ انطباعاً عن الراوية ليس فيه شيء من الاطراء . فقد سَرَدَ عليّ ، على سبيل المثال ، القصة التالية :

التقى جيران أمير ثري في دارته في وليمة . فاغتبقوا الخمرة ، وأكلوا «الشوريك» و«الشاشليك» ، وخبز «اللافاش» والأرز المطبوخ باللحم والتوابل ، ومن بعد دعا الأمير ضيفانه الى زيارة اسطبلاته . كانت الجياد مسرجة . فاختار الأمير أفضلها وانطلق به على العشب خبباً . كان فحلاً يتّقد نشاطاً ! فامتدح الضيوف رشاقته النبيلة وسرعته القوية ، فأرغمه الأمير مرة أخرى على التوثب خبباً ، ولكن احد الفلاحين جاء على حين فجأة طائراً على صهوة جواد أبيض وسبق حصان الأمير . . . سبقه و . . . ضحك ضحكة فخوراً . واحسّ الأمير بالخزي في حضرة ضيوفه جميعاً ! . . . انعقد حاجباه جهمة ، فاستدعى الفلاح إليه بايماءة من رأسه ، وحين اقترب منه على حصانه قطع له عنقه بضربة واحدة من سيفه ، وأردى الحصان بطلقة من مسدسه أفرغها في أذنه ،

ثم ذهب الى الحاكم وروى لهم هنالك ما فعل . وصدر الحكم بحقه بالأشغال الشاقة .

روى لي شاكرو هذه القصة في نبرة مشفقة على الأمير . حاولت أن أثبت له أن شفقته في مثل هذه القضية عبارة عن هباء لا جدوى منه ، فأرتأى أن يوضح الأمر لي ، فقال :

– الأمراء قلة ، والفلاحون كثرة . ولا ينبغي ان يحكم أمير لمجرد قتله فلاحاً واحداً . مـا هو الفلاح ؟ هو هذا .

وأراني شاكرو كومة من التراب .

– أما الأمير . . . الأمير هو مثل كوكب درّي !

وجرت بيننا مجادلة ، فقد مرّة صبره . حين يفقد مرة صبره فهو يعرّي أسنانه مثل ذئب ، وتحتدّ قسمات وجهه بأسرها .

وكان يصيح بي :

– إخرس ، يا مكسيم ! انـــك لم تعســـس في القوقاز أبداً !

كانت براهيني المنطقية عديمة الحجة في وجه عفويتـــه التلقائية ، وما يبدو لي واضحاً وضوح ضوء النهار يستثير ضحكه فحسب . وحين أفحمه ببراهين تفوقي الفكري فهـو يقول بروسيته الركيكة من فوره دون أن يروّي النظر في أقوالي :

– إمض مباشرة الى القوقاز وحاول أن تعيس هناك . رويدك . . . فان ما أقوله صحيحاً . الجميع يتصرفون على هذا الغرار ، ولذلك يجب أن يكون صحيحاً . فيم يتعيّن

عليَّ ان أصدقك حين لا يقول بـــه أحد سواك ، وحين آلاف الناس . . . يقولون إنه صحيح ؟

فأكفُّ عن الجدال ، وقد اتضح لي أن الوقائع وحدها ، وليس الكلمات ، يمكن أن تقنع امرؤاً يحسب أن الحياة ، كائنة مـــا كانت ، هي على الدوام صحيحة وعادلة . كنت أجنح الى الصمت ، أمـا هو وقد استفزه الحديث وجعـــل يمصمص شفتيـه ، فيروح يتحدث عن الحياة في القوقاز ، حياة تعج بفتنة طاغية ، وتلتهب بالنيران والطرافة . كانت هاتيك الأقاصيص ، وهي تستلفت انتباهـــي وتطربني ، توقع الذعر في نفسي وتثيـــر حنقي في الوقت ذاته بسبب من وحشيتها ، وبسبب من تبجيلهـــا الموسرين والقـوى الهمجية . وقد حدث أن استفسرته مرة ما إذا كان عرف تعاليم المسيح .

اجاب ، وهو يهزُّ كتفيه :

– من دون ريب !

ووضح لي من اختبارات أخرى ان ما كان يعرفه هـو التالي : كان هنالك شخص يدعى المسيـــح ثار في وجـه قوانين اليهـود ، ولهذا السبب صلبه اليهود على صليب . ولكنه كان الهاً ، فلم يمت على الصليب بل صعد الى السماء ، وعندها وهب للناس قانوناً جديداً للحياة .

استوضحت :

– ما هو هذا القانون ؟

أطال نظره اليَّ في انشداهة ساخرة ، واستعلم :

– أمسيحيُّ أنت ؟ حسن اذن ، أنـــا مسيحي أيضا .

كل إنسان على الأرض تقريبـــاً هو مسيحي . حسن إذن ، ففيم تسأل ؟ أترى كيف يعيش كل إنسان ؟ . . . هدا هو قانون المسيح .

تفجرت الدماء في عروقي فشرعت أروي له تاريخ حيـاة المسيـــح . أعارني بادئ الأمر سمعه في جدية مطلقـــة ، وسرعان ما فترت همته ، فجعل يتثاءب أخيراً .

حين ادركت أنه لا يعيرني انتباهاً جعلت ذهنه همّي ، ورحت أحدثه عن ميزات المساعدة المتبادلة ، وفضائـــل المعرفة ، وحسنات مراعـــاة القوانين وعدم مخالفتهـــا ، والمزايا ولا شيء غير المزايا . . . ولكن أحاديثي تحولت الى غبار دقيق في وجه الجدار الأصم لمعرفته عن الحياة .

كان الأمير شاكرو يحاججني متكاسلاً :

– المحق مَنْ كان قويـــاً ! ليــــس هـــو مضطراً الى الدراسة ، فهو يعثر على سبيله مغمض العينيـــــن !

كان ، أبداً ، صادقاً مع نفسه . وهذا ما فرض عليَّ احترامه ، ولكنه كان همجياً فظاً ، وكنت أنا احسُّ بين آونة وآونة جيشاناً مفاجئاً من الكراهيــة له . ولكنني ، على أية حال ، لم أفقد الأمل فى العثور على نقطـــة للاحتكاك به ، على سبب مشترك يمكن أن نلتقي عنده ونبدأ في فهم أحدنا الآخر .

اجتزنا برزخ بيريكوب وجعلنا نقترب من يايلا . كنت أحلم بشاطئ القرم الجنوبي ، وكان الأمير ثابط الهمة وهو يرسل من بين أسنانه أغنيات غريبة . وكنا أنفقنا ما لدينا

من مال ، وبدا أننا لن نحصل على شيء منه . وكنا نهدف الوصول الى مدينة فيودوسيا حيث بدأ العمل ، حينذاك ، في بناء المرفأ .

أعلمني الأمير انه انتوى ، هو الآخر ، ان يعمل ؛ وأننا حين نكسب ما يكفي من مال سنبحر الى باطوم . ولديه في باطوم عدد من الاصدقاء ، وما أسرع ان يجد لي عملاً على الفور كناظر أو خفير ليلي . ربّت على كتفي ، وأعلن متفضلاً ، وهو يفرقع بلسانه متوقعاً :

– سأهيئ لك مثل هذه الحياة ! تسه ، تسه ! لسوف تنهل الخمرة . . . بمقدار ما يطيب لك ! وتأكل اللحم الضأن . . . بمقدار ما يعنّ لك ! وتتزوج بامرأة جورجية ، امرأة جورجية عبلة ، تسه ، تسه ، تسه ! . . . وستطبخ لك ارغفة من الخبز القوقازى ، وتنجب لك أولاداً ، أولاداً كثيرين ، تسه تسه !

أدهشتني هذه «التسه تسه !» بادئ الأمر ، ثم راحت تثيرني ، وأخيراً رمتني في بحران من غضب يائس . ففى روسيا تستخدم هذه النبرة في مناداة الخنازير ، أما في القوقاز فهي تعبير عن الحماسة ، والاعتذار ، والسعادة أو الأسى .

كانت بزة شاكرو العصرية قد اهترأت تماماً ، وانثقب حذاؤه في أمكنة كثيرة . وكنا قد بعنا عصاه وقبعته في خيرسون ، فابتاع لنفسه من ثمنهما قبعة عتيقة لأحد مستخدمي السكة الحديدية .

سألني أول ما وضعها على رأسه ، مائلـــة الى جانب واحد :

– كيف أبدو ؟ وسيم الطلعة ؟

٣

هذان نحن في القرم ، وقد خلفنا سيمفيروبول وراءنـا وانطلقنا نحو يالطا .

كنت أسير وقـــد أخرسني الانشداه من فتنة الطبيعة في هذه البقعة من الأرض التي يكتنفها البحر . وكان الأمير يزفر متوجعـــاً ، ويدحرج نظراتـــه المكتئبة على الأرياف المحدقة بنا ، ويحاول ان يملأ معدته الخاوية بثمر العليـق المشكوك فيه . لم تكن معرفته بالأشياء المغذية تسعفـــه بشكل جيد ، وما اكثر ما كان يسألني وقد اعتكر مزاجـه :

– إذا مـــا اضطربتْ في أحشائي ، فكيف أستطيـــع مواصلة الطريق ؟ إيه ؟ قل لي . . . كيف ؟

لم تتح لنا الظروف اكتساب أي شيء ، فجعلنا ، وقد أجدبنـــا حتى من كوبيك واحد نشتري به خبزاً ، نقيت أنفسنا بالثمـــار والآمال في المستقبل . كان شاكرو قـــد شرع يعنفني بخصوص تكاسلي و«قعودي فاغر الشدقين» حسب تعبيره . كان يزيدني ضجراً على وجه العموم ، وأكثر من ذلك يعذبني بأقاصيص شهيته الخرافية . وبدا أنه ، وقد كان يسدُّ بطنه بالتهام «حمل صغير» وثلاث زجاجات من الخمرة عند انتصاف النهار ، يستطيع في الساعة الثانية ،

من دون أي جهد خاص ، أن يتناول غداء من ثلاثة صحون كبيرة من بعض الأطباق «كالتشاخو خبيلي» أو «الشيكيرتما» ، وسلطانية من «البيلاف» ، وطبق من الشاشليك ، و«كمية غير محدودة من التولما» ، وكمية اخرى متنوعة من الأطباق القوقازية اعتاد أن يعبّ معها الخمور – «قدر ما أريد» . وكان يروي لي طول اليوم أحاديث عن نزعاته إلى الطعام واكتشافاته عنه – وهو يمصمص شفتيه ، وعيناه تلتهبان ، وقد عرّى أسنانه وراح يطحنها ، وجعل يمتص في صوت عال ويبتلع اللعاب الجائع الذي يتناثر غزيراً من بين شفتيه الفصيحتين .

ذات مرة ، وكنا في جوار يالطا ، حصلت على عمل لتنظيف بستان من الأغصان المشذّبة ، وحينما قبضت أجر يوم كامل مقدماً فقد انفقت نصف الروبل كله على شراء لحم وخبز . وعندما أُبت بمشترياتي ناداني البستاني فذهبت إليه تاركاً ما اشتريت لدى شاكرو الذي عجز عن العمل بدعوى إصابته بصداع . ورجعت بعد ساعة ورأيت أن شاكرو لم يبالغ فيما روى لي من أحاديث عن شهيته : لم يترك كسرة واحدة من جميع ما اشتريت . لم يكن ذلك منه عملاً ودياً ، ولكنني لم اعاتبه بحرف واحد – وهذا شيء تبين لي فيما بعد أنه كان سبباً في خرابي .

عمد شاكرو ، وقد لحظ صمتي ، الى الاستفادة منه بوسيلته الخاصة . كان ذلك بداية وضع سخيف . كنت أنا اعمل ، وكان هو يرفض أي عمل يعرض عليه ، متذرعاً بهذا السبب أو ذاك ، فيأكل ، وينام ، ويرغمني على بذل

مزيد من جهد . وكنت نصف ساخر منه ونصف مشفق عليه – ذلك الجلف المعافى الكبير – حين أراه يلتهمنى بعينيه الساغبتين ، وينتظر أوبتي ، وقد أنهكت قواي بالعمل الذي عثرت عليه كيفما كان ، في إحدى الزوايا الظليلة . وأكثر ما كان مدعاة للأسى والغيظ هو أنه كان يضحك مني لأني أعمل . كان في مقدوره أن يضحك لأنه تعلّم أن يستعطي على اسم المسيح . يوم بدأ يجمع الصدقات أول مرة أخجله أن يفعل ذلك أمامي ، ولكننا ما أن اقتربنا مؤخراً من قرية تتارية حتى شرع يتأهب لجمعها أمام عينيّ . وللقيام بذلك ، فقد كان يعرج متوكئاً على عصا ، جاراً إحدى قدميه فكأنها توجعه ، عارفاً أن التتاريين البخلاء لن يفتحوا محافظهم لشاب معافى البنية . حاججته في الأمر ، محاولاً أن أفهمه العار الذي يلحق به جراء هذه الصنعة . . .

فردّ عليّ في اقتضاب :

– لا أعرف كيف أعمل !

لم يجمع مبلغاً كبيراً . وفي الوقت ذاته أخذت صحتي تسوء نوعاً ما . وغدت طريقنا أكثر صعوبة من يوم الى آخر ، وصلتي بشاكرو أكثر توتراً . وجعل يصرُّ الآن عليَّ أن أطعمه فكأن له عليّ حقاً .

– أنت هو دليلي ! فقدني ! كيف لي أن أدهب بعيداً سيراً على قدميّ ؟ لست على ذلك معتاداً . فقد أموت من جرائه . لماذا تعدبني ، لماذا تتقل عليّ ؟ إدا متُّ ، فمادا يحدث لجميع أولئه الآخرين ؟ أمي تبكي ، وأبي يبكي ، أصدقائي يبكون جميعاً ! وما أكثر ما يدرفون من دموع !

كنت أصغي الى أمثال هذه الخطب دون أن تلهب غضبي . في ذلك الوقت كنت قد شرعت أهدهد فكرة غريبة أمدّتني بالصبر للتغلب على جميع تلك المشكلات والمصاعب . كان يلجأ أحياناً الى النوم ، فأروح أردد بيني وبين نفسي ، وأنا أطيل النظر مستقصياً في وجهه الهادئ الخالي من أي تعبير ، وكأن الكلمات تحمل إليّ إلهاماً معروفاً ولكنه ناقص بعض الشيء : «رفيقي في الطريق . . . رفيقي . . . رفيقي في الطريق . . .» .

وفي مكان ما ، داخل تجاويف دماغي ، هبت فكرة تقول إن شاكرو كان حقاً وفعلاً يصرّ على حقه حينما طالبني بمثل تينك الثقة والجرأة بمدّه بالعون والعناية . في تلك المطالب كان ثمة قوة في الشخصية ، وكان ثمة سلطان . لقد استعبدني ، فخضعت له وأمعنت في دراسته ، مراقباً كل ومضة تعبير ، محاولاً أن أتخيل أين واستناداً إلى ماذا سيستبيح لنفسه أن ينطلق في فرض سلطانه على رجل آخر . وكان هو ، من ناحيته ، يشعر بالارتياح ، فيغنى ، وينام ، ويضحك مني كلما طاب له . وكنا نفترق أحياناً طوال يومين أو ثلاثة أيام . وكنت أموّنه بالخبز والمال ، وأدله أين ينبغي أن ينتظرني . وحين نلتقي ثانية فهو يحييني منتصراً مغتبطاً بعد ما ودعني متشككاً منفعلاً غضباً ، ويقول وهو يضحك على الدوام :

– وأقول في نفسي إنك هربت في سبيلك ، وخلّفتني وحدي ! ها ، ها ، ها !

وكنت أعطيه ما يؤكل ، وأقصّ عليه أخبار الأمكنة

الجميلة التي زرتُ . ومرة ، وأنا أحدثه عن باختشيساراي ، رويت له أخبار بوشكين وتلوت عليه شيئاً من شعره . فلم يؤثر فيه ذلك على الاطلاق .

– أوه ، الأسعـــار ! هذه أغنيات ، وليس أسعاراً ! عرفت مرة رجلاً ، من جورجيا ، يا له من مطرب ! واغنياته كانت اغنيات حقيقية ! . . . كان يَسْرَعُ في الغناء – آي ، آي ، آي ! . . . في صوت عـال . . . في صوت مرنان كان يعني ! فكأن أحدهم يبرم خنجراً في حنجرته ! . . وقد طعن صاحب الحانة بمدّية . . . ودهب الى سبيريا .

كنت كلما رجعت اليه أشعر بانحطاط في معنوياته ، ولم يكن يقوى على إخفاء ذلك عني .

كانت أحوالنـــا تزداد سوءاً . ولم تكن تسنح لي الفرص للحصول على روبل ونصف الروبل أسبوعيـــاً الا بصعوبة جمة ، وطبيعى أن هذا المبلغ لا يكفي لشخصين . ولم يكن ما يجمعه شاكرو ليغطى نفقات الطعام . كانت معدته هاوية صغيرة تبلـــع كل شيء ولا تميّز بين العنب ، والبطيخ ، والسمك المملح ، والخبز ، والثمار المجففة – وبدا مع مرور الأيام أنها تزداد رحابة ، وتتطلب مزيداً من الضحايا .

وشرع شاكرو يستحثني على مغادرة القرم ، ويجادلني منطقياً بحلول الخريف ، وبأن ثمة مسافات طويلـــة ينبغي علينا اجتيازهـــا بعد . اتفقت معه في الرأي . وفضلاً عن ذلك ، فقد كنت شاهدت كل مـا رغبت برؤيته في القرم ، وهكذا ارتحلنا صوب فيودوسيا على أمل أن «نكسب» بعض «النقود» ، وهي شيء لم نكن نملك منه دانقاً .

بعد ما قطعنا حوالي عشرين فرسخاً من ألوشتا توقفنا لقضاء الليـــل . استحثثت شاكـــرو أن يسير على طول الشاطئ ، رغم أنها الطريق الأكثر طولاً ، لأنني كنت راغباً في استنشاق نسيم البحر . أشعلنـــا ناراً واستلقينـــا في جوارها . كانت الليلة بهية . والبحر الأخضر الداكن يتحطم على الصخور تحتنا . والسماء الزرقاء الشاحبة معتصمـــة بصمت وقور فوق رأسينا ، وفيما حوالينا تخشخش الأشجار والأدغال في أصوات هادئة . وكان القمر يشق لنفسه درباً . والظلال تتساقط من ذرى أشجار الدلب الخضراء المخرّمة . وعصفور يسقسق بجرأة وشجوّ . وارتعاشات صوته الفضية تذوب في الفضاء مفعمة حيوية فى ملء أصداء الأمواج اللطيفة المهدهدة ، ومن بعد تخفت فتصافح السمع على الفور سقسقة عصبية تطلقها بعض الحشرات . وتضوأت النار في مرح ، وبدا لهيبها مثل باقة ضخمة متماوجة من زهور حمر وصفر . وهذه الزهور بدورها تلقي ظلالها ، وهذه الظلال تتواثب حوالينا قاصفة لاهية وكأنها تعرض حيويتها على ظلال القمر الكسلى . وكان انبساط أفق البحر بكامله مهجوراً ، والسماء فوقـــه عارية من السحب ، فشعرت كما لو كنت جالساً عند حافة البسيطة أروّي النظر في الفضاء الخاوي – ذلك البهـــاء من الأحجيات الأكثر فتنة . . . وشعور هياب من أننا على تخوم شيء عريض عريض بصورة لا يمكـــن التعبير عنهـــا يملأ روحي ، في حين أن ضربات قلبي يخمدها الرعب .

انفجر شاكرو على حين فجاءة فى قهقهة صخابة :

– ها ، ها ، ها . . . يا للطلعة الغبية المرتسمة على وجهك ! تماماً مثل الخراف ! آها ، ها ، ها ! . . .

جفلت فكأن زمجرة من الرعد تفجرت بغتة فوق رأسي مباشرة . ولكن الأمور كانت أكثر من ذلك سوءاً . كانت ساخرة ، بلى ، لكن . . . لكم جرحت أحاسيسي ! . . . أما هو ، شاكرو ، فيذرف الدمع ضاحكاً . وكنت على أهبة البكاء بسبب من شيء آخر . كانت هنالك كتلة متورمة في حلقي ، وكنت عاجزاً عن الكلام ، لا أقوى على غير التحديق فيه بعينين جاحظتين جعلتاه يغرق في مزيد من الضحك . تدحرج على الأرض ممسكاً معدته بيديه . ولم أكن بمستطيع أن أتغلب على تلك الاهانة . عانيت من اساءات حقيقية جمة من قبل ، وأولئك القلة من الناس ، فيما آمل وأرجو ، الذين سيفهمون ما كنت أعاني منه – لعلهم ، هم أنفسهم ، قد مروا بمثل هذه التجربة – سيقدرون على استيعاب مجمل تلك القباحة الشائنة .

صرخت فيه والغضب يفور في جوانحي :

– كفّ عن ذلك !

وثب وقد اشتمله الرعب ، دون أن يتمكن من السيطرة على نفسه ، واستمرت نوبات الضحك تتغلب عليه ، فنفخ خديه ، ونتأت عيناه ، وسرعان ما غرق في موجة جديدة من الضحك . ونهضت أنا ، وخطوت مبتعداً عنه . مشيت زمناً طويلاً ، وقد خوى رأسي من أي تفكير ، جاهلاً كل ما يدور حولي ، أطفح سماً ملتهباً من الاهانة التي لحقت بي . فتحت قلبي كيما أعانق الطبيعة بأسرها ، ورحت أروي لها

في صمت ، بجماع روحي ، مقدار حبي لها حباً غيوراً لرجل فيه شيء من شاعرية ، والطبيعة ، في شخص شاكرو ، قد تزلزلت تضحك مني في اللحظة التي كنت أستسلم لها فيها ! كان في مقدوري أن اختلق كدسة من الاتهامات ضد الطبيعة ، وشاكرو ، والحياة بمجملها ، لو لم تصل الى سمعي أصداء خطوات سريعة ورائي .

أعلن شاكرو في خجل ، وهو يلمس كتفي في رقة :

– لا تغضب ! هل كنت تصلي ؟ لم أكن أعرف .

تحدث بنبرة خجول لصبي صغير اجترح ذنباً ، فما استطعت ، رغم ما أنا عليه من انفعال ، إلا أن أشخص الى وجهه الحزين الذي شوّهه الخجل والذعر بصورة تبعث على السخرية .

– لن اهزئك مرة أخرى . أبداً ! صدقني !

وهزّ رأسه في حماسة .

– أرى . . . أنك متواضع . أنت تعمل ، ولا ترغمني على العمل ، وأتساءل . . . لماذا ؟ لا ريب . . . لا ريب أنه غبي ، مثل الخراف .

هذا هو ، إذن ، يؤاسيني على هذا الغرار ! هذا هو يعتذر اليّ ! وطبيعي أنني ، بعيد تلك المؤاساة وهذه الاعتذارات ، لم يبق أمامي سوى أن أصفح عنه ، ليس فيما يتعلق بالماضي فحسب ، بل فيما سيحمله المستقبل ايضاً .

بعيد نصف ساعة كان يغط في نوم عميق ، وأنا أجلس الى جانبه أرنو اليه . في فترات النوم يبدو الرجل القوي ضعيفاً لا حيلة له – وكان شاكرو يثير الشفقة . شفتاه

السمينتان وحاجباه المقوّسان يسبغان على وجهه قسمات طفولية من انشداه خجلان . كان يتنفس في هدوء ، واطمئنان ، لكنه لا يلبث أحياناً أن يروح يتمايل ويتحدث في نومه ، مطلقاً بالجورجية كلماته سريعة بنبرة استعطافية . وحوالينا يخيّم ذلك الصمت المتوتر الذي يهبُ في المرء دائماً شعوراً من الترقب إذا استمرّ زمناً فلا مناص من أن يصيب المرء بالجنون من جراء ذلك الصمت الشامل وانعدام الأصوات ، الظل الحيّ لكل حركة أو نأمة . لم تكن همسات الأمواج الساكنة تبلغ إلينا - كنا في بقعة معشبة تعج بأدغال متلاصقة تشبه فكين مفغورين مثلمين لحيوان شلّه الخوف . رمقت شاكرو ، وقلت في نفسي :

«انه رفيقي في الطريق . . . في مقدوري أن أتركه ههنا ، لكنني لن أنفصل عنه ، لأنه لا عدد له . . . إنه رفيقي في الطريق ، حياتي بأسرها . . . لسوف يخطو الى جانبي حتى حافة القبر . . .»

لم تكن فيودوسيا في المستوى الذي رجونا منها . حين بلغناها كان هنالك حوالي أربعمائة شخص من أمثالنا ترجّوا الحصول على عمل ، وتعيَّن عليهم أن يقنعوا بمشاهدة بناء رصيف الميناء . كان العمال هنالك من الاتراك ، واليونانيين ، والجورجيين ، والروس من سمولنسك ، والاوكرانيين من بلتافا . في كل ناحية من المدينة وضواحيها تطوف جماعات من أشكال رمادية موهنة العزيمة من الذين «شرّدهم الجوع» ، وجوابو آفاق من القرم وبحر آزوف يتجولون في صفوفهم في خطوات تشبه خطوات الذئب .

وتابعنا سبيلنا الى كيرتش .

التزم رفيقي في الطريق بوعده فكفّ عن مضايقتي . بيد أن الجوع كان يعصر معدتـــه ، فهو يصرُ بأسنانه كالذئب حينما يلمح شخصاً يأكل ، ويرعبني بأوصاف كميات الطعام المتنوعة التى يتمنى أن يفترسهـــا باسنانه . وقد مرّت به فترة من الزمن الآن جعل يتذكر فيها النساء . أول الامر بصورة طارئـــة — فهو يزفر متنهداً ، ومن بعـد بصورة متوالية ، مكشراً عن ابتسامات متفكرة خبيثة لأحد «رجـال الشرق» ؛ ومن بعد ، في آخر المطاف ، انتهى به الأمر الى أنه لا يستطيع أن يرى امرأة تمرُ به ، مهما ذرّف بها العمر أو ارتسمت لها طلعة ، دون أن يبادلني تعليقاً فاجراً عملياً أو فلسفياً عن شيء فيها . كان يتحدث عن النساء في حرية ، وفي نبرة من هو على اطلاع عميق ، وينظر اليهنّ من وجهة نظر وطيدة بصورة تبعث على الذهول تجعلني أشعر وكأنني أغسل فمي . . . حاولت مرة أن أثبت لــه أن النساء لسن مرؤوسيه بحال من الأحوال ، ولكنني حين تبينت أنــه لن يغضب مني بقسوة فحسب ، بل انه سيطيش صوابـــه من الخزي الذي ألصقه به من وجهة نظره ، فقد قررت إرجـاء هذه المحاولات الى ما بعد أن يشبع بطنه جيداً .

لم نتخذ سبيلنا الى كيرتش بمحاذاة الشاطئ ، ولكننا اجتزنـا السهب اختصاراً للطريق . فنحن لم نكن نملك في كيسنا أكثر من كعكة مصنوعة من الشعير لا تزن أكثر مـن أقة اشتريناهـــا من تتاري بآخر خمســـة كوبيكـــات كانت معنا . وضاعت جهود شاكرو في استجداء الخبز في القرية

عبثاً . راح الناس يردون علينا باقتضاب في كل مكان : «لا نستطيع اطعامكم جميعاً !» . وكانت تلك هي الحقيقة : في تلك السنة القاسية كان ثمة أعداد غفيرة من الناس تفتش عن كسرة من خبز .

وما كان رفيقي في الطريق يطيق اللاجئين من المجاعة — هؤلاء الذين ينافسونه في جمع الصدقات . لم يكن خصومه النشطاء يسمحون له أن يظهر ، على الرغم من الطريق الصعبة والتغذية السيئة ، في مظهر زري يثير الشفقة ، وهو شيء كانوا يتباهون به باعتباره نوعاً من الكمال ، فيروح يقول ، وهو يلمحهم قادمين من بعيد :

— يأتون من جديد ! تفو ، تفو ، تفو ! فيمَ هم يأتون ؟ فيم يسافرون متجولين ؟ وهل روسيا مكان صغير صغير ؟ لست أفهم ! سعب بالغ الغباء ، هؤلاء الروسيون .

حين أوضحت له الأسباب التي دفعت هؤلاء الروس «الأغبياء» الى الطواف عبر القرم بحثاً عن الخبز ، هزّ رأسه متشككاً ، وأجاب :

— لست أفهم ! كيف يكون دلك ممكناً ! . . . في جورجيا ليس لدينا متل هدا الغباء !

وصلنا الى كيرتش في ساعة متأخرة من العشية واضطررنا لقضاء الليل على الشاطئ تحت سقالات رصيف الميناء . كان أفضل لنا ان نبقى في الخفاء . فقد علمنا ان السكان الاضافيين ، قبل وصولنا بزمن وجيز ، تم إبعادهم عن كيرتش ، وكنا نخشى ، باعتبارنا متسولين ، من الالتقاء

برجال الشرطة . وفضلاً عن هذا فقد كان شاكرو يسافر بجواز شخص آخر ، الأمر الذي قد يؤدي بنا الى مضاعفات نحن في غنىً عنها .

كانت الأمواج الناجمة عن المضيق ترشنا بزبدها في سخاء . زحفنا عند الفجر من تحت السقالات نرعش رطوبة وقراً . وقضيت النهار بطوله محوّماً حول أرصفة الميناء ، وكان كل ما تدبرنا الحصول عليه عبارة عن قطعة صغيرة من العملة خلعتها عليّ زوجة كاهن بعدما حملت لها كيساً من البطيخ من السوق .

كان من الضروري أن نعبر المضيق الى تامان . لم يرض أحدٌ من أصحاب القوارب أن ينقلنا كجذّافين رغم توسلاتي المتوالية . كانوا ، جميعاً ، متحيزين ضد المتشردين الذين جمعوا قبل وصولنا بفترة قصيرة ، سمعة سيئة في هذه الأرجاء ، فصنّفونا في عدادهم نتيجة لذلك .

عندما خيّم المساء ، وقد شملني الغضب من جراء النحس الذي أصابنا ومن العالم بصورة عامة ، اتخذت قراري بالقيام بعمل خطر ، وما أن جثم الليل حتى وضعته موضع التنفيذ .

٤

في تلك الليلة حثثت وشاكرو الخطا مقتربين دون صوت من مركز الجمارك الذي قامت الى جانبه ثلاثة مراكب وحيدة الصاري ربطتها سلاسل حديدية الى حلقات حديدية مثبتة في

الجدار الحجري على رصيف الميناء . كانت الظلمة منتشرة ، والريح تنفخ ، والمراكب تصدم بعضها بعضاً ، والسلاسل تقعقع . وكان في مستطاعي أن أحَلَّ احدى تلك الحلقات في يسر وأخرجها من مكمنها في الجدار الحجرى .

على مسافة عشر أقدام فوق رأسينا يتمشى الخفير الجمركى روحة رجعة ، وهو يصفر من بين أسنانه . وحين يتوقف في مكان قريب منا أتوقف بدوري عن العمل من قبيل الحيطة التي لا ضرورة لها . فما كان يمكن أن يخطر له في بال ان ثمة رجلاً تحته يجلس حتى عنقه في الماء . وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت السلاسل توالى قعقعتها المتوالية من تلقاء ذاتها . وكان شاكرو مستلقياً في باطن القارب يخاطبني بصوت مهموس ، فلا أفقه مما يقول شيئاً بسبب صخب الأمواج . وانحلت الحلقة بين يدي أخيراً ... واحتملت القارب موجة وابتعدت به عن الضفة . وحملت أنا السلسلة وسبحت الى جانبه ، ثم تسلقت إليه . وأخذ كل منا لوحاً خشبياً من أرض القارب وأثبته في العروة بدلاً من المجذاف ، وطفقنا نجذّف مبتعدين . . .

كانت الأمواج ناشطة ، فاستوى شاكرو عند ذراع الدفة ، يختفى أحياناً عن بصري ، ويبرز أحياناً أخرى الى الأعلى مني ، فيتدحرج فوقي مرسلاً صيحة ثاقبة . نصحت له ألا يصرخ إذا كان يود ألا يسمعه الخفير . فاعتصم بالصمت . ورأيت له وجهاً أشبه ما يكون بلطخة بيضاء . ظل ممسكاً بالدفة طوال الطريق . فلم يكن لدينا متسع من الوقت نتبادل فيه مكانينا ، وكنا خائفين أن نتحرك في

المركب . ناديت عليه ماذا يفعل ، فاستوعب ما أردت في الحال ، وقام بكل شيء على أفضل وجه فكأنه وُلِدَ بحاراً . كان الدفان الخشبيـــان اللذان اتخذت منهمـــا مجذافين لا يمدانني بمساعدة كافية . وكانت الريح وراءنا ، ولم ألق بالاً الى أين يجذفنا التيار بل صرفت انتباهي كله ان يظل القارب مندفعا الى الضفة المقابلة . ولم يكن صعباً عليّ أن أحدد موقعها لأننا كنا نلمح بُعْدَ الأضواء المنبعثـــة من كيرتش . وكانت الأمواج تصل إلينا من فوق جانبي القارب وتزمجر غاضبة . وكلما أوغلنا مبتعدين عن الضفة ازدادت هي ارتفاعاً . وفي المنتأى كان ثمـــة صدى هدير مياه ، متوحشة عامرة بالوعيد . . . واسترسل القارب في طريقه – أسرع فأسرع . وصار الاستمـرار في السيطرة عليـــه من الصعوبة بمكان . فآونة ننزلق الى قعر أوجار عميقة ، وآونة نسمق الى ذروة هضاب شامخة من المياه ، فيما ظلمة الليل تشتد سواداً وفحمة ، والسحب توالي انخفاضها فوقنـا . واختفت الأضواء وراء مؤخرة قاربنا في ملء الدكنة ، وغدت الأمور عندها مرعبة حقـاً . بدا أن هذا الاتساع الرحب من المياه الغاضبة لا نهاية له . فليس هنالك ما يقع عليـــه بصرك غير الأمواج تطير صوبنا من قلب الظلمة . أطارت احد اللوحين الخشبيين من يدى وقذفتُ أنا الآخر الى أرض القارب وتمسّكت بجانبيـه بكلتا يدى بقوة . كان شاكرو يطلق صرخة وحشية كلما وثب القارب مرتفعـــاً . شعرت بالوهن واليأس في تلك الدجنة ، وقد أحاطت بي العناصر الغاضبة تصمُّ سمعي بتصخابهـا . فقدت الأمل ، وغدوت

ضحية يأس مرير ، ولم أعد أرى غير هاتيك الموجات برؤوسها المبيضة تتناثر في رذاذ ملحيّ ، والسحب فوقي متكاثفة ، ممزقة ، أشبه ما تكون بالأمواج . . . وعيت أمراً واحداً لا غير : إن كل ما يجري حواليّ كان ، من دون ريب ، أكثر صخباً ورعباً بما لا قياس ، وكنت أنا متضايقاً إلى حدّ ما من أنه يبدو وكأنه ملجوم وغير راغب في إظهار منتهى جبروته . وكان الموت محتوماً . وكان ضرورياً أن يكون تذبذبه اللامبالي على شيء من الجمالية ، وأن يكون أكثر قبولاً – كان أمراً واقعياً بصورة فظة ، وأقسى من أن يتقبله المرء . لو أعطي لي ان أختار بين الاحتراق في الضرام أو الغرق في مستنقع ، فلسوف أبذل قصارى جهدي لاختيار الحل الأول – فهي على أية حال ، نهاية أكثر قيمة .

. . . .

صاح شاكرو :

– فلنرفعنّ سراعاً !

فسألت :

– ومن أين تأتي بهذا الشراع ؟

– سأصنعه من معطفي . . .

– ألقِ به إليّ هنا ! لا تتركنّ الدفة ! . . .

وبدأ شاكرو صراعاً صامتاً مع الانشوطات .

– إليك به !

ألقى إليّ معطفه . زحفت موجوعاً على طول قعر القارب ، واقتلعت لوحاً آخر من أرضيته ، ودفعتها في كم المعطف الخشن ، ودعمتها بالمقعد ، وشددت ساقيّ ، ولم أكد

أمسك بالكم الآخر وجزء من حاشية المعطف حتى وقع شيء لم يكن في الحسبان . . . وثب القارب الى الأعلى بصورة واضحة ، ثم تهاوى . ووجدت نفسي في الماء ، ممسكاً المعطف بإحدى يديّ ، وقابضاً على الحبل المثبت حول القارب بالأخرى . وتكسرت الأمواج صاخبة فوق رأسي ، وجعلت أبتلع المياه المالحة المريرة . ملأت أذني ، وفمي ، وأنفي . . . تشبثت بالحبل بعنف ، وانطلقت أرتفع وأنخفض في المياه ، ضارباً رأسي بجانب القارب ، وأنا أقذف المعطف فوق قعر القارب المقلوب ، محاولاً أن أرمي نفسي وراءه . ونجحت محاولة من عشرات المحاولات والجهود التي بذلت ، فتفرشخت جالساً على القارب وما أسرع أن لمحت شاكرو الذي يتشقلب في المياه ، وكلتا يديه تتشبثان بالحبل الذي أطلقته من يدي . بدا أنه التفّ حول القارب بأكمله ، وقد مرّ ضمن الحلقات الحديدية المعلقة في جوانبه .

هتفت به :

– أنت حي !

وثب عالياً من الماء وسقط على بطن القارب . مددت يدي لمساعدته ، وغدونا طوال لحظة وجهاً لوجه قبالة بعضينا . كنت جالساً منفرج الساقين فوق القارب فكأنني أمتطي حصاناً ، وقدماي منغرزتان في الحبل فكأنهما في ركابين – لكن جلستي كانت مقلقلة : فإن أية موجة يمكن أن تلقي بي عن السرج . كان شاكرو متشبثاً بركبتيّ بكلتا يديه ، وقد دفن وجهه في صدري . كان يرتعش من فزعه

حتى قدميه ، وكنت أسمع الى أسنانه تصكّ بعضها بعضاً . ينبغي أن نفعل شيئاً ما . كان بطن القارب زلقاً وكأنــه مدهون بالزيت . فقلت لشاكرو أن يخفض نفسه الى الماء من جديد ، ويمسك الحبل من جانب ، وأفعل أنا الشيء ذاته من الجانب الآخر . فجعل يضرب رأسه على صدري بدلاً من أن يعطيني جوابــاً . وبين حين وحين كان رقص الأمواج الوحشي يجعلها تتواثب فوقنا فنعجز عن التماسك . وكان الحبل يحزّ على احدى ساقيّ بصورة رهيبة . وكانت تلال رهيبة من المياه تترامى على مسرح الرؤية أمامي ثم تتلاشى مرسلة صخباً مدوياً .

كررت ما قلت له بنبرة آمرة . فانثال شاكرو يضرب صدري برأسه في مزيد من العنف . لــم يكن هنالك وقت يمكن ان نضيعه . أرغمته ان يفك يديــه عني واحدة بعد الأخرى ، وشرعت أدفعه في المياه ، محاولاً أن أجعله يلتقط الحبل . وعندها حدث أمر أَدَبَّ الذعر في قلبي أكثر من أي شيء آخر حدث في تلك الليلة .

همس شاكرو ، وقد تطلّع في وجهي :

— تريد أن تغرقني ؟

كان ذلك رهيباً بحق ! السؤال ذاته كان رهيبــاً ، وأرهب منه تلك النبرة التي صيغ بها والتي تردد فيهــا خضوعٌ خانع ، وتوسُّلٌ بالرحمة ، وآخر زفرة لرجل فَقَدَ كل رجاء في الافلات من قضاء حاسم . والشيء الأكثر رهبة من أي شيء آخر هو تانك العينان في ذلك الوجــه الندي

الشاحب شحوب الموتى ! . . .

صرخت به :

– تجلّد ! تمسك بالحبل !

وأنزلت نفسي في الماء ممسكاً بالحبل . صدمتْ ساقي شيئاً ، فما استوعبت الأمر بداءة بسبب من الألم الذي شعرت به . وبعد ذلك فهمت . فتدفق في جوانحي شيء حار . سكرت ، وشعرت بنفسي قوياً كما لم أعهد نفسي من قبل . . .

هتفت :

– الأرض !

يحتمل أن الملاحين العظام عند أكتشافهم أراضي جديدة أطلقوا مثل هذه الصيحة في انفعال يفوق حدّة انفعالي ، ولكنني أرتاب في أن يكونوا أطلقوها أشدّ ارتفاعاً . أفلت شاكرو هتافاً وقذف بنفسه إلى الماء . وسرعان ما جنحنا الى اتزان : فالمياه ترتفع حتى خصرينا ، وأنظارنا لا تقع على دلالات عن الأرض الصلبة في أي مكان . وكان من حسن سعدنا أني لم أفلت زمام القارب . وهكذا أخذت وشاكرو مكانينا عن جانبيه ، وتشبثنا بحبال الانقاذ ، وانطلقنا قدماً على حذر الى وجهة مجهولة ، ونحن نقود القارب وراءنا .

كان شاكرو يتغمغم ويضحك ، وأنا اتطلع حواليّ في قلق . وكانت الظلمة شاملة . فيما وراءنا وعن يميننا ارتفع صوت الأمواج أكثر حدة ، والى الأمام منا وعن يسارنا أكثر نعومة . اتجهنا ناحية اليسار . كانت الارض صلبة رملية ، لكنها مليئة بحفر لا يسهل التكهّن بها . ولم نكن نستطيع

أحياناً أن نلمس البطن ، ويتعين علينا أن نخوض بساقينا وإحدى ذراعينا ونظل ممسكين بالقارب بالذراع الأخرى . وفي أحيان أخرى كانت المياه تصل إلى ركبتينا . وفي الأماكن العميقة يعول شاكرو وأرتعش أنا رعباً . وبعد ، على غير انتظار ، لقد نجونا ! فأمامنا ثمة انوار على مرمى البصر .

شرع شاكرو يعول بأعلى صوته . وكنت أذكر جيداً أن القارب من املاك الجمارك فأسرعت أذكره بذلك . ركن الى الصمت ، ولم تمرّ لحظة أو لحظات حتى بدأ ينشج . لم أستطع أن أواسيه – فلم يكن لديّ من سلوى .

بدأت المياه تضحل . . . فبلغت الى ركبتينـــا . . . عقبينا . ورغم هذا دأبنا على شدّ قارب الحكومة . ومرت بنا لحظة ماتت فيها قوانا فأفلتناه . وكان ثمة جذع شجرة سوداء ذاوية يعترض سبيلنا . وثبنا فوقه ، وحططنا معاً ، حفاة القدمين ، على نوع من عشب شائك . آلمنـــا ذلك ، ولكننا على جزء من البسيطة قد لا يكون مضيافاً ، بيد أننا لم نلتفت إليه ، بل اطلقنا ساقينا ناحية الضوء . كان يبعد عنا قرابة ميل واحد ، ويبدو وهو يتوهج مرحاً كمن يضحك وهو يسرع لملاقاتنا .

٥

. . . ألقت ثلاثة كلاب شعثاء ضخمة تواثبت من مكان ما من الظلمة بأنفسها علينا . فأرسل شاكرو الذي ينشج بصورة تحزُ في النفس عويلاً صارخاً وتهاوى مستلقياً على

الأرض – وألقيت أنا المعطف المبلل على الكلاب الثائرة وانحنيت أرضاً ، أتحسس بيدي بحثاً عن حجر أو عصاً . فركزت الكلاب هجومها . وأطلقت من فمي صفيراً حاداً وقد دسست فيه إصبعين . وثبت متراجعة ، وسرعان ما تناهى إلينـــا صدى أقدام على الارض وارتفعت اصوات اشخاص يركضون .

بعيد عدة دقائق كنا متحلقين ناراً مع أربعة من الرعاة يرتدون معاطف من جلد الخراف غزيرة الصوف .

كان اثنان جالسين على الأرض يدخنان ، وآخر طويل العود له لحية سوداء كثيفة يعتمر قبعة طويلة من الفرو مما يلبسه القوزاقيون يقف وراءنا معتمداً على عصاً تنتهي بعقدة ضخمة . أما الرابـــع ، وهو شاب اشقر الشعر ، فيساعد شاكرو الناحب على خلع ملابسه ، وعلى مسافة خمسة أمتار من حلقتنا تغطت الأرض بطبقة كثيفة من شيء رمادي منتفخ يشبه ثلوج الربيع التي بدأت في الذوبان لتوها . وما كنت تستطيع ، إلا بعد تحديق طويل ، أن تميّز أشكال الخراف التي تجمعت بعضها الى بعض . لا بدّ أن هنالك عدة ألوف منها ، ألصقها النوم وظلمة الليل بطبقة كثيفة دافئة متراصة من السهب . كانت تثغو بين وقت وآخر ثغاء كئيباً يمازجه هلع ورعب . . .

جففت المعطف ورويت للرعاة كل ما حدث معنا فعلاً ، وأخبرتهم كيف جئت بواسطة القارب .

استفسر الشيخ الصارم الأشيب الرأس ، ولم يكن قد رفع بصره عني خلال حديثي :

– وأين هو ، ذلك القارب ؟

فاخبرته .

– اذهب ، يا ميخائيل والقِ نظرة !

رمى ميخائيل – الأسود اللحية – عصاه على كتفه وخطا في اتجاه الشاطئ .

طلب اليَّ شاكرو ، وهو يرتعش برداً ، أن أعطيه المعطف الدافئ الذي لا يزال مبللاً ، ولكن الشيخ قال :

– رويدك ! إركض قبل ذلك قليلاً لتُسري الدفء في دمك . اركض حول النار ، هيا !

لم يفهم شاكرو ما قيل له على الفور ، ولكنه لم يلبث أن نهض واثباً ، عريان ، وشرع يرقص رقصة متوحشة ، طائراً مثل الطابة فوق النار ، مدوماً على نفسه في بقعة واحدة ، ضارباً الأرض بقدميه ، صارخاً بأعلى صوته ، ملوحاً بذراعيه . كان مشهده قاتلاً ، فأخذ اثنان من الرعاة يتدحرجان على الأرض يضحكان ملء شدقيهما ، في حين حاول الشيخ ، جامد الأسارير وقورها ، أن يصفق تصفيقاً يتوافق وايقاع الرقصة ، ولكنه فشل . التصقت عيناه بتدويم شاكرو ، وجعل يهزّ رأسه ، يبرم شاربه ، ويصيح في صوت جاف عميق :

– هاي – هـا ! سو – سـو ! هاي –هـا ! بوتز – بوتز !

وراح شاكرو يتلوى مثل الأفعى يضيئه وهج النار ، آونة يتواثب على قدم واحدة ، وآونة يضرب الأرض بقدميه

في ايقاع كامل ، وجسده – المتألق بتأثير أضواء النيران – مغطى بقطرات كبيرة من العرق بدت حمراء كالدم .

وراح الآن الرعاة الثلاثة يصفقون فيما رحت أنا ، والبرد يرعشني ، أجفف نفسي عند النار وأحدث نفسي أن مغامرة اليوم ينبغي أن تكون ذروة السعادة لعشاق فينيمور كوبر أو جول فيرن : حطام قارب ، ومواطنون مضيافون ، ورقص وحشي حول نيران معسكر . . .

وهذا شاكرو الآونة يجلس على الأرض متراكماً في معطفه يأكل شيئاً ، ويشخص اليّ بعينين سوداوين فيهما تألق لم يرقني . كانت ثيابه تجفف حيث علقت على عصيٍّ مغروزة في الأرض قريباً من النار . واعطوني ، أنا أيضاً ، قليلاً من خبز وشرائح من لحم خنزير مملح .

رجع ميخائيل ، وقعد الى جانب الشيخ صامتا لا ينطق بحرف .

استفسر الشيخ :

– حسناً ؟

فأجاب ميخائيل في اقتضاب :

– القارب هناك !

– لن يجرفه التيار ؟

– كلا !

وساد الصمت الجميع ، وهم شاخصون اليّ .

استوضح ميخائيل ، دون أن يوجه سؤاله الى شخص معين :

– حسن . هل نصحبهما الى الأتمان * في القرية ؟ أو ربما . . . الى رجال الجمارك ؟

لم يعطه أحد جواباً . وظل شاكرو يأكل دون أن يبدي اهتماماً .

– في مقدورنا أخذهما الى الأتمان . . . أو الى رجال الجمارك بسبب ذلك . . . هـذا حسن ، وهـذا حسن أيضاً . . .

فشرعت أقول :

– رويدك برهة ، يا جداه . . .

بيد أنه لم يعرني اهتماماً على الاطلاق .

– هذا هو الأمر إذن ! ميخائيل ! القارب هناك ؟

– أجل ، هو هناك . . .

– وهكذا . . . والتيار لن يجرفه ؟

– كلا ، لن يجرفه .

– إذن ، فليبقَ في موضعه ، وفي الغداة يذهب المراكبيون الى كيرتش وفي مقدورهم أن يأخذوه معهم . لم لا يأخذون قارباً فارغاً معهم ؟ إيه ؟ هكذا الأمر إذن . . . والآن أنتما . . . أيها الشابان الأشعثان . . . هل أنتما . . . كيف أقول ذلك الآن ؟ . . . هل أرتعبتما ، أنتما الاثنان ؟ كلا ؟ ها ، هـا ! . . . لو اجتزتما نصف فرسخ آخر لوصلتما الى البحر الفسيح . فماذا تفعلان إذن

* الاتمان أو الهتمان : زعيم قوزاقي .

لو قُلِّب القارب في خضم البحر ؟ آه ؟ كنتما سقطتمـــا الى القاع ، مثل حجرين ، أنتما الاثنان . كنتما غرقتما ! ليس أكثر من ذلك .

مال الشيخ الى الصمت ، ونظر اليَّ بابتسامة متهكمـة تتخايل على شاربيه .

– حسن ، ألن تقول شيئاً عن نفسك ، يا صاح ؟

كنت قد شبعت من تأملاتــه ، هذا التيار الذي أخفقت في استيعابه واعتبرته مجرد سخرية .

قلت في شيء من الاستياء :

– إنني معيرك سمعي !

– حسن ، وماذا استنتجت من هذا ؟

كان الشيخ يريد أن يعرف ذلك .

– لم أستنتج منه شيئاً .

– الآونة إذن ، الآونة إذن ، فيم تكشّر عن أسنانك ؟ أيتراءى لك أنـــك قادر أن تزمجر وتعضـــس الكبـــار والمتفوقين ؟

فظللت بالصمت معتصماً .

واسترسل الشيخ يقول :

– هل تريد مزيداً من طعام الآن ؟

– كلا .

– حسن ، لا تأكل إذن . فليس من يجبرك على ذلك . لعلك تأخذ كسرة من خبز للطريق . أتحب ذلك ؟

اجفلت غبطة ، ولكنني لم أفضح نفسي .

قلت في هدوء :

– من أجل الطريق قد آخذ . . .

– هاي ! . . . أعطوهما شيئاً من الخبز من أجل الطريق وقليلاً من شرائح دهن الخنزير . وقد يكون هنالك شيء آخر أيضاً ؟ إذا كان هنالك شيء ، فاعطوهما إياه . . .

استعلم ميخائيل :

– هل نتركهما يذهبان إذن ؟

ورفع الراعيان الآخران أنظارهما ألى الشيخ .

– حسن ، وأي عمل سيعثران عليه هنا معنا ؟

لاحظ ميخائيل في صوت مستاء :

– خطر لنا ان نأخذهما إلى الأتمان . . . وإن لم يكن ذلك . . . فإلى رجال الجمارك .

تململ شاكرو في موضعه قرب النار ومدّ رأسه من داخل المعطف متسائلاً . كان الخوف قد زايله .

– وماذا يفعلان لدى الأتمان ؟ ليس لديهما ما يفعلان هنالك فيما يخيّل اليّ . في مقدورهما أن يذهبا ويرياه فيما بعد . . . ان طابت لهما رؤيته .

وأصرّ ميخائيل :

– وماذا عن القارب إذن ؟

فأجاب الشيخ عن السؤال بسؤال :

– القارب ؟ ماذا عن القارب ؟ أهو هناك ؟

أجاب ميخائيل :

– هو هناك .

– حسن ، فليبق هناك إذن . وفي الصباح يستطيع إيفاشكا ان يأخذه الى المرسى . ومن هناك يأخذه أحدهم الى

كيرتش . ليس هنالك شيء آخـــر نستطيع أن نفعلـــه بالقارب .

راقبت الراعي الشيخ مراقبة دقيقة ، فما استطعت أن اميّز أقل حركة في وجهه رابط الجأش ، وجهه الذي لوحته الشمس وصوّحته العوامل الجويـــة الأخرى ، والذي راحت ظلال النيران تتوثب فوقه .

شرع ميخائيل يستسلم :

– طالما أنه لن ينجم عن ذلك شيء سيئ غير متوقع فيما بعد . . .

– إذا لم تتركوا ألسنتكم تثرثر حول هذا الموضوع فلا أرى ضرراً ينجم عن ذلك . إذا أخذناهما الى الأتمان ، ففي رأيي أن ذلك سيعني متاعب بالنسبة إلينا واليهـــم سواء . ان ما نريد هو أن ننصرف الى أعمالنا ، وما همـا يريدان هو أن . . . يسيرا . إيه !

وسألني الشيخ ، على الرغم من أنني سبق وأوضحت له ذلك :

– هل تذهبان بعيداً على أقدامكما ؟

– الى تيفليس . . .

– درب طويلـــة ! هذا أنت ترى ، والأتمان سوف يعوقهما . واذا فعل ذلك ، فمتى يصلان ؟ يحسن أن ندعهما يتابعان طريقهما الى حيث يبغيان الوصول . هه ؟

فوافق رفاق الشيخ على كلامه :

– لم لا نفعل ذلك ، إذن ؟ فليتابعا سبيلهما !

حين أنهى الشيـــخ ملحوظاتـــه المقتضبة ضغط على شفتيه ، وتطلع حواليـــه الى رفاقه مستفسراً ، وهو يخلل بأصابعه لحيته السوداء الشائبة .

أومأ الشيخ ايماءة انصراف :

– حسن ، كان الله معكما ، أيها الشابان ! سوف نعيد القارب الى أصحابه . موافقان ؟

التقطت قبعتي :

– شكراً ، يا جداه !

– فيمَ تشكرني ؟

فكرت ، وقد غلبني الانفعال :

– شكراً ، يا أخي ، شكراً !

– فيمَ تشكرنـــي ؟ هذا شيء غريب ! أقول : كان الله معكمـــا ، ويقول هو : شكراً ! لن تكون خائفـاً لو أرسلتك الى الشيطان ، أليس كذلك ؟ إيه ؟

فاعترفت :

– كنت مذنباً !

فرفع الشيخ حاجبيه :

– أوه ! . . . فيـــم أرسل الآن رجـلاً على الطريق السيئة ؟ يحسن ان أرسله على الطريق التي أدوس عليها بنفسي . من يدري . . . قد نلتقي مرة أخرى ، وعندها . . . نكون أصدقاء قدامى . أتحب ذلك ؟ جميعنا نحتاج الى شيء من المساعدة بين حين وآخر . . . وداعاً الآن ! . . .

رفع قبعته الشعثاء المصنوعة من جلد الخراف وانحنى

لنا . وانحنى رفاقه أيضاً . استفسرناهم عن الطريق الى مدينة أنابا ، وانطلقنا قدماً .

كان شاكرو يضحك من شيء ما . . .

٦

سألته :

– ما الذي يضحكك ؟

أغبطني ذلك الراعي الشيخ وفلسفته في الحياة ، واغبطتني الريح الرخاء التي تهبّ قبيل الفجر على وجهينا مباشرة ، وأن السماء خالية من السحب ، وأن الشمس سرعان ما تشرق في السماء الصافية ، وأن الآله الجميل المتألق ليوم جديد سيطل على الوجود . . .

غمز شاكرو لي ساخراً وانفجر ضاحكاً بصوت أشد ارتفاعاً . وتبسمت أنا أيضاً ، وأنا أسمع الى ضحكه الجذل المعافى . كل ما تبقى من رحلتنا الشاقة بعيد ساعتين أو ثلاث ساعات قضيناها عند نيران الرعاة والخبز ودهن الخنزير الطيبين هو وجع خفيف في عظامنا . بيد أن هذا الاحساس لم يشوّه مزاجينا الصافيين .

– حسناً ، ما الذي يضحكك ؟ مسرور أنت لخروجك من هذا على قيد الحياة ، أليس كذلك ؟ على قيد الحياة ، ومعدتك ملأى بالاضافة اليه ؟

هزّ شاكرو رأسه ، ولكزني بمرفقه بقسوة ، وكشّر في وجهي ، وانفجر ضاحكاً من جديد ، ثم خاطبني أخيراً بنبرته الروسية الشوهاء :

– أنت لا تفهم ما الذي يثير السخريـــة ؟ لا تفهم ؟ سأخبرك ! أتدرى ما كنت أفعل لو أخذونا الى دلك الأثمان – رجال الجمارك ؟ أنـــت لا تدري ؟ سأخبرك : لقد رغبت في إغراقي ! وبدأت أنـا أبكى . وعندهـــا أسفقوا عليّ ولن يسجنونى ! أتفهم ؟

أردت أن آخذ حديثه بـادئ الأمر على محمل المزاح – لكن – واأسفاه ! – كان قادراً أن يقنعنى أن هدفه كان جدياً تماماً . اقنعني بهذا بصورة جلية صافية حتى أنني ، بدلاً من أن أغضب منه بسبب من سخريته الساذجـــة ، ملأني شعور من إشفاق عميق عليه . أي إحساس آخر يمكن أن أشعر به نحو رجل ينبئك ، على الرغم من ابتساماتـــه المشرقـــة وفي نبرات لا حدود لإخلاصهمـــا ، عن رغبته في قتلك ؟ ماذا يمكن أن يعمل المرء معه إن كان ينظر الى هذا العمل باعتباره مزاحاً ظريفاً محبباً ؟

شرعت أبرهن لشاكرو في حيوية جميع ما في رغبته من عمل لاأخلاقي . فرد عليّ بمنتهى البساطة أني لا أفهـــــم مقاصده الحقيقيـــة ، وأني أنسى أنـه يعيش بموجب جواز سفر مزيف ، وأن أحداً لن يربت على ظهره نتيجة لذلك . . .

وصعقتني ، على حين فجأة ، فكرة وحشية . . .

قلت :

– رويدك برهة . أتنـــوي أن تقول إنك صدقت أننى انتويت إغراقك حقاً ؟

– كلا ! . . . حين دفعتني في المـــاء صدقت ، وحين وثبت اليه بنفسك – توقفت .

هتفت صارخاً :

– حمداً لله على هذا ! حسناً ، أظنُّ أنــه ينبغي أن أشكرك !

– كلا ، لا تسكرني ! أنا أقول لك سكراً . هنالك ، عند النار ، كنتَ بردان ، وكنتُ أنا بردان أيضاً . وكان المعطف معطفك – لكنك لم تأخده . جففتـــه ، وأعطيتني إياه . أما أنت نفسك . . . أنت لم تأخد سيئـــاً . ولهدا أقول لك سكراً ! أنت رجل طيب طيب – وأنا أفهم دلك . حين نصل الى تيفليس – سأعوض لك كل شيء . سأصحبك الى والدي . وأقول لوالدي – هدا هو الرجل ! أعطه مـــا يأكل ، اعطه ما يسرب ، وأنا – الى الحمير في اسطبلاتها : هدا ما سأقول له ! وسوف تعيس معنا ، ستكون بستانياً ، وستسرب الخمرة ، وتأكل كل ما تريد ! . . . آخ ، آخ ، آخ ! . . . ستتمتع بحياة رائعة ! بسيطة جداً ! . . . ونأكل من طبق واحد ، سأقول لـــه ، ونسرب من قدح واحـــدة متلي ! . . .

واستغرق في وصف مفصل لمباهج الحياة التي سيعدها لي في تيفليس . وفكرت في نفسي ، وأنا أسمع حديثه ، في البؤس العظيم الذي يعيشه أولئك الناس الذين تفوقوا ، وقد تسلحوا بمبـــادئ جديدة وطموحـــات جديدة ، على معاصريهم واضطروا الى السفر في رفقة أناس غرباء عنهـــم عاجزين عن فهمهم . . . الحيـــاة قاسية بالنسبة الى هؤلاء الناس المتوحدين ! أنهم فوق الأرض ، في الهواء . . . ولكنهم

يهومون هنالك مثل بذور حنطة جيدة رغم ندرة سقوطهم في أرض مثمرة . . .

كان الضوء ينتشر . وعند الأفق راح البحر يتألق بلون ذهبي قرنفلي .

قال شاكرو :

– أريد أن أنام !

توقفنا . استلقى في فجوة أحدثتهـــا الرياح في الرمل الجاف قرب الشاطئ ، وغطى نفسه من رأسه حتى عقبيه بالمعطف الكبير ، واستغرق في النوم على الفور . جلست الى جانبه ، وجعلت أراقب البحر .

كان البحر يعيش حيـــاة خاصة به ، خصبة متحددة ، مفعمة حركة صخابة . وكانت أسراب وراء أسراب من الأمواج تتدحرج في ضجيج على الشاطئ وتتكسر فوق الرمـــال التي تهمس في خفوت وهي تبتلع المياه . وكانت الأمواج المنطلقة في المقدمة ، وهى تشرئب بأعرافها البيض ، تطوّح بنفسها في جلبة وهجمة مباشرة عـــــلى الشاطئ ، ومن بعد تنزلق مقهقرة كيمــــا تلتقي بأسراب أخرى تنطلق لدعمهـــــا ومساندتهـا . كانت تتدحرج على الشاطئ من جديد ، وقد تعانقت عناقاً شديداً ، مرغيـة مزبدة ، وتروح تضربه في عنف لتنشر حدود كينونتها أوسع فأوسع . ومن الافق الى الشاطئ ، فوق أنبساط البحـــر المترامـي ، تهب هاتيك الامواج القوية اللينة ، وتوالي دحرجتها ، من دون انقطاع ، وتتكاثف سوية وتندغـــم واحدة بالأخرى في سبيل هدف مشترك . . . وكانت الشمس تضيئ ذراها بتألق متفاقم ،

في حين تلوح الأمواج المتنائية في الأفق حمراء بلون الدم . لم تكن قطرة واحدة تضيع أو تذهب هدراً دون أن تخلف أثراً في تلك الحركة الهائلة للمياه المتراكمة التي تبدو وكأنها نفخت فيها الحياة من قبل غاية مرصودة أوشكت أن تكتمل بواسطة تلك الضربات العريضة المتناغمة . يخلب اللب أن تراقب الشجاعة المتحدية لتلك الأمواج القائدة تدفع نفسها بجرأة في وجه الشاطئ الصامت ، وفاتن أن تشاهد كيف يتبعها البحر بأسره ، هادئاً راسخاً ، البحر الجبار الذي صبغته الشمس بمختلف ألوان قوس قزح ، والذي يعي مقدار ما هو عليه من جمال وجبروت . . .

وكان مركب بخاري كبير يشق عباب الأمواج مبحراً من وراء قمة الجبل الداخلة في البحر ، متمايلاً بمهابة على صدر اليم اللاهث ، متسلقاً ذرى الأمواج الكبيرة التي تطوح أنفسها في غضب على جميع جوانبه . كان جميلاً قوياً ، ومعدنه يتألق تحت الشمس ، ويمكن في أي وقت غير هذا الوقت أن يعيد الى الذاكرة الأعمال الرائعة للأنسان الذي يستطيع أن يفرض أرادته على العناصر جمعاء . . . أما الى جانبي فيضطجع أنسان كان ، هو نفسه ، العنصر . . .

٧

سرنا في أراضي مقاطعة تيريك . كان شاكرو ممزقاً مهلهلاً الى درجة لا يمكن تصديقها ، وقد اعتكر مزاجه رغم أنه لم يعد جائعاً بعدما أتيحت لنا فرص كثيرة لاكتساب

المال . وخلع على نفسه طلعة من هو غير أهـل للقيام بأي عمل على الاطلاق . بذل جهده مرة لذرّ القش الذي بعثرتـه الدراسة ، ولكنـــه تخلى عن ذلك عند انتصاف النهـــار بعدما امتلأت راحتاه ببثور نازفة . وحاولنـا في مرة أخرى أن نجتز الأعشاب الضارة فكشط جلد عنقه بالمجرفة .

كان تقدمنا بطيئاً – فنحن نعمل يومين كاملين ونتابع طريقنا على الدرب يوماً . وكان شاكرو يأكل ما طاب له ، ولم أستطع بسبب من شرهه أن أدخر ما يكفي من مال كيما اشتري له بديلاً عن ثيابه التي لم يبق منها غير رقع مهلهلة وثغرات مرقشة تمسكها خيوط متعددة الألوان .

ذات مرة ، في هذه القرية أو تلك ، عثر في كيسى على خمسة روبلات فأخرجها ، وكنت قد ادخرتها في الخفاء بصعوبة فائقة ، وبرز في تلك العشية في المنزل الذي كنت اعمل في حديقة مطبخه ، يتعتعه السكر وترافقه امرأة قوزاقية سمينة صفعتني بهذه التحية :

– تحية ، أيها الهرطوقي الملعون !

حين أجفلنى هذا اللقب استوضحتهـــا السبب في نعتى بالهرطوقي ، فردت في رباطة جأش :

– ذلك أنك ، أنت أيها الشيطان أنت ، منعت الشاب المسكين عن أن يحب احدى النســـاء ! كيف تأذن لنفسك بتحريم ما سمحت به القوانين ؟ أنت ملعون ، هذا ما أنت عليه ! . . .

وقف شاكرو الى جانبهـــا يومئ برأسه موافقاً . كان السكر قد أفقده وعيه ، وأية حركة يأتيهـا تجعله يترنحّ

وكأن مفاصلـــه ارتخت وتفككت . وكانت شفتـــه السفلى متدلية ، وعيناه المكتئبتان تلوحان وكأنهما تحملقان فيَّ في إصرار فارغ .

صاحت المرأة في جرأة متناهية :

– والآن ، أنت ، فيم تفغر فمك منشدهاً بنا على هذا الغرار ؟ أعطه نقوده !

سألت مشدوها :

– أية نقود ؟

– هيا ، هيا ! أو أجرك الى المحكمة . أعطه المائـــة وخمسين روبلا التي أخذتها منه في أوديسّا !

ماذا كان عليَّ أن أفعـــل ؟ تلك المرأة الملعونة قد تجرني من جراء سكرها الى المحكمة ، ومن بعد الى بلديـة القرية ، ونحن على ما نحن عليـــه من طلعة المتشردين ، وهنالك يعتقلوننـــا . ومن يدري ماهية نتائـــج مثل ذلك الاعتقال بالنسبـــة اليَّ وإلى شاكـرو ! وهكذا لجأت الى استخدام الوسائل الدبلوماسية للتحايل على تلك المرأة ، الامر الذي يقتضيني كثير مشقة . وتمكنت بمساعدة ثلاث زجاجات من الخمرة أن أسترخيهـــا . فتراكمت على الأرض بين البطيخ ، واستسلمت الى النـــوم . ووضعت شاكرو في فراشه . وفي بكور اليوم التالي غادرت وإياه القرية ، تاركين المرأة بين أكوام البطيخ .

بقى شاكرو يبصق ويرسل زفرات عميقة وقد أسقمته الآثار البغيضة التي خلفها إسرافه في الشراب نصف سقام ،

وانسحق وجهه وانتفخ . حاولت ان أحادثه ولكنه لم يرد عليّ ، بل جعل يهزّ رأسه الاشعث مثل خروف .

كنا نتبع ممراً ضيقاً راحت ديدان صغيرة حمراء تزحف عليه رائحة جائية ، وهي تنزلق تحت أقدامنا . وكان الهدوء المخيّم حوالينا يساعدنا في الاستغراق في أحلام اليقظة . وكانت قطعان من السحب السود تتحرك متباطئة في السماء فوقنا . كانت تتمزج ببعضها وتغطي السماء بأسرها فيما وراءنا ، أما أمامنا فهي صافية رغم شظايا من السحب أنفصلت عن جسد أمها وهبت تنفخ في مرح وهي تلحق بنا . وفي مكان ما في البعيد كان ثمة دمدمة رعد ، وزمجرته الهادرة تدف مقتربة أكثر فأكثر . وتساقطت قطرات من الغيث . وراح العشب يخشخش مثل ورق القصدير .

لم يكن هنالك ملجأ . وقد أغدقت الظلمة وارتفعت خشخشة العشب بصورة فاقمت في رعبنا . وكان هنالك قرقعة من الرعد – فتبعثرت السحب متألقة بنور أزرق . وهطل مطر ثقيل مدرار ، وراحت قعقعة الرعد تتوالى واحدة بعد الأخرى في زمجرة مستديمة فوق السهب المقفر . وكان العشب ، وقد أحنت هامته هبات الريح والمطر ، يضطجع مستلقياً على الأرض . وكان كل شيء يرتجف في عصبية . ومزق البرق السحب في ومضات تبهر العيون . . . وتبدت في نوره الازرق المتألق سلسلة من الجبال البعيدة تومض بلهب أزرق ، فضي بارد ؛ ومن بعد ، حين ينطفىء البرق ، تختفي وكأن هاوية الظلمة قد ابتلعتها . وفيما حوالينا كان ثمة رحم مزمجر مرتعش مُصْمدٍ من الأصوات . لكأن السماء ،

وقد انتفخت وغضبت ، تكابد تفاعلاً من التطهير بالنار من كل الغبار والقذارة المنبعثة من الأرض ، فيما يلوح أن الأرض ترتجف خوفاً من غضبتها .

كان شاكرو ينشج مثل كلب مذعور . أما أنا فقد كنت أسير نوع من الانشراح ، جرفه فوق العالم اليومي التبصُّر في هذه البانوراما الكئيبة الجبارة للعاصفة فوق السهب . وحملتني هيولى إلهية بعيداً ، وافرخت مزاجاً بطولياً ، وغلّفت الروح في تآلف عاصف . . .

غلبتني الرغبة في المشاركة في العاصفة كيما أعثر على منفذ للرعب والانشداه المتدفقين المنبعثين فيَّ من جراء قوتها . وكانت النار الزرقاء التي أشعلت السماء بأسرها ، فيما يبدو ، قد التهبت في صدري ، و. . . حسناً ، كيف يتاح لي أن أعبّر عن انفعالي الفسيح وعن تهللي ؟ بدأت أغني – في صوت مرنان ، وبكل ما يتفجّر فيَّ من قوة . وزمجر الرعد ، وومض البرق ، وخشخش العشب ، وغنيت أنا أني امتزجت بكليتي بجميع الأصوات الأخرى . . . كنت أطير من الفرحة . فليس هنالك شيء ضدي . وأنا لم أؤذ أحداً سوى نفسي . العاصفة في البحر ، والرعد فوق السهب ! ولا أعرف تظاهرة للطبيعة أفخم من هذه التظاهرة .

وهكذا أطلقت صوتي عالياً ، وأنا ممتلئ ثقة أني لا أزعج إنساناً بتصرفاتي ، وأني لا أتعرض لأي خطر إذا ما تعرضت أفعالي للنقد . وعلى حين فجأة ، اهتزت ساقاي من تحتي بقسوة ، ورأيتني مرغماً على الجلوس في بركة من الوحل . . .

كان شاكرو يتطلع في وجهي بعينين غاضبتين وقورتين .

– لقد فقدت صوابك ؟ أنت لم تفقده ؟ كلا ؟ ادن . . . اخر . . . س ! لا تصرخ ! سأمزق حنجرتك ! أتفهم ؟

أنشدهت ، وشرعت أستوضحه كيف أسأت إليه .

– لقد أرعبتني ! أتفهم ؟ الرعد . . . هذا كلام الله ، وأنت تصرخ فيطغي صوتك عليه . . . ما رأيك ؟

قلت له إني أملك ملء الحق في الغناء إذا اشتهته نفسي ، مثلما يملكه هو .

فأوضح بصورة جازمة :

– ولكنني لا أريد دلك .

فأذعنت :

– إذن لا تفعل ذلك !

فحذرني شاكرو بقسوة :

– وأنت لا تفعل دلك أيضاً !

–كلا ، فأنا أشعر برغبة في الغناء . . .

بدأ شاكرو يقول في نبرة غاضبة :

– والآن أصغِ . . . ما رأيك ؟ من أنت ؟ ألديك بيت ؟ ألديك أم ؟ أب؟ ألديك أحد الأقرباء ؟ الأرض ؟ من تكون في هدا العالم ؟ هل تحسب أنك رجل ؟ أنا هو . . . الرجل ! فأنا املك كل شيء !

ودق على صدره :

– أنا أمير ! وأنت . . . أنت . . . لا شيء ! لا شيء على الاطلاق ! أنا معروف في كوتايسي ، في تيفليس ! . . . أتفهم ؟ فحذار أن تقف في وجهي ! هل تخدمني ؟ . . .

لسوف تكون مسروراً ! سأدفع لك عشرة أضعاف ! هل تفعل دلك من أجلي ؟ أنت لا تستطيع القيام بأي عمل آخر . أنت تقول بنفسك أن الله أمرك ان تخدم جميع الرجال دون تعويض ! وأنا أعوّض عليك ! فيمَ تعذبني ؟ فيمَ تعظني ، وفيمَ تخيفني ؟ هل تريد أن أصبح مثلك ؟ هدا لا ينفع ! هه ، هه ، هه ! . . . تفو ! تفو ! . . .

جعل يتكلم ، يتلمظ بشفتيه ، ويبصق ويشخر ، ويتنهد . . . أدمنت الى وجهه النظر ، وقد فغرت فمي دهشة . كان يبدو أنه يهرق جميع الاساءات المتراكمة ، والاهانات والاذلالات التي عاناها على يديّ منذ بداية رحلتنا . وكيما يسبغ القوة على مجادلاته ظل يدسّ اصبعه في صدري ناخزاً ، ويهزني من كتفي ، وفي اللحظات الأشد فعّالية يضغط رمّته بأكملها عليّ . وهطل المطر مدراراً علينا ، وتفجرت جلجلة متوالية من الرعد فوق رأسينا ، وجعل شاكرو ، كيما يسمعني صوته ، يصيح بأعلى ما لديه من قوة .

كانت سخافة مركزي أكثر ما صعقني قوة وأرغمنى على الانفجار في الضحك حتى مزقت خاصرتي . . .

واستدار شاكرو عني ، وهو يبصق عن قصد .

٨

كلما كنا نقترب من تيفليس كان شاكرو يستغرق في التفكير والاكتئاب . وظهر شيء جديد في وجهه الهزيل لكن الخالي من أي تعبير . وغير بعيد من فلاديكافقاز بلغنا قرية

جركسية وآجرنا نفسينا لموسم حصاد الذرة .

بعيد يومين من العمل مع الجراكسة الذين يتكلمون الروسية بصعوبة ويزجون أوقاتهم ضاحكين منا يلعنوننا بلغتهم الخاصة ، عزمنا على مغادرة القرية ، وقد أساءت إلينا تلك المعاملة المتزايدة العداء التى خصنا بها السكان . وعلى مسافة قرابة عشرة فراسخ من القرية أخرج شاكرو فجأة من تحت قميصه ربطة من شاش «ليزغيني» وأطلعني عليها في انتصار معلناً :

– لا حاجة الى العمل بعد الآن ! بعها – واستر كل ما نحتاج إليه ! وشتكفينا حتى تيفليس ! أتفهم ؟

كدت أنفجر غضباً . اختطفت القماش منه ورميته جانباً ، وتطلعت من فوق كتفي . فالجراكسة لا يحبون العبث بهم . قبل فترة وجيزة سمعنا القصة التالية من أحد القوزاقيين : عمد أحد المتشردين وهو يغادر القرية التي كان يشتغل فيها الى أخذ ملعقة حديدية . فأدركه الجراكسة ، وعثروا على الملعقة ، فشرخوا له معدته بخنجر ، ودفعوا الملعقة في الجرح ، ثم ركبوا جيادهم في هدوء وتركوه في السهب حيث التقطه القوزاقيون على شفا الموت . روى لهم القصة وأسلم الروح على الطريق الى قريتهم . وحذرنا القوزاقيون بشدة من الجراكسة أكثر من مرة . ورووا لنا قصصاً أخرى من الوتيرة ذاتها – ولم أجد سبباً يمنعنى عن تصديقهم .

ذكّرت شاكرو بذلك . انتصب أمامي مرهفاً سمعه اليّ . وعلى غير انتظار ، ودون أن ينطق بحرف ، عرى

أسنانه وضيّق فرجتي عينيه ، ووثب عليّ مثل القط . بقينا حوالي خمس دقائق مشتبكين فى عراك ، حتى أن رفع شاكرو صوته أخيراً صائحاً في غضب :

– هدا يكفى !

جلسنا منهكين قبالة بعضينا وقد شملنا الصمت فترة من وقت . تطلع شاكرو مفكراً الى الناحية التي القيت الشاش المسروق فيها ، وراح يتحدث :

– فيم تقاتل ؟ با ، با ، با ! . . . ما أغباك . هل سرقته منك ؟ أسفت لأنى اخدت القماس . أنا أرثي لك ، ولهدا سرقت . . . أنت من يتعين عليك أن تعمل ، فأنا لست قادراً عليه . . . مادا ينبغي أن أعمل ؟ أردت أن أساعدك . . .

حاولت أن أشرح له معنى السرقة .

كان ناقماً عليّ ، فأوضح قائلاً :

– أرجوك أن تخرس ! فلك رأس متل الحطب . . . ادا كنت تموت – فهل تسرق ادن ؟ حسناً ! وهل تسمى هده الحياة حياة ؟ إخرس !

خشيت أن أغضبه مرة أخرى ، فركنتُ الى الصمت . كانت تلك ثاني مرة يسرق فيها . الأولى ، يوم كنا على البحر الأسود ، سرق ميزان جيب من صيادي السمك اليونانيين . وهنالك أيضاً كان يمكن ان تسوء الأمور معنا الى أبعد الحدود .

سأل حين جنحنا الى هدوء ، ورتبنا الامور وقعدنا نستريح :

– حسناً . . . هل نتابع الطريق ؟

تابعنا طريقنا . كان مزاجه يزداد حدة مع مرور كل يوم ، فيروح يشخص إليَّ بغرابة من تحت حاجبيه المتجهمين . ومرة ، حين اجتزنا وادي داريال ، أخذنا ننزل في الطريق الى غودور ، بدأ يقول :

– في غضون يوم أو يومين . . . نصل الى تيفليس . تسه ، تسه !

وتلمظ بشفتيه ، واشرقت ملامحه اشراقة واسعة :

– وصلت الى بيتى : أين كنت ؟ كنت أسافر ! سأذهب الى حمام البخار . . آها ! وسآكل كتيراً . . . آه ، كتيراً ! وسأقول لأمي – أريد كتيراً أن آكل . . . وسأقول لأبي – اصفح عني ! فلقد وجدت كتيراً من الأحزان ، ولقد رأيت الحياة – بمختلف ضروبها ! المتسردون قوم طيبون . فادا التقيت أحدهم سأعطيه روبلاً ، وأصحبه الى الحانة ، أقول له اسرب خمرة . فلقد كنت متسرداً ! وسأخبر والدي . . . أن دلك الرجل – كان متل أخ كبير لي . . . وقد وعظني . وقد ضربنى ، دلك الكلب ! . . . وقد أطعمني . والآن ، سأقول ، أطعمه من أجل دلك . أطعمه سنة كاملة ! سنة كاملة – بجميع أيامها . أتسمع ، يا مكسيم ؟

كنت أحب أن أصغى إليه حين يتحدث على هذا الغرار . في مثل هذه اللحظات كان ثمة شيء بسيط طفولي فيه . ومثل هاتيك الأحاديث كانت لها شأنها بالنسبة اليَّ لأني لم أكن

أعرف أحداً في تيفليس ، وكان الشتـاء على الأبواب – وفي غودور ثلجتنا السماء . وكنت أعتمد على شاكرو الى حدّ ما .

مشينا مسرعين . ووصلنا الى متسخيتا ، عاصمة إيبيريا القديمة . وخططنا في اليوم التالي للوصول الى تيفليس .

من بعيد ، من مسافة تبلغ خمسة فراسخ تقريباً ، وقعت عيناي على عاصمة القوقاز قائمة بين جبلين . أنها نهايـة الطريق ! وكنت أحس بالسعادة من شيء ما – وكان شاكرو لامباليا . كان يمدُّ بصره الى الأمام بعينين مكتئبتين ويبصق لعاباً جائعاً ، وبين فترة وأخرى يشدُّ على معدته في تشنجات من الألم . لقد أكل الجزر الذي كنا نقتلعه عن جانبي الطريق دون حذر .

– أتحسب أنني ، وأنا النبيل الجورجي ، سأدخـل مدينتي في وضح النهار ، وأنا رث الثياب تغطيني الأوساخ ؟ أوه ، أبداً ، أبداً ! سننتظر حتى المساء توقف !

جلسنا الى جانب جدار بناء خاو ، ولفّ كـل منا آخر لفافة لديه ، ونحن نرتجف من البرد ، وشرعنا ندخن . كانت ريح مريرة قاسية تهبُّ من «طريق جورجيا العسكري» . فقد قعد شاكرو يرندح أغنية حزينة . وفكرت أنا في غرفة دافئة وفي كل فوائد نار ملتهبة فوق وجود متشرد .

نهض شاكرو ، وقد ارتسمت على سيماه ملامح من اتخذ قراره :

– سنذهب !

كانت الظلمة تتراخى . انها فترة اشعال المصابيـح في المدينة . كان ذلك حلواً : فالأضواء ، واحداً بعـد الآخر ،

وبصورة تدريجية ، تشعُّ في العتمة التي غمرت الوادي وأخفت المدينة .

– هاي ، اعطنى هدا الباسليق * أخفي به وجهى ، والا عرفني أصدقائي . – اعطيته ذلك الباشليق . كنا نسير في شارع أولجينسكايا . وكان شاكرو يصفر لحناً حاسماً .

– مكسيم ! أترى موقف الكونكا * * ذلك – جسر فيريسكى ؟ اجلس هنالك ، وانتظر ! أرجوك . انتظر ، سأصل الى أحد البيوت ، وأستفهم من أحد الأصدقاء ، عن أهلي ، أبي ، أمي . . .

– هل تغيب طويلاً ؟

– لن أغيب طويلاً ! دقيقة واحدة !

انزلق سريعاً في فم زقاق ضيق مظلم ، وأختفى فيه . . . الى الأبد .

لم ألتق ذلك الرجل بعد ذلك أبداً – رفيقي في الطريق طوال أربعة شهور من عمري ، ولكنني أذكره غالباً في نشوة حقيقية ودودة .

علّمني أشياء كثيرة لا استطيع العثور عليها في الصفحات الكثيفة التي خطها الحكماء – ذلك ان حكمة الحياة هي أعمق دائماً واكثر شمولاً من حكمة الرجال .

١٨٩٤

* الباشليق – الطرطور أو القبعة .

* * كونكا – ترام يجره أحصنة .

الجد ارخيب وليونكا

كانا ينتظران الطوف متمددين في ظل الضعة المرتفعة ، يمدان بصريهما في صمت الى أمواج نهر كوبان السريعة العكرة المتدفقة عند قدميهما . كان ليونكا قد أغفى ، والجدّ أرخيب يحسّ في صدره ألماً أصمّ مرهقاً ولا يجد الى النوم وسيلة . وكان شبحاهما الرثان المتقلصان ينصلان بصعوبة عن قاع الأرض الأسمر القاتم ، فكأنهما بقعتان من هذه الأرض تثيران رثاء وشفقة ، احداهما أكبر من الأخرى قليلاً ، والثانيـــة أصغر من الأولى بقليل . وكـــان وجهاهما المتعبان اللذان لوّحتهما الشمس وكساهمـــا الغبار يتناسقان تماماً مع لون أسمالهما المتوحشة .

كان جسد الجد أرخيب الطويل المتعظم يقطع لسان الرمل الضيق المتطاول في شريط أصفر على طول الشاطىء ، بيـــن النهر والضفة المرتفعة . وكان ليونكا النائم يجثم قرب جده أشبه ما يكون بهلال صغير . كان هشاً ، يلوح في أسماله مثل غصن ملتو ، منفصـــل عن الجد ، هذه الشجرة العجوز المتيبّسة التي حملتها أمواج النهر وطوّحت بهـــا في هذا المكان .

كان الجد يتطلع ، وقد رفع رأسه على مرفقه ، الى الضفة المقابلة المغمورة بأشعة الشمس ، المزدانة بشجيرات من الصفصاف . وكان يستطيع أن يميز بين هذه الجذوع النادرة حافة الطوف السوداء . انه الدمار والفراغ هناك ! وهـــذا الشريط الرمادي الذي تشكله الطريق ينفصل عن النهـــر

ويغطس في السهب ، مستقيماً ، جافاً ، كئيباً ، بصورة بائسة تبعث على الشفقة والرثاء .

كانت عينا الشيخ العكرتان الملتهبتـــان ، وقد احمرت أجفانهما وانتفخت ، تطرفان دون انقطاع ، ومحياه الملـــون بالغضون جامداً في تعبير ينم عن العذاب والاعياء . لم يكن يستطيع امتناعاً عن السعال من حين لآخر ، وعندها يرنو الى حفيده ويخفي فمه بيده . كان السعال جافاً ، مختنقاً ، يرفعه ويستهطل من عينيه عبرات كبيرة مستديرة .

وفيما عدا سعال الجد وضوضاء الأمواج الخامدة عـــلى الرمال كان السهب أخرس . . . انه يمتدّ عن جانبي النهر ، مترامي الأبعاد ، متوحشاً ، تحرقه الشمس اللاهبة ، الا هناك بعيداً بعيداً ، عند الأفق ، حيث يتموج محيط مذهّب مـــن القمح بأبهة عظيمة ، وعينا الشيخ لا تكادان تريان منـــه شيئاً ، تسقط عليه باستقامة سماء صافية تخطف الأبصار . وكان يرتسم عليه ثلاثة أشباح باسقة تمثل ثلاث شجرات حور نائية . كانت هذه الأشباح تصغر تارة ، وتعظـــم تارة أخرى ، والسماء والقمح تحت السمـــاء يترنحان ، يصعدان ويهبطان بصورة مستمرة . ثم يختفي كـــل شيء ويتلاشى بصورة مباغتة وراء الستار المتألـق المفضض الذي ينشره سراب السهب . .

وكان هذا الحجاب المتدفق ، البرّاق والمخادع ، يقترب أحياناً حتى يكاد يلامس ضفة النهر ، وعندئذ يبدو هو الآخر مثل نهر ينبع فجأة من السماء ، نقياً ساكناً مثل هذه السماء عينها .

وقتئذ كان الجد أرخيب ، الجاهل بهذه الحادثة ، يفرك عينيه ويفكر في كآبة أن هذه الحرارة وهذا السهب سينتزعان منه البصر مثلما انتزعا منه قبلاً قوة الساقين .

أن حاله اليوم أسوأ منها في هذه الأيام الأخيرة . كان يشعر أنه سيموت عما قريب ، فيتركه هذا الاحساس لامبالياً ، خالياً من أية أفكار ، فكأنه امام دين لا بدّ ان يسدده في أوانه المحدد . ولكنه كان يحب ، رغم ذلك كله ، أن يموت بعيداً عن هذا المكان ، في بلاده . وحين يفكر في حفيده يبلغ قلقه الأوج . . ماذا سيصير لليونكا اذن ؟

كان يطرح هذا السؤال على نفسه عدة مرات كل يوم ، فيحسّ كل مرة شيئاً ينقبض في باطنه ويتجلّد ، فيجتاحه غثيان شديد حتى ليتمنّى العودة الى بيته ، في روسيا ، حالاً دون أي ابطاء .

ولكن روسيا بعيدة ، ولن يصل اليها على أية حال ، بل سيموت في مكان ما على الدرب . الناس اسخياء ههنا في الكوبان . هم ميسورو الحال ، لكنهم مقيتون لا يكفون عن السخرية . وما كانوا يحبون المتسولين لأنهم أغنياء . . .

وجثمت نظرته المبتلة بدمعة على حفيده ، ومسح بيده القاسية ، بحذر ، على رأسه .

اضطرب الطفل ورفع اليه عينيه الزرقاوين ، عينين كبيرتين عميقتين ، تنمان عن تفكير يفوق سنه ، وتلوحان أعظم اتساعاً في محياه الناحل الصغير المحفور بآثار الجدري ، محياه الرقيق الشفتين ، الخالي من الدم ، بأنفه المدبب .

سأل :

- هل جاء ؟

واستكفّ يده ، ورنا الى النهر الذي يعكس أشعة الشمس .

شرع أرخيب يقول ، وهو لا يني يمسح على رأس حفيده :

- لم يأت بعد . انه لا يتحرك . انه ينتظر . لماذا يأتي الى هنا ؟ ليس انسان يدعوه ، فهو ينتظر اذن . . . أكنت نائماً ؟

فهزّ ليونكا رأسه بصورة غامضة ، وتمطى على الرمال . ولاذ اثناهما بالصمت .

صرّح ليونكا بعد قليل ، وهو يشخص الى النهر بثبات :

- لو كنت أعرف السباحة كنت استحممت . النهر سريع جداً ، ههنا ! ليس عندنا أنهار على هذا الغرار ، ما باله يضطرب ؟ انه يركض ، وكأنه يخاف أن يتأخر . . .

ونحىّ بصره عن الماء في شيء من عدم الرضى .

قال الجد مفكراً :

- اسمع ، يا صاح ! فلننزعنّ حزامينا ، ونربطهما ببعضيهما ، فأربط ساقك بهما عليك عندئذ غير الانزلاق في الماء ، فتستحم .

فردّ عليه ليونكا في صوت رزين :

- هيا ، يا جداه . ما هذا الذي تتخيل ! لعلك تحسب أن النهر لن يجرفك معه ؟ هو قمين باغراقنا معاً .

- هذا صحيح تماماً ! سوف يجرفني . أنظر كيف يندفع . مما لا ريبة فيه أنه يفيض في الربيع ، يا لطيف !

ويجب أن يكون ذلك رائعاً بالنسبة الى هذه الحقول ، هذه الحقول التي لا تنتهي !

لم تراود ليونكا رغبة في الاجابة ، فترك الجد يتحدث وحده . كان يمسك بيديه كتلة من الطين الجاف يفتتها بين أصابعه وعلى محياه سيماء الجد والتفكير .

وكان الجد يتطلع اليه ويفكر مغضن العينين .

بدأ ليونكا يقول في صوت خفيض رتيب ، نافضاً الغبار عن يديه :

– يا عجباً ! أنظر الى هذه الأرض . لقد أخذتها بين يدي ، وفركتها ، فاستحالت غباراً . . . لا شيء سوى حبيبات دقيقة تكاد لا ترى .

فاستوضح أرخيب ، وقد أخذته نوبة من سعال وجعل يتفحص من خلال عبراته الكبيرة عيني حفيده الكبيرتين ، الجافتين والبراقتين في وقت واحد :

– ماذا تريد أن تقول ؟

وأضاف حين هدأ سعاله :

– لماذا تقول هذا ؟

هزّ ليونكا رأسه ، ونبّر :

– هكذا . . لمجرد القول . بخ ، انها جميعاً على هذا الغرار !

وأشار بذراعه الى الضفة الثانية من النهر ، وأضاف :

– وقد بني كل شيء على هذه الأرض . . كم مدينة اجتزنا ؟ أكوام من المدن ! وثمة بشر في كل مكان . ما أكثر عددهم !

وحين لم يستطع ليونكا أن يتفهم فكرته جيداً ، عاد فاستغرق في التفكير في سكون ، متطلعاً حواليه .

ولاذ الجدّ برهة بالصمت هو الآخر ، وشرع يتحدث من جديد في صوت لطيف رقيق مقترباً من حفيده :

– أيها الخبيث الصغير ! لقد أصبت ، فكل شيء تراب . . . المدن والبشر ، وأنت وأنا ، نحن جميعاً من التراب ذاته . . . آه ، يا ليونكا ، يا صغيري ليونكا ! . . لو أنك ذهبت الى المدرسة ! . . كنت اذن تقطع شوطاً بعيداً . لكن ، ما عسى أن يكون مصيرك ؟ . .

وشدّ الجدّ رأس حفيده الى صدره وقبّله .

صاح ليونكا ، متحرراً من صمته ، مطلقاً شعره الكتاني من أصابع جده الخشنة المرتجفة :

– انتظر . . . ماذا قلت ؟ ذاك تراب ؟ المدن وكل ما هو موجود ؟

– انه الله الذي جعلها هكذا ، يا حبيبي – كل شيء اصله من الأرض ، والأرض تراب ، وكل شيء يموت على الأرض . . . هكذا هي الأمور ! ولذلك ينبغي على الانسان أن يعيش في العمل والذل . خذ فأنا الآخر سأموت عما قريب . . .

وأضاف بعد قليل بصوت مكتئب :

– أين عساك تذهب عندئذ بدوني ؟

ما أكثر ما سمع ليونكا جده يطرح هذا السؤال ، حتى لقد شبع من التفكير في الموت ، فأدار رأسه دون أن ينبس

بحرف ، وانتزع عرقاً من العشب وضعه في فمه وشرع يمضغه على مهل .

أما بالنسبة الى الشيخ فكان الموضوع حساساً . . . استفسر في لطف ، منحنياً على حفيده وهو يسعل من جديد :

– لم لا تقول شيئاً ؟ كيف ستدبر الأمور دوني ، قلْ ؟

فأجاب ليونكا في لهجة تنمّ عن الضيق وشرود الذهن ، وهو يلقي على الجد نظرة شزراء :

– لقد قلت ذلك من قبل . . .

اذا كان هذا الضرب من الحديث لا يرضيه فسبب ذلك أنه ينتهي الى الخصام في أغلب الأحيان . كان الجد يثرثر طويلاً عن اقتراب الموت ، فيصغي اليه ليونكا بانتباه كبير بادئ الأمر ، ويذعر من جدة الوضع الذي يعرض أمامه ويبكي ، ولكنه سرعان ما يتعب شيئاً فشيئاً ، فيكف عن الاصغاء ، ويستسلم لأفكاره الخاصة . ويلاحظ الجدّ ذلك فتثور ثائرته ، ويشكو من أن ليونكا لا يحب جده ، وأنه لا يعني بهمومه البتة ، ثم يتهمه أخيراً بأنه يتمنى موته .

– وماذا يعني «قلت ذلك» ؟ أنت ما تبرح أحمق صغيراً ، فلا تستطيع أن تفهم ماهية حياتك . ماذا تبلغ من العمر ؟ أنت في الحادية عشرة فحسب . أنت هش لا تصلح للعمل . أين عساك تذهب ؟ أتحسب أن الناس طيبين يساندونك ؟ آه ، لو كنت تملك مالاً فقد كانوا يساعدونك اذن على التهامه ، هذا ما تستطيع أن تكون على يقين منه . وهل تحسب أن طلب الصدقة أمر يبعث على السرور في سني؟ الانحناءات أبداً ، والتوسلات دائماً ! وهم يشتمونك ، بل

يضربونك أحياناً ويطردونك . . أتحسب حقاً أنهم يعتبرون المتسوّل انساناً ؟ كلا ! لقد قضيت عشر سنوات أتدحرج عبر العالم ، فأنا أفهم ما أقول . انهم يعطونك كسرة من الخبز فكأنها ورقة من فئة الألف روبل . ولا يكادون يعطونك اياها حتى يخيّل اليهم أن أبواب الجنة ستفتح أمامهم . فكّر قليلاً ، ما الذي يدفعهم الى الصدقة ؟ كي ينعموا براحة البال . انهم يفعلون ذلك في سبيل هذا وحده ، يا صغيري ، فلا تظننّ أنهم يشفقون عليك . انهم يرمون كسرة لك ، وبعدئذ يستطيعون أن يأكلوا دون خجل . والمرء الذي يأكل حتى يشبع هو حيوان مفترس لا يشفق أبداً على ذلك الذي تظلّ بطنه خاوية . انهما عدوان أبداً ، كل منهما للآخر شوكة فى العين . لا يغامران بمحاولة التفاهم وتبادل الرأفة .

وثارت حميّة الجدّ بفعل الغضب والمرارة ، فارتجفت شفتاه ، وأخذت عيناه العكرتان تتدحرجان بين أهدابه وأجفانه المحمرة ، بينا انحفرت الغضون في محياه المظلم .

لم يكن ليونكا يحب أن يراه على هذه الحال ، فانتابه شيء من الخوف .

-أنا أسألك ما عساك تفعل في هذا العالم . أنت طفل صغير ناحل ، أما العالم فحيوان مفترس . سوف يلتهمك في الحال . أما أنا فلست أريد ذلك . . . أنا أحبك ، يا صاح ! ليس لي سواك وليس لك سواي . . . كيف أستطيع الموت ؟ أن أموت وأتركك . . . لمن ؟ . . . يا رب ! . . . لِمَ لَمْ تحبّ عبدك ؟ لم أعد أملك القوة على الحياة ، ولا أستطيع كذلك أن أموت بسبب من الطفل ، فينبغي عليّ أن أذود عنه

واحميه . لقد حملته سبع سنوات . . . على ذراعي . . . العجوزين . . . يا رب ، مدّ لي يد المعونة !

جلس الجد وشرع يبكـــي ، ورأسه بين ركبتيـــه المرتجفتين .

كان النهر يهرب الى المنتأى ، ويهدر بصخب على الضخة فكأنه يريد أن يخنق بهديره تأوهات الشيخ . وكانت السماء البريئة من الغيوم تبتسم بصورة مضيئة ، وتسكب حرارة من نار ، وتصغي في هدوء الى ضجيج الأمواج المضطربة الصاخب .

قال ليونكا في صوت صارم ، وعيناه تنظران الى مكان آخر :

– هذا يكفي ، لا تبك ، يا جداه !

وأضاف ، وقد أدار محياه صوب جده :

– لقد تحدثنا عن هذا كله ، أليس كذلك . سوف أتدبر أمري ، سوف أطرق باب حانة ما في مكان ما . . .

فزمجر الجد الغارق في عبراته :

– سوف يضربونك . . .

فصاح ليونكا في شيء من التحدي :

– قد يكون ذلك وقد لا يكون . كلا ، لن يضربوني . ماذا يستطيعون أن يصنعوا بي ؟ لن أسمح لهم بذلك !

وسكت برهة ، وأضاف بعد قليل في صوت مخفوض :

– والا غدوت الى الدير . . .

فتنهدّ الجد ، وقد دبت الحياة في أوصاله :

– ليتك تفعل ذلك !

وطوته نوبة جديدة من السعال الخانق .

وتردد فوق رأسيهما صياح وهدير عجلات . وشقّ النداء المنطلق من أعماق الحنجرة الهواء صائحاً :

– القا . . رب ! . . القارب ! هيا !

فهبّا على أقدامهما ، وأخذا كيسيهما وعصويهما .

كانت عربة تصر بسائر عجلاتها قد اندفعت في الرمال ، ينتصب فيها قوزاقي واقفاً على قدميه ، ضمت رأسه قلنسوة من الفرو مالت على احدى أذنيه . كان يتأهب للصياح ، فهو يستنشق الهواء ، فاغراً فمه ، مقبباً صدره العريض ، وأسنانه البيض تتضوأ في اطار لحية سوداء حريرية تتسلّق الى ما تحت عينيه المحتقنتين بالدم . وكانت العين ترى تحت قميصه المفكوك الأزرار ومعطفه الملقى باهمال على كتفيه جسداً يغطيه الشعر لوّحته الشمس بنيرانها . كان كل شيء في هذا الجسد الكبير المتين البنيان ، كما في ذلك الحصان الأشهب الممتلئ لحماً ، الكبير هو الآخر بصورة شيطانية ، وكما في عجلات العربة العالية المطوقة بالحديد السميك ، كان ذلك كله يؤثر في النفس ، ويخلف فيها انطباعاً عميقاً من الصحة ، والعنفوان ، والقوة .

– هي . . . هيا ! . . .

رفع الجد والحفيد طاقيتيهما وانحنيا كثيراً ، غير أن القادم الجديد صاح في صوت رنان :

– صباح الخير !

وامتحن بعينيه الضفة المقابلة حيث الطوف الأسود يبرز من خلال أشجار الصفصاف بخراقة وتمهّل ، والتفت الى المتسولين يتفحصهما من قمة رأسيهما حتى أخمص قدميهما .

– من روسيا ؟
فردّ عليه أرخيب ، وهو ينحني :
– آه ، بلى ، يا سيدي الطيب !
– يموت الناس جوعاً هناك ، ما ؟
وقفز من عربته ، وأخذ يشدّ احد سيور الحصان .
– حتى الخنافس تموت جوعاً !
– آه ، أه ! حتى الخنافس . وهذا يعني بكلام آخر أنه لم يبق شيء من شيء ، وأنكم أتيتم على كل شيء . أنتم أقوياء عند الأكل ، أما العمل فقصة أخرى بكل تأكيد . ذلك أنه عندما يشتغل المرء جيداً ، كما ترى ، فهو يجد على الدوام ما يأكله .
– السبب الرئيسي ههنا ، يا سيدي الطيب ، هـــي الأرض . . . هذه الأرض ما عادت تنتج . لقد استنفدناها ، هذه الأرض .
هزّ القوزاقي رأسه :
– الأرض ؟ الأرض يجب أن تنتج باستمرار ، وهي ما أعطيت للانسان الا في سبيل ذلك ، قل بالأحرى انها ليست الأرض ، بل الأيدي . الأيدي سيئة . الأرض لا تقاوم الأيدي الجيدة ، بل تنتج .
وكان الطوف يقترب . . .
دفع قوزاقيان يضرب وجهاهما الممتلئان الأحمـران الى اللون القرمزي الطوف حتى الضفة في صخب شديد ، وقـــد تقوست قامتاهما فوق سيقانهما الكبيرة ، ثم تعثرا وألقيـا

المرساة ، وأخيراً تبادلا النظر وطفقا يلهثان .

– هل الطقس حار ؟

وافترت شفتا القادم الجديد عن ابتسامة عريضة ، ورفع يده الى طاقيته ، وتقدم بجواده على الطوف . قال أحد البحارة ، دافعاً يديه في جيبي سرواله المنتفخ ومتقدماً من العربة :

– ليس الطقس بارداً .

ورمى نظرة الى العربة ، وحرك أرنبة أنفه ، مستنشقاً الهواء ملء رئتيه .

أما الآخر فاقتعد أرض الطوف ، وشرع ينزع حذائيه مزمجراً .

تسلّق الجد وليونكا الطوف بدورهما ، واستندا الى حافته وراحا يراقبان القوزاق .

وأصدر صاحب العربة أمره :

– هيا ، فلننطلق !

سأله ذلك الذي تفحّص العربة :

– أفلا تحمل معك ما نشربه ؟

كان زميله قد نزع جزمتيه وجعل يتفحّص باطنى ساقيهما طارفاً بعينيه .

– كلا . ثم ماذا ؟ أفليس في الكوبان كفاية من الماء ؟ . .

– الماء ! . . . أنا لا أتحدث عن الماء .

– الخمرة اذن ؟ كلا ، لست أحمل خمرة .

فاستفسر الآخر متفكراً ، وعيناه تستقران على خشب الطوف :

– كيف يمكن أن يكون ذلك ؟

– هيا ، فلننطلق !

بصق القوزاقي في يديه وأمسك الحبل ، فتقدّم منه المسافر يساعده . وقال البحار صاحب الجزمة متوجهاً الى أرخيب :

– وأنت ، أيها الجدّ ، لماذا لا تقدّم له عوناً ؟

فقال الجد بنغمة مفعمة شكوى ، وهو يهزّ رأسه :

– كيف لي ذلك ، أيها الصديق ؟

– لا حاجة الى ذلك ، على أية حال . سيتدبران الامر وحدهما .

وكيما يقنع الجدّ بصدق كلماته ترامى بثقل على ركبتيه ، وتمدد على أرضية الطوف .

وبخه رفيقه متكاسلاً ، فلما لم يتلقّ منه جواباً ضرب الأرض بقدميه بصخب ، جاهداً أن يثير أقصى ما يمكن من ضوضاء . وكان الطوف ، وقد حمله التيار الهادر الذي يلطم جانبيه في صوت أصمّ ، يرتعش ، ويترنح الى الأمام والخلف ، ويتقدم على مهلة .

كان ليونكا يحملق في الماء ويحسّ رأسه يدور في لطف ، وعينيه المتعبتين من جريان الأمواج السريع تلتصقان رغبة في النوم . كان همس الجدّ الأصم ، وصرير الحبل ، والهدير الطنان تهدهده جميعاً . فيودّ أن يرتمي على الأرض من شدة اعيائه ورغبته في النوم . بيد أن شيئاً ما قلبه بصورة مباغتة فسقط على خشب الطوف .

تطلع حواليه وقد جحظت عيناه . كان القوزاق يهزؤون به وهم يشدون الطوف الى أرومة محترقة على الشاطئ .

– اذن كنت نائماً . أنت عاجز عن الوقوف على قدميك . اصعد الى العربة ، وسأقودك حتى القرية . اصعد أنت الآخر ، أيها الجد .

شكر الجدّ القوزاقي بصوت أراده أن يكون متهدجاً ، وتسلّق العربة مزمجراً ، وقفز ليونكا بدوره اليها ، فانطلقوا جميعاً في اعصار من الغبار الدقيق الأسود ، بينما راح الجد يسعل من جديد حتى يكاد أن يختنق .

وراح القوزاقي ينشد أغنية . كان يغني بأصوات غريبة ، ينتزع الالحان بعنف ويختتمها بالصفير . كنت تقول انه ينشر الأصوات مثل خيطان كبة الغزل ، فاذا ما صادف عقدة قطع الخيط قطعاً .

كانت العجلات تصر شاكية ، والغبار يدوّم ، والجدّ يهزّ رأسه ويسعل دون انقطاع ، بينما ليونكا يفكر أنهم سيكونون بعد برهة وجيزة في القرية القوزاقية ، وأنه ينبغي عليه أن يستجدي تحت النوافذ بصوته الأخن : «أيها الرب يسوع المسيح . . .» وسيشرع الأطفال يسخرون منه من جديد ، والنساء يضايقنه بالأسئلة عن روسيا . لم يكن يجب ، في مثل هذه الأحيان ، أن ينظر الى الجدّ الذي لا يكفّ عن السعال ، منحنياً كثيراً في حال من الضيق والالم ، ويتحدث بصوته الشاكي ، ويتأوه ، ويروي أشياء لم توجد قط في اي مكان على الاطلاق . . . كان يقول ان الناس في روسيا يموتون في الشوارع ، وانهم يُبعثون هكذا حيث يموتون ،

وإنه ليس ثمة إنسان يرفعهم لأن الناس جميعاً أرهقهم السغب وهدّ قواهم . . . وهما لم يريا شيئاً من ذلك في الأمكنة التي مرا بها ، بيد أنه ينبغي رواية ذلك كله لاجبار الناس على العطاء . لكن أين يمكنهما ههنا أن يدسا الصدقة ؟ كانا يستطيعان في بلدهما أن يبيعا الخبز بسعر أربعين كوبيكا ، بل نصف روبل ، لكل ستة عشر كيلوغراماً ، أما ههنا فليس من يريد هذا الخبز . ومن ثمّ لا بدّ من القاء قطع جيدة منه في السهب .

سأل القوزاقي ، وهو يتطلع من فوق كتفه الى الشبحين المتقلصين :

– هل ستستجديان ؟

فأجاب الجدُ أرخيب متنهداً :

– لا مناص من ذلك ، يا سيدي الطيب !

– قم على قدميك ، أيها الجد . سأدلك على مسكني فتجيء لقضاء الليل عندي .

حاول الجدُ أن ينهض ، ولكنه سقط من جديد ، واصطدمت أضلاعه بحفاف العربة ، فزمجر في صوت حاد .

وتمتم القوزاقي مشفقاً :

– وَيْ ! أيها العجوز ! لا عليك ، فليس من حاجة الى مرافقتي . عندما تحين ساعة الرقاد اسأل عن الأسود ، أندريه الأسود الذي هو أنا . والآن إنزل . وداعاً !

وقف الجد والحفيد أمام باقة من أشجار كنت ترى من خلف الجذوع سقوفاً ، وحواجز ، وباقات الأشجار ذاتها تنتصب في كل مكان ، عن يسار وعن يمين . وكانت أوراقها

الخضر مغطاة بغبار رمادي اللــون ، وقشرة الجذوى الكبيرة فيها شققتها الحرارة .

وكانت درب ضيقة تمتــدُّ أمام المتسولين باستقامة ، بين سياجين ، فسلكاها وهما يترنحان كما يفعل الناس الذين مشوا كثيراً .

سأل الجد :

– اذن ، يا ليونكا ، ما عسانا نفعل ؟ هل ننطلق معاً أم يتخذ كل منا طريقه الخاصة ؟

ولم ينتظر جواباً ، بل أضاف :

– يفضل أن ننطلـــق معاً ، فالناس لا يعطونـــك إلا القليل . أنت لا تعرف كيف تطلب . .

فأجاب ليونكا في نفور ، وعيناه تجولان فيما حوله :

– وما جدوى ذلك ؟ نحن عـــلى أية حال لن نأكـــل شيئا . . .

– ما جدوى ذلك ، يا غريـــب الأطوار ؟ . . لنفرض أنك وجدت شارياً بصورة لم تكن في الحسبان ؟ إليك ما تفعل به إذن ! سيعطونك مالاً ، والمال شيء عظيـــم . وبالمال تستطيع أن تتدبر أمورك بعد موتي .

ومسح الجد على رأس حفيده ، وهـــو يضحك في صوت خفيض :

– هل تعرف مبلغ ما جمعت أثناء موسم صيد السمك ؟ إيه ؟

فاستعلم ليونكا في لامبالاة :

– كم جمعت ؟

– أحد عشر روبلاً ونصف الروبل ! أرأيت ؟

لكن المبلغ ونغمة الجد الحماسية معاً لم يؤثرا في ليونكا أدنى تأثير .

تنهد الجدّ وقال :

– آه ، يا صغيري ، يا صغيري ! اذن فأننا ننطلق كلٌّ في طريق ؟

– أفضل ذلك . . . .

– حسناً . . . سنلتقي قرب الكنيسة . أتريد ذلك ؟

– اتفقنا .

سلك الجد الدرب الضيقة وانعطف الى اليسار ، أما ليونكا فتابع الطريق باستقامة . ولم يكد يخطو عشر خطوات حتى سمع صوتاً مرتعشاً : «أيتها النفوس الشفوقة . . .» كان هذا النداء يذكّر بضوضاء يد تمرّ على قيثارة لم تبضَّ أوتارها ، من الوتر الأضخم الى الوتر الأدق . ارتعش ليونكا واستحثّ خطاه . كان يحسُّ النقمة كلما سمع هذه التوسلات ، ويحسُّ شيئاً من الكآبة بالإضافة إلى ذلك . لكنه اذا ارتدّ الجدُّ خائباً مرة فقد كان يفقد الشجاعة ، ويتيقَّن أن الشيخ سينفجر في زمجرات مديدة .

كان لا يبرح يميز الأنغام المرتجفة الشقية السابحة في فضاء القرية القوزاقية الأهالي ، الشديدة الحرارة . وكان كل شيء حوله هادئاً مثله في الليل ، اقترب ليونكا من الحاجز وجلس في ظلّ شجرة كرز تتهدل أغصانها في الطريق . كان دويُّ نحلة يشخر في مكان ما .

رمى ليونكا جرابه عن كتفه ، وأسند اليه رأسه ،

وتأمل السماء برهة من خلال الأوراق فوقه ، واستغرق في نوم عميق ، تحميه من عيون السابلة أعشاب كثيفة مجنونة وظلُّ السياج المضفور المخطط .

أهبَّته من رقاده أصوات غريبة سابحة في الفضاء المنتعش باقتراب المساء . كان شخص يبكي بالقرب منه . تلك كانت دموع صبي صغير ، دموعاً ناقمة لا ينضب لها معين . وكانت الزفرات تنطفئ بلحن حاد ، ثم تنفجر من جديد بصورة مباغتة وتنتشر بقوة جديدة ، وهي تزداد قرباً دون انقطاع . فرفع ليونكا رأسه وشخص الى الطريق من خلال الأعشاب .

شاهد طفلة صغيرة يمكن أن تكون في السابعة تدنو منه ، نظيفة الهندام ، محمَّرة الوجه منتفخته بفعل العبرات التي لا تبرح تجففها بطرف تنورتها البيضاء . كانت تسير على مهلة ، تجرُّ قدميها العاريتين على أرض الطريق باعثة في الفضاء سحابة من الغبار ، وهي لا تدري بكل تأكيد أين تذهب أو ما تفتش عنه . كانت عيناها كبيرتين سوداوين ، ملأهما الغضب فهما حزينتان مبتلتان ، كما أن أذنيها كانتا دقيقتين ورديتين تبرزان في قحة من تحت جدائلها الكستنائية الهائجة المترامية على جبهتها ، ووجنتيها ، وكتفيها .

وجدها ليونكا مرحة باعثة على التسلية رغم عبراتها ولقد كانت لعوباً . هذا ما لا ريبة فيه .

استفسر ، وهو ينتصب على قدميه عندما حاذته :

– ما بالك تبكين ؟

انتفضت وتوقفت في مكانها . كفت عن البكاء بغتة ، لكنها

استمرت تنشج في صوت خفيض . نظرت اليه بضع ثوان ، وارتعشت شفتاها من جديد ، وأكتسى وجههـــا بالغضون ، ولهث صدرها ، وعاودت البكاء في صخب وقد تابعت طريقها .

أحسَّ ليونكا شيئاً ينقبض في أعماقه ، فانطلق بغتة ، هو الآخر ، يلاحقها .

شرع يقول قبل أن يدركها :

– لكن ، لا تبكي . صبية كبيرة مثلك . أفلا تخجلين ؟

وحين لحق بها حملق في وجهها ، واستوضح من جديد :

– هيا ، ما الذي يحملك على النحيب ؟

فزعقت :

– آه . . . . ! . . . لو أنك . . .

وتهاوت بصورة مباغتة في غبار الطريق ، وغطت محياها بيديها ، وزمجرت في يأس .

بدرت من ليونكا إشارة تنمُّ عن الاحتقار :

– هيا ! أنت لست سوى امرأة ! . . . امرأة حقيقية ! تفو ! . . .

غير أن ذلك لم يسوِّ شيئاً من الأمور ، لا بالنسبة اليها ولا بالنسبة اليه . وحينما شاهـــد ليونكا الدموع الصغيرة تسيل من بين أصابعها الدقيقة الوردية انتابه الحزن هـــو الآخر وراودته رغبة في البكاء . انحنى عليها ، ورفع يده في حذر ولامس شعرها . لكنه ذعر في اللحظة ذاتها من جرأته . وسحب يده . وكانت لا تبرح تبكي ، ولا تقول شيئا .

عاد ليونكا يقول بعد صمت قصير ، وكان يحسُّ حاجـة ملحة إلى مساعدتها :

– أتسمعين ؟ ما بالك ؟ ضربوك ، أليس كذلك ؟ إن كان الأمر على هذا الغرار ، فلا عليك ! أم لعلّ هناك سبباً آخر ؟ تكلمي ! وَيْ ، أيتها الصغيرة !

هزت الصغيرة رأسها بكآبة دون أن ترفع يديها عن وجهها ، وأجابته أخيراً في بطء من خلال تأوهاتها ، وهي تهزُّ كتفيها :

– لقد أضعت . . . وشاحي . . . أتاني به والدي من المعرض . . . كان أزرق اللون ، وفيه أزهار ، وقد لبسته وأضعته .

وعاودت البكاء أكثر من ذي قبل ، وهي تتأوه وتطلق زمجرة غريبة : أو – أو – أوه !

أحسّ ليونكا أنه لن يفيدها شيئاً ، فابتعد عنها مرتبكاً ، وسما ببصره إلى السماء التي بدأت تسودُّ متفكراً مكتئباً . كان قلبه ثقيلاً ، وكان يرثي للطفلة . همس في صوت مخفوض :

– لا تبكي . . . قد يعثرون عليه . . .

وحين أدرك أن جهوده لتعزيتها لا تنفع شيئاً ابتعد عنها أكثر منه قبلاً ، مفكراً أن أباها سيقتصُّ منها لا محالة . وتخيَّل الأب في الحال ، قوزاقياً ضخماً أسود الشعر ، وهو يضرب ابنته ، والصغيرة تتجرجر عند قدميه وقد سبح محياها في الدموع ، وراح جسدها برمته يرتجف خوفاً وألماً . . .

نهض مبتعداً ، ولكنه ما قطع خمس أو ست خطوات حتى

التفت فجأة ، ووقف قبالتها مستنداً إلى السياج ، وحاول أن يتذكر بعض الكلمات اللطيفة الطيبة .

– ينبغي أن تبتعدي من عرض الطريـــق ، يا صغيرة ! هيا ، كفي عن البكاء ! اذهبي إلى بيتـــك وقولي كل ما حدث لك . قولي انك فقدته . . . ما الذي يؤلمـــــك حتى هذه الدرجة ؟

كان صوته أول الأمر لطيفاً مشفقاً ، وحينما انتهى بهتاف ثائر سُرّ لرؤيتها تنهض عن الأرض . فأسترســـل يقول مبتسماً بنبرة تغمرها السعادة :

– هذا أفضل ! اذهبي إلى البيت في الحال ! إذا شئـت رافقتك ورويتُ كل شيء . سوف أدافع عنك . لا تخافي !

وهزّ ليونكا كتفيه في اعتزاز بعد أن القى حواليه نظرة .

همست ، وهي تنفض الغبار ببطء عن ثوبها ولا تبرح تنشج :

– لا ضرورة لذلك . . .

فأعلن ليونكا في صوت مرتفع ، وفي اندفاعـة حماسية ، وهو يميل طاقتيه على أذنه :

– إذا شئت أرافقك .

إنه يقف الآونة أمامها مقوساً بمتانة فوق ساقية ، تلوح الأسمال التي يرتديها وقد انتفشت بجرأة . كانـــت عصاه تضرب الأرض بقوة وثبات ، وهو يحدّق بعناد في الصغيرة ، بينا عيناه الواسعتان الكئيبتان تبرقان بعاطفـــة من الكبرياء والشجاعة .

ألقت اليه الصغيرة نظرة منحرفة ، وفركت الدموع على وجهها وقالت ، وهي تصعّد تنهيدة جديدة :

– لا ضرورة لذلك . لا تأت . . . أمـــي لا تحـــب المستعطين .

وابتعدت ، بعد أن التفتت مرتين .

انتاب الضجر ليونكا . . . بدّل وقفته الصارمة المتحدية بحركة بطيئة غير محسوسة ، وانحنى من جديد ، متواضعاً ، وألقى جرابه على ظهره بعدما كان يتدلى من ذراعه حتى ذلك الحين ، وصاح بالفتاة التي كانـــــت توشك أن تتوارى في منعطف الدرب الضيقة :

– وداعاً !

كانت قد التفتت اليه أثناء سيرها وتوارت .

المساء يقترب ، والجو مشحون بتلك الحرارة الخاصة ، الخانقة ، المرهقة ، المعلنة عن اقتراب العاصفة . وكانـــت الشمس واطئة وذرى أشجار الحور تنصبغ بلـــون قرمزي طفيف . . . لكن ظلال المساء التي تلف أغصان تلك الأشجار تجعل أشباحها العالية الجامدة أشدّ كثافة وأكثر ارتفاعاً . . . وإلى الأعلى منها أظلمت السماء أيضاً متخذة أصبغة مخملية وهي تلوح كأنها تهبط أكثر فأكثر في اتجاه الأرض . وكان بعض الناس يتحدثون في مكان مـــا بعيداً ، وغناء يرتفع في مكان أبعد ، لكن من ناحية أخرى . وكانـــت هذه الأصوات الضعيفة والمليئة في الوقت ذاتـــه تلوح ، هي الأخرى ، مشحونة بهذا الجو الخانق .

كان ضجر ليونكا يتزايد دون انقطاع ، بل انتابه الخوف

أيضاً . راودته رغبة في اللحاق بجدّه ، فتلفت حواليه وتقدم في الدرب الضيقة بخطوات سريعة . لم تكن به رغبة في طلب الصدقة ، فكان يمشي ويحسُّ أن قلبه يخفق بسرعة عظيمة ، عظيمة جداً ، في صدره ؛ وأن به نوعاً من كسل خاص يمنعه من المشي والتفكير . . . لكن الفتاة الصغيرة لم تبارح فكره ، فهو يتساءل عما تراها تفعل الآن . إذا كانت من أسرة غنية فسيضربونها لأن جميع الأغنياء بخلاء يتمسكون بالقرش الزهيد . لكنها اذا كانت فقيرة فقد لا يضربونها . . . إن العائلات الفقيرة تحبُّ الصغار كثيراً لأنها تعتمد على عملهم . كانت هذه الأفكار تضطرب دون هوادة ، تلاحق بعضها بعضاً في رأسه . وكان إحساس من العذاب المرهق الجارح ، الملتصق بأفكاره مثل الظل ، يثقل عليه أكثر فأكثر في كل لحظة ، ويجتاحه بقوة عظيمة .

وكانت ظلال المساء تزداد كثافة وارهاقاً . إن بعض القوزاق ، رجالاً ونساء ، يمرون بليونكا دون أن يعيروه التفاتاً . لقد اعتادوا هذه الموجة العارمة من الجياع القادمين من روسيا . وكان هو الآخر يمرُّ بنظراته الخامدة بكسل على أشباحهم الشبعانة الشاهقة ، ويخبُّ مسرعاً صوب الكنيسة التي يبرق أحد صلبانها خلف الأشجار .

ودفّ صوبه صخب قطيع في طريق عودته إلى حظيرته . ها هي الكنيسة الواطئة العريضة ، بابراجها الخمسة المصبوغة بالزرقة ، المطوّقة باشجار الحور المتجاوزة ذراها العالية الصلبان السابحة في أشعة الغروب والمتألقة من خلال الخضرة ذات الانعكاسات الذهبية الموردة . وها هو الجد

يقترب من ناحية فناء الكنيسة ، منحنياً تحت ثقل خرجه ، متطلعاً في كل حدب وصوب ، ويده ملتصقة بجبهته .

ان قوزاقياً ثقيل المشية المهيبة يتبعه لابساً طاقية تغور عميقاً فوق جبينه ، وممسكاً عصاً في يده .

سأل الجدّ ، وهـــو يقترب من حفيده الذى ينتظره قريباً من بناء الكنيسة :

– إن كيسك فـــارغ ، أليس كذلك ؟ أمـــا أنا ، فانظر . . .

ونزع كيسه المليء حتى يكـــاد أن يتشقق عن كتفه ، ووضعه على الأرض وهو يلهث :

– أف ! . . . ان الناس محسنون ههنا ! وذلك رائع ! لكن ما بالك تكتئب هكذا ؟

فقال ليونكا في صوت خفيض ، وهو يجلس عـلى الأرض إلى جانب جده :

– رأسي يؤلمني .

– قل . . . إنك متعب . . . ولـــم تعد تحتمل ! . . إليك ، سوف نسعى إلى النوم في الحال . ما اسمه ، ذلـــك القوزاقي . إيه ؟

– أندريه الأسود .

– حسنا . سوف نسأل : أين يقطن أندريه الأسود ؟ إليك . هذا شخص يأتي من هذه الناحية . أجل . هؤلاء قوم شجعان ، شبعانون ! وهم لا يأكلون غير خبز القمح . طاب يومك ، أيها الرجل الطيب !

فاقترب القوزاقي منهما ، وقال في صوت متمهل رداً على تحية الجدّ :

– طاب يومك أنت أيضاً !

وتقوّس على قدميه ، وحدق بالمتسولين بثبات بعينيه الخاليتين من كل تعبير ، وحك رقبته دون أن يقول شيئاً .

احتار ليونكا في تعليل هـــذا السلوك ، بينا راح الجدّ يطرف بعينيه متسائلاً . وظلّ القوزاقي معتصماً بالصمت ، وأخيراً أخرج لسانه قليلاً ليلتقط طرف شاربه . وحيـــن نجح في هذه العملية سحب شاربـــــه إلى فمه ، ومضغه ، وأخرجه بطرف لسانه ، وحطم أخيراً ذلك الصمت المرهـــق قائلاً في صوت كسول :

– هيا ، اتبعاني الى المركز .

فأنتفض الجد ، واستفسر :

– لماذا ؟

وأحسّ ليونكا رعشة في أعماقه .

– يجب ذلك . لقد تلقيت الأمر به . هيا !

وأدار لهما ظهره وهمّ بالمسير ، ولكنـــه ألقى نظرة سريعة إلى الخلف ولمح أنهما لم يتحركا من مكانيهما ، فصاح في صوت أجش :

– أيجب أن أجرّكما جراً ؟

عندئذ لحق به الجد وليونكا بما وسعهما من سرعة .

كانت عينا ليونكا مثبتتين في جـــده ، وحينما شاهـــد شفتيه ترتعشان ورأسه يرتجف ، ورآه يلقي فيما حولـــه نظرات مذعورة وينبش سترته ، راوده شعور بأنه ارتكب

الحماقات مرة أخرى ، مثلما فعل مرة في تامان . وشرع الخوف ينتابه حينما فكر في قضية تامان . لقــــد سرق الجد يومئذ بعض الثياب الداخلية من فناء احدى الدور فقبضوا عليـــه والأشياء التي سرقها بين يديه . ولقــــــد سخروا منهما ، وأهانوهما ، بل بلغ الأمر أن ضربوهما ، وأخيراً طردوهما من القرية في زحمة الليل . . . وأمضيا ذلك الليل في مكان ما من ضفاف المضيق على الرمال ، حيث زمجر البحر بصورة مخوفة الليل بطوله . وكان البحر يئن تحت وطأة الأمواج المرتدة . ولقد زمجر الجد طوال الليل وابتهل إلى الله ، متهماً نفســه باللصوصية ،متوسلاً إليه أن يغفر له .

– ليونكا . . .

وانتفض الطفل لضربة في خاصرته ، ونظر إلى جده . كان وجهه قد استطال وأصبح أكثر جفاء وظلمة منه عادة ، وهو لا يني يرتجف .

كان القوزاقي يسبقهما في خمس أو ست خطوات ، يدخن الغليون ، ويقتطع بضربات من عصاه رؤوس الأرقطيون دون أن يلتفت إلى الوراء مطلقاً .

همس الجد في صوت يكاد لا يُسمع :

– إليك ، خذ . . . إرمه في العشب . . . وعيّن المكان حيث رميته ! لسوف نرجع ونفتش عنه فيما بعد .

والتصق بحفيده وهو يتابع سيره ، ودفع في يده خرقــة ملفوفة على صورة كرة .

ابتعد ليونكا مرتعشاً خوفاً . واخترقته قشعريرة متجلدة بصورة مباغتة من رأسه حتى قدميه ، واقترب من الحاجـز

حيث تنمو بعض الأعشاب البرية بغزارة . مدّ يده ، وعيناه مثبتتان بالكتفين العريضتين للقوزاقي الذي يرافقهما ، ورمى الخرقة بين الأعشاب . . .

انتشرت الخرقة أثناء سقوطها فاستطاع ليونكا أن يرى وشاحاً أزرق فيه أزهار ترك مكانه في الحال لصورة الصبية الصغيرة الباكية . انتصبت أمامه فكأنها نابضة بالحياة ، فلم يعد ليونكا يرى القوزاقي ، أو جده ، أو أي شيء آخر حوله . . . ملأت أذنيه من جديد ضوضاء نحيبها ، فخيّل اليه أن دموعا شفافة تساقط على الأرض أمامه .

وهكذا دخل في حال من اللاشعور تقريباً إلى المركز وراء جده ، وسمع خريراً أصم لم يستطع ولم يشأ أن يفهمه . ورأى ، فكأنما من خلال ضباب كثيف ، كسر الخبز تنسكب من خرج جده على الطاولة الكبيرة ، وأصغى إلى هذا الخبز يقرع الطاولة بصوت حاد طريّ . ومن بعد انحنت رؤوس عديدة مغطاة بقبعات عالية على المائدة . لقد كانت الرؤوس والقبعات كئيبة قاتمة ، وكانت تهديدات رهيبة تتصاعد وتترنح من خلال الضباب الذي يشملها هي الأخرى ، ثم تمتم الجد بغتة بضع كلمات بصوت أجش ، ودار مثل الخذروف في يدي شابين متيني البنيان .

صاح الجد في صوت مختنق :

– أنتم مخطئون ، أيها الأخوة الطيبون ! أنا بريء ، والله شاهد عليّ !

وتهاوى ليونكا علي الأرض ، وقد غصت عيناه بالعبرات .

اقتربوا منه وأنهضوه عن الأرض ، وأجلسوه علـــى دكة ، ونبشوا الأسمال التي تغطي جسده الصغير .

زمجر صوت يقول :

- كذبت دانيلوفنا ، تلك اللئيمة !

فإذا هذا الصوت الغليظ الثائر يطرق أذني ليونكا طرقاً شديداً .

وارتفع صوت يردُّ على الصوت الأول في لهجة أشدّ منه ارتفاعاً :

- لعلهما أخفياه في مكان ما !

كان ليونكا يشعر أن سائر هذه الأصوات ضربات تنهال على رأسه ، فانتابه خوف شديد أفقده الوعي ، فكأنه غاص بصورة مباغتة في حفرة سوداء تفغر أمامه هاوية سحيقة .

عندما استردّ وعيه كان رأسه يرتاح على ركبتي جده ، ومحيا العجوز ينحني فوقه ، بائساً مغضناً أكثر منه في أي وقت آخر . وكانت عيناه تطرفان ذعراً ، وتقطران على جبينه عبرات صغيرة عكرة تدغدغه وتسيـــل على وجنتيـــه وفي عنقه . . .

- هل أنت أحسن ، يا صغيري ؟ لنذهبنّ من هنـــا ! لنذهب ، فقد أطلقوا سراحنا ، الملاعين !

نهض ليونكا شاعراً أن سائلاً ثقيلاً سكب في رأســـه الذي يوشك أن يسقط عن كتفيه بين لحظة وأخرى . أمسك رأسه بين يديه ، وهزه من جهـــة لأخرى ، وهو يتأوه في صوت خافت .

- إنه يؤلمك ، رأسك الصغير ؟ يا حبيبي ! . . . لقد

عذبونا . . يا للوحوش ! إن خنجراً قد تلاشى ، كما أن فتاة صغيرة أضاعت وشاحها . إذن فقد سقطوا علينا ! أواه ! يا رب ! . . . فيم تعاقبنا ؟

كان صرير صوت الجد يخمش ليونكا خمشاً ، فيحسُّ شرارة صغيرة محرقة تشتعل فيه وتبعده عن الرجل العجوز . ابتعد عنه وتطلع حواليه . . .

كانا يجلسان عند مخرج القرية في ظل كثيف لشجرة حور مشوهة . وكان الليل قد أرخى سدوله ، والقمر تكبَّد السماء ، ونوره الحليبي المفضض الذي يغمر فراغ السهب المتصل يلوح كأنما يُصيِّر هذا الفراغ أضيق ، وأقفر ، وأكثر حزناً . وفيما أبعد من السهب المختلط مع السماء كانت نتف من سحب ترتفع وتسبح في هدوء ، مخفية القمر وملقية على الأرض ظلالاً كثيفة . وكانت الظلال تلتصق بالأرض ، وتنزلق على مهل متفكرة ، ثم تضيع بصورة فجائية . كنت تقول إنها تختفي تحت الأرض ، من خلال الشقوق المسببة عن الضربات المحرقة التي ترسلها الأشعة الشمسية . وكانت بعض الأصوات تجيء من القرية ، وشعلات صغيرة تلتهب في مكان ما في المنتأى ، وتشعُّ فكأنها جواب عن النجوم الصافية اللون الذهبي .

قال الجد :

– فلنذهب ، يا حبيبي ! ينبغي أن نذهب .

فردّ ليونكا في صوت خفيض :

– فلنبق بعض الوقت .

كان يهوى السهب . فإذا عبره نهاراً أحبّ أن ينظر إلى

بعيد ، هنالك حيث تستند قبة السماء إلى صدر السهل العريض . وكان يتصور هنالك مدناً كبيرة رائعة ، يقطنها بشر طيبون لم يصادف لهم مثيلاً ، لن يحتاج أن يسألهم خبزاً ، بل سيعطونه إياه من تلقاء أنفسهم ، دون أن ينتظروا منه رجاء . . . ولكنه عندما كان السهب ، المنتشر على الدوام أعرض فأعرض أمام عينيه ، ينكشف فجأة عن قرية قوزاقية يعرفها من قبل ، شبيهة بأبنيتها وسكانها بالقرى التي سبق له أن رآها ، فهو يحسُّ الحزن والاضطراب لخطيئته .

وإنه لينظر الآونة متفكراً إلى المنتأى حيث تتقدم السحب الزاحفة على مهلتها . لقد كانت هذه السحب بالنسبة إليه دخان آلاف مداخن تلك المدينة التي ما أكثر ما يشتاق إلى رؤيتها . . . وقطع سعال الجد الجاف تأمله .

حدّق ليونكا بثبات في الوجه السابح في الدموع المستنشق الهواء في جشع .

كان القمر ينير هذا الوجه ، الغارق في ظلال غريبة تلقيها عليه الطاقية الشعثاء ، الحاجبان واللحية ، فيبدو بذلك الفم الكبير الذى يتحرك متشنجاً وتينك العينين الكبيرتين المفتوحتين ، المستنيرتين بإشراق خفي ، مخيفاً بائساً نوعاً ما ، يوقظ في ليونكا ذلك الشعور الجديد الذي يجبره على الابتعاد عن جده . . .

كان يهمس ، وهو ينبش بطانة سترته بابتسامة بلهاء :

– إذن فلنبق ، فلنبق بعض الوقت !

استدار ليونكا وشرع يتأمل البعد من جديد .

صرخ الجد بغتة بنغمة ظافرة :

– ليونكا ! . . . أنظر !

ومدّ إلى حفيده ، والسعال يكسره ، شيئاً طويلاً لامعاً ، وأضاف :

– من الفضة ! إنه من الفضة ! هذا يساوي خمسين روبلاً !

كانت يداه وشفتاه ترتعش جميعاً بالشراهة والألم ، ومحياه بأسره يكشرّ .

ارتعش ليونكا ودفع ذراع الجد عنه . همس في صوت متوسّل ، ملقياً نظرة سريعة حوله ليتأكد من عدم وجود إنسان بالقرب منهما :

– اخفه سريعاً ! . . آه ! يا جدي ، اخفه !

– ولكن ، ما بالك ، أيها الأبله الصغير ؟ أخائف أنت ، يا صغيري ؟ نظرتُ من نافذة فوجدته معلقاً . . . وضعت يدي عليه ، وهذا هو تحت سترتي . ولقد أخفيته بعد ذلك في السياج . وعندما خرجنا من القرية تظاهرت أني أضعت طاقيتي ، فانحنيت ولممته . . يا لهم من بلهاء ! والوشاح أيضاً لممته . إليك ، هذا هو !

وسحب بيديه المرتجفتين المنديل الضائع بين اسماله ، ولوّح به أمام وجه ليونكا .

وانشق حجاب الضباب أمام عيني الطفل وكشف عن هذا المشهد : ان ليونكا وجدّه يسلكان بأقصى ما يستطيعان من سرعة شارع القرية . انهما يتجنبان نظرات المارة ، ويسيران في خوف ، ويخيل إلى ليونكا أن حتى الريح تتمتع بحقّ جلدهما ، والبصاق عليهما ، وإهانتهما . . . ان كل ما يحيط

بهما من أسوار ، وبيوت ، وشجر ، يتأرجح في ملء ضباب غريب كأن الرياح تهزّه . . . وإن المرء ليسمـــع أصواتاً تدوي ، قاسية ثائرة . . . هذه الطريق لا تنتهي ، والمرء لا يرى مخرج القرية وراء الكتلة المتكاثفة المؤلفـــة من الدور المرتجة التي تتجه تارة صوبهما كمن يريد أن يسحقهما ، وتارة تبتعد إلى مكان ما لتضحك منهما في ملء وجههما باللطخ القاتمة لنوافذها . . . ويرتفع هتاف طنان بصورة مباغتة من إحدى النوافذ : «أيها السارقان ! أيها السارقان ! إنـــك سارق ، سارق صغير !» ويختلس ليونكا نظرة سريعة جانبية فيرى في النافذة الصبية الصغيرة التي رآها قبل قليل تبكي فأراد أن يحميها . . . لقد فاجأتها نظرته ، فمدّت لسانهــا له ، وألقت عيناها الزرقاوان الفاقعتان بريقاً قاسياً خبيثاً فوخزتا ليونكا مثل الإبر .

انبثق هذا المشهد في ذاكرة الطفل واختفى في اللحظـــة ذاتها دون أن يترك أثراً سوى الابتسامة الخبيثة التي ألقاها على محيا جده .

كان الشيخ يتكلم دون انقطاع ، يقاطعه سعاله من حين لآخر ، ويلوِّح بيديه ، ويهزُّ رأسه ، ويجفـــــف العرق المتصبب بقطرات كبيرة بين غضون وجهه .

وغطت سحابة ثقيلة مُمزّقة مُسننة وجه القمر ، فمـا عاد ليونكا يميز محيا جده إلا بصعوبة جمة . لكنه تمثـــل بجانبه الطفلة الباكية ، وأثار في خاطره شبحها وقاسها بجده فكرياً . . . الشيخ العليل ، الصافر ، الجشع ، المغطـــى بالأسمال ، إلى جانب الصبية التي أهانها الغارقة في دموعها

لكن صحيحة الجسم ، طرية ، جميلة . إن الجدّ يلوح كائناً لا نفع فيه ، يكاد أن يكون مثل كوشاي الأسطورة خبثاً وقرفاً . أيمكن ذلك ؟ لمَ جرحها ؟ إنه لم يكن واحداً من أفراد عائلتها . . .

وكان الجد يصفر قائلاً :

– لو أستطيع أن أجمع مائة روبلٍ ! . . . إذن أموت في هدوء . . .

فالتهب شيء ما ليونكا بصورة مباغتة :

– شِه ! إصمت بربك ، سوف تموت ، سوف تموت ... وأنت لا تموت . . .

ثم زعق ، وقد هبّ فجأة على قدميه مرتجف الأوصال :

– أنت تسرق ! يا لك من لص عجوز ! هيا إذن !

وشدّ قبضته الصغيرة الجافة وهزّها أمام أنف الجد الذي لاذ بالصمت على غير انتظار ، ثم تهاوى على الأرض بثقل ، وهو لا يبرح يقول من بين أسنانه :

– لقد سرقت طفلة . . . آه ، ما أجمل ذلك ! . . . عجوز ، وبماذا يُعنى . . . هذا لن يغفر لك في العالم الآخر !

فجأة اهتزّ السهب بأسره واتسع مغموراً بضياء زرقة تعمي الأبصار . . . وارتعش الضباب الذي كان السهب يرتديه واختفى طوال برهة وجيزة . وزمجر الرعد وتدحرج بصوت أصمّ فوق السهب ، مزلزلاً اياه والسماء على حدّ سواء ، هذه السماء التي يتقدم فيها سراعاً كتل كثيفة من الغيوم السود يغرق القمر في لجتها .

وخيمت الظلمة ، ولمع البرق ، ساكناً لكـن متوعداً ، في مكان لا يبرح بعيداً . ولم تمض ثانية حتى دوّى الرعد من جديد ، ضعيفاً متخاذلاً . . . ثم ساد سكون لاح أنه لـن ينتهي أبداً .

رسم ليونكا إشارة الصليـب ، بينا ظل الجد جالساً في مكانه جامداً أخرس فكأنه واحد من جذع الشجرة التـي يستند اليها بظهره .

– جداه ! . . . – همس ليونكـا منتظراً في الخوف المعذب رعدة جديدة . – لنذهب الى القرية !

ارتعشت السماء من جديد ، ومن جديد اندلع لهيـب أزرق ، وانهالت على الأرض ضربة معدنية جبارة ، فكأن آلاف الألواح الحديدية أُلقيت على الأرض تتصادم وتتناطح .

صاح ليونكا :

– جداه !

فتردد هتافه المختنق بصدى الرعد أشبه بضربة وقعت على جرس صغير مصدوع . وقال الجد في صوت أجش ، ودون أن يتحرك :

– ما بالك ؟ خائف ؟ . . .

وشرعت قطرات كبيرة من المطر تنهال مدرارة ، فترنُّ طقطقتها بصورة غريبة أشبه بإنذار خفي . كانـت هـذه الطقطقة تؤلف في المنتأى ضجيجاً مستمراً ، عريضاً ، شبيهاً باحتكاك فرشاة عملاقة بالأرض اليابسة . أما هنا ، بجانـب الجد والحفيد ، فقد كانت كل قطرة ترسل أثناء سقوطهـا

صوتاً جافاً مقتضباً ثم تموت دون صدى . وكانت أصوات الرعد تقترب دونما انقطاع ، والسماء تشتعل بتواتر أعظم .

قال الجد ، وهو يتنهد :

– لن أذهب الى القرية ! ما على المطر سوى اغراقي ... أنا كلب ، ولص . . . وليصعقني الرعد . لن أذهب ! ... اذهب اليها وحدك . انها هناك ، القرية . . . اذهب ! . . . لا أريدك على البقاء هنا . . . أذهب من هنا . . اذهب ! اذهب ! اذهب ! . . .

كان الجد يصيح الآن بصوت قوي مبحوح .

توسل ليونكا اليه ، مقترباً منه :

– جداه ! . . . اصفح عنى !

– لن أذهب . . . لن أصفح عنك . . . لقد هدهدتك طوال سبع سنوات . . . صنعت كل شيء في سبيلك . . . وعشت من أجلك . هل بي حاجة الى شيء ما ؟ . . أنا أموت كما ترى . . . أنا أموت . . . وأنت تنعتني باللص . . . لماذا أقدمت على السرقة ؟ من أجلك . . . هذا كله . انه من أجلك . . . اليك ، خذ . . . خذ . . . خذ . . . من أجل حياتك . من أجل حياتك كلها . . . قد جمعت . . . حسناً ، بلى . . . وقد سرقت أيضاً . . . الله يرى كل شيء . . . انه يعرف . . . أني سرقت . . . انه يعرف ذلك . . . وسوف يقتص مني . ولن يصفح عن سرقات كلب عجوز مثلي . ولقد اقتص مني منذ الآن . . . يا رب ! لقد عاقبتني ، أليس كذلك ؟ لقد عاقبتني ؟ . . قتلتني بيد

طفل صغير ! هذا صحيح ، يا رب ! هذا طبيعي ! . . . أنت عادل ، يا رب ! أرسل الى نفسي . . . أواه ! . . .

وارتفع صوت الجد الى زعيق صارخ أرسل الرعب في قلب ليونكا .

كانت الرعود التي تهزُّ السهب والسماء معاً تزمجر الآن عنيفة متدافعة حتى ليخال لك أن كلاً منها يريد أن ينقل الى الأرض رسالة مستعجلة ضرورية . وكانت هذه الرعود تتلاحق وتدوي دون انقطاع تقريباً . وكانت السماء الممزقة بالبروق ترتعش ، والسهب يرتعش أيضاً ، مشتعلاً تارة بلهيب أزرق ، غارقاً من جديد تارة أخرى في ظلمة باردة ، ثقيلة ، خانقة تضيقه بصورة غريبة . وكان برق يضيء البعد أحياناً ، فيتراءى أن هذا البعد يهرب في عجلة من هذا الصخب وهذه الزمجرات . . .

وأخذ المطر يهطل غزيراً ، فتخبىء قطراته ، المتخذة في ضوء البروق لمعاناً فولاذياً ، التذبذب المألوف لأنوار القرية .

كان ليونكا يموت ذعراً وهلعاً ، ويموت أيضاً باحساس ذلك العذاب الذي يرهقه به شعور غامض بجرمه بعد تلك الصيحة التي أطلقها الجدّ . كان يحدّق أمامه بعينين واسعتين ، ويخشى حتى أن يطرف بهما عندما تساقط عليهما قطرات من الماء تنزلق عن رأسه المبتلّ ، ويمدُّ اذنيه لصوت الجد الغارق في هذا البحر من الأصوات الصماء .

كان ليونكا يحسّ أن جده لا يتحرك ، لكنه يخال له أنه سيختفي ، أنه سيذهب الى مكان ما ويخلّفه وحيداً . اقترب منه شيئاً فشيئاً دون وعي منه ، وعندما لامس مرفقه

ارتعش متوقعاً حدوث شيء رهيب . . .

ومرق برق السماء مضيئاً هذين الكائنين الملتصقين ببعضهما بعضاً ، المتقلصين الدقيقين ، المتجلدين بما يسيل من جداول عن الأغصان . . .

كان الجدّ يلوّح في الهواء بيده متابعاً زمجرته ، لكن التعب اجتاحه أثناء ذلك وشرع يقطع عليه أنفاسه .

نظر ليونكا اليه وجهاً لوجه وأرسل صيحة من الرعب ... كان الوجه يلوح ، في ضوء البرق الأزرق ، ميتاً . بينما العينان الكامدتان المتدحرجتان فيه مجنونتان .

زمجر ، وهو يلقي رأسه بين ركبتي جده :

– جداه ! . . . فلنذهب ! . . .

انحنى الجدّ عليه ، وأخذه بين ذراعيه الرقيقتين المتعظمتين ، وضمّه اليه بشدة ، وبينما هو يشده الى صدره أرسل فجأة زمجرة حادة مثل ذئب وقع في الفخ .

انتزع ليونكا نفسه من عناقه ، وقد صيّره ذلك الصراخ أشبه بالمجنون ، ووثب واقفاً على قدميه ، وانطلق الى الأمام كالسهم ، واسع العينين ، تعميه البروق المتلاحقة ، يقع على الأرض كي ينهض ، ويغوص أكثر فأكثر في الدياجير المتلاشية تارة في لمعان البروق الأزرق ، المتكاثفة تارة أخرى حول الصبي الذي ذهب الخوف بصوابه .

وكان المطر الساقط يتابع ضوضاءه الباردة الرتيبة الحزينة . وكان يلوح أن شيئاً لم يحدث قط في السهب سوى ضوضاء المطر ، ولمعان البروق ، وزمجرة الرعد الغاضبة .

في صبيحة الغداة قفل بعض الصبية الذين خرجوا لنزهة

في الضواحي على أعقابهم في الحال ، وأنذروا القرية معلنين أنهم رأوا شحاذ البارحة متمدداً تحت شجرة حور وأنه قد ذبح من دون ريب ، لأنهم شاهدوا خنجراً مرمياً الى جانبه .

ولكنه حين جاء الشيوخ للتحقق من صحة الخبر وجدوا أنه لم يكن ثمة شيء من ذلك . كان الشيخ لا يبرح يتنفس ، ولما دنوا منه حاول أن ينهض عن الأرض فعجز . كان قد فقد القدرة على الكلام ، فهو يسألهم جميعاً بعينين دامعتين ، ولا يكفّ عن التنقيب بين الجمهور دون أن يجد شيئاً أو يتلقى جواباً .

مات حوالي المساء ، فدفنوه حيث وجدوه ، تحت شجرة الحور ، لانه لا يليق دفنه في المقبرة : فهو غريب أولاً ، وهو لص ثانياً ، وهو قد مات دون أن يعترف ثالثاً . ووجدوا الى جانبه ، في الطين ، الخنجر والوشاح .

وعثروا على ليونكا بعد يومين أو ثلاثة أيام .

فوق أحد أودية السهب ، قريباً جداً من القرية ، طفقت عصابات من الغربان تحوم بصورة مستمرة ، ولما ذهبوا يتقصون السبب في ذلك عثروا على الصبيّ المتمدد متباعد الذراعين ، منكب الوجه في الطين السائل الذي خلّفته الأمطار في قاع المجرى .

قرروا بادئ الأمر أن يدفنوه في المقبرة لانه صبي صغير ، لكنهم وضعوه بعد تفكير الى جانب جده تحت شجرة الحور . وصنعوا فوق القبر كومة من تراب وغرسوا فيها صليباً فظاً من الحجر .

١٨٩٤

العجوز ايزرغيل

١

هذه الأقاصيص سمعتها في احدى نواحي شاطىء بيسارابيا غير بعيد عن اكيرمان . . .

ذات عشية ، بعيد انتهائنا من التقاط حبات العنب ، انطلق المولدافيون الذين اعمل معهم الى الشاطئ الرملي ، فبقيت مع عجوز تدعى ايزرغيل مضطجعين على الارض في ظل عريشة كثيفة ، نراقب في صمت اشباح القوم الهابطين الى البحر وهي تختلط بظلال الليل الزرقاء المتساقطة .

كانوا ينحدرون الى الشاطئ الرملي يغنون ويضحكون ، الرجال في معاطف قصيرة وسراويل عريضة تضيق عند ركبهم ، ووجوه برونزية اللون لوحتها الشمس ، وشوارب سود كثيفة ، وخصل متجعدة من الشعر تسترسل حتى اكتافهم . والنساء والفتيات ضاحكات جذلات ، عيونهن زرق غامقة ، واجسادهن رشيقة ، ووجوههن برونزية اللون ايضا . كان شعرهن الحريري الاسود يسترسل طليقاً على ظهورهن ، وهبات النسيم الدافئ المترقرق بين ضفائرهن تجلجل النقود الزخرفية المربوطة بتلك الضفائر وتحملها على الرنين . وكانت الريح تهب في تيار عريض مستمر هفاف ، ولكنها تلوح ، بين فترة واخرى ، وكأنها تثب فوق عقبات غير منظورة ، ومن ثم تجيء نفحات ثقيلة تنشر شعر النساء في تموجات خيالية حول رؤوسهن ، خالعة عليهن منظر نساء

خرجن من بعض الاساطير الغريبة . وفيما هن يتناءين عنا راح الليل وخيالي يلفانهن بجمال فائق العذوبة والبهاء .

وتصاعد عزف على الكمان . وغنت صبية في صوت خفيض عذب ، وتردد صدى ضحك يدف من البعيد . . .

الهواء مشبع برائحة البحر اللاذعة ، وانفاس الارض الدسمة سقته وقد غزرت الامطار هطولاً عند انتشار الليل . وبعض اطمار من السحب الفخمة ، غريبة الألوان والأشكال لا تبرح تضيع في السماء ، رقيقة هنا مثل اكاليل من دخان رمادي اللون ضارب الى الزرقة ، كثيفة هناك مثل قطع من صخور سود غامقة او شاحبة . وفيما بينها قطع من السماء الزرقاء تشع بنور هادئ ، مزينة ببقع من نجوم صغيرة مذهبة . كان هذا كله - الانغام والعطور والسحب والبشر - جميلاً حزيناً بصورة غريبة . يلوح لي مثل بداية أقصوصة رائعة . كنت تقول ان كل شيء وقف في ملء نموه مسلماً للموت عنفوانه . وكان صخب الاصوات ينطفىء في البحر مستحيلاً الى زفرات مكتئبة .

سألتني العجوز إيزرغيل ، وهي تشير برأسها ناحية البحر :

- لِمَ لم تذهب برفقتهم ؟

كان الزمن قد طواها طياً . عيناها السوداوان فيما غبر من الزمن معتكرتان دامعتان . في صوتها الجاف نبرات غريبة متكسرة فكأنها تتكلم عن طريق عظامها .

أجبت قائلاً :

- لست أريد !

– اف ! أنتم الروس شيوخ منـــذ الولادة . عابسون ابداً مثل الشياطين . وفتياتنا يخفن منك . وأنت ، يا فتاي في زهرة الشباب ، متين البنيان . . .

نهض القمر ، فإذا قرصه الضخم المشربة حمرته بالدم يلوح منبثقاً من اعماق هذا السهب الذي ابتلع على مـــر الاجيال ، ما لا يحصى من أجساد بشرية ، وشرب ما لا يقدر من دم إنساني ، الأمر الذى قد يكون جعله دسماً كريمـــاً حتى هذه الدرجة . وكانت الظلال المخرّمة التي تلقيها الاوراق تسقط عليّ وعلى العجوز فتغطينا بما يشبه الشبكة . ومرت عن شمالنا ، على طول السهب ، غيوم مشبعة بشعاعات القمر الأزرق وقد أضحت أشد نقاءً وأكثر شفافية .

– أنظر ! هذا لارا يمر !

نظرت الى الناحية التـــي دلتني العجوز عليها بيدهـــا المرتجفة معقوفة الأصابع : ثمـــة ظلال عديدة تمر حيـــث أشارت ، يركض أحدها – أعظمها كثافة ودكنة – أسرع من اخواته وأخفض . كان يتساقط من سحابة تسبح بصورة أعجل من رفيقاتها وأقرب الى الأرض .

قلت :

– ولكن ، ليس من إنسان هناك !

– أنت أكثر عمىً من عجوز مثـلي . تطلّع ! أفلا ترى هنالك شيئاً حالك الدكنة يتراكض عبر السهل ؟

نظرت مرة أخرى ، ومن جديد لم أر غير الأخيلة .

– إن هو الا خيال ! لمَ تسمينه لارا ؟

– لأنه لارا . بلى ، هو اليوم أشبه ما يكون بالخيال !

ولا عجب في ذلك . هذي ألوف السنوات انقضت وهو يعيش . لقد جففت الشمس جسده دماً وعظماً ، وبعثرته الريح مثل الغبار . هذا ما يستطيع الله أن يصنع بإنسان فيعاقب غروره !

سألتها ، مستشعراً احدى تلك الاقاصيص الجميلة المؤلفة في أعماق السهوب :

– إروى لي كيف حدث ذلك .

فروت القصة التالية .

«مرت آلاف من السنوات منذ ذلك الحين . بعيداً فيما وراء البحر ، حيث تشرق الشمس ، تمتد شواطئ نهر كبير حيث كل ورقة من الأشجار وكل عرق من العشب يمنحان الإنسان ظلالاً تدرأ عنه وطأة شمس لاهبة .

«والارض أريحية في تلك المنطقة !

«هنالك كانت قبيلة قوية تحيا ، رجالها يرعون القطعان ، ويستنفدون قواهم وشجاعتهم في مطاردة الوحوش ، ويولمون غبّ العودة من الصيد ، ينشدون الأغنيات ، ويراقصون الفتيات .

«وفي ذات يوم ، خلال إحدى الولائم ، حطّ من السماء نشر اختطف واحدة من الصبايا . كان شعرها أسود ناعماً مثل الليل الطري . وتساقطت السهام التي رماه بها الرجال على الارض بصورة مخزية . عندئذ انطلق هؤلاء الرجال يبحثون عن الفتاة فما وقعوا لها على أثر . وكان ان نسوها مثلما كل شيء على هذا الارض يؤول الى النسيان» .

تنهدت العجوز تنهيدة عميقة وجنحت الى الصمت . كنت تقول ، وأنت تسمع الى صوتها المصرصر ، انك ترهف أذنيك الى احتجاج الأجيال المنسية الـــذي تجسده في صدرها ظلال الذكرى . وكان البحر يرافق بأنغامه العذبة مطلع إحدى تلك الأساطير العتيقة التي ربما على ضفافه نسجت .

«لكنها رجعت بعد عشرين سنة من تلقاء نفسها مرهقة عجفاء ، يصحبها فتى جميل قوي مثلما كانت هـــي عليه قبل عشرين سنة . سألوها أين كانـــت ، فردّت أن النسر الذي اختطفها حملها الى الجبـــال واتخذها ، هنالك عالياً ، لـــه زوجةً . وهذا الذي يرافقها هو إبنها . أما الأب فلم يعد من هذا الوجود . حينما راحت قواه تتدهور ارتفع الى شاهـــق السماء للمرة الاخيرة ، وطوى جناحيه ، وتهاوى عـــلى نصال الجبل فتحطم حتى الموت .

«حدّق الجميع في ولد النسر مشدوهيـــن . رأوا أنه لا يفضلهم في شيء . عيناه وحدهما كانتا باردتين فخوريـــــن كعيني ملك الطيور . كانوا يخاطبونه فيجيب حين يشاء ، او يظل بالصمت معتصماً . ولما اقترب شيوخ القبيلة منــــه خاطبهم مثلما يخاطب أقراناً له . ولقد وجدوا في ذلك إهانة لهم ، فنعتوه «بالسهم المنتوف الكليل الذؤابة» ، وقالوا له إن آلافاً من أشباهه ، بل من الذين يكبرونـــه مرتين سناً ، يكرمونهم ويخضعون لهم . أما هــــو فحدق فيهم في جرأة وصلف ، وأجابهم : إن الأرض خلت مـــن رجال على غراره ، وان العالم بأسره قد يكرمهم ، أما هو فلن يفعل ذلك ابداً . حينئذ غضبوا أيما غضب ، وقالوا :

«– ليس من مكان له فيما بيننا ! فليذهبن حيث يطيب له !

«انفجر ضاحكاً ، وذهب حيث طاب له . ذهب الى فتاة غيداء تنظر اليه في ثبات . ذهب اليها وأخذها بين ذراعيه . كانت ابنة أحد الشيوخ الذين أدانوه . دفعته عنها رغم جماله خشية من أبيها . دفعته وأرادت الابتعاد عنه ، فضربها بقوة . حينما سقطت أرضاً داس بقدمه على صدرها في عنف عظيم ، فانبثق الدم من شفتيها غزيراً صوب السماء . وتلوت الفتاة كالأفعى مرسلة زفرة حرّى ، ولفظت أنفاسها الأخيرة .

«ارتعدت فرائص سائر الذين كانوا هناك : إنها المرة الأولى التي يرون فيها امرأة تقتل بوحشية على هذا الغرار . ظلت ألسنتهم ملجومة فترة طويلة ، يشخصون الى الفتاة المستلقية على الارض جاحظة العينين دامية الفم ، والى الرجل الناهض وحيداً ضد الجميع ، المنتصب الى جانبها شامخ الأنف ، غير مطرق برأسه فكأنه يطلب العقاب . حينما استعادوا وعيهم أطبقوا عليه ، وقيدوه ، وتركوه مربوطاً معتبرين أن قتله مباشرة سيكون غاية في البساطة بحيث لا يروى غليلهم» .

كانت ظلمة الليل تشتد حلكة وتمتلىء بأصوات غريبة عذبة . . وفئران الحقل تصفر في السهب بكآبة ، وصرير الجنادب الفولاذي يتردد بين أوراق أشجار الكرمة وأوراق الشجر تتنهد وتوشوش ، وقرص البدر المكتمل – وكان أحمر مثل الدم قبل برهة وجيزة – يشحب بمقدار ما يتناءى

عن الارض ، وهو لا يني ينشر على السهب طفاوته المزرقـــة بغزارة متزايدة .

«وعندئذ تحلقـــــوا يستنبطون عقاباً جديـــراً بالجرم الفظيع . . أرادوا ان يسحقوه بحوافر الأحصنة ، لكن ذلك بدا في أعينهم شيئاً تافهاً بالنسبة الى ما يستحق . وخطر لهم أن يثقبوا جسده بالسهام ، ويطلق كل منهم واحداً ، لكنهم رفضوا هذا الحل أيضاً . . واقترحوا أن يحرقوه ، غير أن دخان المحرقة سيمنعهم إذن من رؤية عذاباتـه . . تناقشوا في كثير من صور العقاب ولم يجدوا عقاباً واحداً يرضيهـــم جميعاً . وكانت الأم لا تبرح جاثيـــة أمامهم ، لا تجد العبرات أو الكلمات التى تترجى رحمتهم . تحدثوا طويلاً الى ان قال أحد الحكماء بعد تفكير طويل :

«– فلنسأله فيم فعل ذلك .

«طرحوا عليه السؤال ، فأجاب :

«– حلّوا وثاقي ! لن أتكلم وأنا مغلول اليدين !

«حلوا وثاقه ، فاستفسر بنغمة سيد يخاطب عبيداً له :

«– ماذا يريدون مني ؟

«قال الحكيم :

«– لقد سمعت . . . .

«– وما يدعوني الى تفسير أفعالي لكم ؟

«– نريد أن نفهم ماهية هذه الأفعال . إسمع ، أيهـــا المتكبر ! لسوف تموت على أية حال ، أليس كذلك ؟ دعنا ندرك إذن لماذا فعلت ذلك ؟ نحــــن باقون في قيد الحياة . ويفيدنا أن نعرف أكثر مما نعرف .

«–فليكن . سأتكلّم . وإن كنـــتُ لستُ على يقين ، أنا نفسي ، من فهم ما حدث . لقد قتلتها ، فيما يؤتـى لي ، لأنها دفعتني عنها . . . وكنت في حاجة اليها .

«فقالوا له :

«– لكنها لم تكن لك .

«– ألا تستخدمون أنتم إلا ما هو ملك لكـم ؟ أنا أرى كل انسان لا يملك غير لسانه وذراعيه وساقيه . . . ومع ذلك يسيطر عـــلى الحيوانات والنساء والارض . . وأشياء أخرى كثيرة .

«أجابوه ان الانسان يدفع ثمن ما يأكل ، يدفع من ذكائه وقوته ، وأحيانـا مـن حياته . فـرد أنـه يريـد الاحتفاظ لنفســه بكـل شيء ، وأنـــه لا يرغـب في أن يدفع شيئاً .

«تناقشوا طويلاً ، فأدرك الشيوخ في النهاية أن الفتـى يعتبر نفسه الأول على هذه الأرض فلا يرى شيئاً فيما عداه .

«ارتعدت فرائصهم جميعاً عندما فهموا رهبة الوحدة التى أسلم نفسه اليها . لم تكن له قبيلة ، أو أم ، أو قطعان ، أو زوجة . ولم يكن يريد من هذا كله شيئاً .

«عندما ادركوا هذه الحقيقة أخذوا يتناقشون في أمـر عقابه من جديد . لم يطيلوا الحديث هذه المرة . فقد تركهم الحكيم يبدون آراءهم ، ثم استلم دفة الحديث :

«– رويدكم ! ثمة عقاب ، عقاب رهيب لن تجدوا لـه مثيلاً في ألف عام . عقابه يكمن في ذاته ! أطلقوا سراحـه واتركوه حراً . ذلكم هو عقابه !

«عندئذ حدث شيء عظيم . زمجر الرعد في السماء وكانت خالية من السحب . انها القوى السماوية تثني على كلام الحكيم . انحنى الجميع وتفرقوا ، فيما الفتى الذي اطلق عليه حالياً اسم لارا (الطريد) يروح يضحك بصوت مرتفع حين شاهد القوم الذين رفضوه يبتعدون عنه . ضحك بعدما بقي وحيداً حراً مثلما كان أبوه . لكن أباه لم يكن بشراً . اما هو فانسان . . وشرع يعيش منذ ذلك الحين ، دونما عائق مثلما الطير في السماء الفسيحة . كان يأتي الى القبيلة فيسرق الغنم والفتيات وجميع ما يتوق اليه . وكانوا يطلقون السهام عليه فتعجز عن اختراق جسده الذي يحميه العقاب الأسمى بدرع غير منظورة . كان حاذقاً ، جشعاً ، قوياً ، قاسياً ، لا يقابل البشر وجهاً لوجه ، ولا يشاهده إنسان الا عن بعد بعيد . ظل هكذا طويلاً يعيش وحده حائماً حول البشر . ومرت على هذه الحال عشرات السنوات . بيد انه اقترب منهم ذات يوم ، ولما هجموا عليه لم يتحرك من مكانه قيد أنملة ، ولم يحاول الدفاع عن نفسه . خمَّن أحدهم أمره ، فصاح في صوت مرتفع :

«– لا تمسوه ! إنه يريد أن يموت .

«فتوقفوا جميعاً . ما كانوا يريدون تخفيف عذاب ذلك الذي أساء اليهم ، فأبوا ان يقتلوه . رفعوا عنه أيديهم ومنه جعلوا يسخرون . كان يرتجف وهو يسمع الى ضحكهم ، فيبحث دون انقطاع بيديه المنقبضتين عن شيء ما في صدره . تناول حجارة عن الأرض بصورة مباغتة ، وهجم عليهم بها . تجنبوا ضرباته ولم يوجهوا اليه ضربة واحدة ، حتى اذا

أطلق صيحة معذبة وتهاوى على الأرض خائر القــوى ابتعدوا عنه ووقفوا يراقبونه من بعيد . وقتئذ هـــب على قدميه ، وأطبق على سكين سقطت خلال المعركة وضرب بها صدره ، فتحطمت السكين وكأنها أصابــت حجراً . تهاوى من جديد ، وضرب رأسه بالأرض طويلاً ، فجعلت الأرض تهرب مـــن تحته وتغور تحت ضرباته .

«قال الرجال في فرح وحبور :

«– إنه عاجز عن الموت !

«ذهبوا وتركوه وحيداً . ظل مضطجعاً على ظهره يحدق في السماء ، يرى الى النسور القوية تحلــق في الاعالي مثل نقاط سود صغيرة . كان في عينيه مـــن العذاب ما يكفـى لتسميم الجنس البشري بأسره . ولقد بقي ، منذ ذلك الحين ، وحيداً حراً ينتظر أن يموت . هكـــذا يذهب ويأتى في سائـــــر الأمكنة . . . أترى ؟ هو الآن أشبه بالخيال . ولسوف تظل الحال على هذا الغرار الى الأبد ! إنــــه لا يفهم لغة البشر أو أفعالهم ، لا يفهم شيئاً على الإطلاق . . إنـــه يشرد دائماً ، ساعياً وراء شيء ما . . هو لا يملـــــك الحياة ، والموت لا يبتسم له . . وليس له مكان بين البشر . انظر كيف عوقب إنسان بسبب من غروره وكبريائه !»

تنهدت العجوز وجنحت الى الصمت ، وتركت رأسها مرة أو مرتين يتأرجح على صدرها بصورة غريبة .

نظرت إليها ، فخيـــل لي أن النعاس يلفها بعباءتـــه فأحسست شفقة عنيفة عليها تجتاحني . لقد ختمت قصتها في

صوت يلتهب حماسة وتوعداً ، لكن تتردد فيه ذلــــك نبرة خائفة خاضعة .

ارتفع عـــلى الشاطئ غناء غريب مـــن أفواه الجموع المتحشدة عليه . إن صوتاً نسائياً خفيضاً رجع في البدء لحنين أو ثلاثة ألحان ، وراح صوت آخر ينشد الاغنية من مطلعها ، والصوت الأول يسبقـــه دون انقطاع . واشترك في الاغنية صوت ثالث ، ورابع ، وخامس . . وعلى حيـــن غرة رددت الأغنية ذاتها ، من مطلعها ، جوقة من أصوات الرجال .

كان كل من أصوات النساء يتردد بصورة واضحة جلية ، اشبه ما يكون بساقية تزدهـــي بلون خاص ، تتدفق فوق الصخور ، متلاحقة الأمواج رنانة الصدى ، ثم تتلاقى جميعـــاً وتصب معاً في الموجة الكثيفة التي تشكلها أصوات الرجـــال المرتفعة نحوها بحركة متساوية ، فتغـــرق فيها ، ثم تنتزع نفسها منها وتطغى عليها وتعود فترتفع من جديـــد ، الصوت تلو الصوت ، نقية قوية صوب الأعالي .

وكان صخب الأمواج يتلاشى خلـــف الغناء فلا يصل الى الأسماع .

٢

سألتني العجوز إيزرغيل ، وهي ترفع رأسها وترسم على فمها الأدرد ظل ابتسامة :

– هل سمعت قط ان البشر أنشدوا مثل هذا الإنشاد في مكان ما ؟

فأجبت :

– كلا ، لم أسمع ذلك . ليس في أي مكان قط .

– وأبداً لن تسمع به . نحب نحن أن نغني . وحدهم الناس الجميلون يستطيعون أن يغنوا بصورة رائعة – الناس الجميلون الذين يفعم حب الحياة افئدتهم . ونحن من هؤلاء الناس . هلاّ نظرت ؟ أفلست تظن أنهم تعبوا من عمل النهار ، أولئك المنشدون هناك ؟ لقد عملوا منذ شروق الشمس حتى غروبها ؛ ها هو القمر قد نهض الآن ؛ وهؤلاء هم ينشدون . إن أولئك الذين لا يعرفون أن يعيشوا يلجؤون الى الفراش بدلاً من ذلك ! أما الذين يحبون الحياة ويجدونها لذيذة فيغنون .

وبدأت أقول :

– لكن صحتهم . . .

– المرء يتمتع دائما بما يكفي من الصحة في سبيل الحياة ! الصحة ! لو كنت تملك المال أفما تصرفه ؟ والصحة ذهب أيضا مثلها مثل المال – . أتراك تعرف كيف قضيت أيام صباي ؟ كنت أنسج السجاد منذ طلوع الفجر حتى المغيب ، ولا أكاد أنهض عن عملي أبدا . كنت متدفقة الحياة مثل شعاع من أشعة الشمس . كنت مجبرة على البقاء في وضع الجلوس ، جامدة مثل حجر صلد . كنت أبقى جالسة فترة طويلة بحيث تطقطق عظامي من تلك الجلسة في بعض الأحايين . ولكن ما ان يهبط الليل حتى أروح أعدو صوب ذلك الرجل الذي أحب ، فأعانقه وأقبله . ولقد استمر حبي له ثلاثة أشهر . كنت أركض إليه وأقضي سائر لياليّ

عنده . أنظر الي أي مدىً عمرّت أنا ! إن الدم في شرايينى لا ينني يتدفق على ما يلوح لي . وكم من رجال أحببت ! وكم من قبلات تلقيت وأعطيت !

نظرت الى محياها . لقد بقيت عيناها السوداوان عكرتين لم تبعث الذكرى الحياة فيهما . وكان القمر يعكس ضوءه على شفتيها الجافتين المتشققتين ، وذقنها المدببة شائبة الشعر ، وأنفها المغضّن المعقوف كمنقار البوم . ثمة حفرتان قاتمتان تغوران في مكان الوجنتين استقرت في احداهما خصلة من شعر أبيض ضارب الى لـــون الرماد ، خصلة أفلتت من الخرقـــة الحمراء التي تغطي رأسها . وكان جلد وجهها وعنقها ويديهـا محتفراً بالغضون ، فأتوقـــع لدى كلِّ من حركاتها أن أرى هذا الجلد الجاف يتمـــزق بأسره ويتساقط قطعاً مهملة كي ينتصب أمامي هيكل عظمي عار انطفأت عيناه واسودتا .

وعادت تحكي بصوتها المتكسر :

– كنت أحيا مع أمي قريباً من «فالتشي» على ضفة نهر «بيرلاد» . وكنت في الخامسة عشرة عندما جـاء الى مزرعتنا . كان فارع القد ، رشيـــــق العود ، أسود الشاربين ، مرح الروح . كان يركب قارباً ، فطفق ينادينا من خلال النوافذ في صوت طنان رائع : «إيـــــه ، افليس ، لديكم خمرة ومـــا يترمّق المرء به ؟» أنفذت بصري مـــــن النافذة ، من خلال أغصان الدردار ، فرأيت النهر مصطبغاً بالزرقة تحت شعاع القمر ، ورأيته ينتصب بقميصه الأبيض وزنار عريض يتدلى طرفاه على جانبه ، يدوس بقدمه الواحدة على الضفة فيمـــا الأخرى لما تفارق القارب بعد . وكان يؤرجح القارب ويغني .

وما أن وقعت عيناه عليّ حتى قال «:شه ، يا للفتاة الجميلة التي تقطن ههنا ! . . . أنا لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك» – لكأنه عرف سائر الفتيات الجميلات من قبل . أعطيت له قليلاً من خمرة وشيئاً من لحم الخنزير المطبوخ . . ولم تمض أربعة أيام حتى وهبت له نفسي بكليتها . . كان يأتي كل ليلة ويصفر في صوت ناعم مثل الحسون ، فأقفز كالسمكة من النافذة الى ضفة النهر . . وهذان نحن في الطريق . كان صياداً من «بروت» ، فلما عرفت أمي كل شيء فيما بعد وضربتني راح يقنعني بمرافقته الى دبروجا ، والى أبعد من ذلك أيضاً – الى مصب الدانوب . لكنه لم يعد يروق في عينيّ ، فهو لا يفعل غير الغناء وتقبيلي ، ولا شيء غير هذا ! لقد أصبح ذلك قاتلا شديد الإرهاق . وكانت جماعات من الهوتسليين يعبرون تلك المناطق في ذلك الحين ، وكانت لهم ثمة حبيبات . . أواه ! لشد ما كانت حياتهم رائعة ! إن فتاة تنتظر ، تنتظر فتاها القادم من جبال قرباط ، وتراه منذ الآن رهين السجن أو قتيلاً بعد معركة في مكان ما . وهذا هو ، على حين غرة ، يهبط عليها من السماء ، وحيداً أو برفقة صديقين أو ثلاثة أصدقاء . إنه يحمل اليها هدايا ثمينة . كان كل شيء سهل المنال عندهم ! وكان يتغدى عندها ، ويفخر بها أمام رفاقه . وكانت الفتاة تحب ذلك . سألت رفيقة لي على علاقة بهوتسلي ان تدلني عليهم . . ما كان إسمها ؟ لقد نسيت . . بدأت ذاكرتي تخونني الآن . فثمة زمن طويل منذ ذلك الحين ، وكل شيء ينتهي الى النسيان ! عرفتني على فتىً . كان رائعاً . أصهب أصهب كله ، له شاربان

مفتولان . وله رأس من نار . . كان مكآباً ، يمزح أحيانـــاً ويزمجر أحياناً أخرى مقاتلاً مثل وحش مفترس . ضربني مرة على وجهي . . . فإذا بي أقفز عـــلى صدره مثلما يفعل قط رشيق وأغرس أسناني في خده . . ومنذ ذلك الحيـن ظهرت حفيرة في خده ، وكان يحب أن أقبل له تلك الحفيرة .

سألتها :

– والصياد ؟ ماذا كان مصيره ؟

– الصياد ؟ حسناً ، كان هنـــــاك . . لقد تعلق بهم ، الهوتسليين . كان يترجاني في البدء أن أعود اليـــه ، ويهدد بالقائي في الماء إن لم أعد ، ثم لم يبق شيء من ذلك ، فقد تعلق بهم واتخذ لنفسه حبيبـــــة منهم . . وشنقوهما معاً ، الصياد وحبيبى الهوتسلي . وذهبت أنا أشاهد اعدامهما . حدث ذلك في دبروجا . في الطريق الى ساحـــة الإعدام كان الصياد شاحب اللون بكّاء العينين ، فيما الهوتسلي يدخن غليونه . كان يمشي بكل بساطة ، ويدخن غليونه ، ويداه في جيبيه ، يستريح شاربه الواحد على كتفـــــه ، والاخر على صدره . رآنى فنزع غليونه من فمه وصاح بـــى : «وداعاً !» . . . أسفت عليه وبكيت طوال سنة كاملة . . وقع ذلك لهمـــا حين أرادا العودة الى بلادهما في الجبال . وفي يوم الرحيـــل أولموا حفلة في دارة روماني حيث ألقي القبض عليهما . لـم يقبض إلا على اثنين فقط ، فيما قتل عدد كبير ، وفـــر الآخرون . . وعلى أية حال ، فقد نال الروماني حسابه فيمـا بعد . . أحرقت مزرعته وطاحونه ومخازن قمحه . وانتهى الى فاقة عظيمة .

فرميت هذا السؤال كيفما اتفق :

– أأنت من فعلت ذلك ؟

– كان للهوتسليين كثير من الأصدقاء – فلم أكــــن وحيدة . وأولئك الذين كانوا أفضل اصدقائهم أخذوا عـــلى عاتقهم الاحتفال بيومهم الأربعيني .

هفتت الأغنية على الضفة ، فلم يعـــد يرافق العجوز الآن غير ضجيج الأمواج . كان هذا الضجيج المتفكر الصاخب لحناً رائعاً يصاحب حكاية هذه الحياة الصاخبة . وازداد الليــــل عذوبة وشعاع القمر الأزرق انتشاراً فيمـــا خفتت الأصوات الغامضة التي تصعّدها الحيــــاة المضطربة بساكنيها غير المنظورين ، وقد علا عليها صخب الأمواج المتعاظم . . ذلك إن الريح شرعت تهب .

– بعد ذلك أحببت تركياً أيضاً . كنت في عداد حريمه في «سكوتاري» حيث قضيت اسبوعاً كاملاً . كانت الأمور على ما يرام . . لكن سرعان ما مللت . النساء والنساء دائماً وفي كل مكان . . . كان لديه ثماني نساء . . . وكن يقضيــــن اليوم بأسره في الطعام ، والنوم ، والثرثرة بالسخافات . أو كن يتخاصمن وينقنقن كالدجاجات . لم يكن شاباً ، ذلــــك التركي . بل يكـــــاد شعره أن يكون أبيض ، وكان كثيـــر الجلال ، عظيم الثروة ، يتكلم مثل امبراطور مهيب . وكانت عيناه سوداوين . عينان مستقيمتان . . تنظران في باطـــن نفسك . وكان يحب ان يصلّي دائماً . رأيتــــه أول مرة في بخارست . . كان يذهب ويجيء في السوق مثل ملك عظيـــم السلطان ، ويتطلع فيما حواليه بصرامة . ابتسمت له ، وفي

المساء ذاته أمسكوا بي في الطريق وقادوني إليه . كان يبيع الصندل ومنتجات النخيل ، وقد جاء الى بخارست لشراء شيء ما . سألني : «أتأتين معـــي الى تركيا ؟» فأجبت : «أوه ، آتي ! اني أريد ذلك» . قال : «حسناً» . وهذه أنا قد ذهبت برفقته . كان ثرياً . وكان له ولـــد ، صبي أسمر البشرة كثير الرشاقة ، في السادسة عشرة من عمره . فهربت معـه من لدن التركى . . هربـــت إلى بلغاريا ، الى لومبالانكا . . وهناك طعنتني بلغارية بالسكين في صدري بسبب زوجها أو حبيبها ، لم أذكر جيداً .

«بقيت مريضة طويلاً في دير للنساء . عنيـــت بي فتاة بولونية الأصل . . وكان يزورها من دير آخر في ما أذكر – وكان قريباً من أرتزير بالانكا – أخوها الذي كان راهبـــاً هو الآخر . وكان يتلوى أمامى مثل الدودة . وعندما وقفـت على قدمي ذهبت برفقته الى بولونيا» .

– رويدك ! وماذا حدث للتركي الصغير ؟

– الطفل ؟ لقد مات . ذلك الطفل . . حنيناً الى بلاده ، أو بسبب من الحب . لست أدرى . . لكنه جفّ مثل شجيرة ما برحت طرية صبت الشمس عليها أشعتها طويلاً . . وهكذا جفّ تماماً . وأنا أذكره متمدداً في الفراش ، وقد أضحـــى شفافاً مزرقاً كقطعة من جليد . وكان الحب يتأرث فيــــه دائماً . . وكان يسألنى على الدوام أن أميل عليه وأقبله . . وكنت أحبه في توقٍ ، وأذكر أنى كنت أقبله كثيراً . ثم ساءت أحواله تدريجياً حتى غدا لا يتحرك ، فهو مضطجـــع أبداً يسألني بالنغمة الشاكية لشحاذ يطلب الصدقة أن أنام

الى جانبه وأبعث الدفء في جسده المسكين . وكنت أنام . ولا أكاد أفعل حتى يلتهب بكليته في التو واللحظة . واستيقظت يوماً فرأيته بارد الأوصال . كان قـــد مات . بكيته . من يدرى ؟ لربما كنت أنا التي قتلته . كنت أكبره بمرتين في ذلك الحين ، وكنت فائقة القوة مفعمة بنسغ الحياة . وهو ، ماذا كان ؟ كان صبياً صغيراً !

تنهدت ورسمت إشارة الصليب ثلاثاً – تلك كانت المرة الأولى التي أراها فيها تفعل ذلـــك – وهي تتمتم أثناء ذلك بشيء من بين شفتيها الجافتين .

همست في أذنها :

– أذن غدوت الى بولونيا . . .

– أجل ، مع ذلك البولونى الصغير . كان مضحكـــاً ودنيئاً . وعندما كان يحتاج الى المرأة يلتصق بي مثل القط ، ويروح يسيل من لسانه عسلاً لاهباً . وعندما لم يكن يريدني فهو يلسعني كالسوط بكلماته . وفي ذات يوم كنا نمشي على ضفة النهر ، فاذا هو يرميني بكلمة متعجرفة جارحة . أوه ، ثارت ثائرتي ! وأخذت أغلى مثل القطران الأسود ! أخذته بين ذراعي مثل طفل صغيـــر (وكان صغير القامة) ورفعته في الهواء ضاغطة اضلاعه حتى اسود تماماً . وعندئذ جمعت قواي وألقيته من فوق ضفة النهر . . طفق يصيـــح بصورة مضحكة وأنا أراه من علٍ يخوض في الماء . ثم ذهبت ، ولم أره بعد ذلك قط . كان حظي كبيراً : فأنـــا لم ألق أولئك الذين احببت بعد فراقهم . تلك لقىً سيئة ، مثلها مثل أشباح الموتى .

استكانت العجوز الى الصمت متداركة انفاسها . وتصورت في ذهني الرجال الذين بعثت بهم قصتها الى الحياة . كان هنالك ذلك الهوتسلي ذو الشاربين والشعر المتوهج ، الذاهب الى الموت مدخناً غليونه بهدوء . كان له ، من دون ريب ، عينـــان زرقاوان باردتان تسلطان على الأشياء ذات النظرة المركزة الثابتة . وكان هناك ، الى جانبـــه ، ذلك الصياد المنحدر من بروت ، ذو الشاربين الأسودين الذى يبكي ولا يريد أن يموت . إن العذاب الذي يسبق الموت يغطي محياه الشاحب ، وعينيه الكدرتين ، فيما شارباه المبللان بالدموع يتدليان بكآبة على صواري فمه الملتوي . وكان هناك ذلك التركي العجوز ذو المشية المهيبة ، الطاغية والمؤمن بالقدر دون شك ، والى جانبه ابنه ، هذه الزهرة الصغيرة الشاحبة الهشة من أرض المشرق ، المسممة بفيض القبلات . وكان هنالك ذلك البولوني المغرور ، المتأنق والقاسي ، المعسول الكلام والبارد . . . لم يكونوا جميعاً سوى أخيلة شاحبة ، فيما تلك التي عانقوها وقبلوها تجلس الى جانبي حية تتنفس وأن جففها الزمان – لا جسد لها ، فارغة من الدم ، خالية القلب من الرغبات ، خابية العينين من كل بريق ، تكاد هي الأخرى أن تكون خيالاً .

وعاودت تقول :

– لقد لقيت في بولونيا كثيراً من العناء . هنالك يعيش أناس باردون وكذابون . ولم أكن أعرف لغة الأفاعي التي بها يتكلمون . هم يفحون طوال الوقت . وفيم يفحون ؟ الله أعطاهم لغة الافاعي هذه لأنهم كذابون . كنت أذهب يومئذ

حيث لا أدرى . فأراهم يتجمعون للثورة عليكـــم ، أنتـــم الروسيين . ولقد وصلت حتى مدينة بوخنيا ، وهناك بعت نفسي ليهودي . لم يشترني لنفسه ، بل كيما يتاجر بجسدي . وافقت على ذلك . كي يعيش المرء يجب أن يفعل شيئاً ما ، وأنا لم أكن أعرف أن أفعل شيئاً ، فكان عليّ أن أدفع من شخصي . إنما كنت أقول عندئذ في نفسي إني أذا حصّلت قليلاً من مال كي أعود الى بيتي على ضفاف بيرلاد ، فسوف أحطم اذن سائر السلاسل مهما تك متينة صلبة . ولقد بقيت هناك . كنت أتلقى زيارات «البكوات» الاغنياء الذين يقيمون الولائم عندي . وكان ذلك يكلفهـــم اموالاً طائلة . كانوا يتقاتلون من أجلي ويبذرون أموالهم .

وكان بينهم سيد أراد أن يملك قلبي منذ زمن طويل ، وإليك ما فعل ذات يوم .

جاءني يتبعه خادم يحمل كيساً . أخذ «البك» الكيس من يدي الخادم وأفرغه فوق رأسي ، فإذا القطع الذهبية تنهال علي ، فيجتاحني سرور عظيم وأنا أسمع رنينها وهي تتساقط على الأرض . لكنني طردت «البك» بالرغم من كل شيء . كان وجهه ضخماً قبيحاً ، وبطنه أشبه ما تكون بوسادة منتفخة . كانت له سيماء خنزير سمين العطفين . بلى ، طردته بالرغم من أنه أخبرني كيف باع جميع أراضيه ودوره وجياده كيما يغطيني بالذهب .

ولكنني كنت في ذلك الوقت أحـــب سيداً نبيلاً آخر في محياه أثر ندبة قديمة . لقد جرحته سيوف الأتراك الذين حاربهم قبل زمن غير بعيد الى جانب اليونانيين . كان رجلاً

حقا ! ما عسى أن يعنيه أمـــــر اليونانيين ما دام بولونياً ؟ سأقول لك ذلك . ولكنه راح يحارب جنباً لجنب معهم ضد اعدائهم فأفقدوه عينه وإصبعين من يده اليسرى . ما عسى أن يعنيه أمر اليونانيين ما دام بولونياً ؟ والسبب في ذلك أنه كان يحب مجيد الأعمال ، وإذ يحب امرؤ مجيد الأعمال يعرف على الدوام كيف يحققها ، ويجد على الدوام المكان الذي فيه يحققها . وفي الحياة ، كما ترى ، مكان لمجيد الاعمال دائماً . وأولئك الذين لا يعرفون كيف يجدونها هم بكل بساطة الكسالى والجبناء ، أو أنهم لا يفهمون الحياة ، لأنه إذا فهم البشر الحياة مرة فإن كل إنسان يريد إذن أن يترك فيها ظله من بعده . وعندئذ لا تلتهم الحياة البشر دون ان تترك أثراً منهم . . بلى ، لقد كان ذلك الرجل ذو الندبة انساناً حقاً ! كان على استعداد للذهاب الى اقصى العالم كي يفعل أي شيء . أظن ان جنودكم قتلوه ساعة الانتفاضة . ولماذا ذهبتـــــم لمقاتلة الهنغاريين ؟ حسناً ، حسناً ، أسكت . . .

وإذ أمرتني العجوز إيزرغيل بالسكوت مالت ، هـــــي الأخرى ، الى الصمت بصورة مفاجئة ، وغاصت في افكارها .

– كنت أعرف هنغارياً أيضاً . لقد تركني ذات يوم في زمهرير الشتاء ، ولم يجدوه إلا في الربيع التالي حين ذابت الثلوج . كان ممدداً في حقل وقد ثقبت رصاصة رأسه . ما رأيك في ذلك ؟ أترى كيف أن الحب يقتل من البشر ما لا يقل عما يقتل الطاعون منهم ! لو أردنا ان نحسب ذلك لوجدنا أن هذه هي الحقيقة . . أين كنت من حديثي ؟ آه ، بلى ، في بولونيا . . . بلى لقد لعبت هناك شوطي الأخير . لقيت نبيلاً

كان جميلاً مثل الشيطان ! أما أنا فكانت السن تقدمت بي كثيراً . أكنت في الأربعين ؟ . . . ربمـــا كنت في الأربعين تقريباً ! كان متكبراً ، أفسدناه نحن النساء . ولقد كلّفني غالياً . . بلى ، كان يريد ان يأخذني هكذا ، منذ الوهلـــة الأولى ، لكنني لم أخضع ولم أعطه نفسي بسهولة . أنا لم أكُ قط أَمَة لكائن من كان . أما اليهودى فكنت قد تخلّصت منه . أعطيته كثيراً من المـــــال . وكنت أقطن يومئذ في كراكوفيا ، وأملك كل شيء ، الجياد والذهب والخدم . وكل ما أشتهي . وكان يأتى لرؤيتي ، ذلك الشيطان المغرور ، ويريدني دائما أن أرتمى من تلقاء نفسي بين ذراعيه . ولقد تخاصمنا . . وإني لأتذكر كيف فقدت مظهري الجميل بسبب من ذلك . وطال الأمر بنا . لكني ربحت في النهاية . كان يتوسل الي جاثياً على ركبتيه . لكنه لم يكد يملكني حتى هجرني . أدركت عندئذ اني هرمت . أواه ! هذا لا يسر القلب مطلقاً ! لا يسر القلب أبداً ! ولقد كنت ، أنا أحبه ذلـــك الشيطان ! أما هو فكان يضحك عندما يلقاني . . يا له من دنيء ! ومع الآخرين كان يسخر مني – كنت أعرف ذلك . . أواه ، لشد ما كان ذلك مريرا ! يجب الاعتراف به . لكنه كان هناك ، قريباً جداً وكنت أسر دائماً برؤيته . وحين ذهب يقاتل ضدكم ، انتم الروس ، حز الألم في قلبي . كنـــــت أقاوم نفسي دون جدوى . . وعزمت أخيراً على اللحاق به . كان قريباً من فرصوفيا ، في ملء الغابات . .

لكن عندما وصلت علمت أن جنودكم كسروهم . . وأنه أسير في قرية قريبة .

فكرت في وليجة نفسي : «هذا يعني ، بكلام آخر ، أني لن أراه بعد الآن !» وكنت أريد رؤيته بجماع قلبي ، فجاهدت كي تكتحل عيناي برؤيته من جديـــد . . . تنكرت في زي متسولة عجوز عرجاء ، واتخذت سمتي معصوبـــة الوجه الى القرية حيث كان مسجوناً . كنت تجد في كل مكان القوزاق والجنود . لشد ما كلفني أن أكون هناك ! علمت أين يوجد البولونيون . وأدركت صعوبة الوصول إليهم . ومع ذلك لم يكن بد من الوصول . وهكذا تسللت ليلاً الى المكان حيث كانوا . زحفت في حديقة بين الأخاديد ، لكن هذا خفير" ينبثق أمامي بصورة مباغتة . . كنت أستطيـــع أن أسمـــع الى البولونيين ينشدون تسبيحاً كنائسياً . . مرفوعاً الى والدة الإله . وكان هو ، حبيبي أركاديك ، يغني معهم . وتذكرت بمرارة أنهم كانوا يزحفون الي فيما مضى . فلقد حلت الساعة الآن حيث أزحف كالدودة وراء رجل ، ولربمـــا وراء موتي أيضا . وهذا الخفير يصيخ السمع ويميل الى الأمام . ما عساني أفعل ؟ نهضت عن الأرض ومشيت إليه . . . لم أكن أملك سكيناً . لم أكن أملك سوى يدي ولساني . لشد ما أسفت لأني لم أحمل معي سكيناً . همست به : «انتظر !» . لكنه ، هو الجندي ، كان قد وجه الحربـــة الى عنقي . قلت له في همس خفيض : «لا تضرب . إنتظر . إسمع . ان كنت ذا روح ! لست أستطيع إعطاءك شيئاً ، لكنني أتوسل اليك . . .» خفض بندقيته ، وقال لي هو الآخر في صوت مخفوض : «إذهبي ، أيتها العجوز ! إذهبي ! ماذا تريدين هنا ؟» قلت له إن ابني سجين هناك . . «انت تفهم ، يا جندي . إنه ابني . أنت أيضاً

ابن لشخص ما ، أليس كذلك ؟ إذن فانظر الي . إن لي ابناً مثلك ، وهو سجين هناك ! دعني أره ، فلعله سيموت عما قريب . وقد تقتل أنت غداً . . أفلن تبكيك أمك ؟ أولن يصعب عليك جداً أن تموت دون أن تلقي عليها نظرة أخيرة ، هي أمك ؟ وكذلك يصعب على ابني . كن رحيماً بنفسك وبه وبي أنا امه !» .

«أواه ! لشد ما أطلت الحديث إليه ! كان المطر يهطل ويبللنا . وكانت الريح تزمجر وتعوي ، تصفع ظهري تارة وصدري تارة أخرى . وكنت أقف هناك ، أتأرجح أمام هذا الجندي الذي قدّ من حجر . . وكان هو لا يبرح يقول : «كلا !» . وبمقدار ما أسمع كلمته الباردة كانت الرغبة في رؤية الآخر ، أركاديك ، تزداد اشتعالاً في قلبي . كنت أتكلم وأقيس الجندي بنظري : كان قصير القامة ، يابس العود ، لا يني يسعل طوال الوقت . عندئذ ارتميت على الارض أمامه وأحطت ركبتيه بذراعي ، وأنا أكيل له التوسلات اللاهبة ، ثم ألقيته أرضاً . وقع في الطين ، فأسرعت أقلب وجهه نحو الأرض ، وأدفع برأسه في بركة الوحل لأمنعه عن الصياح . لكنه لم يصح ، بل تلوى تحت وطأتى مجرباً أن يرميني عن ظهره . أما أنا فرحت أشد برأسه أعمق فأعمق في الوحل بكلتا يدي حتى اختنق أخيراً . . وعندها أسرعت الى المخزن حيث يغني البولونيون ، ورحت اهمس باسمه من خلال شقوق الجدران : «أركاديك !» . ان لهم آذاناً حادة ، هؤلاء البولونيين ! سمعوني ولكنهم واصلوا الغناء ! ورأيت عينيه مقابل عيني . سألته : «أتستطيع الخروج من هنا ؟»

فقال : «أجل . من خلال الأرض» . فقلت : «اذن هيا» . وهؤلاء أربعة يخرجـــون من تحت ذلك المخزن ، ثلاثـــــة وحبيبي أركاديك . سأل أركاديك : «أين الخفراء ؟» . فقلت : «إنه هنـــاك على الأرض . . .» . وهؤلاء هم يذهبـــــون في حذر واحتراس شديدين ، منحنين نحـــو الارض . وكانت السماء تمطر والريح تزمجر . خرجنا من القرية ومشينا طويلاً في صمت عبر الغابة . كنا نمشي مسرعين ، يمسك أركاديك بيدي فأحس يده لاهبة مرتجفة . أواه ! كنت أحس الارتياح وأنا أسير الى جانبه وهو صامت لا يقول شيئاً . وتلك كانت الدقائق الأخيرة ، الدقائق الفضلى من حياتي المتأججة . كنا قد بلغنا أثناء ذلك حقلاً فتوقفنا عنده . وشكرني أربعتهم . أواه ، أواه ! لشد ما أطالوا الحديث ! كنت أسمع اليهـــم وأنظر الى صاحبي طوال الوقت متسائلة عما عساه يصنع بي . وهذا هو يأخذني بين ذراعيه ويقول لي بنغمـــة خطيرة . . لست أتذكر ما قال لي ، وإن تكن أقواله جميعاً تتلخص فيما يأتي ، ألا وهو أنه سيحبني بعد الآن اعترافاً منه بالجميل لأني ساعدته على الفرار . . . وجثا أمامي ، شفتاه مفترتان عن ابتسامة عريضة ، وقال لي : «يا ملكتي !» . أترى أي كلب كذوب كان ! عندئذ رفسته بقدمي وكدت أصيبه في ملء وجهه لو لم يبتعد جانباً ويهب على قدميه . وهذا هو يقف أمامي متوعداً شاحب الوجه . . وكان الثلاثة الآخرون يقفون هناك مقطبي الوجوه . انهم يصمتون جميعاً . نظرت أليهم . . وقتئذ لم أعد أحس ، على حين بغتة – وأنا أذكر ذلك – إلا ضجراً هائلاً ، كسلاً لا مثيل له يقع علي . . . قلت لهم : «اذهبوا» .

فسألوني ، هم الكلاب : «ستعودين الى هناك لإرشادهم الى طريقنا ؟» أترى إلى الدناءة ! ومن ثمة ذهبوا على أية حال . ساعتئذ ذهبت أنا الأخرى ، وفي الغداة اعتقلني جماعتكم ، لكنهم أطلقوا سراحي حالاً . حينئذ أدركت أن الوقت آذن كي أبني لنفسي عشاً فقد كفاني الزمن الذي قضيت شريـــدة كالوقوق ! كنت بدأت اثقل ، فيما جناحاي فقدا قوتهمـــا ، والأرياش فقدت لمعانها . . لقد آذن الوقت ، آذن منذ زمن طويل ! وقتئذ غدوت الى غالاتيا ، ومن هناك الى دبروجا . وهذه قرابة ثلاثين سنة انقضت مذ قطنت هذا المكان . وكان لي زوج مولدافي الأصل مات قبل عام تقريباً . وأنا . . . أنا أحيا ! أحيا وحيدة . . كلا ، ليس وحيدة ، بل مع اولئك .

وأشارت العجوز نحو البحر . كان كل شيء هادئاً هناك . ومن حين لآخر يولد صوت مقتضب خادع كي يموت في الحال .

– إنهم يحبونني . أنا أروي لهم كثيراً من الامور . وهم جميعاً ما برحوا شباناً . . وأنا أجدني بخير معهم . أنا أراهم وأفكر أني كنت أنا الأخرى مثلهم . . إنما كان الإنسان في أيامي يتمتع بشيء أكثر من القوة واللهيب ، بحيث كانت الحياة أيضاً أفضل وأكثر مرحاً . . بلى !

لاذت بالصمت . كنت الى جانبها كئيباً . إنها تحلم وتهز رأسها ، وتوشوش في صوت خفيض . . ربما هي تصلي !

كانت سحابة سوداء ، ثقيلة قاسية المحيط ، شبيهـــة بقمة جبل ، تصعد من البحر . إنها تتقدم في السهب وهي تزحف ، تنفصل من مقدمتها نـــدف تسبقها مطفئة النجمات الواحدة تلو الأخرى . وكان البحر يزمجر . وكان يسمع في

الكروم ، غير بعيد عنا ، أصوات قبلات ووشوشات وتنهيدات . وكان كلب ينبح في أعماق السهب الفسيح . . والهواء يثير الأعصاب ، فهو محمل بعبير غريب يدغدغ الخياشيم . وكانت ظلال السحب تسقط على الأرض ، وأخيلة كثيفة تزحف وتزحف وتختفي وتعاود الظهور . . وفي مكان القمر لم يبـــق سوى بقعة عكرة مشعشعة الألوان تغطيها من حين لآخر كتلة مزرقة من السحاب فتخفيها تماماً عن العيان . وكانت أنوار صغيرة زرق تشتعل في أعماق السهب الذي أضحى الآن أسود مخوفاً فكأنه يتخفى أو يخبىء سراً دفيناً . كانت هذه الأنوار تظهر جزءاً من ثانية ، تارة هنا وتارة هنـــاك ، ثم تنطفىء فكأن بعض الناس المبعثرين عبر السهب الواسع يفتشون فيه عن شيء ما ، فيشعلون أعواد ثقاب سرعان مـــا تطفئها الريح الجموح . تلك كانت ألسنة من النار غريبة مزرقة ، تحمل على التفكير بشيء خيالي عجيب .

سألتني العجوز إيزرغيل :

– أترى هذا الشرر ؟

فقلت ، مشيراً الى السهب :

– الازرق ، هنالك ؟

– الازرق ؟ بلى ، هو . . . إذن ، هـــو يطير دائماً ! حسناً ! حسناً ! لكنني لم أعد أراه مطلقاً . أنا لا أقدر بعد الآن على رؤية الشيء الكثير .

استوضحتُ العجوز :

– من أين يأتي هذا الشرر ؟

كنت أعرف كثيراً من الأقاصيص عن منشأ هذه النيران

الماجنة . إنما كنت أريد أن أسمع قصة العجوز أيزرغيل عنها .

قالت :

– هذا الشرر يصدر عن قلب دانكو المتأجج . ثمة قلب في غابر الزمن اشتعل ذات يوم . . وهذا الشرر ينبثق عنه . أتريد أن أروي لك هذه القصة ؟ إنها أسطورة قديمة أيضاً . . شيء قديم . أنت ترى كم من الأشياء حدثت في الأزمان الماضية ؟ أما الآن ، فانظر . . لم يعد ثمة شيء ، لا أفعال ، ولا رجال ، ولا أقاصيص كما في الأيام الخوالي . . . لماذا ، أجب ! حسناً ؟ أليس من جواب ؟ ماذا تعرف ؟ ماذا تعرفون جميعاً ، أنتم الفتيان ؟ وي ، وي ! . . لو نظرتم في الماضي جيداً فإن كلمة سائر الالغاز توجد فيه . . . لكنكم لا تنظرون ، وهذا هو السبب في أنكم لا تعرفون كيف تعيشون . أفلست أرى الحياة ؟ أواه ، أنا أرى كل شيء ، وإن تكن عيناي رديئتين ! وأنا أرى أن البشر لا يعيشون ، وانهم يقضون وقتهم في الاستعداد للعمل ، دون أن يعملوا قط ، ويضعون في هذا كل حياتهم . وعندما يسرقون أنفسهم يبذرون وقتهم ويبعثرونه سدى ، يأخذون يبكون مصيرهم البائس . لكن ما هو المصير ؟ إن كل امرىء هو ، بالنسبة الى نفسه ، مصيره الخاص . أنا أرى مختلف أنواع البشر ، لكنى لست أرى الاقوياء مطلقاً ، اين هم إذن ؟ إن الناس الفاتنين ليندرون أكثر فأكثر .

وأخذت العجوز تفكر أين يمضي الناس الأقوياء

والفاتنون ، وهي لا تبرح ، أثناء تفكيرها ، تحدج السهب القاتم بنظرة متفحصة فكأنها تفتش فيه عن جواب .

رحت أنتظر حكايتها ، معتصماً بالصمت خشية أن يحولها سؤال ما عما تنوي أن تروى لي .

وهذه هي تبدأ الحديث . . .

٣

«في ذلك الزمان ، كان قوم يعيشون على الأرض تطوّق مخيماتهم من ثلاث جهات غابات متكاثفة لا يسبر لها غور ، فيما يمتد السهب الفسيح من الجهة الرابعة . كانوا قوماً مرحين ، أقوياء ، مقدامين . لكن هذه أوقات عصيبة جاءت ذات يوم : ظهرت قبائل منبثقة من حيث لا يدري أحد ، فطردت القبائل الأولى إلى قلب الغابات . وهناك كانت المستنقعات والدياجير ، اذ كانت الغابة قديمة قديمة ، وأغصانها متعانقة بشدة حتى لتحجب السماء عن العيون . وكانت أشعة الشمس لا تشق لنفسها درباً من خلال الأوراق الى المستنقعات الا بصعوبة جمة . وحين تقع هذه الأشعة على مياه المستنقعات تعبق منها عفونة تقضي على الناس جماعة بعد جماعة . عندئذ أخذ النساء والأولاد يبكون ، وشرع الآباء يفكرون ويكتئبون . لم يكن بدّ من الخروج من الغابة ، وفي سبيل ذلك لم يك غير سبيلين : احداهما من خلف حيث ثمة أعداء أقوياء شريرون ، والأخرى من أمام حيث تنتصب أشجار عملاقة ، تتعانق أغصانها القوية وتغوص جذورها

عميقاً جداً في طين المستنقعات الدبق . كانت هـذه الاشجار المتحجرة تنتصب نهاراً ، ساكتة جامدة ، في الظل الرمادي . فاذا حل المساء ضيقت الخناق أكثر فأكثر على البشر عندما تشتعل نيران المخيم . وكانت حلقة من الدياجير القاسية لا تبرح تحتف بهؤلاء البشر ليل نهار ، تبدو في كل لحظة على أهبة أن تسحقهم وتحيلهم هباء منثوراً ، هم الذين ألفوا اتساع السهب المديد .

«وكانت الأمور تزداد رهبة حين تصفع الريح قمم الأشجار ، فتأخذ الغابة بأسرها تعول عويلاً أصم فكأنها تتوعدهم وترتل نشيد جنازتهم . كانوا رجالاً أشداء في مكنتهم أن يقاتلوا حتى الموت أولئك الذين سبق أن غلبوهم على أمرهم . لكنهم ما كانوا يستطيعون ان يموتوا في المعارك لان ثمة وصايا في حوزتهم ، فان ماتوا تلاشت هذه الوصايا معهم ، فأقاموا هناك يفكرون أثناء الليالي الطويلة ، تحت صخب الغابة الأصم ، وفي عفونـة المستنقعات المسمومة . «وبقوا هناك ، وأخيلة نيران المخيم تقفز فيما حولهم في رقص أخرس ، فيلوح دائماً أن ما يرقص ليس مجرد أخيلة ، بل هي أرواح الغابة والمستنقع الشريرة التـي تنتصر . . بقوا هناك على الدوام ، وكانوا يفكرون . إنما لا شيء ، لا العمل ولا النساء ، ينهك أجساد البشر ونفوسهم كما تفعل الأفكار القلقة المضطربة .

«وهكذا تزعزعت قوى القوم لكثرة ما أطالوا التفكير . . وولد الذعر فيما بينهم ، فشلّ أذرعتهم القوية ، فيما النساء ينشرون الهلع ببكائهن على أجساد أولئك الذين ماتوا بسبب

من العفونة ، وعلى مصير الأحياء الذين شلّهم الخوف ، فكان يتردد في الغابة كلمات جبانة ، مخنوقـــة في البدء ، متزايدة الجرأة شيئاً فشيئاً . . وهؤلاء هم أصبحوا ، جميعاً ، على استعداد للذهاب إلى العدو ، حاملين إليه هدية حريتهـــم الثمينة ، فلم يبق فيما بينهم إنسان يخشى حياة العبودية بعد أن عرف الذعر من الموت . . عندئذ ظهر دانكو الذى وحده أنقذهم جميعاً» .

كان من الواضح أن العجوز تكثر من رواية قصة قلب دانكو المشتعل . كانت تتكلم مغنية ، فيثير صوتها المصرصر الأصم في النفوس صورة صخب الغابـــة حيث يموت أناس بائسون مرهقون بسبب من الهواء المسموم . .

«كان دانكو واحداً منهم ، فتى فائـــق الجمال . الناس الجميلون شجعان دائماً . وهذا هو يقول لرفاقه : «– لسنا نبعد الحجر عن الطريق بالفكر وحده . من لا يقدم على شيء لايتوصل الى شيء . ما جدوى استنفاد قوانـــا في التفكير والأنين ؟ وقوفاً ، فلندخلنّ الغابة ، ولسوف نجتازها ، اذ أن لها نهاية ، لإن لكل شيء في هذا العالم نهاية ! فلنمشي ! هيا ! الى الأمام !

«نظروا اليه ورأوا أنه أفضل الجميع لأن القوة والنار الحية كانتا في عينيه تشعان .

«قالوا :

«– قدنا إذن !

«عندئذ سار في مقدمتهم . . .» .

جنحت العجوز الى الصمت برهة ، وألقت بأبصارها الى السهب حيث تتفاقم الدياجير كثافة حيناً بعد حين . كانت الشرارات الصغيرة المنبثقة من قلب دانكو المشتعل تلتهب بعيداً وتلوح زهوراً زرقاء هوائية تتفتح لحظة قصيرة ليس غير .

«سار دانكو في مقدمتهم ، فتبعوه مجمعين إذ به كانوا يؤمنون . الطريق صعبة عسيرة ! الظلمة محلولكة ! المستنقع يفغر لدى كل خطوة حلقه الجشع المتعفن الذى يبتلع البشر . الأشجار تسد عليهم الطريق بحاجزها الجبار . كانت أغصانها متعانقة كالأفاعي ، وجذورها متغلغلة في كل مكان ، وكل خطوة تكلف كثيراً من العرق ومن الدماء . مشوا طويلا . . والغابة تزداد كثافة على الدوام ، وقواهم تزداد ضعفاً خطوة بعـــد خطوة . عندئذ طفقوا يزمجرون نقمة على دانكو الذى اقترف، هو الفتى الذي لا تجربة له ، جرم قيادتهم الى حيث لا يعرف سوى الله . أما هو فيمشي في المقدمة ، جريئاً مستبشراً .

«لكن العاصفة هبت ذات يوم على الغابة ، فاذا الأشجار تتبادل همساً أصم مخوفاً ، وإذا الظلمة تحلولك حتى ليخيل الى المرء ان كل الليالي تجمعت على حين غرة ، كل الليالي منذ ولادة الغابة . وكانوا يمشون ، هم البشر الصغار بين الاشجار الكبيرة ، يمشون في ضجيج البروق المتوعـــــد ، يمشون والأشجار العملاقة تترنح وتصرصر وتعـوي بأغنيات غاضبة ناقمة ، والبروق الطائرة فوق القمم تضيء الغابة برهة بلهيب أزرق بارد ، ثم تتلاشى بذات السرعة التي ظهرت بها ، تاركة الناس مذعورين مخلوعي الأفئدة . وكانت الأشجار تبدو حية

وقد أضيئت بلهيب البروق البارد ، وتلوح كأنما تنشر حول البشر الهاربين من الظلمات أذرعتها الطويلة الملتوية لتنسج منها شبكة محكمة ، مجربة أن تقطع بها على المسافرين دربهم. وكانوا يرون ، مــــن خلال ظلال الأغصان ، شيئـــــاً مخوفا مظلماً بارداً . كانت الطريق عسيرة ، والقوم متعبون إنما كانوا يخجلون من الاعتراف بعجزهم . عندئذ ارتموا على دانكو في غضبتهم ونقمتهم ، عـــــلى الرجل الذي يسير في طليعتهم . وأخذوا عليه انه لم يعرف كيف يقودهم . ما رأيك في هذا ؟

«توقفوا عن المسير ، وبدأوا يدينون دانكو ، متعبين حقودين في ملء ضوضاء الغابة المشؤومة والدياجير المرتعشة .

قالوا له : «أنت انسان لا موهبة له ، وضار بالإضافة الى ذلك ! لقد قدتنا ، واستنفدت قوانا ، ولذا موتاً تموت !»

«فصاح دانكو ، وهو يجابههم :

«- قلتم لي «قد» ، وقدتكم ! كان لي ، أنا ، الشجاعـــة كي أقود ، فقدتكم ! وأنتم ؟ ماذا فعلتم لتساعدوا أنفسكم ؟ لم تفعلوا غير المسير ، ولم تعرفوا كيف تحفظون القوى في سبيل طريق أطول ! لم تفعلوا سوى المسير مثل قطيع من الخراف !

«لكن هذه النقمة زادت مرارتهم علقماً . فزمجروا :

«- لسوف تموت ! لسوف تموت !

«وزمجرت الغابة ، زمجرت باستمرار ، مرافقة صيحاتهم ، فيما البروق تمزق الدياجير وتحيلها أطماراً . نظر دانكو الى أولئك الذين تكبد العناء في سبيلهم ، فرأى أنهم أشبه ما

يكونون بالحيوانات الكاسرة . كانوا كثرة فيما حوله . لم يك في وجوههم شيء من نبل ، ولم يكن يُنتظر منهم شيء من شفقة . وقتئذ أحس ، هو الآخر ، مراجل الغضب تغلي في قلبه لكن الرحمة الى البشر هدأته . كان يحب القوم ، ويظن أنهم ربما يفنون دونه . وعندئذ عج قلبه بالرغبة في انقاذهم ، في قيادتهم على درب يسيرة ، فتوهجت في عينيه أشعة ذلك اللهيب العنيف . . اما هم فحسبوا أن الغضب يعتمل فيه ، وأن الغضب هو الذى أعطى عينيه مثل هذا البريق ، فاتخذوا أهبتهم مثل الذئاب متوقعين منه القتال ، فأحاطوا به عن قرب ليسهل عليهم القبض عليه والقضاء على حياته . لكنـــه أدرك افكارهم ، فازداد قلبه توهجاً . . . لأن هذه الفكرة كانت تملؤه حزناً واكتئاباً .

«لكن الغابة لم تبرح تغني نشيدهـــا الحزين . وكانت السماء ترعد ، وكانت تمطر بلا هوادة .

«صاح دانكو بصوت طغى على ضجيج الرعد :

« – ماذا أستطيع أن أفعل من أجل البشر ؟

«وعلى غير انتظار فتح صدره بيديه ، وانتزع من بين أضلاعه قلبه ، ورفعه عالياً فوق رأسه .

«كان يلتهب نيراً كالشمس ، أشد نوراً من الشمس ، فاذا الغابة بأسرها تجنح الى الصمت والسكون ، منارة بهذه الشعلة من الحب العظيم الى الناس . وتلاشت الدياجير أمام نوره ، وذهبت في عمق الغابة تساقط مرتجفـــة في حلقوم المستنقع المتعفن . وكان الناس المدهشون جموداً كالحجارة .

«صاح دانكو :

« – الى الأمام !

«اندفع قدماً الى مكانه في الطليعة ، ممسكا قلبه المتأجج عالياً ، منيراً الطريق للبشر .

انطلقوا مصعوقين في اثره . عندئذ أخذت الغابة توشوش من جديد مؤرجحة قممها ، مسبوهة مشدوهة . لكن صوتها اختنق بوقع أقدام القوم وهم يمشون . كانوا يركضون طافحين حيوية واقداماً ، يجرفهم المشهد الرائع للقلب المتأجج . وكانوا يموتون ، الآونة أيضاً ، لكن دون شكوى أو عبرات . وكان دانكو في الطليعة على الدوام ، وقلبه يلتهب دون انقطاع !

«وهذه الغابة تبتعد أمامه على حين بغتة ، تبتعد وتبقى الى الوراء ، كثيفة خرساء ، فيما دانكو ورجاله يغطسون فجأة في بحر من الشمس والهواء النقي المغسول بقطرات المطر . كانت العاصفة هنالك الى الوراء منهم ، ما فوق الغابة ، أما ههنا فالشمس تشع ، والسهب يتنفس ، والعشب يتضوأ تحت جواهر الغيث ، فيما النهر يرسل انعكاسات من ذهب . . . كان الوقت مساء ، والنهر يبدو تحت أشعة الغروب أحمر كالدم الذي انبثق جدولاً ملتهباً من صدر دانكو الممزق .

«ألقى دانكو الفخور المقدام نظرة الى الأمام منه على اتساع السهب العريض ، ألقى نظرة فرحة على الأرض الحرة وانفجر في ضحكة فخور ، ثم تهاوى . . . ميتاً .

«لكن القوم ، الطافحين فرحاً والمفعمين آمالاً ، لم يلحظوا موته ولم يروا أن قلبه المقدام ما برح يشتعل قريباً من جدثه . ثمة واحد منهم شاهد ذلك فخاف مصيبة ما ووضع

قدمه على القلب الفخور . . فأعطى هذا باقـــــة من الشرر وانطفأ . .»

– هذا هو سبب الشرارات الزرق التي تبدو في السهــب قبل العاصفة !

كان هدوء مخيف قد خيم على السهب الآن بعدما انتهت العجوز من حكايتها الفاتنة . كانت تقول إن هذا السهب مشدوه من قوة دانكو المقدام الذى أشعل قلبه في سبيل البشر ومات دون أن يسألهم أية مكافأة . وكان النعاس يراود أجفـــان العجوز ، فنظرت اليها وفكرت في ثنايا نفسي : «كم مـــن أقاصيص وذكريات بقيت في ذاكرتها ؟» وفكرت في قلب دانكو الكبير المتأجج ، وفي خيال البشر ، هذا الخيال الذي أبدع جميع هذه الأساطير القوية الرائعة .

هبت الريح فعرّت ، تحت الأطمار ، صدر العجوز ايزرغيل المتيبس ، وهي تغرق أكثر فأكثر في نومها . غطيت جسدها الهرم وتكومت على الارض الى جانبها . . كان السهب هادئاً مظلماً ، والسحب تنزلق في السماء . . بطيئة رتيبة . . وكان البحر يزمجر في صوت أصم ، في كآبة عظيمة . . .

١٨٩٤

تشيلكاش

السماء الجنوبية الزرقاء خلع عليها الغبار طلعة ضبابية فاحمة السواد . والشمس الحارة تطلّ على البحر الضارب الى الخضرة كأنما من خلال نقاب رمادي رقيق ، واشعتها لا تكاد تنعكس على صفحة المياه المزبدة بفعل ضربات المجاذيف ، ودواسر المراكب البخارية ، والقياديـــم الحادة «للفلوكات» التركية ، والبواخر الأخرى التي تمخر المرفأ المزدحم في شتى الاتجاهات . وأمواج البحر ، المنضغطة في صناديقها الغرانيتية بفعل الأثقال الضخمة فوق متونها ، تلطم الشاطىء وجوانب السفن – تتناطح مزمجرة مزبدة ، وأطرافها محمّلة بمختلف صنوف النفايات .

رنين سلاسل المراسي ، وقرقعـــــة مصدّات عربات البضائع ، والصليل المعدنى للصفائح الحديدية التي تفرّغ على الأرصفة الحجرية ، والدق الأصمّ للأخشاب على الأخشاب ، وقعقعة العربات ، وصفير المراكب البخارية المتحوّل من عويل الى زعيق ، وصراخ الحمالين والبحارة وحراس الجمارك – هذه الأمور كلها تختلط تشكّل الموسيقى الداوية ليوم العمل ، المتصاخبة عنفاً في السماء فوق المرفأ ، في حين تهبّ من الأرض تحتها أمواج جديدة متتابعة من الأصوات – حينـــاً مدوية تهزّ البسيطة ، وحيناً محطّمة تصدّع الهواء القائظ الرطب .

الغرانيت ، والفولاذ ، والخشب ، والأرصفة الحجريـــة والسفن ، والناس – كل شيء يتنفس الأصوات الجبارة لهذه

الترنيمة الهائجة لإَله التجارة والفصاحة واللصوصية . لكن الأصوات البشرية لا تكاد تسمع في تلك الجلبة العامة ، فهي ضعيفة تبعث على السخرية . وكان الناس أنفسهم ، أولئك الذين خلقت جهودهم هذا الصوت كله ، يبعثون أيضاً على السخرية والرثاء ؛ فأجسادهم النحيلة القذرة المهلهلة الثياب محنية تحت ثقل الأحمال على ظهورهم وهم يتراكضون هنا وهنالك في الغبار والحر والضجيج ، وهي لا شيء بالمقارنة مع البواخر الفولاذية الضخمة ، وجبال البضائع ، وقعقعة عربات السكة الحديدية ، وجميع تلك الأشياء الأخرى التي خلقوها بأنفسهم . ان هذه الاشياء الاخرى التى خلقوها بأنفسهم قد استعبدتهم وسلبت منهم شخصياتهم .

البواخر العملاقة المتأهبة للانطلاق تصفر ، وتصعّد تنهيدات ثقيلة ، وكل صوت ترسله مشبع بنغمة ازدراء ساخرة من تلك المخلوقات الكئيبة المغبّرة الزاحفة على متونها لإملاء عنابرها العميقة بمنتجات عملها العبودي . كانت رؤية تلك الصفوف الطويلة من الحمالين وعلى ظهورهم آلاف «البودات» من القمح لتخزينها في بطون البواخر الحديدية كيما يكسبوا من ذلك عدة أرطال من القمح يملؤون به بطونهم ، تجعل المرء يضحك ويضحك بحيث يتغرغر الدمع من عينيه . كان ثمة قصيدة من السخرية المريرة في ذلك التناقض بين هؤلاء الرجال المهلهلي الثياب الطافحين عرقاً ، المخبولين تحت وطأة الحر والضجيج والعمل المرهق ، وتلك الآلات الجبارة التي صنعها هؤلاء الرجال والمنتصبة في تألق

تحت أشعة الشمس – الآلات التي تمّ تسييرها في نهاية المطاف لا بقوة البخار بل بدماء صانعيها وقوة عضلاتهم .

كان الضجيج خانقاً ؛ والغبار يخز الأنوف ويتسلل إلى العيون ؛ والحرارة تشوي الجسم وتفنيه ؛ وكل شيء يبدو متوتراً ، فكأن خاتمة الصبر بلغت سمتها والكارثة على إهبة الإنفجار ، الإنفجار الرهيب الذي ينقّى الهواء ويتيح للرجال أن يتنفسوا بحرية ورخاوة . وعندها يتنزّل على الأرض سكون ، ويتلاشى الغبار والإضطراب بحيث لا يصمّان الناس ويرعشانهم إلى درجة الجنون ، ويصفو هواء المدينة والبحر والسماء ، ويغدو نقياً عذباً . . .

وضربت اثنتا عشرة دقة موزونة لأحد الأجراس . وما أن خمدت آخر نبرة نحاسية حتى تلاشت موسيقى العمل الوحشية جانحة إلى هدوء ، وانقلبت بعد دقيقة واحدة إلى همهمة من الإستياء . وغدت الآونة أصوات الرجال ورشاش البحر أكثر رنيناً في الآذان . إنها ساعة الغداء .

١

عندما توقف الحمالون عن العمل وتبعثروا فوق متون المراكب في جماعات صاخبة لشراء الطعام من الباعة والعثور على زوايا ظليلة يتقرفصون فيها على الرصيف يتناولونه ، ظهر غريشكا تشيلكاش . كان معروفاً بين جميع الحمالين وأهل المرفأ بأسرهم بصفته سكيراً مدمناً ، ولصاً ماهراً جسوراً . كان حافي القدمين عاري الرأس ، يرتدي سروالاً

رثاً من المخمل القطني وقميصاً قطنياً قذراً له ياقة ممزقة تكشف عن صدره المتعظم المفروش بجلد بني اللون . وكان شعره الأسود المنفوش الذي اشتعل شيباً وطلعته الشبيهة بطلعة الصقر ينمّان عن أنه استيقظ قبل لحظات وحسب . وكانت قشة قد علقت بشاربه ، وأخرى بارزة على وجنته اليسرى الحليقة ، في حين حشر وراء أذنه غصناً صغيراً من زيزفون . مشى الهوينا على أرض الشارع المرصوفة بحصى كبيرة ، مديد العود ، هزيل القد ، محدودب الظهر قليلاً ، وهو يتشمم الهواء بأنفه المعقوف ويريش حواليه نظرات من عينيه الرماديتين المتألقتين في برودة كمن يفتش عن شخص بين الحمالين . وكان شارباه الأسودان الطويلان يهتزان مثل شاربي القط ، وقد وضع يديه وراء ظهره يفرك إحداهما بالأخرى ويعصر أصابعه المعوجة اللجوجة . حتى ههنا ، بين مئات من الأجلاف الآخرين ، ما أسرع أن لفت إليه الأنظار على الفور لأنه يشبه صقر البراري بسبب من هزاله الجارح ، ومشيته الهادفة التي تخفي ، مثلها مثل طيران الطائر المفترس الذي يشبهه ، حذراً متوتراً تحت مظهر من رباطة جأش هادئة .

وفيما هو يقترب من جماعة من الحمالين المتراكمين فى ظل كومة من سلال الفحم ، هبّ للقائه فتى قصير ممتلىء الجسم وجهه مبقع بالبثور يوحي بالبلادة ، وعنقه مخدوشة من جراء معركة لم يمرّ عليها زمن طويل فيما يبدو . مشى الى جانب تشيلكاش ، وقال في صوت مهموس :

– اكتشف البحارة نقص بالتين من النسيج . وهم يفتشون عنهما .

استوضح تشيلكاش ، وهو يجيل عينيه فيما حوله في هدوء .

– وماذا ؟

– ماذا تقصد بكلمة «وماذا» ؟ إنهم يفتشون عنهما ، أقول لك .

– ويطلبون مني المشاركة في هذا التفتيش ؟ – سأل تشيلكاش ونظر مبتسماً الى تلك الجهة حيث ارتفع مستودع بضائع الاسطول .

– إمض الى الشيطان !

واستدار الشاب عنه .

– رويدك ! من خلع عليك هذه النقوش الجميلة ؟ يبعث على الأسى أن يشوهوا واجهتك على هذا الغرار ! أرأيت ميشكا هنا ؟

فردّ عليه الفتى من بعيد ، وهو ينضم الى رفاقه :

– لم أره منذ طويل زمن .

جعل الجميع يحيون تشيلكاش عند مرورهم به تحيـــة صديق قديم . أما هو ، المرح الساخر عادة ، فكان ، فيما يبدو ، معتكر المزاج فجاءت أجوبته محكمة موجزة .

برز من وراء كومة من البضائع خفير الجمارك على حين فجأة – مخضر اللون داكنه ، معفراً بالغبار ، على أهبـــة الإستعداد للعراك . وذرع نفسه في وجه تشيلكاش متحدياً ، ويده اليسرى على مقبض مديته ، فيما اليمنى تتطاول للوصول الى ياقة تشيلكاش .

– قف ! الى أين تقصد ؟

تراجع تشيلكاش خطوة ، وأسام عينيه الى وجه الخفير الأحمر ، وابتسم ابتسامة باردة .

جاهد الوجه الماكر ، لكن الطيب ، أن يعبّر عن سحنة مهددة : انتفخ الخدان وتقرمزا ، وانشدّ الحاجبان ، وحملقت العينان ، فبدت الطلعة بأسرها باعثة على الضحك .

زمجر قائلاً :

– أمرتك مرة بالابتعاد عن هذه الأرجاء إن كنت تريدني ألا أحطم ضلوعك . وهذا أنت هنا مرة أخرى !

فقال تشيلكاش رابط الجأش ، وهو يمدّ يده :

– مرحباً ، يا سيميونيتش ! أنـــا لم أرك منذ فترة طويلة .

– من الافضل الاّ اراك قرناً كاملاً . تحرك ، اذهب .

ولكنه صافح اليد الممدودة له .

استرسل تشيلكاش يقول ، وقد قبض على يد الخفير بين أصابعه الفولاذية وراح يهزها في حركة ودية :

– إليك ما أردت أن أستوضحك عنه . هـــل وقعت لميشكا على أثر أينما كان ؟

– أي ميشكا ؟ ما أحسبني عليماً بأمر أي ميشكا ! تحرك ، يا رجل ، وإلا رآك الرئيس ، وعندها . . .

فأصرّ تشيلكاش :

– ذلك الشاب الأحمر الرأس الذي عملت معــــه على «الكوستروما» في المرة الماضية .

– ذلك الذي تسرق معه ، كما أفهم منك . لقد وضعوه

في المستشفى ، ميشكاك هذا – سحقت ساقه حديدة . إرحل من هنا أقول لك ، إذهب قبل أن أطوّح بك من ياقة عنقك .

– أصغوا إلى هذا القول الآن ! ولقد قلت إنك لا تعرف أي ميشكا . فمـــا الذي يجعلك على هذا القدر من القرف ، يا سيميونيتش ؟

– ليس هذا من شأنك ! إمش !

كان الغضب قد بدأ يشتمل الخفير . انثنى يطيل النظر حواليه وحاول أن يحرّر يده ، ولكن تشيلكاش تشبث بها وهو يرمقه في هدوء من تحت حاجبيه الكثين ، ويتابع حديثه :

– فيم تستعجلني ؟ ألا تحب أن تثرثر معي قليلاً ؟ كيف تسير أمورك ؟ كيف حال زوجتك وأولادك ؟ هل هي حسنة ؟

ومضت عيناه ، وانكشفت أسنانه عن تكشيرة ساخرة ، وأضاف :

– قصدت أن أزورك منذ زمن بعيد ، ولكنني لم أستطع أن أتدبر ذلك . إنه الشراب . . .

– كفّ عنه ، أنصح لك ! فهو ليس من مزاحك ، أيها الأخرق الهزيل . أنا أعني ما أقول . لكن ، ربما تحولت الى سارق بيوت ، أو جعلت تسرق الناس في الشوارع ؟

– وفيم أفعل ذلك ؟ ههنا ما يكفي لتشغيلي وتشغيلك مدى الحياة . وربي أنـــا صادق ، يا سيميونيتش . ولكنني أسمع أنك سرقت بالتين أخريين من النسيج . حذار ، وإلا وجدت نفسك في الفخ !

ارتعش سيميونيتش سخطاً ، وتدفق لعابه وهو يحاول أن يقول شيئاً . أطلق تشيلكاش يده ومشى في هدوء على ساقيه

الطويلتين عائدا ، الى بوابات الميناء . وسـار الخفير فى أعقابه وهو يشتمه في قسوة .

انبسطت أسارير تشيلكاش الآن . فجعل يصفر من بين أسنانه ، وقد دسّ يديه في جيبيه ، وتبطّأ في السير ، ناثراً الضحكات يميناً ويساراً . فردوا عليه بالعملة ذاتها .

صاح حمّال كان مستلقياً على الأرض مع رفاقه يغنمون قليلاً من راحة بعد الطعام :

– أرأيت مقدار ما يسبغ الرؤوساء عليك من عناية ، يا غريشكا ؟

فأجاب تشيلكاش :

– يخـاف سيميونيتش أن أدوس على بعض المسامير بقدميّ الحافيتين .

وصلا إلى البوابة . فأمرّ جنديان أيديهمـا على ثياب تشيلكاش ، ودفعاه إلى الشارع .

عبر الطريق واقتعد حجراً مقابل الخمارة . وخرجت من بوابات المرفأ قافلة من العربات المحملة ، في حين راح صف من العربات الفارغة يتحرك في الناحية المقابلة ، وسائقوها يتواثبون على مقاعدهم . وتقيأ الميناء زمجرة عادية وسحباً من غبار يلتصق بالجلد .

كان تشيلكاش في الجوّ الذي يناسبه وسط تلك الفوضى المجنونة . كان يتوقع الحصول على صيد وفير في تلك الليلة ، صيد لن يكلفه غير عناء قليل ، ولكنه صيد يتطلب كثيراً من الحذق . كان واثقاً أن لديه ما يكفي من هذا الحذق ، فضيّق فرجتي عينيه مسروراً وهو يتصوّر كيف سينفـق

أوراقه النقدية كلها في صبيحة اليوم التالي . وفكر في صديقه ميشكا . لشدّ ما هو إليه في حاجة ، ولكنه كسر ساقه . ولعن تشيلكاش في سرّه وقد خطر له أنه لن يستطيع النهوض بالأمر وحيداً . كيف سيكون الجوّ ، يا ترى ؟ . . ورفع بصره الى السماء ، ثم مسح به الشارع كله .

على الرصيف ، على مبعدة ست خطوات منه ، وظهره يتكئ على نصبة منخفضة ، ثمة شاب يرتدي قميصاً أزرق من قماش خشن وبنطالاً شبيهاً به ، وينتعل صندلاً من ليف الشجر ، ويغطي رأسه بقبعة ممزقة حمراء اللون . وإلى جانبه حقيبة صغيرة ومنجل لا مقبض له ملفوف بقليل من القش ومربوط بحبل على نحو متقن . كان الشاب قوياً ، عريض المنكبين ، أشقر الشعر ، لوحت الريح والشمس بشرته ، وله عينان زرقاوان كبيرتان راحتا تحدقان في تشيلكاش في نظرات ودية .

عرى تشيلكاش أسنانه ، وأخرج لسانه ، وخلع على سيماه طلعة مرعبة ، وتفرّس في الشاب بعينين مبحلقتين .

طرف الشاب أول الأمر بعينيه حائراً ، وانفجر من بعد ضاحكاً ، وهو يصيح خلال نوبات ضحكه : «أحمق مثل طائر الغواص !» تحرك عن نصبته ، دون أن ينهض عن الأرض ، إلى حيث يجلس تشيلكاش ، وجرّ حقيبته على التراب ، فجعلت ذروة منجله تقعقع على حصى الشارع .

خاطب تشيلكاش قائلاً ، وهو ينفض سرواله :

— أسرفت في الشراب ، أليس كذلك ؟

فاعترف تشيلكاش مبتسماً :

— أنت على حق ، يا صغيري ، أنت على حق .

ما أسرع ما استرعى اهتمامه هذا الشاب المعافى الطيب بعينيه الصافيتين كعيون الأطفال .

– أكنت تعمل في الحصاد ؟

– أجل . كنت أعمل في الحصاد ، لكن لم أحصل على شيء من مال . الأيام سيئة . أنت لم تر مثل هذا الحشد من الناس قبلاً ! زحفوا جميعاً من المناطق التي ضربتها المجاعة . ولا جدوى من العمل بمثل ذلك الأجر . دفعوا ستين كوبيكاً في الكوبان . فكّر في هذا ! يقولون إنهم اعتادوا أن يدفعوا ثلاثة أو أربعة روبلات ، أو ربما خمسة .

– اعتادوا ذلك ! لقد اعتادوا أن يدفعوا ثلاثة روبلات لمجرد إلقاء نظرة على أحد الروس ! كنت أكسب قوتي على هذا الغرار قبل عشر سنوات . كنت أجيء إلى قرية قوزاقية ، وأقول : «هذا أنا ، أيها القوم ، روسي مخلص لله !» فيبحلقون في ، ويلقون نظرة عليّ ، ويتلمسونني ، ويقرصونني ، ويطلقون التنهيدات ، ويدفعون لي ثلاثة روبلات . ويعطونني أيضاً طعاماً وشراباً ، ويدعونني الى الإقامة لديهم ما طاب لي .

فتح الشاب فمه أول الأمر وقد استبانت في ملامح وجهه المدور دلائل إعجاب مرتبك ، وما أن أيقن أن تشيلكاش يختلق الأمور حتى أغلق فمه متلمظاً ، ثم انفلت في موجة عامرة من الضحك مرة أخرى . احتفظ تشيلكاش بسحنته الجدية مخفياً ابتسامته في شاربيه .

– ما أغربك من عصفور ، تختلق الأمور فكأنها حقيقة

من حقائق الله ، وأبتلعها أنا . وحقّ الله ، فقد كان هنالك من قبل . . .

– هذا مـا كنت أقوله بالضبط ، أليس كذلك ؟ لقد اعتادوا أن . . .

فقال الشاب ، وهو يلوّح بذراعه :

– أوه ، انتظر ! من تراك تكون ، هل أنت أسكافى ، أم خياط ، أم ماذا ؟

أغرق تشيلكاش في التفكير برهة ، وقال :

– أنا ؟ أنا صياد سمك .

– صياد سمك؟ فكروا في هذا ! أنت اذن تصطاد السمك ، أليس كذلك ؟

– ولماذا السمك ؟ صيادو السمك هنـــا لا يصطادون السمك وحده . في اغلب الأحيان جثثا ، ومراسي قديمة ، وقوارب غريقة . ثمة صنارات خاصة لمثل هذه الاشياء .

– تكذب من جديد . لعلك أحد اولئك الصيادين الذين ينشدون مغنين :

نلقي شباكنا
على الشواطئ
والعنابر ، والأبواب المفتوحة .

استوضح تشيلكاش ، وهو يرسل بصره الى الشاب في قسوة ويطحن أسنانه :

– هل التقيت أمثالهم من الصيادين ؟

– كلا ، ولكنني سمعت عنهم .

– هل يروقون لك ؟

– الناس من أمثالهم ؟ لم لا ؟ هم أحرار على أقل تقدير ، يفعلون ما يطيب لهم .

– ما هي الحرية بالنسبة إليك ؟ أتسعى حقاً وراء الحرية ؟

– من دون ريب . هل هنالك شيء أفضل من أن تكون سيّد نفسك ، تذهب حيث تشاء ، وتفعل ما يطيب لك ؟ ينبغي وحسب أن تظل مستقيماً ، وحجر الرحى غير معلق حول عنقك . وما زاد عن ذلك فانطلق وامرح ولا يشغلنّ بالك شيء غير الله وضميرك .

وبصق تشيلكاش في ازدراء ، واستدار جانباً .

واسترسل الشاب يقول :

– إليك قصتي . مات أبي دون أن يخلّف شيئاً تقريباً ، وأمي امرأة عجوز ، والأرض ممصوصة جافة . فماذا عليّ أن أفعل ؟ ينبغي عليّ أن أعيش ، لكن كيف أعيش ؟ وحده الله يدري . فمثلاً ، أتيحت لي فرصة الزواج بفتاة من عائلة موسرة . وما كنت لأبالي إن فصّلوا بائنة البنت . ولكنهم لن يفعلوا ذلك . فأبوها الشيطان لن يعطيها ذرة واحدة من الارض . وهكذا وجب عليّ أن أعمل لديه ، ولفترة طويلة من زمن . طوال سنوات . هذه هي الحقيقة . لو أتيح لي أن ألقي يدي على . . . لنقل مائة وخمسين روبلاً لاستطعت النهوض على قدميّ في وجه أبيها ، وقلت له : «أتريدني أن أتزوج بابنتك مارفا ؟ ان تعطي معها شيئا ما ؟ لا تريد ؟ فليكن ذلك . فهي ليست الفتاة الوحيدة في القرية ، والحمد لله !» . وأنا حر ، سيد نفسي . . . هكذا !

وأطلق الشاب تنهيدة ، وانثنى قائلاً :

– ولكنه بدا أنه ليس ثمة من سبيل غير مصاهرته . خطر لي أنى قد أعود من الكوبان بمائتي روبل تقريباً . وهذا كل شيء ! وعندها أغدو جنتلماناً ! ولكنني لم أحصل على شيء تقريباً . ولم يعد أمامي سوى أن أغدو أجيراً زراعياً . فلن يكون لديّ مزرعة خاصة بي . هذا هو الأمر كله .

ارتبك الشاب ، وادلهمّ وجهه من حزن لمجرد التفكير أنه سيغدو لذلك الرجل صهراً ، فيما تململ متثاقلاً .

سأل تشيلكاش :

– وإلى أين تتجه الآن ؟

– إلى البيت . أين يمكن أن أذهب ؟

– من أين لي أن أعرف ؟ لربما أنت ذاهب الى تركيا .

فانشده الشاب :

– تركيا ؟ ؟ أي مسيحي مؤمن يذهب الى تركيا ؟ ما أروع هذا الكلام !

جمجم تشيلكاش ، وهو يستدير عنه مرة أخرى :

– يا لك من أحمق .

لقد أثار هذا الشاب الريفي المعافى في نفسه شيئاً .

إن شعوراً فسيحاً من الضجر ينضج في أعماقه ، ويحول بينه وبين تركيز ذهنه فيما سيتخذه في الليل من أمور .

غمغم الشاب الذي أغضبته كلمات تشيلكاش شيئاً في سره ، وألقى على الصعلوك نظرات جانبيـــــة . كان خداه منتفخين بصورة مضحكة ، وشفتاه ناتئتين ، وعيناه الضيقتان تطرفان بسرعة . يبدو أنه لم يتوقع أن ينتهي هذا الحديث

مع مثل هذا المتشرد الوحشي الكث الشاربين بمثل هذه السرعة وهذا التكدير .

لكن المتشرد كفّ عن الالتفات اليه . كان فكره يعمل في شيء آخر وهو جالس على النصبة يصفر بينه وبين نفسه ، ضابطاً الإيقاع بإبهام قدمه القذر .

أراد الشاب أن يصفّي حسابه معه .

شرع يقول :

– أنت ، يا صياد السمك ! هل تشرب كثيراً ؟

في تلك البرهة استدار الصياد إليه فجأة ، وقال :

– أنظر ، يا صغيري ، هل تريد أن تساعدني في إنجاز عمل هذه الليلة ؟ هيا ، اتخذ قراراً . عجل !

استوضح الشاب مرتاباً :

– أي نوع من العمل ؟

– أي نوع من العمل ؟ ما أعطي لك . لسوف نخرج إلى الصيد . وسوف تجذّف أنت .

– أوه ، هذا عمل لا أمتنع عنه ، فالعمل لا يخيفني . ولكن – ماذا لو أوقعتني في متاعب ؟ فأنت إنسان ماكر ، ولست قادراً على فهمك .

أحسّ تشيلكاش مثل لســـــع النار في صدره . قال في غيظ بارد :

– لا يثرثرنّ لسانك بأشياء لا تفقه لها معنىً . سأنهال على يأفوخك بضربة قوية ، وعندها تفهم هذا الأمر أو ذاك .

وثب واقفاً ، وقد التمعت عيناه ، وراحت يده اليسرى تشدّ شاربه ، وانقبضت اليمنى في قبضة معروقة .

ارتعب الشاب . وأدار بصره حواليه في عجلة ، ووثب هو الآخر وهو يطرف في عصبيـــــة . وقف الإثنان هنالك صامتين يفحص أحدهما الآخر بعينيه .

قال تشيلكاش في صرامة :

– حسناً ؟

كان يرغي ويزبد في باطنه وينتفض من جراء الإهانـــة التي وجهها إليه هذا الجرو الذي ازدراه من قبل كثيراً ، والذي يكرهه الآونة بجماع روحه لأن له هاتين العينين الزرقاوين الصافيتين ، وهذا الوجه الملفوح المعافى ، وهاتين الذراعين القصيرتين القويتين ؛ ولأن له هنالك قرية وبيتاً ، كما أن لديه دعوة لمصاهرة فلاح موسر ؛ وكرهه بسبب من أسلوب الحياة التي عاشها في الماضي وسيعيشها في المستقبل ، وكان أكثر الحقد بسبب من أنه ، وهو مجرد طفل بالقياس إليه هو تشيلكاش ، يجرؤ على السعي وراء الحرية التى لا يعرف لها قيمة أو لا تمسّ له حاجة بها . مما يبعث على الاستياء دائماً أن تجد امرءاً تعتبره أدنى منك مرتبة يحبّ أو يكره الأشياء ذاتهـــا التي تحبهـــا أو تكرهها ، ويصبح على هذا الغرار شبيهاً بك .

وفيما الشاب يمدّ بصره الى تشيلكاش عرف فيه سيداً ، فقال :

– أنا حقاً . . . لا أبالي . . . بعد كل شيء ، فأنـــا أفتش عن عمل . فأي فرق لديّ إن عملت لديك أو لدى رجل آخر ؟ لقد قلت ما قلت لإننى . . . حسناً ، فأنت لا تبدو في مظهر رجل شغّيل . أنت . . . أنت . . . رث الثياب .

ولكن هذا يقع لكل إنسان ، على ما يخال لي . يا الله ، أفلم تقع عيناي على سكّيرين من قبل ؟ رأيت كثرة منهم ، وأغلبهم أسوأ منك .

فقال تشيلكاش في نبرة لطيفة :

– حسناً ، حسناً . أنت موافق إذن ؟

– بكل سرور . حدّد الأجر .

– الأجر يتوقف على العمل . بمقدار ما نصيد . ربما تحصل على خمسة روبلات .

طالما أن الحديث يجري الآونة عن المال فقد رغب الفلاح أن يكون محدداً ، وطلب هذا التحديد من الرجل الذي يستأجره . فقد اصطخبت الشكوك والريب في نفسه مرة أخرى .

– هذا لا يناسبني ، يا أخ .

ولعب تشيلكاش دوره :

– فلنكفّ عن الحديث حول هذا الموضوع الآن . ولنمضينّ الى الخمارة .

مشيا جنباً الى جنب ، وتشيلكاش يفتل شاربيه خالعاً على نفسه طلعة السيّد ، والشاب يساوره الخوف والريب ، ولكنه راغب في الامتثال .

استوضح تشيلكاش :

– ما اسمك ؟

فأجابه الشاب :

– غافريلا .

وفيما هما يدخلان الحانة القذرة المسودة بالدخان ، اتجه تشيلكاش ناحية المشرب وطلب – بنبرة مألوفة من

زبون عتيد – زجاجة الفودكا ، وحساء كرنب ، ولحماً مشوياً ، وشاياً . وكرّر هذه القائمة ، ثم عقّب في لا مبالاة : «على الحساب» ، فردّ عليه المشربيّ بايماءة صامتة من رأسه . هنا امتلأت نفس غافريلا في الحال احتراماً نحو مستخدمه ، هذا الذي يتمتع ، رغم مظهره الزريّ ، بمثل هذه الشهرة والثقة .

– سنأكل الآن شيئاً ونتباحث في الأمور . اجلس هنا وانتظرني . سأعود حالاً .

خرج . ونظر غافريلا فيما يحدق به . كانت الحانة في قبو . وكانت مظلمة رطبة تعجّ برائحة خانقة من الفودكا ، ودخان التبغ ، والسخام ، وشيء آخر حاد . وكان بحار أحمر اللحية سكران ملطخ بالهباب والسخام من رأسه حتى قدميه ينبطح على المنضدة المقابلة له . وكان يقرقر ، وهو يفوق ، بأغنية مبتورة الكلمات صافرة الحروف مرة ، حنجريّتها مرة أخرى . وكان من الواضح أنه لم يكن روسياً .

وراءه ثمة امرأتان مولدافيتان ، بشرتهما داكنة وشعرهما أسود وثيابهما رثة ، وكانتا بدورهما تلوكان أغنية ثملى .

وبرزت من الظلال أشكال أخرى يعصف بها الضجيج والانفعال والفوضى ويتعتعها السكر . . .

انقبض غافريلا رهبة . أواه لو أن معلمه يعود أدراجه ! واختلطت ضجة الحانة في صوت واحد ، وبدا وكأن حيواناً هائلا متعدد الألسنة يزمجر وهو يحاول الانفلات من هذه الحفرة الحجرية لكن عبثاً . وأحسّ غافريلا شيئاً مسكراً يزحف الى

جسده ، فيجعل رأسه يدوّم وعينيه يغشاهما سديم وهما تشملان الحانة بنظرة فضولية خائفة .

رجع تشيلكاش أخيراً . وشرع الرجلان يأكلان ويشربان ويتحدثان . وعصف السكر برأس غافريلا بعد الكأس الثالثة من الفودكا . فصار مرحاً ، ورغب في أن يقول شيئاً لطيفاً لذلك الأمير بين الشبان الذي استضافه على مثل هذه الوليمة الرائعة . بيد أن الكلمات التي كانت تتدفق في حنجرته لا ينطق بها لسانه ، هذا اللسان الذي ثقل وتبكّم على حين فجأة .

شخص تشيلكاش إليه في ابتسامة ساخرة :

– سكرت ؟ إيه ، أيها الخرقة البالية ! من خمس جرعات . كيف ستشتغل هذه الليلة اذن ؟

فزمزم غافريلا :

– آه ، يا صاح ! لا تخف . سأريك . أعطني قبلة ، تعال .

– لا بأس بهذا . إليك ، خذ جرعة أخرى .

ظل غافريلا يشرب إلى الحدّ الذي بدا فيه كل شيء حواليه يندفع صعوداً وهبوطاً في أمواج متساوقة . وضايقه ذلك وأشعره بالمرض . واكتسى وجهه نظرة بلادة وقورة . وكلما حاول أن يقول شيئاً تروح شفتاه ترتقصان على نحو مضحك ولا يخرج من بينهما غير أصوات مغربلة . وبرم تشيلكاش شاربيه ، وابتسم ابتسامة كالحة وهو يرمقه شارد الذهن ، وأفكاره منصرفة إلى شيء آخر .

وكانت الحانة لا تبرح بالصخب المخمور مثلها أبداً . وطوى البحار الأحمر الشعر ذراعيه على المائدة واستغرق في النوم .

قال تشيلكاش ، وهو ينهض على قدميه :

– حان أوان الذهاب .

حاول غافريلا أن يلحق به فلم يستطع ، فأطلق شتيمة وضحك ببلاهة مثلما يضحك المخمورون .

تمتم تشيلكاش ، وقد عاود الجلوس :

– يا لسقط المتاع !

تابع غافريلا ضحكه وهو يمدّ بصره الى معلمه بعينين غائمتين ، في حين سلط عليه تشيلكاش عينين حادتين متفكرتين . فرأى أمامه رجلاً وقع مصيره في مخلبه الذئبي . وأحسّ تشيلكاش أنه قادر أن يفعل به ما يطيب له . في مقدوره أن يسحقه بيده مثلما يسحق ورقة من ورق اللعب ، أو أن يساعده في العودة إلى حياته الريفية الراسخة . ولما أحسّ بمقدار قوته عليه ، خطر له أن هذا الشاب لن ينهل الكأس التي فرض عليه القدر أن ينهلها ، هو تشيلكاش . وحسد هذا الشاب وشعر بالأسف من أجله ؛ احتقره وبالتالى أحسّ بالأسف لأنه قد يقع بين يدي أشخاص آخرين لا يكونون أفضل منه . وفي آخر الأمر اختلطت عواطف تشيلكاش كلها في شعور واحد أبوى وعملي في وقت واحد . كان يشفق على الصبيّ ويحتاج إليه معاً . وهكذا أمسك غافريلا من تحت إبطيه وأنهضه ، ودفعه دفعات لطيفة بركبته وهو يقوده

ناحية فناء الحانة حيث أجلسه في ظل كومة من الحطب ، وجلس إلى جانبه وجعل يدخن غليونه . تململ غافريلا قليلاً ، ونخر ، وأغفى .

٢

همس تشيلكاش مخاطباً غافريلا الذي انشغل بالمجذافين :

– أمستعد أنت ؟

– في غضون دقيقة . عروة المجذاف محلولة . هل أستطيع أن أدقها بالمجذاف ؟

– كلا ! لا صوت ! ادفعها بيديك ؛ وتعود الى مكانها .

كانا منشغلين بقارب مربوط الى مؤخرة أحد المراكب التي تشكل أسطولاً كاملاً بألواح البلوط ، والفلوكات التركية المحملة بجذوع النخل والصندل وجذامير السرو الضخمة .

كانت الليلة حالكة ، وفي السماء تسبح طبقات ثقيلة من سحب شعثاء ، والبحر هادئاً أسود اللون كثيفاً كالزيت ، يطلق رائحة رطبة مالحة وهمهمة رقيقة وهو يحضن الشاطئ وجوانب السفن ويؤرجح قارب تشيلكاش في لطف . وعلى مسافة قريبة من الشاطئ تلمح العين هياكل السفن السوداء قبالة السماء وصواريها مزينة في أعاليها بمصابيح متعددة الألوان . وكان اليمّ يعكس هذه الأضواء وهو مزركش بوفرة من الرقع الصفراء تتبدى جميلة وهي ترتعش على خلفية من

المخمل الأسود . وكان البحر يغط في نوم عميق فكأنه عامل هدت قواه أعمال النهار .

قال غافريلا ، وهو يغطس المجذاف في الماء :

– فلننطلق .

ودفع تشيلكاش المجذاف بقوة مرسلاً القارب في الممر الضيق بين مراكب النقل . سرى خفيفاً على صفحة الماء الذي ندّ عنه وهج فوسفوري أزرق حيث ضرب المجذافان فشكّل شريطاً متوهجاً في أعقاب القارب .

استوضح تشيلكاش في جزع :

– كيف رأسك ؟ يؤلمك ؟

– بقسوة لا حدود لها . وهو ثقيل كالرصاص . لسوف أبلله بالماء .

قال تشيلكاش ، وهو يمدّ له زجاجة :

– لماذا ؟ بلّل جوفك . فهذا يشفيك أسرع .

– آه ، فلنشكرنّ الرب .

وتردد صدى قرقرة .

قاطعه تشيلكاش :

– هاي ! هذا يكفي !

مرة أخرى انطلق القارب قدماً ، شاقاً طريقه بين البواخر الأخرى في خفة وخفوت . وسرعان ما تجاوزها ، فإذا البحر – البحر اللانهائي الجبار – ينداح أمامهما بعيداً إلى الأفق الأزرق حيث ترتفع سحب منتفخة : رمادية وبنفسجية لها حواشي صفراء مزغبة ، وخضراء بلون مياه البحر ، ورصاصية تلقي ظلالاً سوداء موحشة . انسابت السحب على مهلة على

طول السماء ، آونة تلاحق بعضها بعضاً ، وتختلط ألوانها وأشكالها ، وأخرى تبتلع بعضها لتعود وتظهر من جديد في أشكال جديدة ضخمة متجهمة . كان ثمة شيء مشؤوم في تلك الحركة البطيئة لهذه الأشكال التي لا حياة فيها . وكان يبدو أن ثمة أعداداً منها لا حصر لها عند نهاية البحر ، وأنها ستوالي زحفها عبر السماء إلى الأبد ، تستحثها رغبة شريرة في الحيلولة بين السماء وتطلعها إلى البحر الهاجع بملايين عيونها الذهبية ، النجوم المختلفة الألوان ، المعلقة هنالك حية تتلألأ حالمة ، مثيرة رغبات رفيعة في أفئدة الرجال الذين يعزّ عليهم ألقها الصافي .

سأل تشيلكاش :

– جميل هو البحر ، أليس كذلك ؟

فقال غافريلا ، وهو يضرب المجذافين بقوة واطراد :

– أظن ذلك ، ولكنه يخيفني .

وأطلق الماء رنيناً ورشاشاً خافتين فيما المجذافان يصطدمان به ، وظلّ يرسل ذلك الوهج الفوسفوري الأزرق .

زمجر تشيلكاش :

– خائف ! أنت معتوه !

كان ، هو اللص ، يعشق البحر . وكانت طبيعته العصبية الشموس ، الظامئة أبداً الى انطباعات جديدة ، لا تشبع قط من تأمل هذه الرحابة الداكنة ، الطليقة إلى أبعد الحدود ، الجبارة ، اللانهائية . وقد استاء من مثل هذا الجواب الفاتر عن سؤاله حول جمال ذلك الشيء الذي أحبّه . وفيما هو جالس هنالك في مؤخرة القارب تاركاً مجذافه المتّخذ دفة يقطع

الماء وهو يحملق أمامه في هدوء ، أفعمته الرغبة في الترحال طويلاً وبعيداً قدر استطاعته فوق ذلك المنبسط المخملي .

كان إحساس دافئ رحب يخامره على الدوام حين يكون على البحر ، يملأ روحه بأسرها ، ويطهرها من دنس الحياة اليومية . كان يقدّر ذلك ويحب أن يرى نفسه رجلاً أفضل ههنا بين الأمواج والهواء الطلق ، حيث تفقد الأفكار عن الحياة لذعها كما تفقد الحياة ذاتها قيمتها . وفي الليل تروح الأنفاس الرضية للبحر الناعس تنساب عذبة فوق المياه ، فيصبّ هذا الصوت المترامي في قلب المرء طمأنينة ، ويروض نزواته الشريرة ويولّد فيه احلاماً سامية ...

سأل غافريلا على حين فجأة ، وهو يبحث في القارب وقد استبدّ به القلق :

– أين ادوات الصيد ؟

فأجفل تشيلكاش .

– الأدوات ؟ هي عندي هنا في المؤخرة .

لم يكن يرغب في الكذب أمام هذا الصبيّ ، ورثى لتلك الأفكار والمشاعر التي تبدّدت على هذه الصورة غير المتوقعة . وغضب . وأحسّ من جديد تلك الحرقة اللاهبة في حلقه وصدره ، فعالن غافريلا قائلاً في نبرة عالية مؤثرة :

– أصغ . إجلس حيث أنت وانصرف إلى عملك . استأجرتك للتجذيف ، فجذّف . وإذا بدأت تهز لسانك صعبت الأمور عليك . فهمت ؟

ارتجّ القارب قليلاً وتوقف . وراح المجذافان يجران المياه ويحركانها . وتحرك غافريلا في مقعده قلقاً .

– جذّف !

وهزّت الهواء شتيمة مقذعة . ورفع غافريلا المجذافين ، فوثب القارب ، كما لو ارتعب ، وانطلق قدماً في دفعات عصبية سريعة جعلت الماء يتراشش .

– توازن !

نهض تشيلكاش نصف نهضة دون أن يترك الدفة من يده ، وغرز عينين باردتين في محيا غافريلا الأبيض . كان أشبه بقط يتأهب للوثوب حيث انتصب هنالك منحنياً بجذعه . وكان يمكن سماع صرير أسنانه ، مثلما تسمع رعشة أسنان غافريلا .

وجاءت من البحر صيحة صارمة :

– من يصيح هنالك ؟

وهسّ تشيلكاش :

– جذّف ، يا ابن الزنا ! جذف ! هس ! سأقتلك ، لعنة اللـه عليك ، يا كلب ! جذف ، أقول لك ! واحد ، إثنان ! حذار أن تنبس بحرف ! سأمزقك إرباً !

غمغم غافريلا ، وهو يرتعش رهبة وجهداً :

– أيتها العذراء القديسة ، يا أمّ الله !

استدار القارب وانساب عائداً الى المرفأ حيث شكلت مصابيح السفن مجموعة من الأضواء الملونة وانتصبت صواريها بارزة للعيان .

ودفّ الصوت مرة أخرى :

– هاي ! من يصيح ؟

ولكنه جاء من مكان بعيد هذه المرة . فاطمأن تشيلكاش . ردّ قائلاً صوب الصيحات :

– أنت هو من يصيح !

والتفت الى غافريلا الذي لا يبرح يتمتم بالصلاة :

– كان الحظ في جانبك هذه المرة ، يا صاح . لو طاردنا أولئك الشياطين لكانت نهايتك . وكنت ألقيتك طعاماً للأسماك على الفور .

وحين تبين غافريلا المرتجف أن تشيلكاش جنح إلى هدوء وانشرحت نفسه ، توسّل إليه قائلاً :

– أطلقني . ناشدتك المسيح أطلقني . أنزلني حيثما كان . آه ، آه ، آه ، لقد هلكت ! محبة بالله ، إئذن لي بالذهاب . ماذا تريد مني ؟ أنا لم أقترف مثل هذه الأعمال . إنها المرة الأولى . يا الله ، لقد ضعت حقاً . فيم فعلت بي ما فعلت ؟ إنها خطيئة لسوف تدفع ثمنها من روحك . أوه ، يا لهذا العمل !

سأل تشيلكاش في حدة :

– عمل ؟ أي عمل ؟

أضحكه ذعر الفتى ، ولذّ له أن يفكّر فيه مليّاً ، وأن يتروّى في مقدار ما هو عليه من رعب .

– عمل مشبوه ، يا أخ . أطلقني ، محبة بالله . فيم حاجتك إليّ ؟ هيا ، كن رجلاً طيباً . . .

–إخرس ! لولا حاجتي إليك لما جئت بك . أتفهم ؟ فاخرس إذن !

وتغمغم غافريلا قائلاً :

– يا إلهي الطيب !

فقاطعه تشيلكاش في احتداد :

– كفاك نحيباً .

فقد غافريلا القدرة على ضبط نفسه ، فشرع ينشج في هدوء ، وسعل ، وتمخط ، وتململ ، ولكنه جذف في قـوة خلقها اليأس في جوانحه . وانطلق القارب مندفعاً كالسهم . وما أسرع أن وجدا نفسيهما مرة أخرى وقد أحاطت بهمـا أجسام البواخر الداكنة . وضاع قاربهما بينهـا وهو يدور وينفتل في ملء مجازات المياه الضيقة .

– إسمع ، يا هذا ! إذا طرحت عليك أسئلة فلا تفتح فمك إذا كان لحياتك شأن لديك . أتفهم ؟

وتنفس غافريلا :

– يا الله !

وأضاف في مرارة :

– لا ريب أنه مصيري .

همس تشيلكاش مرة أخرى موعزاً :

– كفاك نحيباً .

أفقدت هذه الهمسة غافريلا قدرته على التفكير ، وسيطر عليه هاجس بارد بنكبة متوقعة . فجعل يدفع مجذافيه في الماء كمن أصابته غشية ، ويلقى جذعه الى الخلف وهو يشدهما ، ويخرجهما ثم يدفعهما في المياه من جديد ، وعيناه مستقرتان على صندليه المصنوعين من الليف .

كان رشاش الأمواج الناعس كئيباً مرعباً . ولكنهما الآونة

في المرفأ . وترامى من وراء جدار حجري في الطرف الآخر صدى أصوات بشرية ، وصفير ، ورشاش مياه .

همس تشيلكاش :

– توقف ! إرم مجذافيك . إدفع بيديك عن الحائط . هس ، لعنة الله عليك !

قاد غافريلا القارب بمحاذاة الجدار متشبثاً بيديه بالحجارة الزلقة . وتحرك القارب دون أن يندّ عنه صوت ، والمادة المخاطية على هاتيك الحجارة تكتم الصدى المنطلق منه .

– توقف . أعطني المجذافين . هاتهما ، أقول لك . أين جوازك ؟ في حقيبتك ؟ أعطنيها . أسرع . هذا إجراء يمنعك من الهرب ، يا صاح . ليس ثمة خطر الآن . كان في مقدورك أن تهرب من دون مجذافين ، ولكنك لا تفعل ذلك من دون جوازك . إنتظر هنا . واحذر ، فاذا ثرثرت شيئاً فلسوف أعثر عليك ولو في أعماق البحر !

وعندها شدّ تشيلكاش نفسه إلى الأعلى بواسطة يديه ، واختفى وراء الجدار .

حدث ذلك بسرعة مذهلة حتى أن غافريلا أطلق تنهدة قصيرة . ثم شعر أن العبء الذي جثم على قلبه والخوف الذي ملك عليه مشاعره من قبل هذا اللص انزاحا عنه فكأنهما ثوب طرحه عن جسده . سيهربنّ الآن ! تنفّس الصعداء ، وهو يلتفت حواليه . عن يساره ارتفع جسم باخرة ضخمة لا صواري لها أشبه ما تكون بنعش كبير فارغ مهجور . وكلما اصطدمت الأمواج به أطلق صدى أجوف يكاد أن يشبه زفرة ثقيلة . وعن يمين ينتصب الجدار الموحل لحائل الأمواج أشبه

بأفعى ضخمة باردة التفت في البحر على نفسها . وفيما وراءه بدت أشكال سوداء أخرى . أما في الأمام ، في الانفساح القائم بين الجدار وذلك النعش ، فقد وقعت عيناه على البحر المقفر الذي غطته سحائب سود . كانت تتحرك في بطء ، جسيمة ثقيلة ، على طول السماء ، ناشرة الذعر في الظلمة ، مهددة بسحق المخلوقات البشرية تحت ثقلها الجبار . وكان كل شيء بارداً ، داكناً ، ينذر بالويل . وارتعب غافريلا . وكان رعبه الحالي أقوى من ذلك الذي فرضه تشيلكاش عليه . لقد طوّق صدره بعنف واعتصر كل مقاومة فيه وسمّره في مقعده . . .

كان كل شيء هادئاً . فليس ثمة صوت غير تنهيدات البحر . وتحركت السحب بطيئة موحشة مثلها أبداً . وارتفعت جموع كبيرة منها من البحر حتى غدت السماء ذاتها شبيهة بالبحر ، بحر مضطرب يتقلب فوق هذا البحر الناعم الناعس . كانت السحب أشبه بالأمواج التي تدافعت أواذيّها المزبدة ساقطة على الأرض ، ثم تراجعت الى الصدوع التي تدفقت منها ، لتندفع من جديد فوق كتل الأمواج التي ولدت من توّها ولم تتحطم متحولة إلى زبد مخضر من العنف الوحشي .

أحسّ غافريلا أنه مرهق بسبب من هذا الصمت والجمال الموحشين حواليه حتى أنه تمنى عودة معلمه سريعاً . وماذا إذا لم يرجع هذا المعلم ؟ وراح الوقت يمرّ بطيئاً — أبطأ من حركة السحب في السماء . وكان الصمت يزداد شؤماً كلما طال به الإنتظار . وأخيراً انزلق من الطرف الآخر لحائل الأمواج أصداء رشاش ، وهسيس ، وشيء يشبه الهمس .

وشعر غافريلا أنه سيموت في اللحظة التالية .

وجاء صوت تشيلكاش الأصمّ :

– هاي ! أنائم أنت ؟ إليك ، امسك هذه . في رفق .

ونزل عن الجدار شيء مكعب ثقيل . وضعه غافريلا في القارب . وتبعته صرة مماثلة . ومن بعد انزلقت هيئة تشيلكاش النحيلة الطويلة ، وظهر مجذافان ، وسقطت حقيبة غافريلا عند قدميه ، واتخذ تشيلكاش مقعده في مؤخرة القارب وهو يتنفس في صعوبة .

ورسم غافريلا ابتسامة من فزع خائف .

سأل :

– متعب أنت ؟

– تقريباً ! حسناً ، ضع المجذافين . وجذف بكل قوتك . لقد كسبت رزقاً لا بأس به . لقد قمنا بنصف العمل . وما عليك الآن سوى أن تنساب من بين هؤلاء الملاعين ، وعندها – نجمع الغنيمة وتعود إلى فتاتك . هل توجد عندك فتاة ، يا صغيري ؟

– ﻛ . . لا .

كان غافريلا يبذل قصارى جهده ، ورئتاه تعملان مثل منفاخين ، وذراعاه مثل نابضين فولاذيين . وخرخرت المياه تحت القارب ، واتسع الشريط الأزرق فيما وراءه أكثر منه قبلاً . واستحمّ غافريلا بعرقه ، ولكنه لم يترك المجذافين يفلتان من بين يديه . لقد طغى عليه الرعب مرتين في تلك الليلة ، وهو راغب عن معاناته مرة ثالثة . الرغبة الوحيدة التي عمرت قلبه هي الخلاص من هذا العمل في أسرع وقت

ممكن ، وأن يضع قدميه على اليابسة مرة أخرى ويهرب من هذا الرجل قبل أن يقتله حقاً أو يؤدي به إلى السجن . قرّر ألا يخاطبه ، ألا يعارضه مهما تكن الأمور ، وأن يفعل جميع ما يأمره به ، وإذا أفلح في الهرب منه دون أذية فلسوف يرفع صلاة شكر إلى القديس نيقولاي صانع العجائب في صبيحة اليوم التالي . وكان ثمة صلاة ملتهبة مهيأة على لسانه ، ولكنه يحبسها ، وهو يلهث مثل قاطرة بخارية ويتطلع إلى تشيلكاش من تحت حاجبيه الداكنين .

أما تشيلكاش ، النحيل الطويل ، فقد كان جاثماً مثل طير على أهبة الطيران ، وعيناه الشبيهتان بعيني الصقر تخترقان الظلمة أمامه ، وأنفه المعقوف يتشمم الهواء ، وإحدى يديه تقبض على الدفة والأخرى تجذب شاربه المبروم ، في حين افترت شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة عريضة . كان تشيلكاش مغتبطاً بما أصاب ، راضياً عن نفسه ، وعن هذا الشاب الذى أرعبه وجعل منه عبداً له . وفيما هو يراقب كيف يجهد غافريلا نفسه أحسّ بشفقة عليه ، وخطر له أن يؤنسه بكلمة مشجعة .

قال في لطف ، وقد أطلق ضحكة قصيرة :

– إيه ! خفت كثيراً ، أليس كذلك ؟

فزفر غافريلا :

– ليس كثيراً .

– في مقدورك أن تجذف برخاوة الآن . فقد زال الخطر . ثمة مكان أخير ينبغي أن ننسرق منه . فاسترح قليلاً .

أطاع غافريلا فكفّ عن التجذيف ، وأنزل المجذافين في الماء .

– جذف على مهل . ولا تجعل الماء يخرخر . ثمة بوابة يتعيّن أن نجتازها . هس . فالناس هنا لا يحبون المزاح . وبنادقهم جاهزة للإطلاق دائماً . يتركون في رأسك فجوة قبل أن تدرك ما أصابك .

القارب الآن ينزلق على الماء دون أن يندّ عنه أدنى صوت . . والدليل الوحيد على حركته ذلك الضوء الأزرق الذي تساقطه المياه عن المجذافين ووهج البحر الأزرق حينما تصطدم القطرات به . واشتدت الليلة حلكة وسكوناً . ولم تعد السماء تشبه بحراً هائجاً – فقد انتشرت السحب وشكلت غطاء ثقيلاً تعلّق منخفضاً فوق المياه لا يأتي حركة . وكان البحر أكثر هدوءاً وأشد سواداً ، ورائحته المالحة الدافئة أقوى من قبل ، ولم يعد يلوح وسيعاً مثله قبلاً .

تمتم تشيلكاش :

– لو أن المطر يهطل ! كان أخفانا مثل ستارة .

هبت أشكال ضخمة من المياه عن يمين القارب ويساره . إنها سفن النقل – سوداء كئيبة لا حركة فيها . وكان ثمة ضوء يتحرك على إحداها : إنه شخص يسير حاملاً في يده مصباحا . وارسل البحر أصداء قصيرة مترجية وهو يربت على جوانب السفن ، فردت عليه بأجوبة باردة جوفاء وكأنها ترفض التنازل عما يُطلب منها .

قال تشيلكاش في صوت مخفوت لا يكاد يسمع :

– إنه نطاق الحراسة .

منذ اللحظة التى أمر فيها غافريلا أن يجذف في هدوء استولى على هذا الأخير شعور من الترقب المتوتر . وفيما هو

يدفع القارب إلى الأمام في قلب الظلمة خيِّل إليه أنه ينمو – أوجعته عظامه وعروقه وهي تتمدد ، وآلمه رأسه أيضاً بعد ان شغلته فكرة واحدة . وارتجف الجلد على ظهره وأحسّ أن إبراً تخزه في قدميه . وأحست عيناه أنهما ستنفجران من التحديق في الظلمة بقسوة ، هذه الظلمة التي يترقب أن يهبّ منها في اية لحظة شخص ما يصيح فيهما : «قفا ، أيها اللصان !» .

ارتعش غافريلا حين سمع تشيلكاش يقول : «نطاق الحراسة» . ومضت في ذهنه فكرة مشؤومة ، وضربت على أعصابه المتوترة : راودته نفسه أن يصرخ طالباً النجدة . وفتح فمه ، نافخا صدره وسط القارب ، وأخذ نفساً عميقاً ، لكن الرعب مما انتوى أن يفعل لسعه مثل السوط ، فأغلق عينيه وتهاوى من مقعده .

ونهض من المياه السوداء سيف من ضوء أزرق ملتهب . نهض وشق ظلمة الليل . واخترق السحب في السماء وجاء يستريح على صدر البحر في شريط أزرق عريض من الضوء . استلقى هناك ، وأشعته تلتقط أشكال السفن التى كانت غير المرئية حتى الآن ، من قلب الظلمة – أشكال صامتة سوداء محاطة بدكنة الليل . بدا وكأن هذه السفن ظلت وقتاً طويلاً في قاع البحر وقد جذبتها إليه قوى عاصفة ؛ أما الآن ، وبأمر من ذلك السيف الملتهب المولود من البحر ، فقد نهضت كيما تحدّق إلى السماء وإلى كل ما هو موجود على سطح المياه . وكانت حبال صواريها أشبه بنباتات مائية متشبثة ارتفعت من قاع البحر مع هذه الأشكال الجبارة السوداء المأخوذة في

شباكها . ومرة أخرى هبّ ذلك السيف الأزرق الرهيب ، ملتمعاً ، من أعمق أعماق اليم ، وشقّ الليل من جديد واستلقى ثانية ، ولكن في بقعة أخرى هذه المرة . ومرة أخرى استضاءت أشكال السفن التي لم تكن مرئية من قبل بنوره البراق .

توقف قارب تشيلكاش ، وتأرجح على المياه وكأنه لا يعرف ماذا ينبغي عليه أن يفعل . كان غافريلا مستلقياً في مقره ، ويداه فوق وجهه ، في حين راح تشيلكاش يلكزه بقدمه ويهمس في صوت وحشي :

– هذا طراد الجمارك ، يا أحمق ! وذلك هو ضوء الكشاف ، مصباح كهربائي . إنهض ، ايها الابله ! لسوف يوجهونه إلينا في أية برهة . لسوف تكون السبب في هلاكي وهلاك نفسك معاً ، أيها الشيطان ! انهض !

ان ضربة فعالة بعقب القدم تنهال على الظهر جعلت غافريلا يهب على قدميه . كان لا يبرح خائفاً من أن يفتح عينيه ، فاستوى جالساً ، وتحسس باحثاً عن المجذافين ، وشرع يجذف .

– على رسلك ! على رسلك ، أحاقت بك اللعنة ! يا الله ، يا لهذا الأبله الذي تعثرت به ! ماذا يخيفك ، يا أفطس الوجه ؟ ضوء مصباح – هذا كل شيء . على رسلك بهذين المجذافين ، حلت عليك لعنة الله ! إنهم يفتشون عن المهربين . ولكنهم لن يقبضوا علينا . فهم بعيدون جداً . أوه ، كلا ، إنهم لن يقبضوا علينا . والآن نحن . . .

وتطلع تشيلكاش حواليه في انتصار :

– لقد أفلتنا من الخطر . وَيْ ! حسناً ، أنت شيطان محظوظ ، رغم أنك خاوي الرأس .

جذف غافريلا وقد ركن إلى الصمت ، وهو يتنفس انفاساً ثقيلة ، ويختلس نظرات جانبية إلى السيف الملتهب الذي لا يني يرتفع وينخفض . قال تشيلكاش إنه مجرد مصباح ، ولكنه لا يستطيع أن يصدّق ذلك . ثمة شيء غريب في هذا الألق الأزرق البارد الذي يحطم الظلمة ويخلع على البحر نوراً فضياً . وتملك الرعب الكئيب غافريلا من جديد . فجعل يجذف بصورة آلية ، وقد انكمشت عضلاته وكأنما هو يترقب ضربة تنزل به من فوق ، ولم يكن راغباً في شيء على الاطلاق الآن . كان خاوياً لاروح فيه . إن قلق هذه الليلة استنفد كلّ ما هو إنساني فيه .

ولكن تشيلكاش كان متهللاً . وأعصابه التي ألفت الهزات استرخت على الفور . ورقص شارباه في رضىً ، وتوهجت عيناه . أبداً لم ينعم من قبل بمثل هذا الصفاء في النفس . وراح يصفر من خلال أسنانه ، ويستنشق هواء البحر البليل عميقاً ، ويرنو حواليه ، ويبتسم في طيبة حين تتوقف عيناه على غافريلا .

هبت الريح فأثارت البحر وغطته بمويجات صغيرة . وازدادت السحب رقة وشفافية ، بيد أن السماء بأسرها كانت لا تزال عامرة بها . وأخذت الريح تراوح وتغادي في رقة على طول البحر ، في حين تدلت السحب ساكنة لا حراك بها وكأنما استغرقتها أفكار رمادية لا شأن لها .

– هيا ، أفق ، يا أخ . أنت تبدو وكأن روحك خرجت

من جسدك ، فلم يتبق منـه غير كيس من العظام . لكأن نهاية العالم آذنت حقاً ! ايه ! هل تسمع ؟ . .

انتعش غافريلا لسماعه صوتاً بشريـاً . ولو كان صوت تشيلكاش .

جمجم قائلاً :

– بلى ، اسمع .

– حسناً ! يلوح أنه لم يبق فيك شيء على الإطلاق . اليك ، أمسك الدفة وسأجذف أنا . لا ريبة أنك تعبت .

نهض غافريلا بصورة آلية وأعطاه مقعده . وفيما هما يتبادلان مكانيهمـا ألقى تشيلكاش نظرة على وجه الصبي الشاحب ولحظ أن ركبتيه ترتجفان وتعجزان عن حملـه . فأزداد رثاؤه له أكثر من قبل ، فربت على كتفه .

– رويدك ، لا تكتئب ! لقد كسبتَ حسنا . وسأكافئك في سخاء . ما رأيك إذا نفحتك بورقة من خمسة وعشريـن روبلاً ؟

– لست أريد شيئاً . لا أريد أكثر من النـزول على الشاطئ .

لوّح تشيلكاش بيده ، وبصق ، وشرع يجذف ملقياً المجذافين بعيداً بذراعيه الطويلتين .

كان البحر قد أفاق وجعل يسلّي نفسه باصطناع أمواج صغيرة يزركشها بحاشية من الزبد ، ويطلقها واحدة بعد الأخرى بحيث تتكسر في زخات من الرشاش . وكان الزبـد يهسُ ويزفر وهو يذوب ، وعجّ الهواء باصداء موسيقية . وبدا أن الظلمة استيقظت بدورها .

قال تشيلكاش :

– والآن ، أنت ستذهب الى قريتك ، وتتـــزوج ، وتشرع بحراثة الأرض ، وتستنبت القمح ، وتلد زوجتك أطفالاً ، فلا يعود لديك ما يكفي من الطعام ، فتقضي عمرك بأسره تكد وتعمل . فأية لذة لك في هذا ؟

أجاب غافريلا في خفوت ، وهو يرتعش قليلاً :

– أية لذة ؟

هنا وهناك مزقت الريح نتفاً من السحب كاشفة عن رقع من السماء الزرقاء ، فيها نجم أو نجمان .

وتراقصت انعكاسات هذه النجوم على المياه ، آونـة تختفي وآونات تتضوأ من جديد .

قال تشيلكاش :

– اتجه أكثر ناحية اليمين . سنصل عما قريب . هِمْ ، لقد انتهى العمل . انه عمل كبير . فكّر فقط ، خمسمائة من الروبلات في ليلة واحدة !

فكّر غافريلا في ارتياب :

– خمسمائة ؟

أرعبته هذه الكلمات ، فدفع «البالتين» بقدمه دفعـــة خفيفة ، وقال :

– ماذا هنالك فيهما ؟

– أشياء تساوي كمية كبيرة من المال . قد تساويان ألف روبل إذا حصلتُ على السعر الحقيقي ، ولكنني لا أريد أن يزعجني أحد . هذه مهارة ، أليس كذلك ؟

هتف غافريلا متشككاً :

– يا للّه الطيب ! لو كنت أملك مثل هذا المقدار !

وزفر وهو يتذكر قريته ، ومزرعته البائسة ، وأمه ، وكل هاتيك الاشياء العزيزة البعيدة التي من أجلها خرج مفتشاً عن عمل ، ومن أجلها عانى عذابات تلك الليلة . واستغرقته موجة من الذكريات – قريته الصغيرة على منحدر التلة المائلة حتى النهر ، والغابات فوق النهر بأشجارها العديدة : البتولا ، والصفصاف ، والسمن ، وكرز الطير .

وتنهد في حزن :

– لكم أحتاج اليه !

– رويدك ! يخال لي أنك سرعان ما تثب إلى قطار وتندفع إلى البيت . وهنالك تجن الفتيات غراماً بك ! كيف ، وعندها تختار واحدة منهن تروق في عينيك . وتبني لنفسك بيتاً جديداً على الرغم من أن النقود لا تكفي لبناء بيت .

– كلا ، لا تكفي لبناء بيت . فالخشب مرتفع الثمن عندنا .

– ولكنك تصلح البيت على أقل تقدير . وما رأيك في حصان ؟ هل لديك حصان ؟

– أجل ، لكنه حيوان عجوز عليه اللعنة .

– وهكذا تضطر لشراء حصان جديد . حصان من الصنف الاول . وبقرة . . . وبعض الاغنام . وكمية من الدواجن . أليس كذلك ؟

– آه ، لا تسترسل في هذا ! أفما يغدو في قدرتي أن انظم حياتي جيداً !

– بلى ، يا أخ . وتغدو الحياة أشبه بأغنية . أعرف

شيئاً او شيئين عن هذه الامور . فقد كان لي عش في وقت من الأوقات . وكان والدي واحداً من الأثرياء في القرية .

لم يكن تشيلكاش يجذف جيداً . فقد راحــت الأمواج المتراشقة تؤرجح القارب وهي تصطدم بجانبيه ، فيكاد الا يتحرك في المياه السوداء التي راحت تفاقم من لهوها تدريجياً . وجلس الرجلان هنالك يتمايلان ويطيلان النظر حواليهما وقد استسلم كل منهما الى لجج أحلامه . لقــد ذكّر تشيلكاش غافريلا بقريته راغباً في إراحة أعصابه والتسرية عنـــه . فعل ذلك في البداية وهو يضحك في شاربيه ؛ لكنــه ما ان شرع يحاور رفيقه عن ذكريات الحياة الريفية ، هذه الأفراح التي كفّ هو نفسه عن التمتع بها منذ زمن طويل ونسيهـا تماماً الى هذه اللحظة ، حتى استغرق في الحديث تدريجياً بدلا من ان يسأل الشاب عن قريته وأحوالها .

– الشيء الأكثر شأناً في الحياة الريفية هو ان الرجــل يملك حريته ، ويكون سيّد نفسه . له بيته الخاص ، ولو كان بيتاً فقيراً . وله أرضه الخاصة – قد لا تكون أكثر من خطوة واحدة ، ولكنها في ملكه الخاص . وهو مَلِك طالمـا أنه يملك هذه الأرض الخاصة . وهو رجل يحسب لــــه حساب . يستطيع أن يفرض احترامه على أى كان ، أليس كذلك ؟

وأنهى تشيلكاش حديثه في حيوية .

نظر غافريلا اليه في فضول ، فدبت فيه الحيوية أيضاً . ونسي خلال الحديث ماهية هذا الشخص ، ورأى فيه فلاحـاً آخر مثله ، شده الى فلاحة الأرض عرق أجيال متعاقبة مــن

أسلافه ، وربطته بها ذكريات الطفولة ، فلاحاً قطع باختياره الشخصي علاقاته مع الأرض والعمل فيها ، فحاق به العقاب .

– صحيح ، يا أخ . ما أروع صحته ! أنظر الى نفسك الآن ، من تراك تكون من دون هذه الأرض ؟ الأرض ، يا أخ ، أشبه ما تكون بأمك . لا يمكن نسيانها .

وأفاق تشيلكاش على محيطه ، وأحسّ من جديد ذلك التوقد اللاهب في صدره ، التوقد الذي ظل دائماً يزعجه عندما تُمَسُّ عزته – عزة شيطان لا يقرّ له قرار – وبخاصة عندما يمسها إنسان لا قيمة له في نظره .

نبر في ضراوة :

– تحاول أن تعلمني ! أتحسب أنني عنيت ما قلت ؟ فليعرف المرء مكانه . يا للغرور !

قال غافريلا في اتضاع وخنوع :

– أنت إنسان يبعث على التسلية . أنا لم أقصدك أنت . هنالك كثيرون من أمثالك . يا الله ، ما أكثر البؤساء في هذا العالم ! وهم متشردون .

نبر تشيلكاش ، وقد حجز تدفاقا من الشتائم تغرغر في حنجرته :

– اليك ، خذ المجذافين .

وتبادلا المكان ثانيةً ، وفيما تشيلكاش يتسلق البالتين أحسّ رغبة عارمة في أن يوجه الى غافريلا دفعة تلقيه في الماء .

لم يسترسلا في الحديث ، ولكن غافريلا يزفر أنفاس القرية حتى في صمته . واستغرق تشيلكاش عميقاً في أفكار

الماضي فنسي توجيه الدفة ، فأدار التيار القارب وساقه في البحر . ويبدو أن الأمواج شعرت أن القارب من دون ربان ، فطفقت تلعب به ما طاب لها ، فترفعه أواذيها وتتواثب حول مجذافيه في شعلات زرق صغيرة . وومضت أمام عيني تشيلكاش مجموعة من صور الماضي ، الماضي البعيد ، المفصولة عن الحاضر بخليج مقداره إحدى عشرة سنة من التشرد . ورأى نفسه وهو طفل ؛ ورأى قريته الأم ؛ ورأى أمه ، وهي امرأة بدينة متوردة الوجنتين لها عينان رماديتان لطيفتان ؛ ورأى أباه ، وهو عملاق متجهم القسمات أصهب اللحية ؛ ورأى نفسه عريساً ؛ ورأى زوجته أنفيسا العبلة السوداوية العينين الناعمة المرحة تتدلى ضفيرتها الطويلة على ظهرها . ورأى نفسه من جديد جندياً وسيماً من جنود الحرس هذه المرة ؛ ثم رأى أباه ، وقد وخطه الشيب وأحنى العمل ظهره ؛ ثم رأى أمه وقد سطت على وجهها الغضون وانكفأت حتى الأرض ؛ ورأى الاستقبال الذي أعدته له القرية حين انتهت خدمته العسكرية ، وتذكر مقدار ما كان عليه والده من فخار ، وهو يقدم ولده المعافى الوسيم الجندى ذا الشاربين الى جيرانه . الذكرى هي دمار اولئك الذين حل بهم البلاء ، فهي تحيي حجارة الماضي وتضيف قطرات من الشهد حتى في السمّ المرير الذى شربوه في غابر الزمان .

وبدا أن مجرى لطيفاً من هواء منعش يهب على تشيلكاش ، حاملاً الى أذنيه كلمات أمه الحنون ، وأحاديث أبيه الفلاحية الغيور ، وكثيراً من الأصوات المنسية الأخرى ؛

والى منخريه رائحة الأرض الأم والثلج يذوب عنها ، وهي تفلح من جديد ، وهي تتغطى بغطاء زمردي من الجاودار المتفجر . وأحسّ بالوحدة والضياع ، وأنه مرميٌّ فيما وراء ذلك النظام من الحياة الذي أنتج الدماء المتدفقة في عروقه .

صاح غافريلا :

– هاى ، الى أين نسير ؟

أجفل تشيلكاش ، ورمى أبصاره حواليه في احتراس طائر ينقض على فريسته :

– أنظر أين جرفنا التيار ، لعنة الله عليه . جذف بقوة .

وابتسم غافريلا :

– غرقت في أحلام اليقظة ؟

– تعبت .

سأل غافريلا ، وهو يرفس البالتين بقدمه :

– لا خوف من القبض علينا مع هاتين البالتين ؟

– لا ، لا تخف . سأسلمها الآن وأحصل على نقودي .

– خمسمائة ؟

– على أقل تقدير .

– يا الله ، يا له من مبلغ ! آه لو حصلت عليه ! أفما كنت أغني به أغنية جميلة !

– أغنية قروية ؟

– من دون ريب ! كنت . . .

وحلق غافريلا على جناحي تصوراته . صمت تشيلكاش . وتهدل شارباه ، وتبلل جانبه الأيمن بموجة ، وغرقت عيناه

وفقدتا بريقهما . وخبا كل ما هو كاسر فيه ، طردته منه المشاعر المخزية التي تطل من طيات قميصه القذر .

انعطف بالقارب انعطافة حادة ، وقاده ناحية شيء أسود خارج من الماء .

مرة اخرى توشحت السماء بالسحب ، وراح مطر رقيق دافئ ينصب مثيراً اصواتاً صغيرة مرحة حين تصطدم قطرته بالماء .

أمر تشيلكاش :

– قف ! اوقف القارب !

واصطدم أنف القارب بجانب سفينة للنقل .

زمجر تشيلكاش ، وهو يعلّق خطاف القارب ببعض الحبال المتدلية عن جانب السفينة :

– هل هم نائمون أم ماذا ، أولئك الشياطين ؟ ألقوا سلماً ! ولقد انتظر المطر حتى الآن وراح ينصبّ ! هاى ، أيها الأوغاد ! هاى !

بربر أحدهم عن متن المركب :

– سيلكاش ؟

– أين السلّم ؟

– كاليميرا ، سيلكاش .

– السلّم ، لعنة الله عليك ، أيها الشيطان !

– أوه ، يا لمزاجه الغضبان هذه الليلة ! ايلوى !

قال تشيلكاش ، موجها الكلام الى رفيقه :

– تسلق الحبل ، يا غافريلا .

صعدا الى متن المركب حيث كان ثمة ثلاثة أشخاص

ملتحين داكني اللون يتحادثون في حيوية بلغة لثغاء وهم يمدون ابصارهم الى قارب تشيلكاش من فوق حافة المركب . وخطا الشخص الرابع الذي لفّ نفسه بمسوح صوب تشيلكاش ، وصافحه في صمت ، ثم رمى غافريلا بنظرة متسائلة .

خاطبه تشيلكاش في اقتضاب :

– هيء النقود للصباح . سأمضي وأغفو قليلاً . تعال ، يا غافريلا . أجوعان أنت ؟

قال غافريلا :

– أريد أن أنام .

بعيد خمس دقائق كان يشخر بصوت عال . وجلس تشيلكاش الى جانبه يجرب على قدمه حذاء تخص آخر ، وهو يبصق ناحية ، ويصفر أغنية حزينة من بين أسنانه . وسرعان ما استلقى الى جانب غافريلا وقد وضع يديه تحت رأسه ، وشارباه يرتقصان .

تمايل المركب على الأمواج ، وطقطق لوح خشبي في مكان ما فأرسل أنة شاكية ، وراح المطر يضرب متن المركب ، والأمواج تلطم جانبيه . كان كل شيء شجياً يذكر المرء بأغنية تهدهدها الأم لوليدها الذي قنطت من رؤيته سعيداً .

عرّى تشيلكاش أسنانه ، ورفع رأسه ، وتطلع حواليه ، وتمتم شيئاً في سره ، وتمدد من جديد وقد باعد بين ساقيه فجعلهما تشبهان مقصاً كبيراً .

٣

كان تشيلكاش أول من هبّ من هجعته . حدّق فيما حوله مرعوباً وسرعان ما هدأ باله ، ونظر الى غافريلا الذي يشخر في صوت سعيد ، وابتسامته منتشرة على صفحة وجهه الطفولي المعافى . وأرسل تشيلكاش زفرة ، وتسلّق سلماً ضيقاً من الحبال . كانت فسحة من سماء رصاصية اللون تطلّ من فتحة العنبر . كان الضوء منتشراً ، والنهار كئيباً رطباً مثله في أيام الخريف .

رجع تشيلكاش بعد قرابة ساعتين ، أحمر الوجه وشارباه مفتولان في نزق . كان يرتدي حذاء طويلاً متيناً ، وقمصلة ، وسروالاً جلدياً ، وكان يشبه أحد الصيادين لم تكن بزته جديدة ، ولكنها متينة وتناسبه تماماً ، فهي تلف جسده تماماً وتخفي هزاله وتخلع عليه مسحة عسكرية .

قال ، وقد رفس غافريلا بقدمه :

– انهض ، ايها الجرو .

وثب غافريلا والنوم يغالبه ، وحملق في تشيلكاش بعينين مذعورتين فكأنه لم يعرفه . وانفجر تشيلكاش ضاحكاً .

قال غافريلا مبتسماً ابتسامة عريضة :

– لتبدونّ عظيماً ! أشبه بجنتلمان .

– هذا لا يقتضينا كثيراً . ولكنك مخلوع الفؤاد بصورة لم اعهدها من قبل . كم مرة كدت أن تموت البارحة ؟

– لا يمكن ان تلومني . فأنا لم أشترك في مثل هذا العمل من قبل . كان يمكن ان أخسر نفسي .

– أتفعل ذلك مرة اخرى ؟

– مرة أخرى ؟ فيما إذا . . . كيف أقول ذلك ؟ ماذا أعطى لقاء ذلك ؟

– اذا فعلت ، فلربما نلت ورقتين جميلتين ؟

– تقصد مائتي روبل ؟ لا بأس . قد أفعل .

– وماذا بشأن خسارة نفسك ؟

فزمجر غافريلا :

– قد لا أخسرها في نهاية المطاف . قد لا اخسرها وسوف أصبح إنساناً طوال حياتي .

وضحك تشيلكاش مسروراً :

– حسناً ، فلنكفّ عن المزاح . ولننزل الى الشاطئ .

وهكذا وجدا نفسيهما في القارب مرة أخرى ، تشيلكاش عند الدفة وغافريلا يجذف . وانتشرت فوقهما سماء متواصلة من سحب رمادية . وكان البحر داكن الاخضرار ، يتلاعب بالقارب في مرح فيرفعه فوق الأمواج الصغيرة بعد ، ويقذفه بقبضات من رذاذ شاحب مالح عند جانبيه . وفي البعيد امامهما يتراءى شريط من الرمال الصفراء ، أما وراءهما فيمتدُّ البحر الذي تمزقه عصابات صغيرة من الزبد الأبيض . وكان وراءهما أيضاً مجموعة من السفن – غابة كاملة من الصوارى ناحية اليسار ، وفيما وراءهما كتلة أبنية الميناء البيضاء . وجاء طنين أصمّ يتدفق من الميناء على البحر ، مختلطاً بزمجرة الأمواج مشكلاً معها موسيقى رائعة صاخبة . وفوق

هذه الاشياء بأسرها نقاب رقيق من الضباب يفصل الأشياء بعضها عن بعض .

أوضح تشيلكاش ، وهو يومئ ناحية اليم :

– إيه ، سيكون ثمة ما تجدر رؤيتـــه عند هبوط الليل . فاستوضح غافريلا وهـــــو يشقّ الأمواج قويـــاً بمجذافيه :

– العاصفة ؟

وكانت ثيابه قد تبللـت برشاش المياه الذى تناثره الريح .

أجاب تشيلكاش :

– أجل .

وتطلع غافريلا اليه متسائلاً .

استفهـــــم أخيراً ، وقد أدرك أن تشيلكاش لا يود المبادرة بالكلام :

– حسناً ، كم أعطوك ؟

قال تشيلكاش ، وهو يسحب من جيبه شيئا يمدّ به يده اليه :

– أنظر .

انشدهت عينـــا غافريلا من رؤية تلك المجموعة من الأوراق النقدية البراقة .

– ولقد طاف في ذهني أنك كذبت عليّ ! ما مقدارها ؟

– خمسمائة وأربعون .

لهث غافريلا ، وهو يلاحق حزمة النقود تعود الى الجيب بعينين شرهتين :

– آه ! يا الله ! لو كنت أملك مثل هذا المبلغ من المال !

وأطلق زفرة حزينة .

صاح تشيلكاش متهللاً :

– أنت وأنا سنسرف في الشراب ، يا صاح ! سنعمرها سكرة . ستأخذ نصيبك ، فلا تخف . سأعطيك أربعين . هذا يكفي ، أليس كذلك ؟ أعطيكها للتوّ اذا شئت .

– حسناً ، سآخذها اذا لم يكن لديك اعتراض .

كان غافريلا يرتعش انتظارا ، ذلك الانتظار الحاد الذى كان يحرق صدره .

– آه ، أيها الفزّاعة ، أنت ! «سآخذها !» . اليك ، أرجوك ، خذها . خذها ، من فضلك . فأنا لا أعرف ماذا أفعل بهذا المبلغ كله . اصنع معي معروفاً وخذ كمية من بين يديّ .

مدّ تشيلكاش يده بكومة من أوراق النقد ، فترك غافريلا المجذافين وتناولها بأصابع مرتعشة ودسها في قميصه ، وضيق عينيه وهو يفعل ذلك ، واستنشق عبّات من الهواء وكأن شيئاً يحرق له حنجرته . راقبه تشيلكاش وابتسامة ساخرة تمرح على شفتيه . والتقط غافريلا المجذافين من جديد وانهمك في التجذيف بعصبية وسرعة ، مطرقاً ببصره ، مثل رجل اصابه الرعب منذ لحظات . وكان كتفاه وأذناه عرضة للارتعاش .

قال تشيلكاش متفكراً :

– أنت طماع شره . وهذا غير لطيف . لكن ، ماذا

يمكن أن يتوقع المرء ؟ فأنت فلاح .

أوضح غافريلا في انفجارة مفاجئة من الانفعال :

– يستطيع المرء أن يفعل أي شيء بالمال !

واسترسل يتحدث في عجالة وكلمات متقطعة شارحاً أفكاره ، ويمسك بالكلمات وهي طائرة ، راسماً التناقض في حياة القرية مع المال ومن دونه . شرف ، ورخاء ، وسرور !

أصغى اليه تشيلكاش في انتباه ، وقد تجهّمت ملامحه ، واستضاقت عيناه من جراء التفكير . وكان يكشر بين حين وحين عن ابتسامة راضية .

قطع حديث غافريلا المتواصل :

– هذان نحن وصلنا !

وحملت القارب موجة رفعته فوق الرمال .

– حسناً ، هذه هي النهاية . ينبغي ان نجرّ القارب مسافة كافية كيلا يجرفه الموج من جديد . سيحضر بعض الناس سعياً وراءه . والآن وداعاً . نحن نبعد عن المدينة قرابة عشرة فراسخ . هل أنت عائد اليها ؟

كان وجه تشيلكاش يشرق بابتسامة محتالة طيبة وكأنه يعتزم أمراً يبعث الغبطة في نفسه ويفاجئ به غافريلا . دسّ يده في جيبه وخشخش بالأوراق النقدية فيه .

غصّ غافريلا مرتعشاً :

– لا . . . لن أذهب ، أنا . . . أنا . . .

وحدق تشيلكاش اليه . قال :

– ما بالك ؟

– لا شيء .

واحمرّ وجه غافريلا ، ثم شحب ، وجعل يتردد في مكانه وكأنه ينتوي الوثوب على تشيلكاش أو القيام بعمل شاق لا يقاوم .

ارتبك تشيلكاش من اضطراب الفتى . فانتظر بنتيجة ذلك الاضطراب .

انفجر غافريلا ضاحكاً ضحكة أشبه بالنحيب . وتدلى رأسه كيلا يلمح تشيلكاش التعبير المرتسم على وجهه ، ولكنه رأى اذنيه تحمران وتبيضان .

قال تشيلكاش ملوّحاً بيده في اشمئزاز :

– إذهب الى الجحيم . هل وقعت في غرامي ، أم ماذا ؟ ترتبك مثل فتاة . أو ربما لا تستطيع فراقي ؟ تكلم ، أيها الموهون ، والا انصرفت في طريقي .

صرخ غافريلا :

– تنصرف ؟

ارتعش الساحل المقفر من صرخته ، وبدا أن مويجات الرمال الصفر التي يحملها تدفق الأمواج ارتجت . وانتفض تشيلكاش نفسه . واندفع غافريلا على غير انتظار ناحيته وارتمى عند قدميه ، واحتضنهما بقوة وشدهما اليه . ترنح تشيلكاش وجلس على الرمال في ثقل . صك على أسنانه ، ولوّح ذراعه الطويلة التي ضم قبضتها بقسوة . ولكن توسلات غافريلا جمّدت تلك الضربة ، وكانت تنطلق في همسات متضرعة :

– أعطني هذه النقود ، أيها الشاب الطيب ! محبة بالمسيح أعطنيها . فيم تحتاج اليها ؟ أنظر ، في ليلة واحدة

لا غير . . . في ليلة واحدة ! وهي تتطلب مني سنوات وسنوات . أعطنيها . وسأصلي من أجلك ، حياتى بطولها ، في ثلاث كنائس ، في سبيل خلاص روحك . أنت ستلقي بها الى الرياح ، أما أنا فسأضعها في الأرض . أعطنيها ! فما هي بالنسبة اليك ؟ لقد جاءتك في يسر . ليلة واحدة ، وتغدو ثرياً . فأصنع معروفاً في حياتك مرة . وبعد هذا كله ، فأنت روح هالكة . وليس أمامك شيء . أما أنا . . . أوه ، فماذا لا أفعله بها ! أعطنيها !

كان تشيلكاش - المرتعب ، المصعوق ، الحانق - جالساً على الرمل يستند بمرفقيه حيث القى ظهره الى الخلف . كان جالساً لا ينطق بحرف ، وعيناه تحدقان في هذا الشاب الذي ضغط رأسه على ركبتيه واسترسل يزفر توسلاته . وثب تشيلكاش أخيرا على قدميه ، ودسّ يده في جيبه وألقى الأوراق النقدية الى غافريلا .

صاح ، مرتجفاً انفعالاً ، ورثاء وبغضاً ، لهذا العبد الشره :

- اليك ، فالتهمها !

شعر بالبطولة حين رماه بالنقود .

- كنت سأعطيك مزيدا منها على أية حال . شعرت بالرقة البارحة وأنا أفكر في قريتي . قلت في نفسي : لسوف أساعد الشاب . ولكنني انتظرت لأرى ما اذا كنت ستسألني ذلك أم لا . ولقد سألت ، أنت أيها المخنث ، أيها المستعطي ، أنت ! أمعقول أن تعذب نفسك على هذا النحو في سبيل النقود ؟ أحمق . أنتم شياطين جشعة . لا عزة لكم . تبيعون أنفسكم لقاء خمسة كوبيكات .

زعق غافريلا ، متلوياً فرحاً وهو يخبئ النقود داخل قميصه :

– فليحرسنَّك المسيح ! ما هذا الذى حصلت عليه ؟ آه ، غدوت الآن ثرياً ! فلتكن مباركاً ، أيها الصديق . لن أنساك . أبداً . سأجعل زوجتي وأولادي يصلون من أجلك أيضاً .

وفيما تشيلكاش يصغي الى هذه التضرعات ويرنو الى وجه غافريلا المشرق المشوّه بهذه البرحاء من الجشع وضح له ، هو اللص السكّير ، انــــه لن ينحدر أبداً الى هذا الدرك من الطمع والضعة . أبداً ، أبداً ! وهذان التفكيــر والشعور ، اللذان افعماه إحساساً بحريته ، جعلاه يتباطأ عن الرحيل من هنالك ، عن غافريلا ، على شاطئ البحر .

صاح غافريلا ، مختطفاً يد تشيلكاش ضاغطاً اياها على خده :

– لقد أهديت إليَّ غمرة من سعادة .

كشر تشيلكاش عن أسنانه مثل ذئب ، ولكنه لـم يفه بحرف .

واسترسل غافريلا يقول :

–لقد فكرت أنا فيما فعلت الآن ! في طريقنا الى هنـا قلت في نفسي . . . لسوف أضربه . . . أنت ، هذا ما فكرت فيه – على رأسه . . . بالمجذاف . . . بانغ ! . . . وخذ النقود . . . واطرحه – أنت ، هذا ما فكرت فيه – من فوق حافة القارب . ومن يفتقده ؟ واذا عثروا على جثته . . . ليس هنالك من يجشم نفسه عناء التفتيش عمَّن فعل ذلك وكيف

فعلـه ، وليس هنالك من يحتاج اليـه . ليس هنالك من يتقصى عنه .

زمجر تشيلكاش ، وقد قبض على غافريلا من عنقه :

– ردّ لي النقود !

حاول غافريـلا التخلص مرة ، مرتين ، ولكـن ذراع تشيلكاش التفت حولـه كالأفعى . وسمـع صوت تمزيق قميص ، و . . . هذا غافريلا ملقى على ظهره في الرمـال ، وعيناه ناتئتان من رأسـه ، وأصابعه تتشبث في الهواء ، وقدمـاه ترفسان في يأس . وانتصب تشيلكاش فوقه ، نحيلاً ، فارع العود ، أشبـه بالصقر ، أسنانه عارية ، وشارباه يرتعدان في عصبية في وجهه المتعظم الصارم . أبداً في حياته لم تصبه الاذية بمثل هذه الوحشية ، وأبداً لـم يغضب على هذا الغرار .

ضحك قائلا :

– حسناً ، هل أنت سعيد الآن ؟

واستدار على عقبيه وانطلق ناحية المدينة . ولم يكد يخطو خمس خطوات حتى قوّس غافريلا نفسه مثل القط ، ووثب على قدميه ، ونشر ذراعيه في الهواء وقذفه بحجر كبير .

– اليك هذا !

أطلق تشيلكاش زمجرة ، ووضع يديـه على رأسه ، وترنح الى الأمام ، واستدار الى غافريلا ، وسقط ووجهه الى الرمل . تجمّد غافريلا رعباً . حرك تشيلكاش إحدى ساقيه ، وحاول أن يرفع رأسه ، وتمطى مرتعشاً مثل وتر مشدود . وركض غافريلا ، ركض في اتجاه المدى الأسود حيث سحابة

مشعثة سوداء تتدلى فوق السهب المغلّف بالضباب . وزمزمت الأمواج وهي تنطرح على الرمال ، واختلطت بها لحظة من الزمن ، وتقهقرت متراجعة من جديد . وهسّ الزبد وامتلأ الهواء رذاذاً .

هطل المطر . كان أول الأمر طفيفاً في قطرات متفرقة ، وسرعان ما انقلب وابلاً ينصب من السماء في جداول رقيقة . وحاكت هذه الجداول شبكة من الخيوط المائية غلّفت امتداد السهب وانفساح اليم . واختفى غافريلا وراءها . ومرّ زمن طويل لم تكن العين تقع فيه على شيء سوى المطر وهيئة طويلة لرجل يضطجع على الرمال عند حافة البحر . ثم جاء غافريلا راكضاً كالطير خارجاً من قلب الظلمة . حين وصل الى تشيلكاش تهاوى على ركبتيه الى جانبه وحاول أن يرفعه . ولمست يده شيئاً حاراً لزجاً أحمر اللون . ارتعش ، وتراجع الى الوراء وقد علت سيماه ملامح وحشية .

همس يسكب في أذن تشيلكاش بصوت طغى على صخب المطر :

– انهض ، يا أخ ، انهض !

فتح تشيلكاش عينيه ، ودفع غافريلا عنه ، وهسّ في صوت خشن :

– انصرف عني .

همس غافريلا مرتجفاً ، وهو يقبل يد تشيلكاش :

– يا أخ ! اصفح عني ! أغواني الشيطان .

– انصرف . أتركني .

– اغسل هذه الخطيئة عن روحي . اغفر لي ، يا أخ .

صاح تشيلكاش فجأة ، وقد استوى على الرمال جالساً :

– إذهب ! إذهب عني ! إذهب الى الجحيم !

كان وجهه شاحب اللون منفعلاً غضباً ، وعيناه غائمتين تنطبقان وكأنه ناعس .

– ماذا تريد بعد ؟ لقد فعلت ما أردت أن تفعل . إذهب عني . انصرف !

حاول أن يرفس غافريلا الذي صرعه الحزن ، ولكنه عجز عن ذلك ، وكاد ان ينطرح مرة أخرى لو لم يحضن غافريلا كتفيه بذراعه . وكان وجه تشيلكاش في مستوى وجه غافريلا . وكان الوجهان شاحبين يبعثان على الرهبة .

– تفو !

وبصق تشيلكاش في عيني مساعده المفتوحتين على سعة .

مسح غافريلا وجهه في وداعة بكم قميصه ، وجأر هامساً :

– إفعل بي ما تشاء . لن أنطق بكلمة واحدة . اغفر لي باسم المسيح .

صاح تشيلكاش في مرارة ، وهو يدفع يده داخل قمصلته ويقتطع قطعة من قميصه عصب بها رأسه في صمت ، وهو يطحن أسنانه بين آونة وأخرى :

– يا للحثالة ! . . لستَ قادرا حتى على جريمة ! . .

وسأل من خلال أسنانه :

– هل أخذت النقود ؟

– لم آخذها ، يا أخ . ولن آخذها . أنا لا أريدها . انها لا تجلب الا الشر .

دسَّ تشيلكاش يده في جيب قمصلته ، وأخرج رزمة النقود ، وسحب منها ورقة من فئة المائة روبل أعادها الى جيبه ، والقى بالبقية الى غافريلا .

– خذها وانصرف .

– لن أفعل ، يا أخ . لا أقدر . اصفح عما فعلت .

زمجر تشيلكاش ، وهو يقلب عينيه بصورة رهيبة :

– خذها أقول لك .

– إصفح عني . لا أستطيع أن آخذها إن لم تصفح عني .

قال غافريلا ذلك في خنوع ، وهوى عند قدمي تشيلكاش على الرمل الغارق في ماء المطر .

نبر تشيلكاش في قناعة :

– هذا كذب . لسوف تأخذها ، أيها الحثالة .

ورفع رأس مرافقه في الهواء ، ودسّ النقود تحت أنفه :

– خذهـــا . خذها . أنت لم تشتغل عبثاً . لا تخف . خذها . ولا تخجل لأنك قاربت أن تقتل إنساناً . لن يقبض عليك أحد لقتلك شخصاً من أمثالي . بل لسوف يشكرونك اذا عرفوا ذلك . إليك ، خذها .

ولما رأى غافريلا أن تشيلكاش يضحك انشرح صدره . فقبض على النقود .

تضرّع دامع العينين :

– هل ستغفر لي ، يا أخ ؟ أفلن تفعل ذلك من أجلي ؟

أجاب تشيلكاش بمثـــل نبرته ، وهو ينهض وينتصب متأرجحاً على قدميه :

– يا صديقي المحبوب ! اغفر لك ماذا ؟ ليس هنالك

ما يستدعي الغفران . أنت قنصتني اليـوم ، وأنا أقنصك غداً .

تنهد غافريلا في حزن ، وهو يهز رأسه :

– يا أخ ، يا أخ .

انتصب تشيلكاش أمامـــه تتخايل على صفحة وجهـــه ابتسامة غريبة . وأشبهت الخرقة المشدودة على رأسه ، وقد ازداد احمرارها تدريجياً ، طربوشاً تركياً .

انقلب المطر سيلاً . وأرســـل البحر زمجـــرة خفيضة وفاضت الأمواج على الشاطئ في وحشية .

واعتصم الرجلان بالصمت .

قال تشيلكاش ساخراً ، وهو يستدير للذهاب :

– حسناً ، وداعاً .

وترنح ، وارتجفت ساقاه ، وأمسك رأسه كمن خاف أن يفقده .

استرحم غافريلا مرة أخرى :

– سامحني ، يا أخ .

أجاب تشيلكاش في برودة ، وقد سار في طريقه :

– لا بأس .

سار مترنحاً ، ممسكاً رأسه بيده اليسرى ، شادا باليمنى شاربه الأسود في لطف .

وقف غافريلا يراقبـــه بأنظاره الى أن اختفى في المطر المتهاطل كأفواه القرب ، مغلفـــاً السهب بقتام لا يخرق ، رصاصي كالفولاذ .

وخلع بعدها قبعته المنداة ، ورسم اشارة الصليب على

صدره ، وحدّق في النقـــود في يده ، وزفر زفرة ارتيـــاح عميقة ، وخبأ النقـود في قميصه ، ومشى واثق الخطوة على طول الشاطئ في الناحية المقابلة للناحية التي اختفى فيهـا تشيلكاش .

أعول البحر وهو يقذف موجاته الكبيرة على الرمال محطماً اياهـــا الى زبد ورشاش . وراح المطر يصفـــع الميـــاه والرمال . . . وزأرت الريح . . . وامتلأ الهواء عويلاً وزئيراً وخرخرة . . . وحجب المطر رؤية البحر والسماء .

وما أسرع أن غسل المطر ورشاش الأمواج تلك اللطخة الحمراء على الرمال حيث اضطجع تشيلكاش ، ومحـــا آثار قدميه ، ومحا اثار قدمي الشاب على طول الشاطئ . ولم يبق على ذلك الشاطئ المقفر شيء يشهد على تلك المأســـاة الصغيرة التي قام بتمثيلها ذانك الرجلان .

١٨٩٤

مرة ، في الخريف

بلغت بي الامور ، ذات خريف ، إلى حال عسيرة جداً لا تسر نفساً ولا ترضى قلباً . فقد وصلت الى المدينة التي لا أعرف لي فيها صاحباً او خديناً ، وكنت معدماً ، لا أملك قرشاً في جيبي ولا مأوى أطوى فيه ليلتي .

جعلت أجوب طرقات المدينة ، وليس عليّ من الثياب إلا اقلّها ، بعد أن بعت في ايامي الأولى جميع أجزاء كسوتي التي لا اخجل من التجوال في الطرقات العامة بدونها وأسرعت الى ضاحية تدعى «أوستيـا» حيث ارصفة السفن البخاريـة ومراسيها – وهي حي يموج ويضطرب أيام موسم الملاحة بالزعيق ، والصراخ ، والحياة الشاقة المتعبة . أما فى تلك الليلة فقد خيَّم عليه السكـون وهرب منه الناس . . فقد كنا في اخريات شهر تشرين الاول .

رحت أجرُ قدميّ جراً ، وأديم النظر الى الرمال الرطبة متمعناً ، تحدوني الرغبة في استكشاف فضلات طعام أسدُ بها صراخ الجوع في معدتي . وطفقت أطوف هائماً بين الأبنية والمخازن المهجورة ، وأنـا أستروح خيال وجبة كافيـة التهمها . إن ذلك يكون رائعاً وعظيماً اذن !

ان جوع الفكر في حالنا الحاضرة للثقافة والمدنية لأسرع شبعاً واكتفاء من جوع الجسد . فانت تهيم في الشوارع على وجهك ، تحيط بك أبنية ليست على شيء من رداءة المنظر من الخارج – وتستطيع ان تقول دون خوف العثار انها على شيء من حسن الأثاث وأناقته في الداخل ، فيثير منظرها في

نفسك ، احياناً ، أفكاراً قوية منعشة عن فن البناء ، وقواعد الصحة ، وعدة موضوعات أخرى حكيمة جليلة القيمة . وقد تصادف عدداً من الناس يرتدون ثياباً نظيفة دافئة ، وهم جميعاً مهذبون ، رفيعو الأخلاق ، يستديرون عنك في حذق ولباقة ، صارفين النظر في اشمئزاز عن رؤية واقع وجودك المؤلم وحقيقة حالك الفاجعة الأليمة . حسنا ، حسنا ! إن فكر الرجل الجوعان لهو ، على الدوام ، أخصب من فكر الرجل الشبعان ، واكثر ثراء . وبذلك تكون في حال تستطيع ان تستدر منها نتائج عظيمة هي في صالح الانسان حسن التغذية .

... كان المساء يقترب على مهل ، والمطر يتساقط في غزارة ، وريح الشمال تهبُّ هوجاء ، وهي تصفر خلال المظلات والدكاكين الفارغة ، وتعصف بنوافذ الحانات والفنادق الخاوية المقفرة ، وتصفع مويجات النهر فتحولها الى زبد أبيض اللون ، فيثور رذاذها صاخبا على الشاطئ الرملي ، وترفع اعرافها البيضاء عاليا فى الفضاء ، متلاحقة فى انطلاقها الى المدى المظلم ، قافزة فى اندفاع وتهور بعضها فوق اكتاف بعض ، وكأن النهر يحس باقتراب الشتاء ، فيعدو فى غبطة وطيش هاربا من اصفاد الجليد واغلاله تحملها اليه رياح الشمال في تلك الليلة ذاتها . وكانت السماء ثقيلة سوداء ، تنهمر منها قطرات متلاحقة من المطر تكاد ألا يحيط النظر بها . وكان يضاعف من كآبة الطبيعة المحدقة بي من كل جانب بعض اشجار الصفصاف المتكسرة

المشوّهة ، وقارب ربط الى جذوعها قلبت الرياح عاليه سافله .

كان القارب الصغير المقلوب بجوانبه المهشمة ، والشجرات البائسة الهرمة وهي تخش في مهب الريح الباردة . . . كان كل ما يحيط بي مقفراً ، قاحلاً ، مائتاً ، والسماء تسحُّ دموعاً لا تجفُّ او تنضب . كان كل ما يحيط بي هو يأس وكآبة . . فاتخيّل ان الموت بسط سلطانه على جميع الكائنات ، ما عداي ، خلفني وحيداً بين الأحياء ، ينتظرني موت بارد أنا الآخر .

كنت يومها في السابعة عشرة من عمري . . في ربيع الحياة واروع مراحلها .

رحت أسير على طول الشاطئ الرملي الرطب البارد ، وأسناني المرتجفة تغرّد على شرف البرد والجوع . . واذا بي أبصر فجأة ، وانا اتلمّس في عناية كبيرة شيئاً ازدرده خلف احد الحوانيت الفارغة ، شبحاً جاثياً على ركبتيه ، يرتدي ثياباً نسائية مبتلة ملتصقة بكتفيه المحدودبتين . جعلت أراقب ماذا تفعل ، وقد وقفت خلفها أنظر إليها من فوق ، وهي تحفر اخدوداً في الرمل بيديها – تحفره عميقاً تحت دكان منفردة . . وجثوت على الأرض قريباً منها ، وسألت :

– فيم تفعلين هذا ؟

بعثت صرخة صغيرة حادة ، وانتصبت بسرعة على قدميها ، تحملق فيَّ بعينين رماديتين واسعتين تطفحان رعباً ، فإذا هي فتاة تماثلني عمراً ، ذات وجه صبوح مزخرف ، لسوء الحظ ، بثلاث علامات زرقاء كبيرة تشوه

خلقتها ، وإن كان في توزعها تناسق جميل إذا نظر المرء اليها في جملتها . فقد كانت ثلاثتها في حجم واحد ، تقع اثنتـــان منها تحت العينين ، والثالثة – وهي تكبرهما قليلاً – على الجبين فوق جسر الانف تماماً . . لا ريبة أن ذلك التناسق من عمل فنان عليم بتشويه المحيا البشري .

رنت إليّ الفتاة طويلاً ، وأخذ الخوف يتلاشى من عينيها تدريجياً . نفضت الرمال عن يديها ، وأصلحت غطاء رأسها القطني ، وتكوّرت على الرمل ثانية ، وقالت :

– أخالك ، انت ايضاً ، تلتمس شيئاً تطعمه . هيـــا إذن ، واحفر الارض ، فقـــد تعبت يداي . اظن أن هنالك (وأشارت برأسهـــا إلى الحانوت) شيئاً من الخبز . . فهذه الدكان لا تبرح تعمل .

شرعت احفر ، وهي ترمقني بنظرها ، ثم جلست بالقرب مني ، وطفقت تساعدني .

عملنا في صمت وسكينة . . لست أدري الآن ما إذا كنت فكّرت ، لحظتئذ ، في قانون العقوبات ، أو الفضيلة ، أو الملكية الخاصة ، أو أي من سائر تلك الأشياء التي ينبغي على الإنسان ، مثلما يعتقد كثيرون من الناس المجربين ، أن يفكر فيها في كل لحظة من لحظات حياته . ويجب أن اعترف ، على أية حال ، إذا أردت ألا أُجانب الحقيقة كثيراً ، انني استغرقت في حفر الارض حتى نسيت كل شيء تقريبـــاً ، غير شيء واحد ، ألا وهو : مـــا عسى أن يوجد داخل هذا الحانوت . . .

وتقدّم الليل . وازداد الضباب الرمادي البارد المتعفن

كثافة حولنا ، وطفقت الأمواج تزمجر بأصوات جوفاء مولولة اكثر من قبل ، والمطر ينهال على جوانب الحانوت أشدّ عنفاً واكثر تواتراً . وفي مكان ما ، شرع الحارس الليلي يقرقع بعصاه الغليظة ، فقالت رفيقتي في صوت خفيض :

– أليس له قاع ، يا ترى ؟

لم افهم ما قصدت ، فاعتصمت بالصمت . ولكنها استأنفت تقول :

– لقد سألت ما إذا كان لهذا الحانوت قاع أم لا . فان كان له قاع ، فسنحاول تحطيمه عبثاً . ها نحن نحفر اخدوداً ، وربما صادفتنا آخر الأمر عوارض خشبية قاسية . فكيف نستطيع ان نخلعها ؟ يحسن بنا أن نخلع القفل ، فهو قفل صغير .

قليلاً ما تزور الافكار القيّمة عقول النساء ؛ ولكنها تزورهنّ فعلاً في بعض الاحيان كما ترون . لقد كنت اقدّر الافكار القيّمة حق قدرها طوال حياتي ، واحاول الانتفاع بها على الدوام حتى الدرجة القصوى .

وجدت القفل ، فجذبته في عنف ، فانتزعته برمته . وانحنت شريكتي سريعاً ، وتلوّت مثل أفعى ، وانسابت الى الدكان من خلال غطائها مربع الزوايا ، الفاغر فاه . وهتفت بي من هناك في صوت هامس مستحسنة :

– للّه درك من باسل مقدام !

ان «كسرة» صغيرة من مديح تمنحها المرأة اعزّ على قلبي ، في هذه الايام ، من أي خطاب حماسي يلقي به رجل مثلي ، وإن كان اكثر بلاغة وبياناً من جميع الخطباء ،

القدماء والمحدثين معاً . ومهما يكن من أمر ، فقد كنت وقتذاك اقل استعداداً للطف والرقة مني الآن . . سألت رفيقتي في فظاظة وقلق ولهفة دون ان القي الى مديحها ادنى انتباه :

– أعثرت على شيء ؟

اخذت تعدّد اكتشافاتها في نغمة مطردة رتيبة :

– سلة ملأى بالزجاجات . . أكياس فارغة . . مظلة يد . . سطل من الحديد . .

لم يكن ثمة ما يؤكل بين جميع هذه الاشياء ، فشعرت بآمالي تضمحلُ وتتلاشى . . ولكنها هتفت على حين غرة في نشاط وحمية :

– آه ! ها هو ذا !

– ماذا ؟

– خبز . . رغيف كامل . . ولكنه مبلول . خذه !

وطار رغيف ، وسقط بالقرب من قدميّ ، ثم سقطت زميلتي الشجاعة وراءه . . كنت قد نهشت منه قطعة صغيرة حشوت بها فمي ، وشرعت امضغها .

– اعطني شيئاً منه . لا يجب ان نبقى هنا . لكن ، اين نذهب ؟ – تلفتت حواليها متسائلة . كان كل شيء مظلماً ، رطباً ، عاصفاً . .

– انظر ! هنالك قارب صغير مقلوب . . فلنمضينّ اليه .

– هيا بنا !

انطلقنا ، نلتهم غنيمتنا ونحن نسير ، ونحشو حلقنا بقطع صغيرة منه .. واشتد انهمار المطر ، وارتفعت الينا

زمجرة النهر ونحن نقترب منه . ومن مكان ما تردّد صفير متطاول ساخر – تماماً كما لو ان عظيماً ، لا يخاف ، يهزأ بجميع المؤسسات الارضية ، وبهذه الليلة الخريفية الهائلة ، ونحن بطلاها . . . وجعل قلبي يخفق من ذلك الصفير حنقاً وألماً ، ولكنني تابعت التهام الخبز في شره طماع جعل الفتاة ، السائرة عن شمالي ، تجاريني فيه دون تقصير .

سألتها ، ولا أدري لماذا سألتها :

– ما اسمك ؟

اجابت في اقتضاب ، وهي تمضغ الخبز في صوت مسموع :

– ناتاشا .

حملقت فيها ، فأحسست قلبي يتمزّق بين ضلوعي . وعدت احملق في الضباب المنتشر أمامي ، فتخيلت ان الوجه الذي يخاصم مصيري يبتسم لي في غموض وبرود عظيمين .

... كان المطر يضرب اخشاب القارب الصغير في غير رحمة ، فتثير قرقعته الناعمة في النفس افكاراً حزينة كئيبة ، والريح تصفر وهي تمرق من شقوقه المهشمة فتحتك بعض شظايا الخشب المقتلعة بعضها ببعض ، فتصدر عنها أصوات مزعجة مضجرة ، وامواج النهر تَرِدُ الشاطئ فتغمره برذاذها ، وتبعث اصداء رتيبة بائسة ، وكأنها تروي قصة كئيبة ثقيلة الظل تضايقها ، فتودُّ ان تهرب منها ، مرغمة على التحدث عنها . واختلط صوت المطر بطنين رذاذ الامواج ، وتصاعد فوق القارب المقلوب شيء اشبه بتنهيدة طويلة ارسلتها الارض من فرط ما آذتها وارهقتها تلك

التبدلات الابدية : من ضياء الصيف وحرارته ، الى برودة الخريف المضبّ ورطوبته ، وراحت الريح تهبُّ بلا انقطاع على الشاطئ المهجـور المقفر ، وعلى النهر المزبد المرذّ – وهي تنشد اغانيها الحزينة . . .

لم نكن نجد الراحة في مجلسنا تحت القارب ، فهو ضيّق رطب ، تسحُّ من شقوق قعره قطرات رقيقة من المطر ، وتنفذ الريح من خلال جدرانه المثقوبة . . . جلسنا صامتين نرتجف من شدة البـــرد . . وكنت أريد ان انام ، كمـــا اتذكر . استندت ناتاشا بظهرها الى جانب القارب ، وطوت جسدهـــا حتى اشبهت طابة صغيرة ، وعانقت ركبتيهـــا بيديها ، واعتمدت ذقنها عليهما ، وراحت تشخص الى النهر في شراسة بعينين مفتوحتين متسعتين ظهرتا على رقعة وجهها الشاحب بين تلك العلامات الزرقاء كأنهما جوفان هائلان . ظلت ساكنة جامدة ، فراح السكون والجمود يبعثان فيّ ، شيئاً فشيئاً ، رعباً هائلاً من جارتي . اردت ان اسوقها الى الحديث ، ولم أدرِ كيف افعل .

ابتدأت هي الحديث ، فقالت في وضوح ، وذهول ، ونبرة قناعة عميقة راسخة :

– ما اقسى هذه الحياة واشقها !

لم يكن هذا شكوى او تظلماً ، بل كان في تلك الكلمات شيء كثير من اللامبـــالاة . ان هذه النفس البسيطة تفكر حسب ادراكها وفهمها – تفكر حتى تنتهي الى نتيجة تعرب عنها في صوت مسموع ، نتيجة لا استطيع لها دحضاً خشية

ان اناقض نفسي . فبقيت معتصماً بالصمت ، وتابعت هي صمتها وجمودها كمن لم يلحظ وجودي ابداً .

استأنفت ناتاشا تقول بعد قليل ، في هدوء وتأمل ، ودون أي أثر للشكوى هذه المرة :

– احسن لي ان اموت !

كان واضحاً ان تلك المخلوقة ، في غضون تفكيرها عن الحياة ، انما تحاول أن تنظر في حالها وحدها ، وقد انتهت الى الاقتناع اخيراً بانها لا تملك ، كي تصون نفسها من سخريات الحياة ، إلا ان «تموت» بكل بساطة – هكذا نستعمل تعبيرها ذاته .

أثار وضوح تلك الخطة من التفكير في نفسي ألماً وحزناً يفوقان الوصف ، وشعرت انني سأبكي لا محالة اذا ظللت معتصماً بصمتي اكثر من ذلك . . وأن البكاء في حضرة امرأة عار عظيم من دون ريب ، بخاصة اذا كانت ، هي نفسها ، لا تذرف الدموع .

عزمت على التحدث اليها ، فسألتها :

– ومن الذي نالك بهذا الأذى والعناء ؟

كنت عاجزاً عن التفكير في تلك اللحظة في شيء آخر اكثر لطفاً وارق احساساً .

اجابت في نغمة عالية رتيبة :

– باشكا فعل ذلك ، ومن غيره .

– ومن يكون باشكا ؟

ردت تقول :

– عشيقي . . وهو خباز .

– ايضربك كثيراً ؟

قالت :

– يضربني كلما سكر . . وما اكثر ما يسكر !

استدارت الي ّ بغتة ، وشرعت تتحدث عن نفسها ، وعن باشكا ، وعن علاقاتهما المتبادلة . انها «من الفتيات اللواتي . . .» ، اما هو فكان خبازاً أحمر الشاربين . يجيد العزف على الهارمونيكا ، جاء لرؤيتها فاستحلته . وكان فتىً ماجناً ، يرتدي ثياباً حلوة نظيفة . . وكان يملك حلة تساوي خمسة عشر روبلاً ، ولحذائه شريط حريري . فاوقعها ذلك كله اسيرة حبه ، واصبح «مدينا» لها منذ ذلك الحين ، وصار همه ان يبتز منها المال الذي كان الضيوف الآخرون ينقدونها إياه لشراء الحلويات ، فيسكر به ، ويروح يضربها . لكن هذا كله يسير لو لم يبدأ «يركض» وراء فتيات أخريات امام سمعها وبصرها .

– وبعد ، اليست هذه اهانة ؟ أنا لست أسوأ من الأخريات . وهذا يعني انه يهزأ بي ، ذلك الشيطان الأسود . وقد استأذنت معلمتي ، امس الاول في فرصة صغيرة ، ومضيت اليه . وهنالك رأيت دونكا جالسة تساقيه الخمرة ويساقيها . كان سكران لا يعي شيئاً . قلت له : – «أوه ، انت ، أيها الوغد ، انت !» . قام الي ّ يضربني ويركلني ، ويجرني من شعري . . ولكن هذا لا يعدُ شيئاً بالنسبة الى ما حدث بعد ذلك . فقد مزّق الثياب التي ارتديها وتركني على ما انا عليه الآن ! كيف استطيع ان اظهر هكذا امام معلمتي ؟ لقد مزق كل شيء . . فستاني وبلوزتي ايضاً – وكانت

جديدة .ومزق وشاحي عن رأسي . آه ، يـــا الهي ! مـاذا سيحلُّ بي بعـــد الآن ؟ – وانفجـرت تبكي في صوت متعب مفجوع .

وزمجرت الريح وازدادت لسعـاً واصطخابـاً . وعادت اسناني ترقص الى أعلى وأسفل ، فاقتربت رفيقتي تلتصق بي محتمية من لسع البرودة ، فاستطعت ان أرى الى بريق عينيها وسط الظلمة المتكاثفة .

– تباً لكم أيهـا الرجال من اشقياء انذال ! لأتمنى ان احرقكم جميعاً في فرن ملتهب ، وأن امزقكم قطعاً صغيرة لا تحصى ولا تعدُّ . وان رأيت احدكم يموت بصقت في وجهه ، ولن ارحمه البتة . تباً لكم من سفلـــة منحطين ! فأنتـــم تتملقون ، وتداهنون ، وترعصون أذنابكم كالكلاب المتذللة ، فنمنحكم نحن الغبيات انفسنا ، واذا كـــل شيء ينتهي من احلامنا وآمالنا ، ونصبح لديكم نفاية لا قيمة لها ! وسرعان ما ترفسوننا باقدامكم وتدوسوننـا . . يا لكم من عاطلين أشقياء !

جعلت تلعننا وتشتمنا كيفما يحلو لهـــا ، ولكنني لم استطع ان اتبين في لعناتهـــا شيئاً من عنف ، او ضغينة ، او خبث على هؤلاء «العاطلين الاشقياء» . لم تكن نغمة كلامها تنسجم قط مع موضوع حديثها . فقد كانت هادئة . وكان سلّم صوتها الموسيقي ضعيفاً فقيراً بصورة عجيبة .

وقد أثّر بي ذلك تأثيراً يفوق في عنفه تأثير اكثر كتب التشاؤم بلاغة وقوة اقناع ، وقد قرأت من هذه الكتب عدداً لا يحصى . . وما برحت اقرؤهـا حتى يومي هذا . وسبب

ذلك ، كما ترون ، أن نزع رجل يموت هو اكثر طبيعية او عنفاً من ادقّ ما كتب في وصف الموت وتصويره .

وقد احسست بالتعاسة والبؤس فعلاً من جرّاء البرد ، اكثر مما أحسست في كلمات رفيقتي . فرحت ازمجر في لطف وأنا اطحن اسناني طحناً .

في تلك اللحظة تقريباً شعرت بساعدين صغيرين يلتفان حولي ، مسّ احدهما عنقي ، وارتمى الآخر فوق وجهي . وتمتم في الوقت ذاته صوت قلق ، لطيف ، حنون ، مستعلماً :

– ما الذي يؤلمك ؟

كدت اعتقد ان الذي طرح السؤال هو انسان آخر غير ناتاشا التي اعلنت منذ لحظات ان جميع الرجال أوغاد ، خونة ، لصوص . . وتمنّت إبادتهم عن وجه البسيطة . ولكنها طفقت هي نفسها تحدثني في عجلة :

– ماذا يؤلمك ؟ قل لي ! أبردان انت ؟ أمتجلّد انت ؟ آه ، يا لك من رجل تقبع ملتفاً بصمتك وسكونك مثل بومة صغيرة ! كان يجب ان تخبرني انك بردان . . . تعال . . . اضطجع على الارض . . تمدّد جيداً ، وساضطجع انا . . هنا ! كيف ترى هذا ؟ والآن ، ضع ذراعيك حول جسدي . ضمني جيداً ! كيف ترى هذا ؟ سوف تشعر الآن بالدفء من قريب . . . وعند ذلك نضطجع ظهراً لظهر . . . وسنقضي الليل سريعاً . هل شربت من الخمرة مقداراً كبيراً ؟ لقد طردوك من عملك ، اليس كذلك ؟ لا بأس عليك !

واستني ، وردّت اليّ شجاعتي .

إني لألعن الآن نفسى ثلاثا ! كم سخرية بدت لي في ذلك

الحدث الصغير الوحيد ! تصوروا قليـلاً ! هذا انا منهمك في ذلك الوقت بالضبط في مصير الانسانية بأسرها ، افكر في تنظيم جديد للهيئة الاجتماعية ، وفي الثورات السياسية ، وأقرأ جميع انواع الكتب الحكيمة للغاية التي كان مؤلفوها انفسهم عاجزين عن قياس عمقها بعيد المدى – أقول إنني ، في ذلك الوقت بالذات ، كنت احاول ان اجعل من نفسي «قوة اجتماعية فعّالـــة ذات نفوذ» . وهذه امـــرأة تدفئني الآن بجسدها ، وهي مخلوق بائس ، مسحوق ، مطارد ، لا تملك في الحياة قيمة أو مكانة . ولم افكر انا ابداً في مساعدتها الى ان مدّت لي يد المساعدة ، ولم أكن اعرف في الحقيقة كيف اقدّم لها المعونة لو ان فكرة هذه المعونة طرأت لي في بال .

آه ، لقد كدت افكر ان كل هذا الذي يحدث لي هو حلم من الاحلام ليس غير ، حلـــم ممقوت ، ثقيـل الوطأة ، لا يطاق . . .

لكن لا ! يستحيل عليّ أن افكـر هكذا ، لأن قطرات باردة من المطر تتساقط عليّ ، والمرأة تزداد بي التصاقاً ، ونفسها الحارّ يلفح وجهي لفحاً منعشاً . ولقد كان ذلك حسناً – رغماً عن رائحة الفودكا المنبعثة منه . وكانت الريح تزمجر وتعصف ، والمطر يجلد جوانب القارب ، والامواج يتطاير رذاذها من هنا وهناك ، ونحن متعانقان بشدة ، نرتجف من البرد . ذلك كله حقيقة صادقة لا ريب فيهـــا ، وأنا واثق من ان احداً لم يشهد قط حلماً يداني ذلك الواقع في هوله ، ووطأته ، وفظاعته .

راحت ناتاشا تتحدث عن هذا الموضوع ، وذاك ، تتحدث

في لطف وحنان كمـــا المرأة وحدهـــا تعرف ان تتحدث . وشرعت نار طفيفة تضطرم فيّ بتأثير صوتهـا وكلماتهـــا الحلوة ، فاشعر ان شيئاً يذوب في قلبي .

انهمرت الدموع من عينيّ مثل عاصفة من بَرَدٍ ، تغسل عن قلبي الكثير مما فيه من شر ، والكثير مما فيه من غباء وبلاهة ، والكثير من الحزن والدنس اللذين تمكّنا منه من قبل تلك الليلة .

واستني ناتاشا وطمأنتني بقولها :

– تعال ، تعال ، هذا يكفـــي ، يا عزيزي ! كفّ عن ذلك ! هذا يكفـــي ! سيهب الله لك فرصـــة أخرى . . . وسوف تصلح ما مضى ، وتستعيد مكانك السابق ، ويسير الحال على خير ما يرام .

ما أنفكت تقبّلني . منحتني من قبلاتها ما لا حصر له ولا عدّ . قبلات محرقة ملتهبـــة . . وكل ذلك دون مقابل على الاطلاق .

تلك هي القبلات الاولى التي خلعتها امرأة عليّ ، وكانت خير قبلات واطيبها ايضاً ، لان جميع ما تلاها من قبل كلفني كثيراً حقاً ، ولم اجن منه في الحقيقة شيئاً قط .

– كف عن البكـــاء يا عجيب ! غداً سوف احل أمرك ، اذا لم تحله انت . . . – كأنني سمعت في الحلم صوتـــاً خفيفاً مواسيا .

. . . بقينا مضطجعين حاضنين احدنا الآخر حتى مطلع الفجر .

وحين اطلّ الصباح ، زحفنا من تحت القارب ودلفنا الى

المدينة . . افترقنا على وداد ، ولم نلتق ثانية ابداً . . رغم اني ظللت طوال نصف عام افتش في كـــل حفرة وزاويــة ومنعطف عن ناتاشا اللطيفة ، هذه التي قضيت معها تلك الليلة الخريفية .

فإذا كانت انتقلت الى العالـم الآخر - وذلك من حسن حظها إذن - فليرحمهـــا الله ويسبغ على روحهـــا السلام والطمأنينة . وإذا كانت لا تزال حية ترزق فأقول ايضاً : وهب الله روحها السلام والطمأنينة ! وليمتنع وعي سقطتها عن التسرّب الى روحها ابداً . . لان ذلك عذاب زائد لا ثمرة فيه إذا كان لا بدّ للحياة ان يعيشها الانسان .

١٨٩٤

انشودة العقاب

كان البحر العظيم يتنهد كسلان بالقرب من الشاطئ ، أما في البعد المستحمّ في شعاع أزرق شاحب يسكبه القمر فهو يغفو هادئاً دون حراك . وقد ذاب هنالك ، رخصاً طرياً مفضضاً ، مع سماء الجنوب الزرقاء الصافية . كان يرتاح مستغرقاً في نوم هنيء عميق ، وهو يعكس على صفحته الساكنة نسيجاً شفافاً من سحب مزأبرة جامدة تشفّ من خلالها زركشة النجمات الذهبية . فإذا السماء تبدو وكأنها تميل صوب البحر ، منحنية أكثر فأكثر باستمرار ، متلهفة على معرفة ما يهمس به هدير أمواجه التي لا تكلُّ أو تتعب وهي تتسلق الشاطىء متثاقلة متراخية .

والجبال المكسوّة بأشجار لوتها الريح الشمال على صورة رهيبة ، تنهض قممها في حركة مباغتة نحو الزرقة العميقة المهجورة التي تعلوها ، وحوافيها الصارمة تستدير وترقُّ تحت المعطف الفاتر اللين الذي يغطيها به ليل الجنوب ويداعبها بدفئه . .

ان الجبال مستغرقة فى التفكير في رصانة ومهابة ووقار ، وظلال سود تقع منها على صهوات الأمواج الرائعة المخضرة فتكسوها ، فكأنها تريد خنق الحركة الوحيدة في ذلك الجمود ، وكتم خفقان المياه الدائب ، وتنهدات الزبد غير المنقطعة ، وجميع الأصوات التي تعكّر السكون العجيب المنتشر في الأرجاء المحيطة مع الفضة المزرقة التى تشعها هالة القمر المختبئ بَعْدُ خلف ذرى الجبال .

وارتفع صوت يتنهد في لحن خفيض خافت :

- اللـ . . . . ـه . . أ . . كبر !

إنه «نضر رحيم أوغلي» ، الراعي العجوز من أهالى القرم ، وهو شيخ عالي القامة ، أبيض الشعـــــر ، لوّحته شمس الجنوب . . . شيخ جاف وحكيم في الوقت ذاته .

كنا مضطجعين على الرمل قرب صخرة كئيبة عابسة الطلعة اقتلعت من جبلها الأم ، وتسربلت بالظل واكتست بالطحلب ، من جهة البحر . وكانت الأمواج قد حملت إليها سائـر أنواع النباتات البحرية والطمى فراحت الصخرة تبدو ، كأنها تتصل بمضيق من الرمال يفصل البحر عن الجبل . وكان لهيب النار التي سعَّرنا ينير الصخرة من جهة الجبل ، وشعلتها ترتجف ، فتتراكض الظلال على الصخرة العتيقة التي حفرتها شبكة دقيقة من الصدوع .

كنا ، رحيم وأنا ، نشوي حساء من الأسماك التي اصطدنا حديثاً ، نتمتع بمزاج تلوح فيه سائر الأشياء شفافة تستقبل الروح العظيم ، مؤاتية للانطواء على الذات حيث يرفل القلب في كثير من الطهارة والإشراق ، حتى ليبرأ المرء من كل رغبة خلا التفكير والتأمل .

وكان البحر يتدلل على الشاطئ ، والأمواج تهدر في حفيف فائق العذوبة حتى ليقال إنها تسأل السماح لها بورود النار تستدفيء على وهجها . ومن حين لآخر كانت نغمة عالية مرحة ترتفع في ذلك التناسق العام ، إنها موجة ، أكثر جرأة وإقداماً من أخواتها ، تسللت الى مسافة أكثر قرباً منا .

كان رحيم يضطجع وصـــــدره إلى الرمال ، ورأسه إلى

البحر ، وقد استند على مرفقيه ، واعتمد رأسه بين راحتيه ، وراح ينظر حالماً إلى الأبعاد المضطربة المختلطة الغامضة ، وقد انزلقت طاقيته المصنوعة من صوف الغنم على نقرته ، وجعل هواء عليل يهب من ناحية البحر فيلفح جبينه العريض المحفور بما لا يحصى عدده من غضون منتظمة . وهو يستسلم للتفلسف ، دون أن يكلفّ نفسه عناء التحقق من إصغائي إليه ، كمن يخاطب البحر وحده :

– الإنسان الأمين لله يذهب إلى الجنة ، أما الذي لا يخدم الله أو النبي ؟ لعله هو الذي هناك ، في الزبد . . . وهذه اللطخات الفضية على صفحة الماء ، لعلها هو أيضاً . . من يعلم ؟

ويضيء البحر ذو الانبساط الجبار ، وترتمي هنا وهناك دفقات من أشعة القمر في إهمال ولامبالاة . وهذا الكوكب قد انبثق من وراء ذرى الجبل المزأبرة ، وشرع يصبُّ سادراً أنواره على المياه التي تتنهد في رقة للقائه ، عند الشاطىء والصخرة التي تتمدد إلى جانبها . وقلت :

– رحيم ، إرو لي قصة .

فاستفسر رحيم ، دون أن يدير رأسه :

– لِمَ ؟

– هكذا . أنا أحبّ قصصك .

– رويت لك كل شيء ، وما عدت أعرف شيئاً .

ذلك أنه يحبّ أن أرجوه في إلحاح . فأصرُّ عليه . . . وانصاع أخيراً :

– إن شئت رويت لك أغنية .

وأبدي رغبتي في سماع الأغنية القديمة، فيروح يرويها في نغمة غنائية رزينة غير موزونة ، وهو يسعى جهده لاحترام اللحن الأصلي قدر الامكان :

١

«عالياً جداً ، في ذرى القنن ، تسلّقت الأفعى ، ورقدت هنالك في شعب رطب ملتفة على نفسها ، وجعلت تسفُ النظر إلى البحر ملياً .

«عالياً جداً ، في قمة السماء كانت أشعة الشمس تشعُ ، والجبال الملتهبة تنفخ حرارتها صوب السماء ، والأمواج ، عند سفوحها ، تضرب الصخور في عناد .

«وعلى طول الشعب ، في الديجور والرذاذ ، كان سيل جبّار ينطلق لملاقاة البحر وألوف الحجارة المزمجرة تتدحرج في تياره . .

«كان يشقُ الجبال ، مبيضاً بزبده ، مكللاً بشعار ناصع البياض ، قوي البنية ، ثم يتهاوى في البحر مرسلاً هديراً غاضباً .

«وعلى حين غرة ، في ذلك الشعب حيث تكوّمت الأفعى ، هوى العقاب من السماء ، وصدره مفتوح ، وريشه يعجُ دماء .

«هوى على الأرض ، مرسلاً صيحة مقتضبة ، وانطلق ، في غيظه العاجز ، يضرب بصدره الحجر الصلب القاسي .

«وذعرت الأفعى ، وتسللت هاربة في خفة ومهارة ، لكن سرعان ما أدركت أن الطير لم يبق في عمره غير لحظتين أو ثلاث لحظات فحسب .

«اقتربت زاحفة من الطير المحطّم ، وصفرت في عينيه مباشرة :

«- ما بالك ؟ أنت تموت ؟

«فأجاب ، مصعداً زفرة عميقة :

- مؤكد أني أموت! لقد عشت بصورة رائعة ! وعرفت ماهية السعادة ! ولقد قاتلت ببسالة وإقدام . ثم إني رأيت السماء . أنت لن تستطيعي أبداً ، مثلي ، أن تريها عن قرب . يا لك مسكينة تعيسة !

«- وما الفائدة من السماء ؟ إنها ليست أكثر من مكان فارغ . . كيف أستطيع أن أزحف فيها ؟ أما هنا ، فللّه درّ الأمور . . ههنا الدفء ، والعيش الرغيد الذي يتمناه القلب .

«هكذا أجابت الأفعى طير الهواء الطليق ، وهي تتضاحك منه ومن أوهامه الباطلة .

«كانت تفكر هكذا : إذا طرنا أو زحفنا فمعروفة نهايتنا . سنرقد في الأرض ونصير جميعاً إلى تراب . .

«وفي تلك الفترة نفض العقاب الباسل جناحيه فجأة ، وهبّ لحظة منتصباً ، وألقى بنظره على طول الشعب .

«كان الماء النضيض ينزلق فوق الحجر الرمادي ، والهواء خانقاً في الشعب المظلم العابق بالعفونة .

«وجمّع العقاب قواه وزأر ، وقد كسحه الغمُّ والألم :

«- أواه ! لو أرتفع مرة أخرى في السماء . . لو أضمُّ العدوّ ، متخماً بدمي ، على خاصرتيّ الجريحتين ! أواه ، يا لسعادة القتال التي لا تقدّر !

«وفكرّت الأفعى : «لا ريب أن الحياة حلوة في السماء حتى

يئن على هذا الغرار !

«واقترحت عندئذ على طير السمـاء الطليق : «لا عليك إلا أن تجرّ نفسك حتى حافة الشعب وأن تلقي بنفسك في هاويته ، فلعلّ جناحيك يحملانك من جديد ، فتستطيع أن تعيش فترة أخرى .

«ارتعش العقاب ، وندّت عنـه صيحة مكابرة ، وهبّ صوب الهاوية ضارباً الصخر اللزج بأظافره المرتجفة .

«أضحى على شفاهـا ، فنشر جناحيـه ، وتنهّد ملء صدره ، والتمعت عيناه وقدحتا شرراً . . . ثم هوى . . .

«سقط ، وكأنه الجلمود ، منزلقاً على الصخور ، سريعاً مثلها . وتحطّم جناحاه ، ونُتِّفت أرياشه . .

«أطبقت عليه تدوُّجات السيل ، وكسته بالزبد بعدما غسلت دمه ، وحملته إلى البحر . .

«كانت الأمواج تصطدم بالصخور في هزيم كئيب . . ثم غابت ، في الفراغ البحري ، جثة الطير إلى الأبد .

٢

«طويلاً راحت الأفعى تمعن تفكيرهـا ، وهي متمددة في أرض الشعب ، في موت العقاب وهواه الجارف للسماء .

ها هي تحمل أنظارهـا إلى البعد السحيق ، هذا البعد الذي يداعب النظر بحلم السعادة .

« — ولكن ما الذي كان العقـاب الميت ينشده في هذه البيداء المجرّدة عن الحدود والقاع ؟ فيمَ يكدّر أمثالـه الروح ويعكرون صفو النفس ، وهم يموتون ، بذلك الحب

العنيف للانطلاق صوب السماء والارتقاء الى ذراها ؟ ماذا يرون فيها بهذا الوضوح كله ؟ أنا ، أيضاً ، أستطيع أن أعرف ذلك ، ولا يلزمني إلا الطيران صوب السماء ، ولو قليلاً جداً .

«وما قيل نُفِّذ . . فها هي تلتف حلقة واسعة ، وتقفز في الهواء ، فإذا شريط ضيِّق يبرق في أشعة الشمس الزاهية .

«إن الذي ولد ليزحف لا يستطيع إلى الطيران سبيلاً ! . . ولما كانت الأفعى قد نسيت هذه الحقيقة سقطت على الأرض الحجرية . لم يقتلها ذلك بل حمل الضحك إلى شفتيها .

«— شه ! هذا هو إذن سحر الطيران في الفضاء ! هو في السقوط إذن ! يا لتلك الطيور السخيفة ! إنها تجهل الأرض ! تضجر منها ، وتنطلق صوب السماء تفتش فيها عن الحياة في صحراء ملتهبة . وهناك ، عالياً ، ليس ثمة غير الفراغ ، هنالك ، عالياً يوجد النور ، ولكن ليس ثمة غذاء ، وليس ثمة سند لجسد حي . فما معنى هذا الكبرياء إذن ؟ ولِمَ تلك الحسرة أيضاً ؟ ألاجل اقناع شهواتها الحمقاء ، وإخفاء عجزها أمام أمور الحياة ؟ يا لتلك الطيور السخيفة ! ولكني لن أخدع بعد الآن بادعاءاتها ، فأنا أعرف ما تعرف ! لقد رأيت السماء ، وحلقت فيها ، وقستُ قواي بقواها ! وإذا اختبرت السقوط فهو لم يقتلني ، ولكنه زادني ثقة . فلتعشْ إذن بأوهامها تلك التي لا تستطيع محبة الأرض . أنا أعرف ما هو حقّ ، أما نداءاتها فلست أؤمن بها بعد

الآن . إني ، وأنا مخلوق الأرض ، سأعيش من هذه الأرض وحدها . .

«وعندئذ التفت متكورّة على الحجر الأصمّ ، معتزة بنفسها الاعتزاز كله .

«كان البحر يتلألأ وهو يسبح في نور غزير ، والامواج الهائلة ترتمي في عنف على الشاطئ المهجور .

«وفي زئير الأسد الذي تبعثه تلك الأمواج ، كانت أنشودة العقاب تتردّد في مثل قصف الرعد وهزيمه ، والصخور ترتجف تحت ضربات الماء العنيفة ، والسماء ترتعش من نبرات الأنشودة الهائلة .

المجد لجنون الشجعان !

جنون الشجعان ، هذه هي حكمة الحياة ! إيه أيها العقاب الباسل ، لقد هدرت دمك وأنت تقاتل أعداءك . . ولكن ستأتي ساعة تلمع فيها كل قطرة من دمك الذي يغلي ويفور ، كالشرر في ديجور الحياة ، فتؤجج في العديد من القلوب الجريئة عطشاً مجنوناً للحرية والنور !

لا ريب أنك لقيت المنيّة . . ولكنك ستعيش بالروح في انشودة المغاوير والأقوياء مثالاً حياً ، ونداء فخوراً إلى الحرية ، إلى النور . .

«المجد لجنون الشجعان !»

خيّم السكون على المدى الصدفي الناصع البياض ، وراحت الأمواج بألحانها العذبة تغتسل في رمال الشاطىء ، وعيناي مثبتتان في الأفق البحري البعيد . وازدادت حلقات شعاعات

القمر المفضضة عدداً ، وكانت قِدْرُنا تغلي في عذوبة ورقة فائقتين .

وتتسلق موجة لاهية الأرض الرملية وتتلوى عليها ، وتزحف نحو رأس رحيم وهي تهدر في لطف فيقول رحيم وهو يلوّح لها بيده :

– أيان تذهبين ؟ ارقدي !

فتعود أدراجها ، صاغرة ، إلى البحر . .

لم تثر ظرافة رحيم ، وهو يعير الأمواج روحاً ، أي وقع باعث على التسلية أو التأثر في نفسي . كان كل ما يحيط بنا غرابة وحيوية ، وعذوبة وحنان . وكان البحر كثير الصفاء حتى ليستطيع المرء أن يميّز عنفواناً عظيماً ، خفياً ، قوياً ، متماسكاً ، في نفحة البرودة التي يبعثها نحو الجبال التي لم تقرس بعد جيداً من حرارة النهار الخانقة . وفي زرقة السماء القاتمة كان تشابك النجمات المذهب يخطّ شيئاً عظيماً ساحراً يكدر الروح في انتظار كثير العذوبة لوحي يهبط من العلاء .

وكان كل شيء يغفو ، لكنْ إغفاءة خفيفة متوترة . وكان المرء يخال أن جميع الأشياء ستستيقظ ، في اللحظة التالية ، وتروح تنشد لحناً مؤلفاً من أنغام فائقة العذوبة حتى ليستحيل وصفها . إنها ستبوح بأسرار العالم ، وتجعلها واضحة جلية للفكر ، ثم تطفىء هذا الفكر كما يطفىء المرء مصباحاً وهمياً ، وتجرُّ النفس عالياً في الهاوية الزرقاء حيث تأتي زركشة النجمات الخافقة لاستقبالها ، وهي تردّد موسيقى الوحي الرائعة .

١٨٩٥

كونوفالوف

وأنا أجيل بصري في الصحيفة وقعت على اسم كونوفالوف. وما أسرع أن لفت انتباهي على الفور . واليكم ما قرأت :

«في الليلة الماضية ، في الزنزانة رقم ٣ من السجن المحلي ، عمد رجل من «موروم» يدعى ألكسندر ايفانوفيتش كونوفالوف ، ويبلغ الأربعين من عمره ، الى الانتحار شنقاً من فوهة المدخنة . وكان المنتحر قد اعتقل في «بسكوف» بتهمة التشرّد وأعيد مع مجموعة من المعتقلين الى مسقط رأسه . وسلطات السجن تؤكد أنه كان رجلاً هادئاً مسالماً منطوياً على نفسه . وكان انتحاره ، حسب تقرير طبيب السجن ، بسبب من السوداوية» .

شعرت وأنا أقرأ هذا الخبر المقتضب أن في مقدوري أن ألقي مزيداً من الضوء على الأسباب التي استحثّت هذا الرجل الهادىء المنطوي على نفسه أن يضع لحياته حداً . كنت أعرفه . ولربما كان من واجبي أن أتكلم : فقد كان شاباً رائعاً ، قلّ أن يصادف المرء مثيلاً له في هذا العالم .

. . . كنت في الثامنة عشرة حين التقيت كونوفالوف . وكنت في ذلك العهد أعمل في مخبز مساعداً للخباز . وكان الخباز جندياً من «الفرقة الموسيقية» ، يعاقر الفودكا باستمرار ويفسد العجين في غالب الأحيان . فاذا سكر راح يعزف من بين شفتيه ألحاناً أو ينقرها بأصابعه على أي شيء يقع تحت يديه . واذا وبخه صاحب المخبز لافساده الخبز أو عدم

تهيئته في الصباح ثارت ثائرته ، وهبّ يشتمه ويذكره انه يتعامل مع «موسيقي» .

كان يصيح ، وقد انتصب شارباه الأحمران وجعلت شفتاه الكثيفتان النديتان تقرقعان في صوت مرتفع :

– أفسدت العجين ! أحرقت القشرة ! الخبز نيء ! فلتذهبنّ الى جهنم ، أيها الضبع الأحول ! أتحسبني جئت الى هذا العالم لأمارس مثل هذا العمل ؟ الى جهنم أنت وعملك ! موسيقيّ أنا . وينبغي أن تستوعب هذا . كانت الأمور تجري أنه اذا سكر عازف الكمان الأوسط ، عزفت أنا على الكمان الأوسط ؛ واذا اعتقل النافخ في المزمار ، نفخت أنا في المزمار ، واذا مرض البوّاق فمن يمكن ان يحلّ محله ؟ أنا ! توم – تا ّرا – توم – توم ! هه ْ ! أيها القروي البائس ! أنا لن أستمر في العمل !

ويضرب صاحب المخبز – وهو رجل سمين ، مقلقل ، له ساقان قصيرتان منتفختان ، ووجه أنثوي ، وعينان مختلفتا اللون – يضرب الأرض بقدميه الى أن تترقّص كرشه ، ويصيح بصوت زاعق :

– يا لص ! يا قاتل ! يا يهوذا بائع المسيح !

ويرفع يديه فوق رأسه وقد نشر أصابعه القصيرة البدينة ، ويصيح بصوت أكثر حدة :

– وماذا اذا شكوتك للشرطة باعتبارك عاصياً ؟

– أنا ، خادم القيصر والوطن ، تشكوني للشرطة ؟

يزمجر الجندي بهذه الكلمات ، وهو يخطو ناحية صاحب المخبز خطوات متباطئة ، مهدداً بقبضتيه . ويتراجع صاحب

المخبز وهو يشخر ويبصق في غضب . لم يكن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك – فقد كان من المتعذر العثور على خبازين جيدين في تلك المدينة القائمة على الفولغا في فصل الصيف .

كانت مثل هذه المشاهد تجري كل يوم تقريباً . يشرب الجندي ، ويتلف العجين ، ويعزف الأناشيد العسكرية وألحان الفالس ، أو «النمرة» كما يسميها . ويطحن صاحب المخبز أسنانه ، وأضطرّ أنا من جراء ذلك الى أن أعمل عمل اثنين معاً .

ولكم كان فرحي عظيماً حين حدث المشهد التالي بين صاحب المخبز والجندي .

قال المعلم ، وهو يدلف الى المخبز مشرق الوجه ، في عينيه ترتسم نظرة انتصار وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة :

– حسناً ، أيها الجندي . حسناً ، أيها الجندي ، كوّر شفتيك واعزف لنا نشيداً !

فقال الجندي في جهمة من حيث يضطجع ، على صندوق العجين ، سكران على عادته :

– ما هذا ؟

فتهلل صاحب المخبز :

– تأهب للخروج على ألحان نشيد عسكري !

استفهم الجندي ، مطوّحا ساقيه عن حافة الصندوق مستشعراً في الجو ما لا يُحبّ :

– الى أين ؟

– حيثما يطيب لك .

فنبح الجندي :

– ما معنى ذلك ؟

– معناه أني لن أستبقيك بعد الآن . اقبض حسابك و . . الى الأمام سر ! الى حيث تقودك قدماك !

صحا الجندي ، وهو الذي تعوّد أن يتنمر على المعلم لمعرفته أنه لن يستطيع الاستمرار من دونه ، لدى سماعه هذا النبأ ، وأدرك جيداً مبلغ الصعوبة في العثور على عمل آخر نظراً لقلّة معرفته بأمور الصنعة .

قال وقد تناوشه القلق ، وهو يهبّ على قدميه :

– هيا ، أنت تمزح .

– أخرج ، أخرج .

– أخرج أنا ؟

– انقلع .

فقال الجندي ، هازاً رأسه في مرارة :

– انتهى العمل ، أليس كذلك . لقد مصصت دمي – وانشفت عروقي – وهذا أنت الآن تطردني . براعة منك ، أيها العنكبوت !

فاضطرب صاحب المخبز مهتاجاً :

– أنا عنكبوت ؟

فعالنه الجندي رأيه في اقتناع ، وهو يخطو مترنحاً ناحية الباب :

– أجل ، أنت كذلك . عنكبوت مصاص دماء . هذا ما أنت عليه .

أطلق صاحب المخبز في أعقابه ضحكة خبيثة وهو يراقبه خارجا ، ولمعت عيناه في نشوة .

– جرّب الآن أن تجد من يشغّلك ! ان أحداً لن يقبلك ولو دون أجر بعدما رويت لهم أنباءك . لن يقبلك أحد على الاطلاق .

فسألته :

– هل وجدت خبازاً جديداً ؟

– الخباز الجديد هو خباز قديم . كان مساعداً لي مرة . يا له من رجل ! يساوي وزنه ذهباً . ولكنه سكير أيضاً ! وله في السكر نزوات . فهو يعمل كالثور ثلاثة أو أربعة شهور ، فلا ينام أو يرتاح أو يسأل عن الأجر . بل هو يعمل ويغني . وغناؤه ينصب في قلبك مباشرة . وحينما يشبع من الغناء فهو يسرف في الشراب !

وزفر صاحب المخبز ، ولوّح بيده في يأس :

– وحين يشرع في معاقرة الخمرة لا يوقفه شيء . يعبّ ويعبّ الى أن يمرض أو يفلس . وعندها ، ربما بسبب من الخجل ، ينسلّ الى مكان ما مثل روح الشيطان التي شمت شيئاً من البخور . لكن ، هذا هو آت . هل جئت حقاً ، يا ساشا ؟

فأجاب صوت ثرى عميق من عتبة الباب :

– جئت تماماً .

وقف هنالك رجل طويل عريض الكتفين في حدود الثلاثين من العمر متكئاً على عارضة الباب . كان يرتدي لبوس متشرد نموذجي ، وله وجه سلافي أصيل ، يلبس

قميصاً قطنياً أحمر اللون ممزقاً وقذراً بصورة لا مثيل لها ، وسروالاً عريضاً من الخيش ، وينتعل في احدى قدميه بقايا «كلوش» مطاطي ، وفي الأخرى فردة حذاء جلدي بالية . وكان شعره الأشقر مشعثاً اختلطت فيه قطع من القش . وكانت مثل تلك القطع متوافرة في لحيته الشقراء أيضاً ، هذه اللحية المنتشرة فوق صدره على شكل مروحة . وكان وجهه الشاحب المتعب المستطيل مضاء بعينين زرقاوين بجاوين تطلّ منهما نظرة لطيفة . أما شفتاه — الجميلتان لكن الشاحبتان — فتبتسمان من تحت شاربين أشقرين . وكانت ابتسامته تبدو وكأنما أراد منها أن تعتذر قائلة :

«هذا ما أنا عليه . فلا يكونن حكمكم علي قاسياً» .

قال المعلم ، وهو يفرك يديه ببعضهما بعضاً ويرسل نظره في انشداه الى تلك البنية القوية للخباز الجديد الذي خطا متقدماً دون أن ينطق بحرف ومدّ لي يداً طويلة ذات كف عريضة :

— أدخل ، يا ساشا . هذا مساعدك .

تبادلنا التحية ، وجلس هو على دكة ، ومدّد ساقيه ، وحدّق فيهما ، وخاطب صاحب المخبز قائلاً :

— اشتر لي قميصين ، يا فاسيلي سيميونوفيتش ، وحذاء ، وشيئاً من الكتان للقبعة .

— ستحصل على كل شيء ، فلا ينشغلنّ بالك . ان لديّ قبعات ، وسأحضر القمصان والسراويل هذا المساء . وفي هذه الأثناء لتبدأنّ العمل . أعرف مقدار ما أنت عليه

من الروعة ، وليس هنالــك ما يدعوك الى التذمر مني . لا أحد يسيء الى كونوفالوف لأنه لا يسيء الى أحد . ان بين جنبي ّ قلباً ، ولو كنت لك معلماً . فقد كنت عاملاً ّ مرة ، وأعرف طعم الفجل الحار . حسناً ، ابقيا معاً ، يا صاحبى ّ ، فأنا ذاهب .

وخلّفنا وحدنا .

جلس كونوفالوف هنالك صامتاً ، يجيل أنظاره حواليه وعلى وجهه ظل ابتسامة .

كان المخبز في قبو مقنطر السقف ، نوافذه الثــلاث أخفض من مستوى الشارع . والضوء فيــه شحيح والهواء قليل ، وثمة وفرة من القذارة والرطوبة وغبار الدقيق . والى جانب الجدار ثمة ثلاثة معاجن كبيرة ، أحدها فارغ ، وثانيها للعجين الجاهز ، وثالثها للعجين المتخمر . وعلى كل منهــا يترامى خيط خافت من شاحب الضوء مــن خلال النافذة . وأكياس الطحين مرمية على الأرض القذرة الى جانـب الفرن الذي احتل ّ ثلث المخبز تقريباً . وقطع كبيرة من الأخشاب تحترق في صخب في ذلك الفرن ، وانعكاسات لهيبها تتراقص وترتعش على الجدران الرمادية وتلوح للناظر كأنما تحكـي عن شيء ما باصوات غير مسموعة .

كان ذلك السقف المقنطر الملوث بالسخام المعلــق فوقنا يوقع الكآبة في نفسينا . وكــان اختلاط ضوء النهار بالضوء المنطلق من الفــرن يكوّن اضاءة مبهمة تضنـي العيون ، في حين تنصب ّ من النوافذ أصوات الشارع والغبار

في جدول لا نهاية له . استوعـــب كونوفالوف هذه الأمور كلها ، وأرسل زفرة عميقة ، وقال في نبرة موحشة :

– أتعمل هنا من قديم ؟

أخبرته . واستسلمنا يحدّق أحدنا الى الآخر من تحت حواجبنا المعقودة .

قال :

– انه سجن نظامي . فلنخرج ونقعد على الدكة عنـد البوابة . ما رأيك ؟

وخرجنا الى البوابة وجلسنا على الدكة .

– في مقدور المرء أن يتنفس هنا . يقتضيني الأمـــر فترة من الزمن كيما أعتاد على تلك الحفرة . لقد رجعـــت لتوي من البحر ، وتستطيع أن تحكم بنفسك . كنت أعمل صياداً في بحر قزوين . وعلى حين فجأة وجدت نفسي منقوعاً في حفرة في الأرض !

وابتسم في وجهي ابتسامة حزينـــة وكفّ عن الكلام ، وهو يتطلع مليا الى المارة الذين يجتازوننا . كان ثمة ضوء حزين في عينيه الزرقاويـــــن الصافيتين . وكان المساء يقترب ؛ فالشـــارع يضج بالأصوات ، والغبار ، والحرارة الخانقة ؛ وظلال الأبنية تزحف عــلى أرض الشارع . جلس كونوفالوف مسنداً ظهره الى الجدار ، مصالباً ذراعيه فوق صدره ، وأصابعه تلعب بلحيته الحريرية . اختلست نظرة الى وجهه الشاحب البيضوي وهجست في نفسي : ترى أي انسان هذا . غير أنني لم أجرؤ أن أبدأه الحديث لانـــه رئيسي ، ولأنه أوحى اليّ بالاحترام أيضاً .

كانت جبهته مخططة بثلاثة غضون دقيقة تختفي بين فترة وأخرى ، فتتنازعني رغبة في معرفة الأمور التي يفكر فيها هذا الانسان .

– تعال . فقد أزف الوقت . تعجن أنت العجنة الثانية وأعمل أنا في الثالثة .

حين وزنا كمية من العجين وخلطنا كمية أخرى جلسنا نتناول قليلاً من الشاي . دس كونوفالوف يده في عبّه وعالنني قائلاً :

– هل تحسن القراءة ؟ اليك . اقرأ هذه .

وناولني قطعة من ورق مجعدة ملطخة .

قرأت :

«عزيزي ساشا ،

أحبك وأقبلك عن بعد . أنا وحيدة وتعيسة ولا أقوى على انتظار ذلك اليوم الذي أرحل فيه معك أو نبدأ فيه العيش معاً . لقد أمرضتني وأضجرتني هذه الحياة المتعفنة ، ولو أنني أحببتها أول الامر . أنت تعرف لماذا ، وقد بدأت أنا أيضاً ، بعد أن التقيتك . أرجو أن تكتب لي سريعاً ، فأنا متلهفة على سماع أخبارك . وداعاً الآن ، لكن لا وداع فراق ، يا صديق فؤادي الملتحي . لن أوبخك ، رغم عتبي عليك لأنك خنزير . فقد رحلت دون أن تودعني ، ورغم فعلتك كنت على الدوام سعيدة معك سعادة لم أعرفها مع انسان آخر . ولن أنسى ذلك أبداً . ألا تستطيع أن تحاول الافراج عني ، يا ساشا ؟ أخبرتك الفتيات أني سأهجرك اذا أفرجت عني . لكن هذا هراء

ومحض افتراء . لو كنت لطيفاً معي لأخلصت لك مثل كلبة بعد الافراج عني . سهل عليك أن تفعل ذلك ولكنه صعب علي . حين جئت لرؤيتي بكيت لأنني مرغمة على أن أحيا مثل هذه الحياة ، ولكنني لم أخبرك السبب في ذلك . وداعاً ،

المخلصة لك كابيتولينا» .

أخذ كونوفالوف الرسالة مني وشرع يقلبها في احدى يديه تائه الفكر ، وهو يفتل شعر لحيته باليد الأخرى .

– هل تحسن الكتابة ؟

– أجل .

– وهل لديك حبر ؟

– لديّ .

– اذن اكتب لها رسالة ، هل تفعل ؟ قد يخطر في بالها أني نذل – أني نسيت كل شيء عنها . اكتب .

– سأكتب . لكن ، من هي ؟

– مومس . أنظر ، انها تطلب مني الافراج عنها . وهذا يعني أن أعطي الشرطة وعداً بالزواج منها . وعندها يردون لها جوازها ، ويأخذون منها بطاقتها ، وتغدو حرة . أتفهم ؟

في غضون نصف ساعة هيأت لها رسالة مؤثرة .

استوضح كونوفالوف في نفاد صبر :

– حسناً . اقرأ . كيف هي الرسالة .

واليكم كيف كتبت : «عزيزتي كابا ،

لا تحسبيني نذلاً لأني نسيت كل شيء عنك . أنا ما

نسيت شيئاً ، ولكنني أسرفت في الشراب وأنفقت كل ما أملك . غير أنني بدأت العمل من جديد ، وسوف أطلب من المعلم سلفة في الغداة وأرسلها الى فيليب فيعمل على الافراج عنك . سأرسل ما يكفي لشراء تذكرة لحضورك الى هنا . الى اللقاء في الوقت الراهن .

المخلص ، ألكسندر» .

قال كونوفالوف ، وهو يحكّ رأسه :

– هِمْ م م ! لست كاتباً ، كلا لست كاتباً . فليس في رسالتك شيء من الاحساس ، أو شيء يثير الدموع . وفضلاً عن ذلك ، سألتك أن تشتمني بألفاظ بذيئة ، وأنت لم تفعل ذلك .

– وفيم ينبغي أن أفعل ذلك ؟

– كي تعرف أني خجلان من نفسي وأني أفهم كيف عاملتها معاملة سيئة . هذا هو السبب . ورسالتك جافة فكأنها حمّص ناشف . اذرف فيها دمعة أو دمعتين .

لم يكن الأمر يتطلب أكثر من ذرف دمعة أو دمعتين . ففعلت ذلك بصورة مرضية . وارتاح كونوفالوف . وضع يده على كتفي ، وقال في عطف : – كل شيء حسن الآن . شكرا لك . يبدو أنك فتى طيب . سيطيب لنا العيش معاً .

لم أَرْتَبْ في ذلك ، فطلبت اليه أن يحدثني عن كابيتولينا .

– كابيتولينا ؟ انها فتية – فتاة صغيرة . من فياتكا . ابنة أحد التجار . ضلّت سواء السبيل ، وكلما تمادت في

غيّها ازدادت الأمور سوءاً بالنسبة اليها ، وفي آخر المطاف استقرت في بيت للدعارة . حين شاهدتها أول مرة قلت في نفسي : يا الله ! كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ انها طفلة بعد . وصرنا صديقين حميمين . وبكت . فقلت : «لا تقلقي ، اصبري ، سأنتشلك من هنا . انتظري فترة من وقت» . وهيأت كل شيء ، ولكنني أسرفت في الشراب فجأة ووجدت نفسي في أستراخان . ومن بعد في هذا المكان . وأنبأها أحد الشبان بمكاني ، فأرسلت اليّ هذه الرسالة .

سألت :

– ماذا تريد أن تفعل ، – أتأخذها زوجا لك ؟

– أنا أتزوج ؟ كيف يمكن لسكير أن يتزوج ؟ أوه ، أبداً . لن أعمل أكثر من الافراج عنها ، وعندها تكون حرة في الذهاب حيث يروق لها . ستجد لنفسها مكاناً ، وقد يتاح لها أن تمسي امرأة جديرة بالاحترام .

– انها تريد أن تعيش معك .

– هذه نزوة منها . فهنّ جميعاً على هذه الشاكلة ، النساء . أنا أعرفهنّ جيداً . عرفت أصنافاً كثيرة منهنّ . وكانت عندي زوجة تاجر ذات مرة . كنت أعمل سائساً في سيرك حين وقع بصرها عليّ . قالت : «تعال اشتغل عندي سائقاً . وكنت قد كرهت السيرك ، فقبلت . حسناً ، وبدأت القصة . راحت تلاطفني . وكان لديهم بيت كبير ، وخيول وخدم ، وكل ما يتبع ذلك . كانوا يعيشون كالنبلاء . وكان بعلها قصيراً سميناً يشبه معلمنا ، وكانت هي هيفاء لدنة مثل قطة ، وحارة . كانت تعانقني وتقبلني في فمي ،

وقبلاتهـا مثل الجمر الملتهب . تجعلني أرتعش من رأسي حتى قدمي ، وكان الخوف يتملكني بسبب منهـــا . كان يحدث أنها تقبلني وتنشج بقسوة حتى يرتعش كتفاها . فأسأل : «ما بالك ، يا فيرا ؟» فتجيب : «أنت مثل طفل ، يا ساشا ، لا تفهم شيئاً» . كانت امـــرأة صغيرة عذبة ، وكانت صادقة في قولها ، فأنا في الحقيقة لا أفهم شيئـاً . أنا غبي ، وأنا أعرف ذلك . لا أفهم لماذا أفعل ما أفعل ، ولا أفكر كيف أعيش !

كفّ عن الحديث وحدق فيّ بعينين متسعتين عامرتين بتعبير نصفه خوف ونصفه دهشة - شعور من القلق ضاعف سيماء الحزن في وجهه الوسيم وزاده جمالاً .

سألت :

- وكيف انتهت قصتك مع زوجة التاجر ؟

- أنت ترى ، فقد كنت أشعر بين آونة وأخرى ببؤس قتال أعجز معه عن احتمال الاستمرار في الحيـــاة ، فكأنني المخلوق البشري الوحيد في هذا العالم الواسع ، وكأنه ليس ثمة مخلوق حي آخر سواي على وجه البسيطة . وفي مثـــل هاتيك الأوقات كنت أكره كل شيء ، نفسي والآخرين عـلى حدّ سواء . وما كنت أبالي لو فَنِيَ الناس عن بكرة أبيهم . لا ريبة أن ذلك مرض فيّ . وهذا ما جعلني أقبـــل عـــلى الخمرة . فذهبت اليهـــا وقلت : «أطلقي سبيلي ، يا فيرا ميخائيلوفنا ، فما عدت أحتمل !» فاستوضحـــت : «هـــل أضجرتك ؟» وأطلقت ضحكة قبيحة . قلت : «أنا لم أضجر منك ، بل ضجرت من نفسي» . لم تفهمني في بداية الأمـــر

فجعلت تصرخ وتوبخني . وعندما استوعبت الموضوع أطرقت برأسها ، وقالت : «ارحل اذن» . وأطلقت العنان لعبراتها . كانت لها عينان سوداوان وشعر أسود أيضاً مجعد . وكانت منحدرة من أسرة موظفين لا من أسرة تجار . شعرت بالأسف من أجلها وكرهت نفسي . طبيعي أنه كان من الصعب بالنسبة اليها أن تعيش مع مثل ذلك الزوج . فقد كان أشبه بكيس من الطحين . بكت فترة طويلة – فقد اعتادت علي حتى ذلك الحين . كنت عليها عطوفاً : آخذها أحياناً فوق ذراعي وأهدهدها كالطفل الصغير . فتغفو ، فأجلس وأروح أرنو اليها . المرء يلوح جميلاً وهو نائم – طيباً وبسيطاً ، يتنفس ويبتسم ولا شيء غير ذلك . وكنا أحياناً نخرج في نزهة حين نعيش في الريف في فصل الصيف . وكانت تحب أن أسوق العربة مثل الريح . وعندما كنا نصل الى الغابات نربط الحصان الى شجرة ونضطجع على العشب البارد . وتتركني أضع رأسي في حجرها وتسترسل في قراءة أحد الكتب على مسمعي . وكنت أصغي الى قراءتها الى أن يدركني النوم . كانت تقرأ لي قصصاً ممتعة ، قصصاً شيقة . ولن أنسى واحدة منها أبداً تتحدث عن رجل أخرس يدعى جيراسيم ، وعن كلبه . كان ذلك الأخرس منبوذاً ، مكروهاً من الجميع ، الا من ذلك الكلب . وحين يسخر الناس منه فهو يلجأ الى كلبه . تلك قصة مؤلمة حقاً . كان عبداً ، جيراسيم هذا ، توجهت اليه سيدته مرة قائلة : «يا اخرس اذهب واغرق كلبك ، فهو لا يكفّ عن العواء» . فذهب . أخذ قارباً ، ووضع الكلب فيه ، وجعل

يجذف . كنت أرتجف بشدة حين تصل الى هذا الموضع من القصة . يا الله ، فكر في أنهم يجعلون المرء يقتل الشيء الوحيد الذي يجد فيه سعادته ! ما هو كنه ذلك النظام ؟ تلك كانت قصة رائعة ، قصة من الحياة – وهذا ما يسبغ عليها الروعة . هنالك مثل أولئك الناس : ثمة شيء وحيد هو العالم كله بالنسبة اليهم . خذ هذا الكلب مثلاً . لماذا الكلب ؟ لأن أحداً لا يحبه فان الكلب يحبه ، والمرء لا يستطيع أن يعيش من دون حب مهما يكن شكل هذا الحب – والا ما فائدة الروح الموجودة في جسمه ان لم يكن يعرف الحب بها ؟ قرأت لي قصصاً كثيرة . كانت امرأة صغيرة لطيفة ، وحتى الآن يأخذني الاشفاق عليها . ولولا قسمتي في الحياة ما هجرتها قبل أن تطلب هي اليّ هجرانها ، أو حتى يكتشف زوجها قصتنا . كانت رقيقة ، وهذه السمة كانت الشيء الرئيسي عندها ، ورقتها لم تكن تقتصر باعطاء الهدايا ، بل كانت بقلبها رقيقة . كانت تقبلني وتهب لي نفسها ، مثل أية امرأة أخرى ، وأحياناً يتملكها هدوء رهيب ، وبعدها تَنْشدِهُ من الطيبة التي تغدقها عليك . كانت أحياناً تنفذ الى صميم روحي وتحدثني مثل ام او مربية ، فأشعر حينذاك أني لا أتجاوز الخامسة من عمري . ورغم هذا كله هجرتها . الكآبة ، وحدها الكآبة ظلت تشدني الى مكان ما . . . فقلت لها «وداعاً ، يا فيرا ميخائيلوفنا ، واصفحي عني» . فقالت «وداعاً ، يا ساشا» . وعندها عمدت تلك المجنونة الى تعرية ذراعي وغرزت أسنانها في لحمي . وكدت أطلق صرخة عالية .

وكادت هي أن تنهش قطعة من ذراعي – وبقيت ثلاثة أسابيع حتى شفيت . وما برحت أحمل آثار تلك العضة .

عرى ذراعاً نامية العضلات ، العضلات جميلة التكوين ، ومدها وقد ابتسم ابتسامة لطيفة حزينة . كانت الندبة واضحة قرب مفصل المرفق – نصفا دائرتين يكادان يلتقيان في نهايتيهما . وهز كونوفالوف المبتسم رأسه وهو ينظر اليهما .

– المرأة المجنونة ! هذا ما أعطتني لذكراها .

سمعت مثل هذه الحكايات من قبل . ان كل شريد تقريباً يحدثك عن «امرأة تاجر» أو «سيدة من النبلاء» كانت له بها علاقة . وكانت هذه السيدة النبيلة أو أمرأة التاجر قد اختلقت بأشكال عديدة في آلاف الروايات التي سُردت عنها الى أن غدت شخصية خيالية في عيني جميع المتشردين ، وشخصية تضم أكثر الصفات الجسدية والنفسية تناقضاً . فاذا كانت اليوم مرحة خبيثة زرقاء العينين ، فهي في الأسبوع المقبل لطيفة عاطفية سوداء العينين . والعادة أن تروى القصة عنها بصورة تشككية ، وفي كثير من التفاصيل التي تحقّر تلك المرأة .

غير انني اكتشفت في رواية كونوفالوف نبرة من الصدق ، وكان فيها صفات لم أسمع بمثلها من قبل . وعلى سبيل المثال : قراءة الكتب ، ومقارنته ، وهو الرجل الكبير القوى ، بالطفل الصغير .

وتصورت تلك المرأة اللدنة نائمة بين ذراعيه ، ورأسها يرتاح على صدره العريض . ثمة ما هو جميل في

هذه الصورة ، الأمر الذي زاد قناعتي بصدق حديثه . وأخيراً كان هنالك النبرة الحزينـة اللطيفة – وهي نبرة خصوصية الى أبعد الحدود – هذه النبرة التي روى بها ذكرياته عن «امرأة التاجر» . أبداً لا يتحدث المتشرد الحقيقي عـن النساء أو أي شيء آخر بمثل تلك النبرة . بل على العكس ، فهو يتباهى أنه ليس ثمة في العالم شيء مقدس بالنسبـة اليه .

سألني كونوفالوف وفي صوته رنة قلق :

– لِمَ لا تقول شيئاً ، أتحسبني أكذب ؟

كان جالساً على كيس طحين حاملاً قدح الشاي في يـد ويمسد لحيته باليد الأخرى في رفق . واخترقتني عينـاه الزرقاوان مستفسرتين ، وبدت الخطوط على جبهتـه نافرة واضحة .

– صدقني . فيمَ أكذب . أوه ، أعرف أننا نحـن الأجلاف نحبّ أن نغزل الحكايا . ولِمَ لا نفعل ذلـك . اذا لم يكن في حياة الانسان شيء ثمين فلم لا يختلق لنفسـه أسطورة ويسبغ عليها أردان الحقيقة ؟ هذا لا يؤذي أحداً . ويؤدي به الأمر الى أنه يصدق نفسه وهو يرويهـا . حسناً . . . ذلك ينعش روحه وقلبه . كثيرون من الناس يلجأون الى ذلك . لا مناص لهم منه . ولكن ما رويت لك هو الحقيقة الصادقة – هذا ما حدث تماماً . فهل فيه شيء من الغرابة ؟ امرأة لم تعرف في حياتها شيئاً من السرور . فهل تبالي اذا كنت أنا سائق عربة ؟ ذلـك عنـد المرأة سواء – أكنت سائق عربة ، أم نبيلاً ، أم ضابطاً – نحن

جميعاً رجال . وجميعنا خنازير بالنسبة اليها - جميعنا نبحث عن شيء واحد ، وكل منا يسعى الى الحصول عليه بأبخس ثمن مستطاع . وكلما كان المرء بسيطاً كان أكبر ضميراً من الآخرين . وأنا أكثر البسطاء بساطة . والنساء دائماً يرينني على هذه الشاكلة - يرين أنني لا يمكن أن أصيبهن بأذية أو أسخر بهن . عندما تخطىء المرأة فهي لا تخاف شيئاً قدر خوفها من الضحك عليها ، والسخرية بها . والمرأة تملك احساساً بالخجل اكثر مما نملك نحن الرجال . حين نصيب بغيتنا من اللهو فلا شيء يمنعنا من الثرثرة به حتى في الأسواق العامة : ما أروع أن ترى تلك البلهاء التي اصطدت الليلة الماضية ! أما المرأة فلا تفعل ذلك . ولا أحد يعتبر اثمها جرأة . وأحقرهنّ ضلالاً يملكن احساساً بالخجل أكثر مما نحن نملك .

جعلت أفكر وأنا أصغي اليه : أمن المعقول أن تكون لدى مثل هذا الرجل مثل هذه العواطف الغريبة ؟

وانشدهت أكثر حين استرسل في حديثه ، مشخصاً بصره اليّ بعينيه الصافيتين مثل عيني طفل صغير .

احترق الحطب في الفرن مخلفاً كومة من الجمر المتأجج تطلق وهجاً وردي اللون على جدار المخبز . . .

كانت النافذة تؤطر مربعاً من سماء زرقاء فيها نجمتان اثنتان . احداهما كبيرة تتألق مثل زمردة ، والثانية قريبة منها باهتة تماماً .

غدوت وكونوفالوف في غضون أسبوع صديقين حميمين .

قال وقد ابتسم ابتسامة عريضة ، وهو يربت على كتفي بيده الضخمة :

– أنت فتى بسيط ، وهذا هو الصنف الذي أحبّ !

كان ماهرا في صنعته ، وينبغي أن ترى كيف يقذف قطعة من العجين زنة سبعة بودات وهو يقلبها ، أو كيف ينحني على المعجن يعجنها ، وذراعاه غارقتان حتى المرفقين في الكتلة المرنة التي تطلق صريراً خافتاً وهو يضغط عليها بأصابعه الفولاذية .

ولم يكن يتاح لي وقت أفرغ فيه الدف الخشبي من الأرغفة النيئة الى جاروفه الطويل الذراع حتى يلقي به الى الفرن . وخشيت بادئ الأمر أن يراكم الأرغفة قرب بعضها بعضاً من جراء عجلته ، ولكنه انجز خبز ثلاث دفعات ولم يخرج أي رغيف «محشور» من أصل مائة وعشرين رغيفاً (كانت كلها مسمرة منفوشة خفيفة كالريشة) ، حتى تأكد لديّ أنه عامل صناع . كان يحب عمله ، وينغمس فيه الى أبعد الحدود ، ويتكدر حين لا يحمي الفرن جيداً ، أو يختمر العجين ببطء ، يغضب ويلعن صاحب المخبز حين يشتري طحيناً من صنف رديئ ، ويغتبط كالأطفال وتنبسط أساريره حين تخرج الأرغفة مدورة ناضجة ولها قشرة رقيقة . وكان يأخذ أحياناً أحسن رغيف عن الجاروف ويقول ضاحكا ، وهو ينقله من كف الى كف بسبب من سخونته :

– أنظر هذا الشيء الجميل الذي صنعنا معاً ، أنت وأنا . . .

كان يلذ لي أن أراقب ذلك الطفل العملاق وهو يعمل ،

فقد كان يصب روحه في عمله – وهو شيء ينبغي على كل امرئ أن يفعله ، كائناً ما كان العمل الذي يأتيه .

سألته ذات يوم :

– ساشا ، يقولون انك تجيد الغناء ؟

– أجيده . ولكنني لا أغني الا لماماً . أشرع في الغناء حين أحزن . واذ اشرع في الغناء يتملكني الحزن . لكن حذار من الكلام في هذا الموضوع ، ولا تنرفزني . وأنت ، ألا تغني ؟ الغناء شيء رائع ! لكن لا تبدأنه حتى يطيب لي . وعندها نغني معاً . ما رأيك ؟

أبديت موافقتي على الانتظار . وجعلت أصفر حين يهزني الحنين الى الغناء . وكنت أنسى أحياناً فأروح أهمهم بيني وبين نفسي وأنا أعجن العجين أو أخبز الأرغفة . ويرهق كونوفالوف أذنيه مصغياً ، وشفتاه تتحركان ، ثم يذكرني بوعدي . وبين حين وحين يصرخ في وجهي بنبرة خشنة :

– اخرس ! كفّ عن العويل !

تناولت يوماً كتاباً من صندوقي واتخذت مكاني الى النافذة ورحت أقرأ .

كان كونوفالوف يهوّم فوق المعجن ، فجعله حفيف الأوراق التي اقلبها فوق رأسه يفتح عينيه :

– عن أي شيء هذا الكتاب بين يديك ؟

كان الكتاب «البودليبوفيون» .

استوضح :

– اقرأه عليّ ، هلا فعلت ؟

شرعت أقرأ في صوت عال من حيث جلست على حافة

النافذة ، وجلس هو على معجن واضعاً رأسه على ركبتي ملقياً بسمعه الي ّ . كنت أحياناً ألقي نظرة من فوق الكتاب فألتقي عينيه ، هاتين العينين اللتين لا تبرحان عالقتين في ذاكرتي الى يومنا هذا – مفتوحتين على سعتهما ، متوترتين ، عامرتين بانتباه عميق . وكان فمه أيضاً نصف مفتوح ، كاشفاً عن صفين من أسنان بيض متساوية . وكان من المتعة أن ترى الى حاجبيه المرفوعين ، والغضون المتكسرة تخدد جبهته العالية ، ويديه المطوقتين ركبتيه ، وهيئته كلها ساكنة متوفزة . هذه الأمور كلها حفزتني على اغداق المزيد من الحيوية على قراءتي لقصة بيلا وسيسويكا الحزينة .

هدني الضنى آخر الأمر ، فأغلقت الكتاب .

سألني كونوفالوف في صوت مهموس :

– أهذا كل شيء ؟

– هذا أقل من النصف .

– هل تقرؤه لي بأكمله ؟

– اذا رغبت في ذلك .

– آه .

أمسك رأسه بيديه ، وتمايل من جانب الى جانب وهو جالس على المعجن . كان ثمة شيء يريد الافصاح عنه ، ففتح فمه وأغلقه ، نافخاً كالمنفاخ ، ومضيقاً فرجتي عينيه . لم يطف في بالي أن القراءة ستؤثر فيه بمثل هذا المقدار ، ولم أفهم لذلك التأثير معنى .

همس :

– كيف تقرأ هذا ! بأصوات مختلفة ، فكأن الأشخاص في قيد الحياة ما يزالون ! أبروسكا ! بيلا ! يا لهما من أحمقين ! يثيران السخرية . ماذا من بعد ؟ الى أين يذهبان ؟ يايسوع ، هذا كله حقيقي ، وهم أشخاص حقيقيون ، فلاحون حقيقيون صادقون ، أصواتهم حقيقية ، ووجوههم حقيقية ، وكل شيء . أصغ ، يا مكسيم ، حينما نضع الخبز في الفرن تواصل أنت القراءة قليلا !

وضعنا الخبز في الفرن ، وأعددنا عجنة أخرى ، وقرأت له ساعة ونصف الساعة . وتوقفنا عن القراءة حين نضج الخبز ، فأخرجناه ، ووضعنا أرغفة أخرى ، وعجنا عجنة جديدة وخلطنا خميرة أخرى . قمنا بهذا العمل كله بسرعة محمومة ، ودون أن يهمس أحدنا كلمة واحدة . كان كونوفالوف العابس ، بين حين وحين ، يلقي عليّ في وداعة أوامره بكلمات مفردة ، وهو يتعجل انهاء العمل .

كان الصباح قد أطلّ حين فرغنا من الكتاب ، وكان لساني يابساً منتفخاً .

وكان كونوفالوف جالساً على كيس من الطحين يشخص اليّ ببصره في صمت ، وتعبير غريب يطلّ من عينيه ، ويداه متشبثتان بركبتيه .

سألت :

– أحببت الكتاب ؟

أومأ برأسه ، مضيقاً من عينيه وحين تكلم انحدر صوته هامساً من جديد :

– من كتب هذا الكتاب ؟

كانت عيناه طافحتين انشداهاً لا يمكـــن للكلمات أن تصفه ، وأضاء وجهه فجأة بشعور قوي حار .

أخبرته باسم مؤلف الكتاب .

– يا له من رجل ! لقد وضع الملح على الجرح ، أليس كذلك ؟ انه ليدبّ الذعر في جوانحك ! ويجعل الرعشـــة تراوح وتغادي في عمودك الفقري . انه يعج بالحياة . ماذا أصاب المؤلف . . . من تأليف هذا الكتاب ؟

– ماذا تقصد . . . ؟

– أفما أعطوه شيئاً . . . وساماً أو شيئاً مـــن هذا القبيل .

استفهمت :

– وفيم يمنحونه وساما ؟

– حسناً ، هذا كتاب . . . انه أشبه بمحضــــر الشرطة : يقرؤه الناس ، ويشرعون في الحديث عنه . كيف هما بيلا وسيسويكا مثلاً . ويشفق الجميع عليهما وهمـــا يعيشان في مثل تلك الظلمة . انها حياة الكلاب . وهكذا ...

– وهكذا ماذا ؟

رمقني كونوفالوف بنظره مرتبكاً ، وأعلن في وداعة :

– ينبغي اتخاذ بعض الاجراءات . فهما مخلوقـــان بشريان . ينبغي أن يمدّ أحدهم اليهما يد معونة .

حاضرته طويلاً جواباً عمـا قال ، لكـــن ، من دون جدوى ! لم تترك فيه المحاضرة التأثير الذي اليه قصدت .

استغرق كونوفالوف في التفكير ، مطرقاً برأســـه ،

متمايلاً الى الأمام والخلف ، وشرع يتنهد ، لكن من دون أن يقاطعني . تعبت أخيراً ، فصمتّ .

رفع رأسه ورنا اليّ في حزن . قال :

– وهكذا لم يعطوه شيئاً .

سألته ، وقد نسيت كل شيء عن المؤلف :

– من ؟

– المؤلف .

لم أعطه جواباً ، وقد ضقت به لأنه يعتبر نفسه من دون ريب غير قادر على حل القضايا الفلسفية .

تناول كونوفالوف الكتاب ، دون ان ينتظر جواباً مني وقلبه في توقير بين يديه ، فتحه وأغلقه ، ووضعه في مكانه ، وأرسل زفرة .

قال في صوت مهموس :

– يا لها من مشكلة عميقة ! هذا انسان ألف كتاباً . . ليس أكثر من ورق فيه نقاط صغيرة . . . ألّفه و . . . . هل مات هذا المؤلف ؟

أجبت :

– أجل .

– مات ، ولكن كتابه هنا ، والناس يقرؤونه . ينظر اليه المرء بعينيه ، وينطق بكلمات مختلفة . ويصغي انسان آخر ويكتشف أنه عاش في وقت من الأوقات من يدعى بيلا ، وسيسويكا ، وأبروسكا . ويشعر بالاشفاق عليهم ، رغم أنه لم يرهم ، وأنهم ليسوا أكثر . . . أكثر من لا شيء بالنسبة اليه . لعله يمر في الشارع بعشرات من الأحياء

من أمثالهم فى كل يوم ، دون أن يعرف عنهم شيئاً ، ودون أن يكون له بهم أي شأن . . . حتى أنه لا ينتبـــه الى وجودهم . ولكنه ما أن يجتمع بهم في كتاب حتى يتفجر قلبه شفقـــة عليهم . كيف تفسر لي هذا ؟ . . . وهكذا فـــان المؤلف مات دون أن يعُطى مكافأة ، أليس كذلك ؟ لا شيء ! اطلاقاً ؟

غضبت ، وحدثته كيف يكافأ المؤلفون .

رمقني كونوفالوف بعينين مذعورتين ، وفرقع بشفتيــه معبراً عن أسفه .

زفر قائلاً :

– يا لها من أنظمة !

وأطرق برأسه ، وراح يعض طرف شاربه الأيسر .

أخذت أتحدث عن دور الحانة المشؤوم في حيـاة الكتاب الروس ، واخبرتـــه عن اولئـــك الكتاب العظام الرائعين الذين دمرتهم الفودكا التي جعلوا منها السلـوى الوحيدة في حياتهم الشاقة .

استفسر كونوفالوف في همسة مروّعة :

– هل يسكر أولئك الناس ؟

قرأت في عينيه الواسعتين الريبة فيما قلـــت لــــه ، والخوف على أولئك الناس والشفقة عليهم .

– أيشربون حقاً ؟ يخال لي أنهـــم يشرعون فى الشراب بعد أن يكتبوا كتبهم ، أليس كذلك ؟

تجاهلت ذلك السؤال لأنني لم أجـــد له علاقــــــة بالموضوع .

قال كونوفالوف مقرراً :

- بعد ذلك ، من دون ريب . فالكتّاب أشبه ما يكونون بالاسفنج الذي يمتص أحزان الآخرين ، وهم يملكون عيوناً من نوع خاص . وقلوباً من نوع خاص أيضاً بهذا الشأن . اذا راحوا يطيلون النظر الى الحياة يغشاهم الحزن . فيصبونه في كتبهم . ولكن هذا لا ينهي المشكلة ، لأن قلوبهم تأثرت ، وليس في مستطاعك أن تحرق اللوعة اذا مسّت شغاف قلبك مرة . وهكذا لا يتبقى ثمة غير عمل واحد . . . أن تغرقها بالفودكا . ولهذا يشربون . ألست على حق أنا ؟

وافقته ، فبدا أن ذلك أمدّه بالشجاعة .

استرسل يقول ، مغرقاً أعمق فأعمق في تفسير نفسية الكاتب :

- واذا أردنا الحقّ فينبغي أن يكافأ اولئك الكتاب ، أليس كذلك ؟ ذلك انهم يفهمون أكثر من الآخرين ، وينصحون للآخرين ما هو خطأ في هذه الحياة . خذني أنا مثلاً - من أكون ؟ أنا رجل شريد ، سكير ، لا أصلح لشيء على الاطلاق ، نفاية . وحياتي خالية من أي شعور . فما فائدة حياتي على هذه الأرض ؟ من يحتاج اليّ اذا جدّ الجد ؟ لا زوجة ، ولا أولاد ، ولا بيت ، ولا رغبة عندي في شيء من ذلك . أنا أعيش على كآبتي الخاصة لا غير ، وليس من يعرف لماذا . وليس في روحي ما ينير لي السبيل . كيف أعبّر عن ذلك ؟ ليس في روحي شرارة . . ولا قوة على أقل تقدير . مهما يكن الاسم الذي تسبغه على ذلك فهو غير

موجود ، وهذا كل شيء . هل فهمت ؟ وهكذا فانا أعيش وأبحث عن ذلك الشيء ، وأتوق اليه ، ولكن ما هو يا ترى ، لست أدرى . . .

أسام بصره اليّ ، ورأسه يرتاح على يده ، ووجهه يعكس ماهية الأفكار التي تحاول أن تتخذ لنفسها في رأسه صورة من الصور .

سألته مستطلعاً :

– حسناً ، وبعد ؟

– بعد ؟ . . أنا لا أعرف كيف أقول ذلك ، ولكنني أعتقد أنه اذا ما جاءني أحد أولئك الكتاب وألقى عليّ نظرة ، فقد يتمكن من أن يشرح لي حياتي ، ألا تظن ذلك ؟

حسبت أنني أستطيع ذلك بنفسي ، وفي الحال شرعت اشرح ما خيّل اليّ أنه صورة واضحة بسيطة . تحدثت عن الظروف والبيئة ، عن اللامساواة ، عن أولئك الذين كانوا أسياد الحياة ، وعن أولئك الذين كانوا ضحاياهم .

أصغى كونوفالوف في انتباه . كان يجلس قبالتي واضعاً خده في يده ، وعيناه الزرقاوان الكبيرتان ، المفتوحتان عن سعة ، المفكرتان ، الذكيتان ، تبدوان وكأنهما تغيمان تدريجياً وراء ستار خفيف ، والغضون على جبهته تزداد عمقاً . وبدا أنه يتنفس في جهد ، ويبذل قصاراه ليستوعب كلامي .

أشبع ذلك غروري . رسمت له حياته في حرارة ملتهبة ، وبرهنت أنه غير ملوم فيما حصل له . لقد كان ضحية للظروف ، مخلوقاً جعلته مساواته للآخرين عن طريق الولادة

شيئاً لا شأن له في الحياة الاجتماعية بسبب سلسلة من المظالم تمتد لها جذور عميقة في التاريخ . وختمت كلامي قائلاً :

– ليس هنالك ما تلوم نفسك عليه . . . فأنت مظلوم . . .

صمت ، وجلس هنالك وقد ثبت عينيه عليّ . وكنت أرى ابتسامة مشرقة تتولد في أعماقه ، فانتظرت بفارغ الصبر ما سيردّ به على كلماتي .

انحنى عليّ ضاحكاً في عذوبة ، ووضع يده على كتفي في حركة نسائية لطيفة .

– أنت تشرح الأمور بلغة سهلة ، يا صاح ! أين تعلمت هذا كله ؟ من الكتب ؟ لا ريبة أنك قرأت كثيراً . أواه لو أنني قرأت مثلك ! لكن السبب الرئيسي هو أنك تهرق حليب العذوبة الانسانية فيما تقول . وأنا لم أسمع أحداً يتحدث على غرارك من قبل قط . انه أمر غريب ! فأغلب الناس يلومون الآخرين على الأخطاء التي يقاسون منها ، أما أنت فتلقي اللوم على الحياة بأسرها ، على النظام بأكمله . بناء على كلامك ينبغي على المرء ألا يلوم نفسه على أي شيء . اذا ولد ليكون متشرداً ، فمتشرداً يجب أن يكون . وما تقول عن المحكومين شيء جد غريب : هم يسرقون لانهم بلا عمل ، ولأنه يجب أن يحصلوا على طعام . ما أشد نبلك ! يبدو ان لك قلباً رقيقاً لطيفا !

قلت :

– رويدك ، أتوافقني ؟ أتحسب أن كلامـي صحيح أم غير صحيح ؟

– أنت تعرف أفضل مني ان كان صحيحاً أم غيـر صحيح . أنت تعرف القراءة ! اذا أخذنا الآخرين بعيـن الاعتبار فأخمّن أنه صحيح ، أما اذا أخذتني أنا . . .

– فماذا ؟

– أنا حالة خاصة . مـن هو الملوم لانني أعاقـر الخمرة ؟ شقيقي بافل لا يشرب . ولـه مخبز خاص به في بيرم . وأنا أفوقه مهارة صنعـة ، ورغم هذا أنا جواب أفاق وسكير ، وليس هنالك ما يمكن أن تقول عني أكثـر من هذا . ومع هذا ولدتنا ام واحدة ! هـو أصغر مني . وهكذا فأنت ترى أنه لا بدّ أن يكـون فيّ شيء خطأ . يعني انني ولدت ليس كما يجـب . أنت تقول ان الناس جميعاً متشابهون . اما أنا فحالة خاصة . ليس أنا فحسب ، فهنالك كثيرون مثلي . نحن أناس من نوع خاص – لا يمكن أن نصنف في أي تصنيف . ونحتـاج الى حكم خاص . . . قوانين خاصة – قوانين صارمة ، تستأصل شأفتنا عـن الأرض لأنه لا فائدة ترجى منـا لأي مخلوق كان . نحن لا نفعل أكثر من أن نُشْغِل حيزاً ، ونعترض سبل الآخرين . فمن الملوم على هذا ؟ وحدنا نحن من يجب أن يوجه اللوم اليه . ذلك أننا لا نملك رغبة في الحياة ، ولا نحب أنفسنا .

هذا الرجل الضخم ، بعينيه الصافيتين مثل عيني طفل ، خصص لنفسه مكاناً بين الناس عديمي الشأن بمثـل هذه البساطة مما جعلهم محكومين بالفناء ، وفعل ذلك بابتسامة

تمزق الفؤاد جعلتني أعجز عن النطق . أبداً من قبل لم أعثر على وصف لنكران الذات عند جواب أفاق . واحد من أولئك المعزولين عن كل شيء يحيط بهم بكل كيانهم . والذين يعادون كل شيء ، والذين يتشوقون الى أن يجعلوا من كل شيء هدفاً لحقدهم الساخر . الناس الذين التقيتهم كانوا دائماً يلومون الآخرين ، دائماً يتشكون من كل شيء ، ويصرون على اغلاق عيونهم في وجه الدليل القاطع الذي يناقض شكاواهم ويبرئ ساحتهم . كانوا دائماً يلقون تبعة اخفاقهم على وحشية القدر أو شرور الآخرين . . . وكونوفالوف لم يلق اللوم على القدر أو يتهم الآخرين . وحده كان ملوماً على فوضى حياته الشخصية ، وكلما حاولت جهدي أن أبرهن له أنه كان «ضحية الظروف والبيئة» اشتدّ اصراره على اقناعي انه السبب الوحيد في مصيره الشقي . . . كان ذلك يداني الحقيقة ، ولكنه أثارني . كان يجد لذة في معاقبة نفسه ، لذة تبرق في عينيه وهو ينادي في صوت رنان :

– كل انسان هو سيد نفسه ، ولا يلامنّ أحد ان كنت أنا وغداً !

ما كنت أندهش لو سمعت رجلاً مثقفاً يتفوه بمثل هذه الكلمات ، لأن جميع ضروب الآلام تتواجد في ذلك التركيب النفسي المعقد المسمى «المثقف» . وكان غريباً ان تسمعه ينطلق من شفتي هذا المتشرد ، وان يكن مثقفاً بين أولئك الأذلاء الجياع العراة انصاف البشر وأنصاف الحيوانات الذين تعثر عليهم في الأحياء الفقيرة من مدننا . ولم يكن هنالك

سوى أن نسلّم أن كونوفالوف كان حقاً «حالـــة خاصة» ، غير أنني لم أرغب في ذلك .

كان في مظهره الخارجي ، حتى أدق التفصيلات ، متشرداً نموذجياً ، وكلما دققت النظر فيه ازداد اقتناعي أنني أمام نموذج يغير الفكرة التي كوّنت في ذهني عن الناس الذيـن كان يجب اعتبارهم ، منذ زمن طويل ، طبقة ، والذيـــــن يستحقون أن نصرف انتباهنا اليهم كطامعين ظامئين أشرار ، لكن غير بلهاء .

وازداد نقاشنا حدة . صحت :

– أصغ . كيف يستطيع المرء أن ينهض على قدميه اذا كانت مختلف ضروب القوى السوداء تضغط عليه من كـل حدب وصوب ؟

فقال خصمي في حماسة ، وعيناه تلتهبان :

– ليرسخنّ قدميه بقوة أكثر !

– يرسخنّ قدميه على ماذا ؟

– ليعثرنّ على شيء ويرسخنّ قدميه عليه !

– لمَ لم تفعل أنت ذلك ؟

– أيها الأبله ! أفما قلت لك ان اللوم يقع على كاهلي ! لم أجد شيئاً أرسخ قدميّ عليه ! ظللت أبحث عنه وأتوق اليه ، غير أنني عجزت عن العثور عليه !

حان الوقت للتفكير في الخبز ، فشرعنا نعمل ، وكل منّا يحاول أن يثبت للآخر صحة وجهات نظره . طبيعي أننا لـــم نثبت شيئاً ، وحين انتهينا مـــــن العمل اضطجعنا متعبيـــن منفعلين .

مدّد كونوفالوف نفسه على الأرض وأغفى سريعاً . واستلقيت أنا على بعض أكياس الطحين ورحت أنظر من عل الى هيئته الجبارة الملتحية ، المستلقية أشبه ببطل أسطوري على حصيرة قريبة من أحد المعاجن . كانت تفوح رائحة خبز حار ، وعجين حامض ، وأضاءت الدنيا تدريجياً ، وأطلت من وراء زجاج النافذة المغطاة بالدقيق سماء رمادية . وصرصرت عربة وهي تمرُّ ، ونفخ راع في بوقه يجمع القطيع .

شخر كونوفالوف . وحاولت ، وأنا أراقب صدره العريض يرتفع وينخفض ، أن أفكر في وسائل سريعة تحوله إلى معتقدي . ولكنني غفوت قبل أن أنجح في ذلك .

نهضنا في الصباح ، وخلطنا الخميرة ، واغتسلنا ، وجلسنا على المعجن نحتسي الشاي .

استفسر كونوفالوف :

– ألديك كتب أُخرى ؟

– نعم .

– هل تقرؤها لي ؟

– حسناً .

– رائع . أنظر هنا ، سأتابع العمل طوال شهر ، وأقبض أجري من المعلم ، وأعطي لك نصفه .

– لماذا ؟

– لتشتري كتباً . اشتر ما يطيب لك ، واشتر لي . . . فلنقل : كتابين . . . عن الفلاحين . عن أناس من أمثال بيلا وسيسويكا . على أن يكون في الكتابين شيء من الإحساس ، وليس مجرد الضحك . بعض الكتب لا تعدو أن

تكون لغواً . خذ مثلا «بانفيلكا وفيلاتكا» – هراء ، رغم أن هنالك صورة على الغلاف . أو بوشيخونيون وأساطير أخرى . أنا لا أحب هذا الهراء . لم أكن أعرف أن هنالك كتباً مثل كتابك .

– أتريدني أن اقرأ لك شيئاً عن ستينكا رازين ؟

– ستينكا ؟ هل هو جيد ؟

– هو رائع .

– فلنحصلنّ عليه !

وهكذا بدأت اقرأ له «انتفاضة ستيبان رازين» لكوستوماروف . في البداية لم ترق لمستمعي الملتحي هذه الدراسة الموهوبة ، الشبيهة بملحمة شعرية .

استوضح ، وهو يحملق في الكتاب :

– لماذا لا يوجد حوار هنا ؟

وفيما أنا أشرح له ذلك حاول أن يخفي تثاؤبه . وأشعره ذلك بالخجل ، فقال وقد أحسّ بالذنب :

– إمض في قراءتك ! لا تلق إليّ بالاً .

وبمقدار ما كان المؤرخ يرسم ، بريشة الفنان وموهبته ، صورة ستيبان رازين ، ويهب «ذلك الأمير على أحرار الفولغا» من صفحات الكتاب ، كان كونوفالوف يخضع لانبعاث جديد . كان حتى ذلك الحين يعاني من الضجر واللامبالاة والنعاس الذي يراوده ، ولكنه شرع ينمو أمامي بصورة تدريجية ودون أن ألحظ ذلك على صورة جديدة تثير الدهشة . وراحت ذراعاه ، من حيث هو جالس على معجن قبالتي ، تطوقان ركبتيه ، ويضع فوقهما ذقنه حتى غطت

لحيته ساقيه ، وراح يلتهمني بعينيه الملتهبتين المطلتين من تحت حاجبيه المتجهمين . ولم يبق فيه شيء من آثار تلك السذاجة الصبيانية التي كان يدهشني بها ، بل إن البساطة ، والنعومة النسوية المتوافقة مع عينيه الزرقاوين اللطيفتين – الداكنتين المتقلصتين الآن – اختفت جميعاً . وكان في جسده شيء مضطرم ، شيء يماثل الأسد ، غدا من بَعْدُ كتلة من العضلات المتوترة . فتوقفت عن القراءة .

نبر في هدوء ، لكن في مهابة :

– استمرّ .

– ما بالك ؟

كرّر قائلاً ، وكان في صوته مزيج من الانفعال :

– اقرأ !

تابعت القراءة ، ورحت أرى وأنا أشخص إليه بين فينة وأخرى أنه يزداد انفعالاً أكثر فأكثر . انبعث منه شيء – نوع من ضباب حار – استفزني ، بل وأثملني . وأخيراً وصلت الى الموضع الذي أسروا فيه ستيبان .

صاح كونوفالوف :

– لقد أسروه إذن !

كانت صيحته عامرة بالألم ، والغضب ، والاستياء .

انبثق العرق في جبهته ، واتسعت بصورة غريبة . وثب عن المعجن وانتصب واقفاً أمامي ، طويل القامة مرتعش الاوصال .

قال في صوت عجول ، وهو يضع يده على كتفي :

– انتظر ! كفّ عن القراءة . . . أخبرني بما سيحدث .

كلا ، لا تخبرني . هـــل سيقتلونه ؟ تابع قراءتك ، يـــا مكسيم ، عجّل !

يمكن أن يظن المرء أن كونوفالوف هو شقيق رازين ، وليس فرولكا . وبدا أن اواصر مـــن الدم لم يبردها مرور ثلاثة قرون تربط هذا المتشرد برازين . كـــان يعاني بقوى جسده الحي القوي ، وبعاطفة الروح التواقة إلى «شيء ترسغ عليه قدميها» ، يعاني الألم والغضب اللذين عاناهما ذلـــك الثائر المحب للحرية المأسور قبل ثلاثة قرون .

– استرسل في قراءتك بحقّ المسيح !

استرسلت في قراءتي وقد أثارنـــي الانفعال ، وشعرت بخفقان قلبي ، وشاركـــت كونوفالوف الآلام التي تعرض ستيبان لها . وسرعان ما وصلنا إلى المكان الذي خضع فيه للتعذيب .

كزّ كونوفالوف على أسنانه ، وتوهجت عيناه الزرقاوان بالنار . استند على كتفي ، وعيناه عالقتان بصفحـة الكتاب . وارتفعت أنفاسه فوق أذني وأطارت شعري فأدخلتـــه في عينيّ . هززت رأسي الى الخلف كيما ادفع شعري عـــن جبهتي ، فرأى كونوفالوف ذلك ووضع كفه الثقيلة عليه .

«في هذه اللحظة كزّ رازين على اسنانه بقسوة حتـــى سقطت على الارض مع دمائه . . .»

صرخ كونوفالوف ، وهـــو يختطف الكتاب من بين يديّ ويقذف به على الأرض بكل قوته :

– هذا يكفي ! إرمينّ به إلى الجحيم !

ورمى نفسه وراء الكتاب .
بكى ، ولما كان الدمع يخجله فقد جعل يهدر لإخفاء نحيبه . أخفى رأسه بين ركبتيه وبكى ، ماسحاً عينيه بسرواله القطني القذر .
اقتعدتُ المعجن أمامه ، عاجزاً عن ايجاد الكلمات التي تعزّيه .
قال كونوفالوف من حيث قبع على الأرض :
– مكسيم ! هذا مخيف ! بيلا . . . سيسويكا . . . والآن ستيبان . يا للمصير ! فكّر في أن تبصق أسنانك على هذا الغرار !
وارتعش كيانه بأسره .
صعقه بشكل خاص بصق ستيبان أسنانه ، فظلّ يردّد ذلك بين حين وحين ، وكتفاه ترتعشان في عصبية آن يأتي على ذكره .
كان رأسانا يضطربان بتأثير صورة التعذيب الإنساني الوحشية المرسومة أمامنا .
استحثني كونوفالوف ، وهو يلتقط الكتاب ويناولنيه :
– اقرأه لي مرة أخرى ، هلا فعلت ذلك ؟ خذ ، أرني أين كُتِبَ عن الأسنان ؟
أشرت إلى الموضع فثبّت عينيه على السطور .
– أهذا ما هو مكتوب حقاً : «بصق أسنانه مع دمائه» ؟ الحروف هنا مثلها في اي موضع آخر . يا الله ! لكم آذاه ذلك من دون ريب ! ما؟ حتى أسنانه . . . وماذا سيكون

بعد ذلك ؟ هل يقتلونه ؟ شكراً لله أنهم سيقتلونه آخر المطاف !

عبَّر عن هذه الفرحة بحرارة متوترة ، في رضىً انعكست صورته في مقلتيه ، أرعشتها هذه المشاركة في العذاب المترجية الموت للمعذَّب ستيبان .

قضينا بقية ذلك اليوم في غشاوة ضبابية ، لا حديث لنا إلا عن ستيبان مسترجعين حوادث حياته ، والأغنيات التي كتبت عنه ، والعذابات التي تعرَّض لها . وأنشد كونوفالوف مرتين إحدى الاغنيات بصوته الجهير الثري ، ولكنه قطع تلك الأغنية في منتصفها في تينك المرتين .

منذ ذلك اليوم توطدت صداقتنا أكثر وأكثر .

قرأت له «انتفاضة ستيبان رازين» و«تاراس بولبا» و«المساكين» عدة مرات . وتأثر مستمعي كثيراً بقصة «تاراس بولبا» ، ولكن هذا التأثر لم يستطع أن يطغى على الأنطباع العميق الذي خلفه فيه كتاب كوستوماروف . لم يتمكن من فهم ماكار ديفوشكين وفاريا . وجد اللغة التي كتب بها ماكار رسائله تبعث على الضحك ، ووقف موقف التشكك من فاريا .

– أنظر وحسب كيف هي تغازل ذلك الشيخ ! يا لمكرها ! – تغازل «فزَّاعة» مثله . كفَّ عن إضاعة الوقت على هذا الهراء ، يا مكسيم ! فماذا أنت واجد فيه ؟ هو يكتب إليها ، وهي تكتب إليه – فلا يفعلان اكثر من إتلاف

الورق . فليذهبا إلى جهنم ! ليس ثمة ما يثير الضحك ، ولا ما يبعث على الأسى . ففيم كُتِبَ هذا الشيء ؟

قلت له إن ذلك شبيه بقصة أهل بودليبوفتسيين ، فلم يوافقني في الرأى .

– بيلا وسيسويكا . . . ذانك طراز آخر ! هما إنسانان حقيقيان ، يعيشان ويصارعان . أما هذان فمن هما ؟ جلّ ما يفعلان هو كتابة الرسائل . وهذا يضجر ! همـــا ليسا من البشر ، هما مصنوعان صنعاً . خذ تاراس وستينكا – يـــا الله ، لو أنهما عاشا معاً أفما كانا يقترفان الأعاجيب ؟ كانا يخلقان في بيلا وسيسويكا حياة جديدة !

لم يكن يحسن فهم الزمن ، ويتراءى له أن جميع أبطاله المفضلين عاشوا في وقـــت واحد ، فاثنان منهم يعيشان في «أوسوليه» ، وواحد مع الاوكرانيين ، والرابع على الفولغا . ووجدت صعوبة في إقناعه أنه لو كان سيسويكا وبيلا أبحرا على الفولغا هبوطاً لما التقيا ستيبان ، ولـــو كان ستيبان وصل إلى قوازق الدون وانضم إلى الاوكرانيين لما عثر عـــلى بولبا هنالك .

خابت آمال كونوفالوف لدن سماعه الحقيقة . رويت له شيئاً عن انتفاضة بوغاتشوف ، راغباً في معرفة نظرته إليه . فلم يرق له على الاطلاق .

– غشاش قذر ، هذه حقيقته ! اختبأ وراء اسم القيصر لإثارة الناس . . . ما هو عدد الرجال الذين قتلوا بسببه ؟ ستيبان ؟ لقد كان شيئاً مختلفاً ! أما بوغاتشوف فهو حقير لا أكثر . ألديك كتب أخـــرى شبيهة بكتاب ستيبان ؟

إبحث . . . أما ماكار الأبله فأرمه ، فهو لا يثير الاهتمام . لأحبُّ أن أصغي إليك تتحدث مـــرة ثانية عن كيف أعدموا ستيبان . . .

في أيام العطل كنا نذهب ، كونوفالوف وأنا ، إلى المروج فيما وراء النهر . وكنا نحمل معنا قليلاً من الفودكا والخبز وكتاباً ، وننطلق في الصباح إلى «الهواء الطلق» كما يسمي كونوفالوف هاتيك النزهات .

وكان يروق لنا بصورة خاصة أن نزور «معمل الزجاج» . ذلك كان الاسم الذى أطلق ، لسبب ما ، على بناء ينتصب في حقل مكشوف غير بعيـــد عن المدينة . كان مبنياً من الحجر ، من ثلاثة طوابق ، له سقف منهار ونوافذ محطمة ، وقبو مشبع بمياه كريهة الرائحة طوال الصيف . كان يشمخ في الحقل متداعي الجنبات ، رمادياً ضارباً إلى الخضرة ، طلعته بالية ، يديم النظر إلى المدينة من المحاجر المظلمـة لنوافذه المشوّهة ، أشبه ما يكون بكسيح محتضر طردته المدينة . وكانت فيضانات الربيع تغسله عاماً بعد عام ، وكان مكسواً بقشرة عفنة خضراء من السقف حتى اساسه ، فيما بقـــي شامخاً ، تحدق به بحيرات من المياه تحميـــه من زيارات الشرطة المتكررة . كان ، رغم انهدام سقفه ، يؤمن ملجـــأ طيباً لجميع صنوف المتشردين الغامضين .

كان هنالك على الدوام رهـــط منهم ، ثيابهم مهلهلة ، انصاف جياع ، خائفون من ضوء الشمس ، يعيشون كالبوم بين الأطلال .وكنت وكونوفالوف على الدوام ضيفين يُرحَّب بنا بينهم ، فقد كنا اثناء مغادرتنا المخبز نحمل مع كل منـــا

رغيفاً من الخبز الابيض ونشتري نصف غالون من الفودكا وملء صينية كاملة من «الاطعمة الساخنة» – كبدة ، ورئة ، وقلب ، وكرشة . وبروبلين أو ثلاثة روبلات نؤمن لذلك «الشعب الزجاجي» ، كما يسميه كونوفالوف ، وليمة فاخرة .

لقاء هذه الولائم كانوا يروون لنا قصصاً امتزجت بها الحقيقة المروّعة المثيرة للنفس ، بصورة وهمية خيالية ، بالكذب الساذج الجليّ . وكانت كل قصة أشبه بقطعة من مخرمات سوداء (الحقيقة) مغروزة بألوان زاهية (الكذب) . وكانت تلك المخرمات تلف نفسها حول القلب والدماغ ، وتضغط عليها بأشكالها القاسية المتنوعة . وكان أفراد «الشعب الزجاجي» يحبوننا على طريقتهم . وما أكثر ما كنت أقرأ لهم ، فيعيرونني أسماعهم في انتباه واستغراق .

كنت أذهل للمعرفة العميقة بالحياة التى يبديها أولئك الناس الذين قذفت بهم الحياة خارج نطاقها ، فأرهف اذنيَّ إلى اقاصيصهم في نهم . وكان كونوفالوف يصغي إليهم بدوره ، ولكنه يفعل ذلك كيما يعترض على وجهات نظرهم الفلسفية ويجرني الى النقاش .

حين راح واحد من تلك المخلوقات ، ثيابه تكاد أن تكون خيالية وملامح وجهه تعبّر عن مزاجيته القائلة إن المرء يفعل حسناً اذا ابتعد عنه ، يروي قصة حياته ودماره (وقد غدت من دون ريب مقالة للدفاع عن الذات والتبرير الشخصي) ، فقد كان كونوفالوف يبتسم مغرقاً في التفكير ويهز رأسه . وكانوا هم يلحظون ذلك .

ويسأل ذلك الذي سرد وقائع القصة :

– ألا تصدقنى ، يا ساشا ؟

– أصدقك من دون ريب . ينبغي أن تصدق ما يقوله المرء ! ولو كنت تعرف أنه يكذب صدّقه ، أصغ اليه وحاول أن تستشف لماذا يكذب . أحياناً تدلك أكاذيب المرء عن ماهيته أكثر مما تدلك الحقيقة . وما هي الحقيقة التي يمكن ان نقولها عن حيواتنا ؟ ليس ثمة ما هو أشد ألماً منها ! وهكذا نحن نغطي ذلك برواية الاكاذيب . ألست على صواب ؟

فيوافق محادثه قائلاً :

– أنت على صواب . لكن فيم تهزُّ رأسك ؟

– فيم ؟ لأنك لا تنظر إلى الامور نظرة صحيحة . أنت تتحدث كما لو لم تكن أنت نفسك من صنع نفسك ، بل الشرطة واناس عابرون من صنعوها . فاين كنت أنت إذن في هذا الوقت ؟ لماذا لم تقاومهم ؟ نحن دائماً نتشكى من الناس الآخرين ، ولكننا رجال أيضاً . ألسنا رجالاً ؟ وهكذا يمكن ان نكون عرضة للشكوى بدورنا أيضاً اذن . وإذا كان ثمة من يقف حجر عثرة في سبيلنا ، فقد نكون نحن حجر عثرة في سبيل أشخاص آخرين ، أليس كذلك ؟ كيف تفسّر هذا إذن ؟

– يجب أن تبنى الحياة بحيث يكون هنالك أمكنة رحبة لجميع الناس ولا يكون أحد حجر عثرة في سبيل سواه ، – يقولون لكونوفالوف .

ويسأل كونوفالوف متحدياً :

– ومن يبنيها ؟

ويعجل في الجواب قبل ان يسبقه شخص آخر :

- نحن ! نحن أنفسنا ! لكن كيف نبنيها إذا لم نكن نعرف كيف نفعل ذلك ؟ إذا لم نكن نعرف كيف نجعل حياتنا الخاصة جديرة بالالتفات ؟ يبدو أنه ليس هنالك من يمكن أن نلجأ اليه غير أنفسنا ، أما أنفسنا - حسناً ، فمعروف ماهية امثالنا تماماً .

اعترضوا ، وحاولوا أن يجدوا مبرراً لأنفسهم ، فظلّ هو يؤكد بإصرار على هذه الناحية : كل امرئ مسؤول عن الحال التي وصل إليها ، ولا يمكن أن يصب اللوم على سواه بالنسبة الى ما يحيق به من خيبة .

كان من الصعب أن تزحزحه عن رأيه ، كما كان من الصعب أن تقبل موقفه من الناس . فهم قد كانوا من جهة ، في تصوره ، قادرين تماماً على استصناع حياة يتمتع فيها الناس بالحرية ، وكانوا من جهة أخرى ضعافاً لا حول لهم عاجزين عن الإتيان بأي شيء فيما عدا التشكي من بعضهم بعضا .

كانت هذه المجادلات تبدأ في الغالب في منتصف النهار ، وتنتهي عند انتصاف الليل ، فنعود ، كونوفالوف وأنا ، من «الشعب الزجاجي» في عتمة الليل غارقين في الوحل حتى ركبنا .

ذات مرة كدنا أن نغرق في مستنقع ، وفي مرة أخرى ألقت الشرطة القبض علينا في إحدى غاراتها ، وأمضينا الليلة في المخفر مع حوالي عشرين شخصاً من سكان «معمل الزجاج» الذين أثاروا ريبة رجال الشرطة . لم تكن بنا رغبة في بعض

الأحايين للتفلسفَ ، فنروح معاً نتوغل في الحقول بعيداً على الضفة الأخرى من النهر إلى أن نبلغ بعض البحيرات الصغيرة العامرة بأسماك صغيرة جاء بها النهر في فترة الفيضانات الربيعية . ولمجرد الاستمتاع بجمال ذلك المشهد فقد كنا نضرم ناراً في الأدغال المحاذية لشاطئ إحدى هذه البحيرات ، ونقرأ أو نتحدث عن الحياة . وكان كونوفالوف يقول أحياناً ، وقد استبدت به نزوة غريبة :

- مكسيم ، دعنا لا نفعل شيئاً إلا التطلع إلى السماء !

فنستلقي على ظهرينا ، ونشخص إلى الغور الأزرق العميق فوقنا . في البداية كنا نسمع حفيف الأوراق وخرخرة المياه . ونستشعر الأرض تحتنا . وبعد ذلك أخذت السماء الزرقاء تشدنا إليها تدريجياً ، فنفقد كل إحساس بالوجود ، ونروح نسبح ، وكأننا رفعنا عن الأرض ، في الرحابة السماوية ونحن في حال من التأمل الروحاني الناعس نخشى أن نكدّره بكلمة أو حركة منا .

هكذا كنا نستلقي ساعات بطولها ، ثم نعود إلى العمل نشيطين متجددين روحاً وجسداً .

كان كونوفالوف يحب الطبيعة حباً عميقاً أخرس ، وحيثما يتواجد في الحقول أو على ضفة النهر فهو يستغرق في حال رقيقة وادعة تزيد من شبهه بالطفل . وفي بعض الأحيان يقول وهو يرسل زفرة عميقة ويرنو إلى السماء :

- آه ، هذا ما أتمناه !

وكان في ذلك الهتاف المفرد تأمل وشعور أكثر مما في الصور البلاغية للكثير من الشعراء ، وبخاصة أولئك الذين

تأسرهم الرغبة في أن يظهروا كأناس مرهفي الإحساس أكثر من الافتتان فعلياً بجمال الطبيعة . كان الشعر ، مثله مثـل أي شيء آخر ، يفقد بساطتـــه القدسيـــة حين يغدو مجرد حرفة .

. . . على هذا الغرار انقضى شهران يوماً بعد يوم . تحدثت وكونوفالوف عن أمور كثيرة ، وقرأنا أشياء كثيرة . قرأت له «انتفاضة ستيبان رازيـــن» مرات ومرات حتى صار في مقدوره أن يروي القصة بلغته الخاصة ، صفحة صفحة ، من بدايتها إلى نهايتها . وصار الكتاب عنده أشبـــه بأسطورة سحرية فتانة عند طفل صغير ينفعل سريعــاً . وأطلق أسماء على الادوات التي يستخدمها في عمله مشتقاة من أسماء أبطال الكتاب . وحين سقطت مرة قصعة عن الرف وتحطمت هتف غاضباً :

– عليك اللعنة ، أيها الكابتن بروزوروفسكي !

واذا تأخر العجين في النضوج فهـــو يناديه «فرولكا» ؛ والخميرة أسميت «افكار ستيبان» ؛ في حيـــن كان ستيبان نفسه مرادفاً لكل ما هو فريد ، عظيم ، سيئ الحظ ، خدينه الفشل .

طوال هاتيك الفترة تقريباً لم يرد لكابيتولينا أي ذكر ، وهي التي قرأت رسالتها ورددت عليها في اليوم الذي التقيت كونوفالوف فيه .

أرسل إليها كونوفالوف نقوداً عن طريق فيليب ، وطلب إليه أن يكفلها لدى الشرطة ، إلا أنه لم يأت أي جواب منها أو من فيليب .

وفجأة ذات مساء ، وكنا نهيىء العجين لوضعه في الفرن ، انفتح باب المخبز وانحدر إلينا من عتمة رواقه الرطب صوت نسوي عميق :

– أستميحكم العذر !

كان الصوت خجولاً مداعباً في وقت واحد .

استفسرتُ :

– من تريدين ؟

ترك كونوفالوف الجاروف ينزل على الأرض قرب قدميه وجعل يشد لحيته في حيرة .

– هل الخباز كونوفالوف يعمل هنا ؟

هذه هي الآن قد وقفت عند الوصيد ، وسقط ضوء المصباح المعلّق على رأسها المشدود بشال صوفي أبيض ، من بين طياته برز وجه مدور جميل أفطس الانف ، له وجنتان مدورتان ترتسم عليهما غمازتان حين تنشق شفتاها الممتلئتان الحمراوان عن ابتسامة .

أجبت قائلاً :

– إنه يعمل هنا .

هتف كونوفالوف مغتبطاً ، وقد ترك الجاروف ووثب ناحيتها بخطوات واسعة :

– يعمل هنا ، هنا !

لهثت صارخة :

– ساشا !

تعانقا ، وقد انحنى كونوفالوف انحناءة كبيرة .

– كيف حالك ؟ متى وصلت إلى هنا ؟ يا الله ! أنت

طليقة ؟ رائع ! هل ترين ، ماذا قلت لك ؟ أمامك الآن ممر نظيف ! فأمشي عليه في جرأة ودونما خوف من أي شيء !

هذا ما ثرثر به كونوفالوف في عجلة ، وهو لا يبرح واقفاً عند الوصيد وذراعاه ملتفتان حول كتفي الفتاة وخصرها .

– ستتابع العمل وحدك اليوم ، يا مكسيم ، في حين أعنى أنا بالسيدة . أين عزمت على الإقامة ، يا كابا ؟

– هنا ، معك .

– هنا ؟ لا تستطيعين الإقامة هنا . نحن نخبز خبزاً هنا ، وفضلاً عن ذلك معلمنا رجل متزمت . ينبغي أن نؤمن لك مكاناً تأوين اليه الليلة في غير هذا المكان . ربما في فندق . تعالي !

وخرجا . وبقيت أخبز الخبز ، ولم أتوقع عودة كونوفالوف قبيل الصباح . ولكم كانت دهشتي عظيمة عندما رأيته يعود بعيد ثلاث ساعات . وتفاقمت دهشتي حين نظرت إلى وجهه فألفيته متعباً كئيباً بدلاً من أن يشرق بنور السعادة كما أمّلت .

استوضحته ، متسائلاً عما أطاح بصديقي في حال لا تتفق والأحداث الجارية :

– ما الأمر ؟

اجاب في جهمة :

– لا شيء .

وبعدما صمت قليلاً بصق بحدة .

ألححتُ عليه :

– لكن ، بعدما حدث . . .

قال في صوت موهون ، وهو يتمدد على المعجن :

– ما علاقتك بهذا الأمر ؟ على أية حال ، على أية حال . . . على أية حال هي امرأة .

لقيت مشقة كبيرة في الحصول على إيضاح منه ، وقد فعل ذلك أخيراً فعالنني بالكلمات التالية تقريباً :

– امرأة ، أقول لك . ولو لم أكن مغفلاً ملعوناً لما حدث هذا كله . أتفهم ؟ وأنت تظل تلحُ قائلاً إن النساء مخلوقات بشرية أيضاً . لا ريبة أنهن يمشين على أقدامهن الخلفية ، ولا يمضغن الأعشاب ، ويعرفن كيف يتحدثن ويضحكن ، ومع هذا فلسن جديرات بنا . لماذا ؟ لست أدري . كلّ ما أعرف هو أنهن لسن بنا جديرات . وهذا كل شيء . خذ كابيتولينا هذه ، وإليك منوالها في الحياة ، فهي تقول : «أريد أن أعيش معك مثل زوجة لك . أريد أن أتبعك مثل كلبتك» . هل سمعت بمثل هذه الحماقة ؟ وأقول لها : «تعالي ، يا حبيبة القلب ، فأنت تهرفين . احكمي بنفسك – كيف يمكن أن تعيشي معي ؟ أنا أولاً سكّير ، وثانياً لا أملك سقفاً يؤويني ، وثالثاً أنا جواب آفاق لا أستطيع الاقامة في مكان واحد فترة طويلة . . .» وهكذا دواليك ، معطياً أسباباً كثيرة . ولكنها راحت تقول : «لا يهمني انك سكّير لأن جميع العمال يسكرون ، ومع ذلك فلهم زوجات . أما بالنسبة إلى المأوى فعندما تأخذ امرأة تحت جناحك تجد سقفاً يؤويك ، وعندها تكفُ عن التطواف هنا وهناك» . وأقول : «كلا ، يا كابا . لا أرى رأيك ، لأني أعرف أني لا أصلح لهذا النمط من الحياة ولن أصلح له مطلقاً» . ولكنها

تقول : «اذن سألقي بنفسي الى النهر !» فأقول : «أيتهـــا الحمقاء الصغيرة !» وعندها تشتمني : «أيها المشاغب ، أيها المحتال ، تخدعني على هذا الغرار ، أيها القملة الطويلـــة الساقين !» وراحت تنقُ وتنقُ حتى جعلتنى أتأهب للهرب . وعندها انخرطت تبكي . تبكي وتقرعني : «لماذا تركتني أحضر الى هنا اذا لم تكن تريدني ؟ لماذا تركتني أبرح ذلك المكان ؟ وماذا افعل بنفسي الآن ؟ أيها الأحمق المأفون !» . . . حسنا ، ماذا أفعل معها الآن ؟ .

سألتُ :

– لماذا اخرجتها من هناك حقاً ؟

– لماذا ؟ أنت إنسان عجيب ! لأني شعرت بالشفقـــة عليها ! كل إنسان يشعر بالشفقة على إنسان يراه يغرق في الأوحال . أما بالنسبة إلى ربط نفسي بزواج وما يتبع ذلك – فلن يقعنّ شيء من هذا أبداً . ابداً لن أوافق على شيء من هذا القبيل . فأي صنف من أصناف رجال العائلات أنا ؟ لو كنت أستطيع القبول بذلك كنت تزوجت منذ زمن بعيد . يا للسانحات التي أتيحت لي ! مع مهر وكل شيء . . . لكن ، كيف أستطيع أن أفعل هذا الشيء إذا كان فوق طاقتي ؟ إنها تبكي طوال الوقت ، وهذا أمر سيىء بكل تأكيد . لكن ، ماذا عليّ أن أعمل ؟ لا أقدر !

وهزّ رأسه تأكيداً لجملته الحزينة «لا أقدر» ، ونهض عن المعجن ، ونفش لحيته بكلتا يديه ، وهب يذرع أرض المخبز مطرق الرأس ، باصقـــاً للتعبير عن اشمئزازه بين وقت وآخر .

قال ، وفي صوته توسل وارتباك :

- مكسيم ! لعلّك تذهب إليها وتخبرها عن ماهية الأمور ، ما رأيك ؟ فأنت فتى طيب . إذهب ! يا أخي !

- وماذا أقول لها ؟

- قل لها الحقيقة بأكملها . قل لها إني لا أستطيع أن أفعل ذلك . والأمر ليس بيدي . أو قل لها - قل اني مصاب بمرض خبيث .

فضحكتُ :

- ولكن هذا غير صحيح .

- كلا ، ولكنه عذر مقبول ، أليس كذلك ؟ لعنة الله على ذلك كله ، يا للفوضى ! ماذا تراني أفعل بزوجة ؟

لوّح ذراعيه في حركة يائسة توضح أنه في غير حاجة إلى زوجة . وعلى الرغم من السخرية التي مازجت أسلوبه في عرض القضية فقد حملني جانبها المأسوي على التساؤل عما سيحدث للفتاة . وبقي هو يراوح ويغادي ويتحدث كأنما مع نفسه :

- وأنا لم أعد أحبها - على الاطلاق ! فهي تظل تشدني ، تمتصني وتبتلعني مثل مستنقع . وتحسب أنها عثرت لنفسها على زوج . هَه ! إنها ليست ذكية ، ولكنها ماكرة .

لا ريبة أن ما ينطق على لسانه هو طبيعة المتشرد والشعور بالنزوع القوي الى الحرية التي بدت مهددة الآن .

قال متباهياً :

- لكنني لن أقع في شباك مثل هذه الدودة ! فأنا سمكة كبيرة ، وأنا سأجعلها تعرف ، و. . . و. . . لم لا أفعل ذلك ؟

ووقف في وسط المخبز واستغرق في التفكير ، وابتسامة تتراقص على شفتيه . وفيما أنا أراقب وجهه الذي انفعل حيوية على حين غرة ، حاولت أن أخمن علامَ استقرّ رأيه .

– مكسيم ! فلنرحلنّ إلى كوبان ؟!

لم أكن أتوقع منه هذا . كنت أرعى في نفسي بعض المقاصد الأدبية التعليمية التي ركّزتها عليه . رجوت أن أعلمه القراءة والكتابة ، وأن ألقّنه جميع المعارف التي حصلت عليها حتى ذلك الحين . وقد وعدني أن يقيم الصيف هنا ، وهو أمر يخفف من عبء مهمتي ، وهذا هو الآن . . .

قلت في ارتباك :

– انت تهرف !

فهتف فجأة :

– وماذا ينبغي أن أفعل إذن ؟

حاولت أن أفهمه أن مقاصد كابيتولينا لم تكن جدية بالصورة التي يخالها ، وأنه ينبغي عليه أن ينتظر ويرى ما سيحدث .

وبدا أننا لم نضطر إلى الانتظار طويلاً .

كنا جالسين على الأرض أمام الفرن ، وقد أدرنا ظهرينا للنافذة . وكان الوقت يقارب منتصف الليل ، وقد انقضت على عودة كونوفالوف ساعة ونصف أو ساعتان . وعلى حين فجأة رنّ من ورائنا صدى تحطم زجاج ، وتدحرجت على الأرض حجر كبير . وثبنا في رعب وركضنا إلى النافذة .

زعق صوت من الطريق :

– أخطأته ! لم أحسن التصويب . أووووه ، لو أن . . .

وزمجر صوت خفيض عميق :

– تعال . تعال . سأصفي الحساب معه فيما بعد !

وتهاوت من النافذة المحطمة ضحكة هستيرية سكرى ، ضحكة تموج يأساً ، حادة رنانة تحطم الأعصاب .

قال كونوفالوف في حزن :

– إنها هي !

لم استطع أن أميّز غير ساقين تنزلقان في فجوة النافذة . بقيتا هنالك ، تتأرجحان ، والعقبان يضربان الجدار القرميدي كأنما تبحثان عن مستقرّ لهما .

همهم الرجل :

– لنذهب !

– دعني ! لا تشدني ! دعني أنفض ما في نفسي ! وداعاً ، يا ساشا ! وداعاً . . .

ورنّ بعد ذلك سباب فاحش .

اقتربت من النافذة كيما أرى كابيتولينا . كانت محنية الظهر معتمدة على الرصيف ، محاولة رؤية ما في داخل المخبز ، وشعرها المسترسل يسترخي على صدرها وكتفيها . وكان شالها الأبيض منزلقاً عن رأسها ، وأعلى ثوبها ممزّق . كانت سكرى . تترنّح من جانب إلى آخر ، تفوق ، وتشتم ، وتصرخ بصورة هستيرية ، وترتعش ، ممزقة الثياب ، متضرجة الوجه ، مبللة بالدموع .

وكان رجل طويل ينحني عليها .

ظلّ يصيح واضعاً إحدى يديه على كتفها والأخرى على جدار المنزل :

- تعالي !

- ساشا ! لقد دمرتني ، فاذكر هذا ! لعنة الله عليك ، أيها الشيطان الأحمر الرأس ! أتمنى من اللـــه لو أنك لم تطلّ على الوجود . لقد اعتمدتُ عليك ، فبصقتَ في وجهي . حسناً ، لسوف نسوّي حسابنا تماماً ! أنت تختبئ مني ، أليس كذلك ؟ أنت خجلان من نفسك ، أيها الوحش الذي وجهه وجه خنزير ! ساشا . . . حبيبي . . .

قال كونوفالوف في صوت خشن وهو يركع على المعجن أمام النافذة :

- أنا لا أختبئ من ايّ كان ! أنا لا أختبئ . ولا ينبغي أن تقولي مثل هذا القول . أردت أن أساعدك . وحسبت أنني فعلت خيراً . ولكنك أفسدت كل شيء . . .

- ساشا ! هل تستطيع أن تقتلني ؟

- لماذا سكرت ؟ من يعلم ما يمكن أن يحمل الغد ؟

- ساشا ! ساشا ! أغرقني !

فنبر صوت الرجل :

- كفى ! تعالي !

- أيها البغيض ! لماذا تظاهرت أنك كريم ؟

- ما هذه الضجة ؟ من هؤلاء الناس ؟

بترت صافرة الخفير الليلي ذلك الحديث ، وأغرقته ، وصمتت .

- لماذا وثقت بك ، أيها الابليس ؟

عند النافذة ارتفع نحيب الفتاة .

ارتجفت ركبتاها فجأة ، وارتفعتا سريعاً ، واختفتـــا في الظلمة . وارتفعت أصوات صمّاء وأصداء عراك . . .

أعولت الفتاة في نبرة قانطة :

– لا أريد الذهاب إلى مخفر الشرطة ! سا . . شد . . .ـا !

وتردد وقع أقدام ثقيلة على الرصيف .

صافرات ، وخوار مكتوم ، وعويل . . .

– سا . . . شد . . . . ـا ! ساشا . . . عزيزي !

بدا كما لو أن إنساناً يتعرض لعذاب وحشي فيما ابتعدت هذه الأمور كلها في الظلمة ، وخفتت ، وخفتت ، وأخيراً تلاشت مثل كابوس .

صعقتُ وكونوفالوف لما حدث بصورة سريعة للغاية ، وجعلنا نحدّق في الظلمة ، عاجزين عن التخلص من العويل ، والنشيج ، واللعنات ، والزمجرة ، وصيحات الشرطة والانات المؤلمة ، وفيما أنا اتذكر بعض هاتيك الأصوات لم أَقْوَ على تصديق أن ذلك كله حدث فعلاً – فلقد انتهت تلك المأساة المختصرة ، لكن الثقيلة ، بسرعة مذهلة .

قال كونوفالوف في ايجاز وبساطة ، وهو يصغي من جديد إلى سكون الليلة المظلمة التى تطلُّ علينا من النافذة في مهابة هادئة :

– النهاية !

واردف قائلاً بعد صمت قصير بدهشة ، وهو لا يبرح راكعاً على المعجن مسنداً ذراعيه على حافة النافذة :

– تلك الأقوال التي صرفتْها بحقي ! لقد وقعتُ بين

يدي الشرطة . سكرى . مع ذلك السكّير . كنت اعرف ان الامر لن يطول بها .

وصعّد زفرة حرىّ ، ونهض عن المعجن ، وجلس على كيس طحين ، وأمسك رأسه بيديه ، وراح يتمايل من جانب إلى آخر .

قال في صوت مهموس :

– قل لي ، يا مكسيم : ماذا حدث ؟ وماذا يجب عليّ أن أفعل ؟

قلت له . قلت : قبل كل شيء يجب أن يفهم المرء ماذا كان يريد ، وأن يرى أين تقوده خطواته قبل أن يخطـــو الخطوة الأولى . وهو لم يكن يفهم كل هذا ولم يكن يعرف ، ولذلك فهو الملوم على ما وقع . كنت غاضباً عليه . كلمة «تعالي» السكرى ، وعويل كابيتولينا وزمجرتها ، أمور لا تبرح تطن في اذنيّ . فلم أرحم رفيقي .

أصغي إليّ مطرقاً برأسه . وحين انتهيت ، رفع رأسه فرأيت أنه حائر مذعور .

هتف قائلاً :

– هذا ما حصـــل إذن ! ماذا سيحدث بعـــده ؟ كيف اتصرّف ؟ ماذا أفعل بها ؟

كان في نبرة كلامه كثير من الصراحة الطفولية والحيرة العاجزة ، في الأعتراف بذنبه أمام هذه الآنسة ، حتى رثيت له في الحال وأسفت لأني خاطبته بمثل تلك القسوة .

سألني في ندم :

– لماذا أحضرتها إلى هنا ؟ اللعنة على ذلك كله ! ماذا

تراها تفكر فيَّ الآن ؟ سأمضي الى مخفر الشرطة وأبذل جهدي لإطلاق سراحها . سأراها و . . . أفعـــــل المستحيـــــل . سأخبرها . . . بهذا الشيء أو ذاك . هل أذهب ؟

قلت إني أرى أن مقابلته اياها لن تجدي نفعاً كثيراً . ماذا يمكن أن يقول لها ؟ وفضلاً عن ذلك فهى سكرى وقد تكون استسلمت الى النوم .

وأصرَّ على الذهاب .

– سأذهب . حسناً . على الأقل أنا أتمنى أن أساعدها . أولئك الناس من هم بالنسبة اليها . سأذهب . وأنت تدبِّر الامور هنا . لن أتأخر كثيراً .

وضع قبعته على رأسه وخرج من المخبز ، وقد نسي أن ينتعل حذاءه المهترىء الذي يزهو به عادة .

أنجزت عملي وغفوت . وحين أبكرت في النهوض والقيت نظرة كالعادة إلى الزاوية التي ينام فيها كونوفالوف لم أعثر عليه .

كان الليل قد أسجف حين ظهر – منتفخاً ، أشعث ، على جبهته خطوط عميقة ، وفي عينيه الزرقاوين ظل أسود . لم ينظر إليَّ ، بل خطا صوب المعاجن ، وتفحص العمـــــل الذي أنجزت ، واستلقى على الأرض دون أن ينطق بحرف واحد .

استفسرت :

– هل رأيتها ؟

– لهذا السبب ذهبتَ ، أليس كذلك ؟

– حسناً ، ماذا حدث ؟

– لا شيء .

كان واضحاً أنه غير راغب في الحديث . لم أثقل عليه بأسئلتي ، وقد تأكد لي أن مزاجه لن يستمرّ طويلاً . وطوال اليوم التالي لم يتعدّ حديثه كلمات مقتضبة يتطلبها عملنا وهو يسير في المخبز مطرق الرأس ، وعيناه غائمتان مثلهما يوم آب اليّ امس . وكأنما انطفأ في داخله شيء ما . اشتغل فى بطء وملل ، وقد استغرقته أفكاره . وفي الليل ، حين وضعنا آخر وجبة من الخبز في الفرن وخشينا ان نستلقي فتحترق ، اتجه إليّ قائلاً :

– اقرأ لي شيئاً عن ستيبان .

شرعت أقرأ عليه وصف تعذيب ستيبان وأعدامه باعتبار أنه المقطع الذي أثار انفعالاتـــه أكثر من أي شيء آخر . استلقى متمدداً بظهره على الأرض ، محدقاً دون أن يطرف له جفن في أقواس السقف المغطاة بالسخام .

قال في نبرة متماهلة :

– وهكذا قضوا على إنسان . ورغم ذلك كان في الإمكان أن يعيش المرء حينذاك . المحرّر . على أقـــل تقدير كان هنالك ما يمكن أن تشغل به طاقة حيويتك . أما اليوم فكل شيء ساكن مسالم – مسالم جداً إذا نظرت إليه من الخارج . الكتب والثقافة وكـل شي آخر . لكن المرء يعيش دون أن يقف إلى جانبه أي كائن ، ودون أن يكون هنالك من يرعى شؤونه . محظور أن يخطئ ، ولكن اجتناب الخطأ مستحيل . ولذلك ثمة نظام خارجياً ، بينما في الداخل فوضى . ولا أحد يستطيع فهم الآخر .

سألته :

– كيف هي الأمور بينك وبين كابيتولينا ؟
فأجاب ، وهو يهتزُّ مرتعشاً :
– ماذا ؟ مع كابا ؟ انتهى كل شيء .
وهزَّ يده في عزم .
– لقد قطعت كل صلة إذن ؟
– لست أنا . هي فعلت ذلك .
– كيف ؟
– بكل بساطة . بقيتْ على ما كانت عليه ولم تقبل أن تتبدل . وهكذا رجعنا إلى ما كنا عليه . سوى أنها لم تعتد على السكر من قبل ، أما الآن فهي تسكر . أخرج أنت الخبز ، فلسوف أنام .

رانت السكينة على المخبز . وأرسل المصباح دخاناً ، وباتت المدخنة تطلق بين حين وآخر قرقعة ، فتقعقع قشرة الأرغفة الموضوعة على الرفوف بدورها . وكان الخفراء الليليون يقفون قريباً من نافذتنا يتحدثون ، وثمة صوت آخر ينسرق من النافذة بين حين وآخر – لعلَّه هو صوت قرقعة لوحة مخبزنا ، ولعلّه أنين شخص ما .

أخرجت الخبز واضطجعت ، غير أن النوم جافاني فما اغتمضت عيناي ، بل بقيت مستلقياً هنالك أصغي إلى أصوات الليل بعينين نصف مغمضتين . وفجأة لمحت كونوفالوف ينهض دون أن يندَّ عنه صوت ، ويمضي ناحية الرف ، ويأخذ كتاب كوستوماروف ، ويفتحه ، ويقربه من عينيه . كنت أرى بوضوح وجهه الغارق في التفكير ، وراقبته وهو يمرِّر إصبعه على السطور المطبوعة ، ويهز رأسه ،

ويقلب الصفحة ، ويتفحصها في عناية ، ثم يشخص إليّ . كان ثمة شيء غريب ، شيء بالغ الانقباض متسائل في وجهه الساهم . شخص اليّ طويلاً بوجه لم أر مثل نظرته من قبل قط .

لم أستطع تمالك فضولي ، فسألته ماذا يفعل .

اعتذر قائلا :

– حسبتك نائماً .

اقترب مني ، والكتاب في يده ، وجلس إلى جانبي ، وقال متلعثماً :

– أنظر . إليك ما أردت أن اسألك . أليس هنالك كتاب يعلم مبادئ الحياة ؟ يعلمك كيف تتصرّف ؟ ما أحب أن أعرفه هو ما يلي – ما هو الشيء الخطأ ، وما . . . هو الشيء الصواب . إنها تمرضني هذه التصرفات التي آتيها . تبدأ صائبة وتنتهي سيئة . خذ قضيتي مع كابا .

وأرسل نفساً عميقاً ، وتوسل قائلاً :

– أرجو أن تحاول العثور على مثل هذا الكتاب ، وتقرأه لي .

وصمت .

– مكسيم ! . .

– ماذا ؟

– تلك الأقوال التي صرفتْها كابيتولينا بحقي !

– ما بها ؟ ارمها من ذهنك . . .

– لا ريبة أن لا وزن لها الآن . لكن ، أخبرني ، هل تملك الحق في ذلك ؟

ذلك كان سؤالاً دقيقاً ، ولكنني أجبت بالايجاب بعد تفكير قصير .

قال كونوفالوف في جهمة :

– هذا ما يبان لي أيضاً . فهي تملك الحق في ذلك .

وجنح إلى الصمت .

تململ على الحصير المفروش على الأرض ، وهبّ على قدميه عدة مرات ، وأشعل لفافة ، وجلس قرب النافذة ، ثم اضطجع على الارض من جديد .

غفوت أخيراً . وحينما استيقظت لم أجده . رجع في العشية . بدا وكأنه مغطى بطبقة كثيفة من الغبار ، وفي عينيه الغائمتين تعبير متجمد . ألقى قبعته على الرف ، وزفر ، وجلس إلى جانبي .

– أين كنت ؟

– ذهبت لرؤية كابا .

– إذن ؟

– لقد انتهى كل شيء يا صاح . تماماً مثلما قلتُ !

قلت محاولاً التسرية عنه :

– لا يستطيعُ المرء فيما يبدو شيئاً حيال أمثالها من الناس . . .

وأضفت عدة كلمات عن قوة العادة ، وعن كل ما يتفق وتلك الحادثة . جلس كونوفالوف يحدق في الأرض ، وبقي معتصماً بالصمت حتى انتهيت من كلامي .

– آه ، كلا ، أنت على خطأ . ليس هذا من جذور القضية . يبدو انني رجل أشبه المرض . لا نصيب لي في

هذه الدنيا . فأنا أزفر سماً . ما أن اقترب من امرئ حتى يتسمَّم . ولا يمكن أن أحمل للناس غير الشقاء . إذا فكرنا في القضية فإلى من تراني حملت سعادة ؟ لا أحد ! وقد عرفت كثيرين من الناس في حياتي . ثمة شيء متعفن فيَّ . . .

– هراء ! . .

فأجاب ، وهو يومئ برأسه في قناعة :

– إنها الحقيقة ! . .

حاولت أن أثبت أنه على خطأ . ولكن ما قلت زاده قناعة أكثر بأنه غير أهل للحياة في هذا العالم . . .

لقد أصابه تبدل سريع جذري . صار فاتر الهمة ، شارد الذهن ، قليل الكلام ، منطوياً على نفسه . وفقد اهتمامه بالكتب وأضاع حماسته السابقة للعمل .

وفي أوقات الفراغ جعل يستلقي على الأرض ، ويحدق بثبات في السقف المقنطر . وغارت وجنتاه ، وفقدت عيناه بريقهما الصافي الطفولي .

استوضحته :

– ما بالك ، يا ساشا ؟

فأوضح لي :

– إنها بداية السكر . ما أسرع أن أبدأ أعبُّ الفودكا . . . جوفي يَخِزُني فكأنه يذبل . لقد حان الوقت . لولا ما حدث كان يمكن أن أقاوم مدة أطول . حسناً ، هذا ما كان . لكن ، كيف تفسر ذلك – لقد طاف في ذهني أني أصنع معروفاً مع إنسان ، فإذا الأمور تنعكس تماماً ! نحن في حاجة إلى قواعد تعلمنا كيف نتصرف ، يا صاح . أصحيح

أن صياغتها من الصعوبة بمكان ، هذه القواعد ، حتى إن جميع الناس ينصرفون التصرف ذاته ويفهمون بعضهم بعضاً ؟ كيف يتوقع الناس أن يعيشوا في مثل هذا البعد الذي يفصل بين واحدهم والآخر ؟ أفلا يملكون في رؤوسهم ادمغة توضح لهم وجوب اقامة نظام في الحياة ، ويعرف كل منهم ما ينبغي عليه ان يعرف ؟ يا الله !

استغرقته أفكاره عن ضرورة إحداث نظام للحياة فلم يلق انتباهاً الى ما كنت أقول . ولحظت أنه يتحاشاني . ذات يوم ، وفيما هو يسمعني أتحدث عن أفكاري حول إعادة صنع الحياة للمرة المائة اهتاج غضباً :

- إخرس . . . فلطالما سمعت منك هذا من قبل . جوهر القضية ليس في الحياة بل في الناس . الناس هم الشيء الأساسي ، أتفهم ؟ وهذا كل ما في الأمر . عطفاً على ما تقول ، ينبغي أن يبقى الناس على ما هم عليه حتى تتبدل الأمور . آه ، كلا . بدّل «الناس» أولاً ، وأرهم كيف يتصرفون ، وعندها يغدو كل شيء واضحاً ولا يقف أحد في وجه الآخر . هذا ما يتعين علينا أن نفعل للناس ، أن نعلّمهم سواء السبيل .

اعترضت ، فطاش صوابه وتجهمت طلعته . قال :

- اتركني وشأني !

خرج مرة في المساء ولم يرجع الى العمل في الليل وفي اليوم التالي . وجاء صاحب المخبز ، وقال في صوت يمازجه قلق ظاهر :

– ساشا سكران ، وهو جالس في «الجدار» . يجب أن نعثر على خباز آخر . . .

– لعله يعود الى صوابه !

– مستحيل ، فأنا أعرفه . . .

ذهبت الى «الجدار» ، وهي حانة أقيمت بمهارة في جدار حجري . وكانت صفتها المميزة تقوم في خلوها من أي نافذة ، والضوء فيها يتساقط من فتحة في السقف . لم تكن في حقيقة الأمر أكثر من حفرة مربعة الشكل محفورة في الأرض ومغطاة بألواح خشبية . كانت تعبق برائحة الأرض ، والماخوركا ، والفودكا ، وتزدحم على الدوام بأشخاص يثيرون الريبة ، هم زوارها الدائميون . كانوا يقيمون فيها أياماً بطولها ، ينتظرون صاحب صنعة أن يأتي ليعاقر الخمرة كيما يسكروا على حسابه حتى آخر قرش لديه .

كان كونوفالوف جالساً الى منضدة كبيرة في وسط الحانة وقد تحلّقه ستة من السادة في ثياب مهلهلة ممزقة ووجوه يمكن للمرء أن يقول إنها مستوحاة من إحدى أقاصيص هوفمان . كانوا يلقون اليه بأسماعهم مأخوذين ، وهم يشربون البيرة والفودكا ويأكلون شيئا يشبه قطعاً جافة من طين . . .

– اشربوا ، يا أخوان ، اشربوا قدر ما تستطيعون . فأنا أملك نقوداً وثياباً ما يكفينا على مدى ثلاثة أيام . لسوف نشرب ذلك كله و . . . إلى جهنم وبئس المصير ! لا أريد أن أعمل هنا بعد الآن ، كما لا أريد أن أعيش هنا أيضاً .

قال أحدهم ، وكان يشبه جون فالستاف :

– مدينة متعفنة .

وأعلن آخر ، وهو يشخص الى السقف متسائلاً :

– العمل ؟ ألهذا خلق الإنسان ؟

وشرعوا يضحجون جميعاً دفعة واحدة ، مبرهنين لكونوفالوف أنه على حق مبين في أن يسكر ، حتى يأتي على آخر ما عنده ، بل أنه مجبر على السكر طالما أنه يشرب معهم بالذات .

جلجل كونوفالوف ، حين وقع بصره عليّ :

– مرحباً ، يا مكسيم ، يا أيها الوسيم . تعال ، يا دودة الكتب ، أيها المنافق – خذ جرعة ! لقد تعتعني السكر تماماً ، يا صاح . الى جهنم ! أريد أن أشرب حتى جذور شعري ، سأشرب حتى لا يبقى عليّ سوى الشعر . هيا ، شاركنا الشراب أيضاً !

لم يكن السكر عصف به بعد . ومضت عيناه الزرقاوان هياجاً ، وراحت لحيته الجميلة التي تغطي صدره مثل مروحة حريرية تهتز من جراء الارتعاشات العصبية في فكه السفلي . وكانت ياقة قميصه محلولة ، وقطرات صغيرة من العرق تتضوأ على جبهته البيضاء ، ويده التي مدت لي قدحاً من البيرة ترتجف .

قلت ، وقد وضعت يدي على كتفه :

– اتركه ، يا ساشا ، ولنخرجنّ من هنا .

ضحك :

– أتركه ؟ لو قلت هذا قبل عشر سنوات فقد كان

يمكن أن أتركه . أما الآن . . كلا . . وماذا تراني أفعل ؟ أنا شاعر بكل شيء ، بأصغر شيء ، بأقل حركة تافهة ، ولكنني لا أفهم شيئاً ولا أعرف ماذا ينبغي أن أفعل . أقول لك إني شاعر بكل شيء ، ولهذا السبب أشرب ، لإنه ليس لديّ شيء آخر أفعله . خذ ، إشرب !

راقبني ندماؤه في استياء واضح ، وراحت العيون الاثنتى عشرة تقيسني من فرعي حتى قدمي في عداوة بيّنة .

خاف أولئك المساكين أن أذهب بكونوفالوف فأحرمهم بذلك من الوليمة التي كانوا ينتظرون طوال اسبوع كامل تقريباً .

– هذا رفيقي ، يا إخوان ، وهو شاب متعلم ، لعنة الله عليه ! مكسيم ، هل تستطيع أن تقرأ لي عن ستيبان هنا ؟ يا لروعة الكتب الموجودة ، يا إخوان ! عن بيلا . . . ما هو موضوعه ، يا مكسيم ؟ دماء ودموع ، يا إخوان ، إن بيلا – هو أنا ، أليس كذلك ، يا مكسيم ؟ وهكذا سيسويكا . وحقَ الله . هكذا توضح الأمر لي !

نظر اليّ بعينين مفتوحتين عن آخرهما عامرتين بالخوف ، وفكه الأسفل يرتجف بصورة غريبة . وأوسع ندماؤه لي مكاناً الى المائدة فى نفرة . فجلست إلى جانب كونوفالوف في اللحظة التي عبّ فيها قدحاً نصفه بيرة ونصفه الآخر فودكا .

كان واضحاً أنه راغب في إرهاق نفسه بهذا المزيج في أسرع وقت ممكن . فلم يكد يجرع القدح حتى تناول قطعة مما أشبه الطين ولكنه في الحقيقة لحم مسلوق ، وأسام بصره اليها برهة ، ثم قذف بها إلى جدار الحانة .

أطلق ندماؤه عواء خفيضاً مثل قطيع من ذئاب جائعة .

– أنا نفس ضائعة . لماذا ولدتني أمي الى هذا الوجود ؟ لا أحد يدري . . . ظلمة ! وازدحام ! وداعاً ، يا مكسيم ، إذا لستَ راغباً عن الشرب معي . لن أعود الى المخبز . والمعلم مدين لي ببعض النقود . أقبضها وجئني بها . وسأشربها . أو لا ، خذها واشتر لنفسك كتبـــاً . هل تفعل ذلك ؟ لا تريد ؟ لا تأخذها . أم لعلك تأخذها ؟ تكون خنزيراً إن لم تأخذها . إذهب عني . إذهب أقول لك !

والتمعت عيناه بضياء عدواني وهو يسكر .

كان ندماؤه على أهبة الإستعداد لإلقائي خارجاً من ياقتى ، فخرجت قبل أن أتيح لهم هذه الفرصة .

بعيد ثلاث ساعات عدت الى «الجدار» . وكان ندمـــاء كونوفالوف قد زادوا شخصين آخرين . كانوا سكارى جميعاً – أما هو فأقلهم سكراً . كان يغني ، وقد ارتفق المنضدة ، وعيناه عالقتان بالسمـــاء من خلال فتحة السقف . واتخذ السكارى أوضاعاً مختلفة وهم يصغون إليه ، وبعضهـــم يفوق .

وكان لكونوفالوف صوت جهير يتحول في النوطات العالية إلى صوت رفيع ، شأنه شأن جميع الصناع وهم يغنون . كان يصب نغماته الحزينة السريعة في نبرات عميقة ، وقد أسنـــد خده إلى يده ، وأغمض عينيـــه نصف اغتماضة ، وحنجرته بارزة الى الأمـــام . وكانت ثمانية وجوه فارغـــة خبلها السكر منصبة عليه ، والأصوات الوحيدة التي تصدر عن أصحابها لا تزيد عن تمتمـــة أو فواق . ونشج صوت

كونوفالوف ، وأنّ ، وارتعش في حنان . مما يجرح القلب أن يرهف المرء سمعه الى ذلك الشاب الرائـــع ينشد أغنيته الحزينة .

الروائح الخانقة ، والوجوه السكرانة التي بللها العرق ، ومصباحا الكيروسين الداخنان ، والجدران القذرة المطليـــة بالسخام ، والأرض الترابية ، والظلال الكئيبة - هذه الأشياء كلها كانت كريهة تثقل على القلب . وبدا كأن وليمة شنيعة أقامها أولئك الرجال المدفونون أحياء في سرداب للموتى ، وكأن أحدهم يغني للمرة الأخيرة مودعاً السماء قبل أن يوارى الثرى . كانت أغنية صديقي مشبعة بأسىً لا رجـاء فيه ، وقنوط هادئ ، وحنين لا يقاوم .

بتر أغنيته قائلاً ، وهو يمدّ لي يده :

- مكسيم هنا ؟ أتودّ أن أجعل منك مساعدي ؟ لقد هيأت كل شيء ، يا صاح . جمعت عصابة - وهؤلاء رجالها - وسوف ينضم إليها آخرون . أوه ، أجل ، سوف نفعل ذلك . فلن يكون الأمر صعباً . ولسوف ندعو بيلا وسيسويكا ، ونطعمهما لحماً وعصيدة كل يوم ، ألن نفعل ذلك ؟ هل يحلو هذا لك ؟ إحمل معك بعض الكتب . وستقرأ لنا عن ستيبان والآخرين . آه ، يـــا صاحبي ، لقد سئمت هذا كلـــه ! سئمته . . . هذا . . . كله !

وأهوى بقبضته على المنضدة بقسوة . قرقعت الأقداح والقناني ، وما أسرع أن ملأ ندماؤه ، وقد قوّموا ظهورهم ، الحانة بضوضاء صاخبة .

صاح كونوفالوف :

– اشربوا ، يا إخوان ! اشربوا متاعبكم تغسلوهـــا ! اشربوها عن آخرها !

خرجت ووقفت عند المدخل أصغي إلى حديث كونوفالوف الثمل . وما أن شرع يغني من جديد حتى اتخذت سمتي الى المخبز ، تلاحقني أصداء الأغنية السكرى التي راحت تزمجر وتنشج زمناً طويلاً في هدأة الليل .

بعيد يومين اثنين اختفى كونوفالوف .

ينبغي أن يولد المرء في مجتمع مثقف كي يجد القدرة على الحياة فيه عمره كله دون أن يتوق إلى الفرار من التقاليد المرهقة التي تفرضها الأكاذيب الخداعة الصغيرة التي غدت عادة ، ومن النزوات السقيمة ، والطائفية ، وريـــاء ذلك المجتمع ، وبكلمة واحدة من تفاهة التفاهات التي تثقل على الإحساس وتفسد العقل . ولقد ولدت أنا وترعرعت خارج ذلك المجتمع ، وبفضل تلك الظروف المؤاتية لا أستطيع أن أتقبل جرعات كبيرة من الثقافة دون أن أستشعر ضرورة الإنعتاق من حدوده بين آونة وأخرى ، والتحرر من رهافته المعقدة الممرضة .

الحياة في الريف مؤسية موحشة مثل الحياة بين المثقفين . وأفضل ما تأتيه يومذاك هو التوجـــه إلى الاحياء القذرة في المدن ، حيث الحياة ، على الرغم من القذارة المخيمة ، بسيطة الى أبعد حدود البساطة وصادقة إلى أبعد حدود الصدق . أو أن تهيم على وجهك في الطرقات وعبر حقول وطنك – وهي مغامرة تنعش الروح ولا تتطلب أكثر من ساقين قادرتين .

قبيل خمس سنوات بدأت مثل تلك المغامرة ، وأوصلتني انطلاقاتي على الأرض الروسية المقدسة الى فيودوسيا في نهاية المطاف . في ذلك الحين كانـــوا قد شرعوا يبنون الحاجز البحري ، فدفعت بخطواتي في ذلك الإتجاه على رجاء اكتساب قليل من النقود .

رغبت في البداية أن أتأمل مكان البناء مثلما يتأمل المرء لوحة ، فتسلقت هضبة ورميت أبصاري الى البحر الجبـــار المترامي إلى لاحدود ، وإلى تلك المخلوقات الصغيرة التي تلجمه .

امتدت أمام بصري لوحة واسعة للعمل البشري . فالساحل الصخري كله محفور ، منقّر ، مغطـى بأكداس من الحجارة والأغصان المقطوعة ، وأركام التراب ، عجلات وكتل خشبية ، وقضبان حديدية ، ومدقات ركائــز ، وأدوات ميكانيكية ، والعمال يروحون ويجيئون وسط هذه الاشياء كلها . وقد نسفت إحدى التلال بالديناميت ، وراح الرجال يقطعونهـــا بالمعاول لتمهيد السبيل لمدّ خط السكة الحديد . والإسمنت يخلط في حاويات ضخمة ويصب على شكل أحجار مكعَّبة بطول ست أقدام أنزلوها في البحر لتشكيل متراس ضد القوة العملاقة لأمواجه التي لا تتعب . وكان الناس يبدون صغاراً أشبـه بالديدان على خلفية الهضبة البنية اللون الممزقة بأيديهم ، وكالديدان يدبون في الحرارة اللاذعة لشمس الجنوب بين أكوام من الصخور المفتتة واكداس من الأخشاب التي تبرز داكنة وسط سحب من غبار الأحجار . كانت الضوضاء حولهم والسماء اللاهبة البيضاء فوقهم توحيان أنهم يحفرون في الهضبة

لأنفسهم ابتغاء اللجوء اليها من حموة حرارة الشمس وصورة الخراب الكئيبة المحدقة بهم .

وكان الهواء الخانق مشبعاً بزمزمـة العمـل وضجيجه : ضربات المعاول على الصخر ، وصرير العجلات الحزين ، والأصداء المكتومة لأصوات المدكات ، وعويل أغنية العمال المسماة «دوبينوشكا» ، وخبط البلطات وهي تقشر جذوع الأخشاب ، والصراخ المتنافـر للأشخاص الذين لوّحتهـم الشمس يبثون الحياة في ذلك المشهد .

في أحد الأمكنة جعل العمال يقبعون بأصوات عالية وهم يحاولون تحريك صخرة ضخمة ؛ وفي مكان آخر هم يرفعون كتلة ضخمة من الخشب ، ويهتفون في أنغام متساوقة :

– واحد ، اثنان . . . إرفع !

وكانت التلة المحفورة بالأخاديد تردد أصداءهم في رجع مبهم .

على طول القطع المحطمة التي ترسمهـا الألواح يتحرك موكب بطيء من الرجال المنحنين على عربات يدوية محملـة بالحجارة ، في حين يأتي من الناحية المقابلة موكب آخر يدفع عربات فارغة ويتحرك في بطء أكثر جاعلاً دقيقة الراحـة تطول الى دقيقتين . وكان حشد متنافر يقف حول المدكة ، ينصب من وسطه صوت صادح ينشد مغنياً :

يا إخواني الحرُّ شديدْ
يا إخواني والدرب بعيدْ
آه ، أواه
إدفعه ، آه .

وكانت زمجرة خافتة تدفّ من الرجال الذين يشدون الحبل ، والأسطوانة الحديدية تنزلق سريعاً الى قمة العمود ، ثم تسقط في ضربة صمّاء ، مرسلة رعدة في المدكة بأسرها .

وكان أناس رماديون يحتشدون فوق الأرض بين الهضبة والبحر مالئين الهواء بالغبار ، والصيحات ، ورائحة العرق الحامضة . وفيما بينهم مشى المعلمون في معاطف قطنية بيضاء لها أزرار نحاسية تلتمع تحت الشمس مثل عيون باردة صفراء .

وكان البحر ينبسط هادئاً حتى الأفق الغائم ، وأمواجه الشفافة تتحطم بسكون على الساحل المضطرب حركة . وبينما هو يلتمع تحت أشعة الشمس يبدو وكأنه يبتسم ابتسامة جوليفر العطوف الذي يعرف أنه ، بمجرد حركة بسيطة ، قادر على تحطيم ثمار عمل الأقزام لو راودته الرغبة في ذلك .

كان يرقد هنالك ، يتألق بصورة تبهر البصر – عريض الجنبات ، قوياً ، لطيفاً ، يرسل أنفاساً رطبة الى الساحل وتنعش الناس المرهقين الذين يعملون على الحدّ من حركة أمواجه ، هذه الأمواج التي تلاطف الآونة الساحل المشوّه في ملاطفات ودودة . كان يلوح وكأنه يرثي لهؤلاء الناس . لقد تعلم على مدى الدهور أن أولئك الذين يعملون لا يرتكبون بحقه شراً ، فما هم غير عبيد يمثلون دور من يصارع عناصر الطبيعة ، وفي هذا الصراع لا بدّ ان تنقم هذه العناصر منهم . هم لا يأتون أكثر من العمل ، وهم على الدوام يبنون شيئاً ما ، وعرقهم ودمهم هما اسمنت جميع المنشآت على أرضنا . ورغم هذا فهم لا يحصلون على شيء مقابل ذلك ، مع أنهم

يصبون قواهم بأسرها في النزعة الأبدية لإقامة بنـــاء ما ، النزعة التي اجترحت العجائب على الأرض ، ولكنها لم تقدم للرجال سقفاً يحمي رؤوسهـم أو ما يكفي من طعام يغذي أجسادهم . هؤلاء الرجال أنفسهـم هم أحد هذه العناصر ، ولذلك يلوح البحر لطيفاً وغير غاضب من جراء عملهم الذي لا يثمر لهم نفعاً . تلك الديدان الرمادية الصغيرة التي تنخر الهضبة أشبه ما تكون بقطرات الماء التي يرذها البحر على الصخور المنيعة الباردة في نزعته الأبدية الى توسيع تخومه . وهي أول مـــا يهلك من جراء الإصطدام . إن جمهرة هذه القطرات يمتّ الى البحر بصلة قرابة ، ولا تختلف عنه في وجه من الوجوه – فهي قويـة ، وهي نزاعة إلى الدمار حين تمسها أنفاس العاصفـة . في الأيام الخوالي كانت للبحـــر معرفة بالعبيد الذين بنـــوا الأهرامات في الصحراء ، وعبيد كسرى ، ذلك الحاكم الهزأة الذي جلد البحر ثلاثمائة جلدة عقاباً له على تحطيم جسوره الأشبه بالدمى . العبيد كانـــوا دائماً متشابهين ، في كل العصور ، وكانوا دائماً مرؤوسين ، وكانوا دائماً لا يتغذون بصورة جيدة ، وكانوا دائماً يقومون بمعجزات عظيمة رائعة ، وأحياناً جعلوا من الذين اجبروهم على العمل آلهة لهم ، وأحياناً أخرى صبوا عليهم لعناتهم ، وبين حين وحين رفعوا راية الثورة ضد حكامهم . . .

الأمواج تصعـــد الى الشاطـــىء في هدوء حيث الناس جميعاً يبنون حاجزاً حجرياً ضد حركتها الأبدية ، وفيما هي تصعد ترسل أغنية حنوناً عن الماضي ، وعن كل شيء وقعت أبصارها عليه ، جيلاً بعد جيل ، على سواحل هذه الأرض . . .

. . . بين العمال كان ثمة شخوص برونزيـــة نحيلة في عمائم أو طرابيش حمراء ، ومعاطف قصيرة زرقاء ، وسراويل قصيرة فضفاضة تضيق عند الركبتين . كان هؤلاء ، فيمـــا عرفت من بعد ، أتراك مـــن الأناضول . يختلط حديثهم المضخم بحديث الروسيين مـــن فياتكا الممطوط اللين ، وبالجمل السريعة القوية لسكان الفولغا وتعابير الاوكرانيين الناعمة .

كان ثمة مجاعة في روسيا ، واستاقت المجاعة الناس الى هنا من جميع المناطق تقريباً . وقد شكلوا ، في محاولة منهم للبقاء مع مواطنيهم ، جماعات صغيرة . أما المتشردون الذين لا موطن لهم بأشكالهم المستقلة ولباسهم المتميز وأسلوبهم في الحديث فما أسهل تمييزهم عن أولئك الذين ما برحوا تحت سلطة الارض ، الذين لن ينسوا الأرض ولكنهم غادروهـــا فترة من الزمن تحت ضغط الجوع . وكـــان المتشردون يتواجدون في كل جماعة – يختلطون سريعاً بالرجال القادمين من فياتكا وبالأوكرانيين ، وفي كل مكان يعتبرون أنفسهـــم وكأنهم في بيوتهم . ولكن أغلبيتهم اجتمعـــوا حول المدكة ، لأن العمل هنا أسهل منه بالمعاول والعربات اليدوية .

عندما اقتربت من العمال كانوا واقفين وقد أرخوا الحبل من ايديهم ينتظرون ان يحرّر رئيس العمال البكرة من بعض القنّب الذي «يعوقها» . كـــان يصخب على البرج الخشبي الصغير ، وينادي بين وقت وآخر :

– شدوا قليلاً !

وكانوا يشدون الحبل في تباطؤ .

– قفوا ! شدوا مرة أخرى . قفوا ! جربوا مرة أخرى !

كان المغني – وهو شاب غير حليق ، منقط الوجه ، لـــه طلعة الجنـــدي – يهز كتفيه ، ويرنـــو الى جانب واحد ، ويسعل ، ويشرع في الغناء :

«المدكة تدك في الأرض دعامة . . .»

والأبيات التي تعقب ذلك لا يمكن أن تسمح بنشرهـــا رقابة مهما أغرقت في التساهل . كانت بنت ساعتها فيمـــا يبدو ، ارتجلها المغنى نفسه وأثارت عاصفة من الضحك ردّ عليها المؤلف بأن راح يفتل شاربيه على غرار الممثل الذي ألف تصفيق الجمهور .

صاح رئيس العمال غاضباً :

– أليس لديكم ما تفعلوه ؟ تنهقون مثل الحمير !

فأجاب أحد العمال :

– لسوف تنفجر عروقك من الصياح ، يا ميتريتش !

كان الصوت مألوفاً عندي ، وخيل اليّ أني رأيت تلــك الطلعة المديدة العريضة الكتفين ، وذلك الوجه البيضوي ، وتينك العينين الزرقاويـــن في مكان ما من قبل . أيمكن أن يكون كونوفالوف ؟ لكن لم تكن لكونوفالوف ندبة تمتد مــن صدغه الأيسر حتى قصبة أنفـــه قاطعة جبهته . وشعر كونوفالوف أفتح لوناً وأقل جعدة . ولكونوفالوف لحيـــة حلوة ، في حين أن هذا الشاب حليق الذقن له شارب طويل يتهدل طرفاه على الطريقة الأوكرانية . ومع هذا كان فيـــه شيء مألوف بالنسبة اليّ . انتويت أن استوضحه أين يمكن

ان أقدم التماساً للحصول على عمـــل ، بيد أنني انتظرت ان ينتهوا من تثبيت الدعامة .

– أو . . و . . ف ! أو . . و . . ف !

كان العمال يلهثون وهم يتقرفصون ، ويشدون الحبـــل بقوة ، ثم يقفزون في الهـــــواء وكأنهم يطيرون . وتصرصر المدكة وترتجّ ، وتمتد أذرع سمراء عامرة بالشعر الى الحبال فوق رؤوس الناس ، وعضلاتها منتفخة في عقد ضخمة ، ومع هذا ظلت المطرقة الحديدية التي تزن أربعين بوداً ترتفـــع الى مسافات متناقصة عن أقصر حدودها ، وتنهال ضرباتها على المدكة أضعف فأضعف . إن من يشاهـــد هذا المنظر لا بدّ أن يحسب أنّ أولئك الرجال هم من عبدة الأصنام الذيـــن يرفعون ، في يأس وقنوط ، أذرعهـــــم الى إلههم الصامت وينحنون أمامه . وكان الهواء مشبعاً بعرق حار يهبّ مـــن وجوههم العرقانـــــة القذرة بشعرها الأشعث الملتصـــق بجبهاتها المنداة ، ومن أعناقهم السمر وأكتافهم المرتعشة ، ومن أجسادهم التى لا تسترها غير رقع ممزقة من الثياب من مختلف الأصناف . وقد اختلطت هذه الأجساد لتؤلف كتلة واحدة صلبة من العضلات المتلوية في الهواء الرطب الذي تحركه حرارة الجنوب ، والمشبع بعبير العرق .

صاح أحدهم في صوت خشن عميق :

– انتهى الوقت !

ارتخت أيدى العمال ، وسقطت الحبال متهدلـــــة حول المدكة . وتراكم العمال على الأرض يمسحون العرق عـــــن وجوههم ، ويستنشقون أنفاسا عميقة من الهـــواء ، يريحون

ظهورهم ويتحسسون أكتافهم ، ويزكمون الهواء بثرثرتهم الخفيضة الشبيهة بخرير حيوان غاضب .

هتفت منادياً ذلك الرجل الذي وقع اختياري عليه :

– يا صديق !

استدار نحوي متوانياً ، وترك عينيه تنزلقان على وجهي ، وضيّقهما ، ثم حدق النظر ممعناً .

– كونوفالوف !

دفع رأسي الى الخلف كمن يريد أن يمسك بخناقي ، ومن بعد أضاءت وجهه ابتسامة فرحة على حين فجأة :

– رويدك ! مكسيم ! يا للّه ! أيها الشاب العجوز ! لقد ضللت سبيلك أنت الآخر ، أليس كذلك ؟ وانضممت الينا نحن المتشردين ؟ هذا أعود عليك . متى فعلت ذلك ؟ ومن أين قدمت ؟ لسوف نجوب معاً الأرض قاطبة . تلك لم تكن حياة تناسبنا ، تلك الحياة الأخرى . فما فيها غير الشقاء وكثرة من المتاعب . وهي طريق الى التفسخ والموت ليس أكثر ! كنت أجوب الآفاق منذ تركتك . يا للأمكنة التي زرت ! والهواء الذي تنفست ! لكن أنظر الى نفسك ، هذا الهندام الذي خلعته عليها . ما كان يمكن لي أن أعرفك . ثياب جندي ، ووجه طالب . حسناً ، هل يطيب لك العيش على هذا الغرار ، متنقلاً من مكان الى مكان ؟ لا يخطرنّ لك في بال أني نسيت ستينكا – أو تاراس أو بيلا – فأنا أذكرهم جميعاً !

ولكز جنبي بإصبعه ، وربّت على كتفي براحة يده

العريضة . وحين عجزت عن أن أردّ عليه بكلمة ، فقد وقفت هنالك وابتسمت وتطلعت في وجهه اللطيف الذي تألق الآن بفرحة اللقاء من جديد . وكنت مسروراً بدوري من رؤيته الى أبعد الحدود . ذكّرني ذلك كيف شققت طريقي في الحياة أول مرة ، تلك البداية التي تفضل بما لا يقاس الأيام التي تبعتها .

في النهاية تدبرت الأمر كيما أسأل صديقي القديم عن سبب تلك الندبة في جبينه والشعر الجعد الخفيف على رأسه .

– آه ، هذه الأمور ؟ إليك قصتها . فكرت ورفيقان لي أن نجتاز الحدود إلى رومانيا راغبين في التعرّف على ماهية الأمور هناك . فانطلقنا من كاغولا – وهو مكان في بيسارابيا قريب من الحدود . كنا نشق طريقنا – في الليل من دون ريب – في هدوء . وعلى حين فجأة : «قف !» . إنهم حرس الجمارك . لقد اصطدمنا بهم مباشرة . فانطلقنا هاربين ، واستطاع أحدهم أن يضربني على رأسي . لم تكن الضربة قوية ، كلا ، ولكنها ألزمتني الفراش في المستشفى شهراً كاملاً . ولا يخطرنّ في بالك أن الخفير كان من مواطني بلدتي ! أحد شبان موروم ! وسرعان ما أدخلوه المستشفى بعد ذلك – أحد المهربين طعنه في بطنه بسكين . وحين شعرنا بالتحسّن استوعبنا الأمور تماماً . يسألني ذلك الجندي : «أأنا الذي شججتك ؟» ، فأقول له : «ينبغي أن تكون أنت ، طالما أنك تعترف به» ، ويقول هو : «أنت على حق ، يجب أن أكون أنا . لكن لا تحقد عليّ . فهذه وظيفتي . حسبنا أنكم تحملون سلعاً مهربة . أنظر ، لقد أصبت أنا

أيضاً – لقد شقوا لي بطني . لا مناص من ذلك . فالحياة ليست شيئاً سهلاً» . وهكذا غدونا صديقين – وكان فتىً رائعاً . يدعى ياشكا مازين . . . أما الشعر الجعد – فهذا الشعر الجعد جاء من الحمى التيفية . لقد أصبت بها . أودعوني السجن في مدينة كيشينيف لمحاولتي التسلل عبر الحدود ، وهنالك أصابتني الحمى التيفية . وتركتني مطروحاً على ظهري زمناً طويلاً ، فحسبت أنني لن أنهض . وكان من المحتمل ألا أنهض لولا إحدى الممرضات التي خصتني بعنايتها الدائمة . أعجوبة أنني نجوت . كانت ترعاني مثلما ترعى طفلاً صغيراً ، ولا أعرف لماذا . لم أكن أعني شيئاً بالنسبة إليها . كنت أخاطبها قائلاً : «كفى ، يا ماريا بتروفنا . يخجلني أن أراك تتعبين من أجلي» . وكانت تضحك لقولتي . كان لها قلب طيب . وأحيانا كانت تقرأ لي أشياء من أجل خلاص روحي . سألتها مرة : «ألا تجدين شيئاً آخر تقرئينه لي ؟ . . . شيئاً مختلفاً ؟» . فأحضرت كتاباً عن بحار انكليزي تحطمت سفينته في جزيرة مهجورة ، وأقام عليها حياته . كان كتاباً رائعاً ! جننت به ! ورغبت كثيراً لو إني أشاركه الحياة في تلك الجزيرة . يا لها من حياة ! الجزيرة ، والبحر ،والسماء ، وأنت وحيد ، ولديك كل ما تحتاج إليه ، وحر كالعصفور ! والتقى بأحد المتوحشين فعاش معه . لو كنت أنا لأغرقته ذلك الهجين ، فما حاجتي إليه ؟ كنت أقضي حياتي سعيداً . هل قرأت ذلك الكتاب ؟

– لكن أخبرني كيف خرجت من السجن ؟

– أخلوا سبيلي . عقدوا محكمة ، ووجدوني بريئاً ،

فأخلوا سبيلي . أمر بسيط . لكن انتبه ، أنا لن أعمل مزيداً هذا النهار ، فإلى جهنم العمل ! فلقد تقرحت يداي بما فيه الكفاية . ولدي ثلاثة روبلات ، وسأحصل على أربعين كوبيكاً لقاء هذا الصباح . هذا ليس سيئاً ، أليس كذلك ؟ فتعال وامض النهار معنا ، فنحن لا نعيش في ثكنات ، بل على الهضبة غير بعيد من هنا . عثرنا على ثقب مريح جداً للسكن . نتقاسمه أنا وفتى آخر . ولكنه مريض . . .أصابته حمى . انتظرني هنا ريثما أذهب الى رئيس العمال ، ولن يطول غيابي دقيقة واحدة !

نهض خفيفاً ، وابتعد في ذات الوقت الذي أمسك فيه العمال بحبال المدكة للشروع فى العمل من جديد . وبقيت جالساً هنالك أراقب الضوضاء الصاخبة حولي والبحر الساكن الأزرق المخضر .

سار شبح كونوفالوف الطويل بين حشد الناس ، والعربات ، وأكوام الحجارة ، وأكداس الأخشاب . سار قدماً ، هازاً ذراعيه ، مرتدياً قميصاً قطنياً أزرق اللون قصيراً وضيقا بالنسبة إليه ، وسروالاً من الخيش وحذاء ثقيلاً . وبين حين وحين يلقي نظرة الى الخلف ويلوّح لي بيديه . وجدت أنه غدا جديداً عليّ ، جبروتي القوة ، ملتمع الوجه بشراً ، مملوءاً ثقة هادئة بالنفس . وكان العمل يجرى على قدم وساق حوله : الأخشاب تقطع ، والحجارة تتفتت ، والعربات تصرصر بصوت راعب ، وسحب الغبار تهبّ في الهواء ، وشيء ينسحق على الأرض ، والناس يخورون ، ويتصايحون ، ويشتمون ، ويغنون في أصوات يمازجها

الأنين . وابتعد شبح صديقي الوسيم بخطوات ثابتة وتراءى لوحة حادة متناقضة مع ذلك الضجيج من الأصوات والحركات فكأنه جواب عن أحجية كونوفالوف .

بعيد ساعتين كنت وإياه مستلقيين في «الثقب الملائم جداً للسكن» . كان ملائما حقاً . قبل فترة من الزمن اقتطع صخر من الجبل فخلّف كهفاً مربع الشكل يمكن أن يقيم فيه أربعة أشخاص في راحة مطلقة . ولكنه كان منخفضاً ، وثمة جلمود ضخم معلق فوق مدخله ، والسبيل الوحيد للدخول اليه هو ان يزحف المرء على معدته . وكان عمقه سبع أقدام ، ولم تكن ثمة ضرورة للدخول فيه ، وهو أمر يعتبر مجازفة خطرة ، إذ أن الجلمود قد يهوى في أية لحظة ويدفننا في الكهف أحياء . خشية من ذلك أضجعنا أنفسنا على النحو التالي : دفعنا سيقاننا وجسدينا في الثقب حيث البرودة شديدة ، وأبقينا رأسينا خارجاً حتى إذا سقط الجلمود فلا يحطم غير جمجمتينا .

كان المتشرد المريض قد زحف الى الشمس واستلقى قريباً منا . وكنا نسمع أسنانه تصطك كلما عصفت به نوبة من القشعريرة . كان أوكرانيا طويل القامة نحيل العود من بولتافا على ما قال لي في سهوم .

تدحرج على الأرض محاولاً أن يلفّ نفسه في جلباب رمادي مصنوع من مزق . وكان يكثر من الشتائم واللعنات حين تذهب جهوده سدىً ، ولكنه لا يتخلى عن جهوده أو إطلاق لعناته . وكانت له عينان سوداوان صغيرتان تضيقان على الدوام فكأنه يطيل التحديق الى شيء ما .

لسعت الشمس مؤخــرة رأسينا دون رحمة . وأخـــذ كونوفالوف معطفي العسكري وجعل منه ما يشبه خيمة بعد ما نشره على عدد من العصي غرزها في الارض . ودفّت من البعد أصداء العمل الجارية عند الخليج الذي لم تكن أنظارنا تصل إليه . على الساحــل الى يميننا تنتصب بيوت بيضاء تبعث على الضجر تشكل بلدة ، وعن يسارنا وإلى الأمام منا البحر المنبسط في البعد إلى لا حدود ، حيث اختلطت بصورة مدهشة ألوان ناعمة تبهج العين والروح بفتنتها المذهلة المنطلقة من ظلالها في سديم ناعم أسطورى .

وفيما كونوفالوف يراقب تلك الألوان زحفت على ملامحه ابتسامة هينة ، فالتفت إليّ قائلاً :

– حين تغـــرب الشمس نضرم ناراً ونرشف الشاي . لدينا بعض الخبز واللحم . أتريد بطيخاً ؟

أخرج بقدمه بطيخة من إحدى الحفر ، وتناول سكيناً من جيبه وقال ، وهو يقطع البطيخة :

– كلما وجدت نفسي الى جانب البحـــر أتساءل فيم لا يقيم ههنا غير قلة من الناس ؟ كانوا يكونون أكثر طيبة بالنسبة اليه لأن البحر جد . . . جد لطيف . وهو يتيح لك أن تفكر افكارا طيبة . حسناً ، أخبرني ماذا كنـــت تفعل في هذه السنوات القليلة الأخيرة .

بدأت أقص عليـــه . في المنتأى كان البحر منصبغاً بالأرجوان والذهب ، وسحب وردية وبنفسجية تنهض لملاقاة الشمس . وبدا أن جبالاً تجللت قممها بالثلج توردها أشعة الشمس المتطفلة تبرز من البحر .

قال كونوفالوف في قناعة تامة حين قصصت عليه أخباري :

– كان عبثاً أنك عشت في المدن ، يا مكسيم . ماذا شدّك إليها ؟ حياة عفنة . لا هواء ، ولا رحابة ، ولا شيء مما يحتاج الإنسان . الناس ؟ ثمة ناس في كل مكان . الكتب ؟ يكفي ما قرأت منها ! ألقراءتها أنت ولدت ؟ الكتب هراء . اشتر لنفسك واحداً ، وضعه في كيسك ، وانطلق . أتريد الذهاب إلى طشقند برفقتي ؟ أو الى سمرقند ، أو اي مكان آخر ؟ سنقيم هنا فترة ، ومن بعد نرحل الى آمور . هل توافق ؟ عزمت على الذهاب الى كل مكان – هذا هو الشيء الوحيد الذي سآتيه . وعندها تشاهد على الدوام شيئاً جديداً . ولا تضيّع وقتك في التفكير . إمش قدماً والريح تهبّ في وجهك وتنفض كل القذارات من روحك . كن حراً خفيف الحركة . ليس من يقيم نفسه عليك معلماً . إذا جعت توقفت وعملت لقاء خمسين كوبيكاً ، وإذا لم يكن هنالك عمل استعط كسرة من خبز – ولسوف تحصل عليها دائماً . على أقل تقدير تشاهد شيئاً من هذا العالم . شيئاً من روعته . هل تنضمّ اليّ ؟

انزلقت الشمس عن الأفق . وازدادت السحب دكنة ، مثلها مثل البحر ، وغدا الجو رطباً . وهنا وهناك لمعت نجوم ، وسكن ضجيج العمل في الخليج ، لكن أصداء الأصوات ظلت تتردد بين الفينة والأخرى خافتة مثل التنهيدات . وكانت الريح تحمل الى آذاننا خرخرة الأمواج الكئيبة وهي تغسل الساحل .

تكاثفت الظلمة سريعاً ، وصار شبح الأوكراني ، وكان واضحاً قبل خمس دقائق ، كتلة مبهمة غير متميزة .

قال ، وهو يسعل :

– ماذا لو أشعلنا ناراً ؟

– سأفعل ذلك .

جمع كونوفالوف كومة من الأغصان وأشعل فيها عود ثقاب . وبدأت ألسنة حادة من اللهيب تلعق الخشب المصمغ الأصفر . وارتفع شريط دخان في هواء الليل المشبع برطوبة البحر وطراوته . وتعاظمت السكينة فكأن الحياة تهرب منا ، وأصواتها تتلاشى في الظلمة . وتفرقت الغيوم وشعت النجوم متألقة في السماء الزرقاء الداكنة ، وظهرت على سطح البحر المخملي اضواء قوارب الصيد وانعكاسات النجوم . وازهرت النار أمامنا مثل وردة كبيرة حمراء مصفرّة . حين علق كونوفالوف غلاية الشاي فوقها شبك ركبتيه بذراعيه وحدّق في اللهب وقد استغرقته الأفكار . وزحف الأوكراني مقترباً مثل حرباء ضخمة .

– الناس يبنون المدن والبيوت ، ويزدحمون حشوداً ، ويوسخون الأرض ، ويختنقون ، ويعترضون سبل بعضهم بعضاً . . . يا لجحيم هذه الحياة ! وهي الحياة الوحيدة التي نعيشها . . .

قال الأوكراني ، وهو يهز رأسه :

– هممم ! لو نحصل على جلد خروف وبيت دافئ لأيام الشتاء ، حينذاك يمكن القول أننا نعيش مثل الأمراء . . .

وضيق إحدى عينيه في وجه كونوفالوف ، وأطلق ضحكة قصيرة .

أعلن كونوفالوف موافقاً :

– أجل . الشتاء فصل لعين . والمدن ضرورية حقاً في الشتاء ، وليس هنالك من ينكر ذلك . ورغم هذا فليس هنالك من مبرر لبناء المدن الكبيرة . لماذا يعيش الناس كالقطعان حين تكون الأمور صعبة بالنسبة إلى شخصين أو ثلاثة أشخاص كيما يعيشوا سوية ؟ هذا ما اليه قصدت . حين تفكر في ذلك ، تجد أن الإنسان لا يعثر على مكان مناسب يعيش فيه – لا في المدينة ولا في أي مكان . لكن يحسن ألا تشغل بالك بهذه الأمور . فأنت عاجز حيالها ، لا تفعل أكثر من تمزيق نفسك . . .

كنت أعتقد أن حياة كونوفالوف كجواب آفاق قد بدّلته ، وأن أنفاس الحرية التى كان يتنفسها خلال السنوات القليلة الأخيرة أتاحت له أن يتخلص من تلك الكلابات من الشقاء التي انغرزت في قلبه في الأيام الأولى لصداقتنا . ولكنني تبينت من نبرته في جملته الأخيرة أنه لا يبرح ذلك الرجل الذي عرفت ، الرجل الذي «يبحث عن شيء يدعم به قدميه على الأرض» . كان جسده المتين ، الذي أطل على الوجود يحمل في جنباته قلباً عطوفاً مما يرثى له ، لا يزال مهدوداً من جراء صدأ الحيرة ، سمّ الحياة المتفكرة . كان هنالك عدد لا بأس به من أمثال هؤلاء الناس «المولعين بالتفكير» في روسيا ، وكانوا جميعاً أكثر تعاسة من الآخرين ، لأن أعباء أفكارهم يزيدها عمى عقولهم ثقلاً ووقراً . نظرت

الى صاحبي في أسىً ، فأوضح في تعاسة وكأنه يؤيد فكرتي :
– ما أكثر ما كنت أفكر في كيف عشنا معاً ، أنت وأنا ، يا مكسيم ، وفي . . . في كل ما وقع لنا حينذاك . يا للأماكن التى زرتها ، والاشياء التي رأيتها ! . . ومع هذا لم أجد مكاناً مريحاً لي على هذه البسيطة . لم أستطع أن أعثر على مكان لنفسي !

قال الأوكراني في برودة ، وهو يرفع الغلاية عن النار وقد جعل الماء فيها يغلي :

– هذا هو نصيبك لأنك ولدت بهذا العنق الذي لا يلائمه أي نير .

فردّ كونوفالوف عليه :

– قل لي لماذا لا أقوى على الأستقرار ؟ لماذا يعيش أغلب الناس حياة طبيعية بما فيه الكفاية ، ويمارسون أعمالاً ، ويتخذون نساء وينجبون أطفالاً وكل ما يتبع ذلك ؟ . . وهم دائماً راغبون في صنع هذا الشيء أو ذاك ؟ بينما أنا لا أستطيع ذلك . مجرد أني لا أستطيع ذلك . فلماذا لا أستطيعه ؟ أحس بالملل ! لماذا ؟

فأوضح الأوكراني مشدوها :

– يا لنحيبك هذا ! لكأن النحيب يجعل الأمور أكثر سهولة !

فقال كونوفالوف متأسياً :

– أنت محق .

قال الرواقي شاعراً بجدارته ، وهو يوالي صراعه مع الحمى :

– ما أقلّ ما أتكلم ، ولكنني أعرف كيف أتكلم دائماً .

سعل ، وتململ في مكانه ، وبصق في النار غاضباً . كان كل شيء حولنا أصم تخفيه ستائر الظلمة الكثيفة . وكانت السماء بدورها مظلمة ، والقمر ، لم يطل بعد . وكنا نشعر بالبحر أكثر من رؤيتنا له من شدة الظلام . بدا وكأن ضباباً أسود خيمّ على الأرض . وانطفأت النار .

اقترح الأوكراني :

– فلنلجأ الى النوم .

زحفنا الى «الثقب» تاركين رؤوسنا خارجاً . واعتصمنا بالصمت . استلقى كونوفالوف دون أن يأتي حركة فكأنه تحجر . وجعل الأوكراني يتقلب من جانب الى آخر وأسنانه تصطك . أبقيت عينيّ زمناً طويلاً مثبتتين في وهج النار المنطفئة . كانت الجمرات أول الأمر كبيرة متألقة ، ثم صغرت وتغطت بالرماد الذي ابتلعها سريعاً . ولم يبق من النار بعد ذلك أكثر من أنفاسها الدافئة . راقبتها ، وهمست في نفسي :

«هذا شأننا جميعاً . لكن أواه ! آه لو توهجنا متألقين لحظة واحدة !»

بعد ثلاثة أيام ارتحلت عن كونوفالوف . وذهبت الى كوبان . لم يرغب في مرافقتي . افترقنا واثقين من أننا سنلتقي مرة أخرى .

ولكننا لم نلتق مرة أخرى . . .

١٨٩٦

مالفا

كان البحر يضحك .

يهيّجه ويثيره النسيم الخفّاق القائظ ، وتضطرم فيه مويجات طفيفة تنعكس عليها شعاعات الشمس في لمعان يخطف الأبصار ، فيهشُ للسماء الفسيحة بآلاف من الابتسامات الفضية الصافية . وهذا الفضاء المديد ، المترامي الاطراف بين البحر والسماء يرنُ بأصوات رشرشات الأمواج الفرحة وهي تتكافح وتتدافع ، واحدة تلو أخرى ، متكسرة على شاطئ لسان رملي قليل الانحدار . وكانت شرشرة الأمواج والتماعات الشمس المنعكسة على آلاف تموُجات البحر المتواثبة ، مندغمة جميعاً في حركة دائمة تفيض مرحاً وحياة وحبوراً . كانت الشمس سعيدة لاشراقها ، والبحر ضاحكاً سعيداً لانه يردُ ضوء الشمس الطافح بشراً وغبطة .

وهذه الريح تداعب صدر البحر الحريري في عذوبة ، وأمُ الحرارة والنور تضرم الدفء في أحشائه بحواجبها المحرقة اللاهبة ، فيتنهّد في وسن وفتور متأثراً من هذه الملاطفات الحنون ، فيروح يشبع الهواء الحارّ بأريج مالح . وهذه الأمواج الخضر تتكسّر على الشاطئ الرملي الأصفر ، فتزركشه بزبد أبيض يذوب ويضمحلُ على الرمل الملفوح المتأجج في حفيف رقيق دون أن يخسر شيئاً من برودته ورطوبته .

كان اللسان الرملي الطويل الضيق يبدو مثل برج هائل سامق سقط من الشاطئ إلى صدر البحر ، ورأسه المسنون ينغرز في المدى الفسيح للماء المتلألئ المتراقص ، قاعدته

تضيع في الضباب البعيد الخانق الذي يخفي اليابسة حيث تتواثب زفرة كريهة غريبة مع تنفسات الرياح فتفسد الجوّ فوق منبسط هذا العَيْلَم النقي ، وتحت قبة السماء الزرقاء اللامعة .

وكانت شباك للصيد منصوبة على الشاطىء الرملي المفروش بحراشف السمك ، معلّقة بأعمدة خشبية موتّدة في الرمل ، تلقي خيالات عليه تشبه نسيج العنكبوت . وهناك عدة قوارب كبيرة ، وآخر صغير ، تنتظم في صف واحد ، فتبدو الأمواج ، وهي تتراكض فوق الشاطىء ، كأنها تدعوها لتنضم اليها . وتبعثرت على الرمل ، متفرّقة متباعدة مشوّشة ، عدة خطاطيف سمك ، ومجاذيف ، وسلل ، وبراميل . يقوم بينها جميعاً كوخ من أغصان مقتطعة من شجر الصفصاف وقشرة شجرة الزيزفون وحصائر خشنة . وعُلّق بالقرب من مدخل الكوخ زوج أحذية من اللباد – اتجهت نعله إلى السماء – على عصا متعددة الاغصان مشذبة . وفوق هذا التيه المضطرب المختلط ارتفع صار طويل ربطت في رأسه قطعة من قماش أحمر تخفق بها الريح وتلهو .

وكان يضطجع ، في ظل أحد القوارب ، فاسيلي ليغوستيف ، حارس في اللسان الرملي – وهو نقطة أمامية للمصايد العائدة لشخص يدعى غريبينشيكوف . كان فاسيلي مضطجعاً على معدته وقد أسند ذقنه الى راحتي يديه ، يشخص إلى البحر البعيد ، إلى قطعة من اليابسة فيه لا يقصيها البصر . كانت عيناه مثبتتين في بقعة صغيرة سوداء في عرض البحر ، يراقبها بغبطة عظيمة وهي تزداد حجماً كلما اقتربت منه .

وتبسَّم ابتسامة رضى واقتناع ، وهو يضيق عينيه ليقيهما التماع أشعة قرص الشمس المتأججة الجاحمة تعكسها صفحة المياه . ها هي ذي مالفا قادمة !

لسوف تأتي ، وتضحك ، ويرتعش صدرها في إغواء وافتتان . ولسوف تعانقه بذراعيها المفتولتين البضتين الناعمتين ، وتحييه بقبلة ، ثم تروح تحدثه بصوت مرنّ تجفل نوارس البحر له ، عما يجري هنالك على الشاطئ . ولسوف يطبخان معاً حساء السمك الفاخر ، وينهلان الفودكا ، ويرتميان على الرمل يتسامران ويدلّل كلٌّ منهما صاحبه . ومن بعد ، عندما يبسط خيال المساء رداءه ، يضعان الغلاية على النار المتأرثة ، ويجرعان الشاى مع بارانكا * لذيذة . وبعد ذلك كله يمضيان إلى النوم . . .

كان ذلك يحدث كل يوم أحد ، وكل يوم عطلة . انه يصحبها على مألوف العادة في الصباح الباكر الى اليابسة ، ويعبران البحر الذي يغطُّ في سبات عميق عند شفق الفجر النديّ ، وتقعد هي غارقة في غفوة خفيفة في مؤخرة القارب . أما هو فيروح يرنو إليها وهو يجذف دون كلل أو إعياء . لكم تبدو مضحكة وقتئذ . مُضحكة ومستحبة في آن واحد ، مثلها في ذلك مثل قطة لا ينقصها الطعام أبداً . ولربما تترك مقعدها وتلجأ إلى قعر القارب فتنطوي هنالك على نفسها وتجنح الى النوم سريعاً . وما أكثر ما كانت تفعل ذلك . . .

ذلك النهار كان خانقاً فأخمد حتى حركة النوارس .

---

* بارانكا – خبزة من القمح بشكل حلقة . **الناشر** .

فتبلّدت جماعة منها بالأرض الرملية في صف واحد وقد نشرت أجنحتها وفتحت مناقيرها . وتأرجحت جماعة أخرى في كسل وتراخ على ثبج اعالي الأمواج دون أن تحدث صوتاً ، منقطعة عن ضراوة نشاطها المعهود .

وصوّر لفاسيلي أن شخصا آخر يقعد إلى جانب مالفا في القارب . ترُى ، هل عاد سيريوجكا إلى مغازلتها من جديد ؟ وتقلّب فاسيلي في ثقل على الرمل ، ثم جلس واستكف وراح يرمق اليم ، والقلق يعتصر قلبه ، يحاول أن يكشف هوية ذلك الجاثم في القارب . وكانت هي جالسة في مؤخرة القارب توجه دفته . أما الرجل ، وكان يقوم بعملية التجذيف ، فلم يكن سيريوجكا . فهو لم يألف التجذيف أبداً . ثم إن مالفا لم توجه الدفة إن كان سيريوجكا بصحبتها .

صاح فاسيلي في نفاد صبر :

– هاي !

فاهتزت النوارس على الرمل وقد أجفلتها الصيحة ، وتجمدت متنبهة متحفزة .

وردّ عليه صوت مالفا المرنّ آتياً من القارب :

– هـ . . . ا . . . ي !

– من يصحبك ؟

فدفّ الجواب ضحكة عالية .

غمغم فاسيلي ، وهو يسبُّ في وليجة نفسه ، ويبصق :

– يا للشيطانة !

كان يتمنى حتى الموت أن يكتنه شخصية ذلك الذي

يرافقها . لفّ دخينة من التبغ ، وحدّد بصره إلى قفا ذلك الرجل وظهره . كان يستطيع أن يسمع صوت رشاش الماء الصداح عندما تصطدم المجاذيف به ، بينا الرمل ينسحق تحت قدميه العاريتين .

صاح حينما ميّز الابتسامة الغريبة غير المألوفة المرتسمة على وجه مالفا الجميل :

– من يصحبك ؟

فأجابت ، وهي تضحك :

– انتظر ، وسترى !

أدار المجذّف وجهه ناحية الشاطئ ، وشحذ فاسيلي نظره وهو يضحك بدوره . قطّب الحارس وجهه ، وهو يحاول تكوين هوية ذلك الغريب الذي بدا وجهه أليفاً .

أمرت مالفا :

– جَذّف بقوة !

فدفعت ضربة المجذافين وكذا الموجة القارب ورمت به على الشاطئ الرملي حتى نصفه الامامي ، حيث سكن مائلاً على احد جانبيه ، بينما ارتدت الموجة المتواثبة متقهقرة صوب البحر . قفز المجذّف من القارب ، وهتف :

– مرحباً ، يا أبتاه !

صاح الأب بصوت مكتوم ذهولاً أكثر منه فرحةً :

– ياكوف ؟ بُنيّ !

تعانقا ، وقبّل كل منهما الآخر مرات ثلاثاً على الشفاه والخدود . كانت سيماء فاسيلي مزيجاً من الدهشة والسرور والارتباك .

– لقد أحددتُ البصر وأحددت . . . وشعرت بضيق في قلبي . . . وتساءلت ملتاعاً عما حدث . إذن ، هذا أنت ! من كان ينتظر ذلك ؟ ظننتك بادئ الأمر سيريوجكا ، ثم أدركت خطل ظني . وإذا بك أنت !

وبينا فاسيلي يتكلم راح يمشط لحيته بإحدى يديه ، ويلوّح بالأخرى في الهواء دون انقطاع . كان يتمنى حتى الموت أن يرى مالفا . ولكن ولده يرنو إلى وجهه في إمعان ، وعيناه المبتسمتان اللامعتان تسطعان بشكل أزعجه وأقلق باله . وكان شعور الاضطراب الذي اعتراه في حضرة عشيقته يشوّه ذينك الرضى والاعتزاز اللذين يملكان نفسه الآن وهو يجد له ابناً في مثل هذه الروعة .

وهكذا وقف أمام ياكوف ، ينقّل ثقل جسده من قدم إلى أخرى ، ويطلق عليه وابلاً من أسئلة متلاحقة لا ينتظر عنها جواباً . كل شيء في رأسه تبلبل واضطرب . وازدادت حاله سوءاً وهو يسمع صوت مالفا يخاطبه ساخراً :

– كفّ عن الوقوف والرقص فرحاً ! انطلق به إلى الكوخ ، وقدّم له شيئاً يأكله . . .

استدار إليها ، فإذا ابتسامة سخرية تلعب على شفتيها . لم يرَ لها من قبل مثل هذه الابتسامة . كان جسدها – مفتولاً ناعماً طرياً كما هو عليه دائماً – يبدو له متغيراً نوعاً ما ، بل بالحري غريباً تماماً . ونقّلت عينيها الخضراوين من الأب إلى الابن ، وهي تقرش بزرات البطيخ بأسنانها البيضاء الصغيرة . وشرع ياكوف ، وهو يبتسم ، ينظر تارة إلى أبيه وتارة إليها .

جنح الثلاثة إلى الصمت لحظات لم يعرف فاسيلي خلالها معنى للارتياح .

قطع الصمت على حين غرة قائلاً ، وهو يخطو متعجلا في اتجاه الكوخ :

– نعم ، حالاً ! لا تبقيا في الشمس هنا . اذهبا واستريحا ريثما أستقي قليلاً من الماء . . . وسنطبخ حساء السمك الفاخر سأدعوك إليه يا ياكوف . أنت لم تذق مثله من قبل قط ! سأرجع بعد برهة قصيرة . . .

وتناول قدراً عن الأرض قرب الكوخ ، وأسرع ناحية الشباك في نشاط ، ثم اختفى بين طياتها العديدة رمادية اللون .

وزرفت مالفا وياكوف في اتجاه الكوخ .

ألقت نظرة جانبية إلى بنية ياكوف المتينة وقالت :

– هذا أنت هنا ، يا فتاي الطيب ! لقد حملتك إلى أبيك .

أدار وجهه بلحية مجعدة صغيرة بنّية اللون ناحيتها واجاب تلتمع عيناه :

– بلى ، لقد وصلنا . . . يا للمكان الظريف ! والبحر ، كم هو كبير !

– نعم . إنه بحر واسع . . . حسناً ، أشاخ والدك كثيراً ؟

– كلا ، ليس كثيراً . توقعت أن أجده اكثر شيباً . فإذا رأسه يخلو إلا من شعيرات قليلة بيضاء . . . لكم يبدو قوي البنية !

– كم مضى من الزمن دون أن تلقاه ؟
– قرابة خمس سنوات ، فيما أظنّ . . . منذ غادر البيت . كنت قد بلغت السابعة عشرة . . .
ودخلا الكوخ . كان جوّه خانقاً ، والحصائر الخشنة الملقاة على الأرض تعبق برائحة السمك المملح . وجلسا . . . ياكوف على جذع شجرة غليظة ، ومالفا على كومة من الأكياس ، يقوم بينهما برميل مقطوع إلى النصف فأصبحت عاليته تستعمل خواناً للطعام . جلسا يرمقان بعضيهما في صمت وسكون .
قالت مالفا ، مدنّسة حرمة الصمت :
– أنت تريد العمل هنا اذن ، أليس كذلك ؟
– ربما . . . لست أدري . . . أودّ ذلك إن كان إليه سبيل . . .
أكدت له ، وهي تجسّه بعينيها الخضراوين المضيقتين ونظرتها ملأى بالمعاني والاسرار :
– ستجد هنا العمل الذي تبغي !
مسح ياكوف ، دون أن ينظر إلى المرأة ، العرق المتحدّر على وجهه ، بكمّ قميصه .
ضحكت مالفا فجأة :
– أعتقد أن أمك حمّلتك تحياتها لأبيك ، وربما حمّلتك توصيات ايضاً !
رماها ياكوف بلمحة جافة ، وقطّب وجهه ، وجمجم في جفوة :
– أكيد . فيم تسألين ؟
– أوه ، لمجرد السؤال فحسب !

لم ترق له الضحكة إطلاقاً – كانت تموج سخرية وخبثاً . . . استدار عن صاحبته ، وجعل يتذكّر التوصيات التي حمّلته إياها أمه . . . شيّعته حتى حدود القرية ، استندت هنالك إلى سور من الأغصان وقالت في عجلة ، وعيناها تطرفان :

– أخبره ، يا ياشا * . . . محبة بالمسيح ، قل له : ابتاه ! إن أمي وحيدة . . . وحيدة منذ خمس سنوات ! قل له إنها كبرت ! قل له ، محبة بالله ، يا ياشا العزيز ! ستصبح أمك عجوزاً في وقت قريب . . . وهي وحيدة . . . تشتغل ولا ترى شيئا آخر غير الشغل . أخبره بذلك ، محبة بالمسيح !

وانثالت تبكي في هدوء ، وقد أخفت وجهها بمئزرها .

لم يحسّ ياكوف الأسف من أجلها وقتئذ ، ولكنه يحسّه الآن . . . رفع إلى مالفا بصره ، وعبس .

قال فاسيلي ، وقد دلف إلى الكوخ يحمل سمكة في إحدى يديه ، وسكيناً في الأخرى :

– حسناً ، هأنذا رجعت !

كان قد تخلّص من حيرته ، وخبأها في أعمق أعماق صدره ، فراح يطمح ببصره إلى الاثنين في هدوء . ولكن حركاته أصبحت متعجلة بشكل غير مألوف له . قال :

– سأمضي لأُوقد النار ، ومن ثمة أعود ونتسارّ طويلاً . . . أليس كذلك ، يا ياكوف ؟

---

* ياشا – اسم التدليل من ياكوف . **الناشر** .

وغادر الكوخ ثانية .

تابعت مالفا قرش البزرات ، رانية إلى ياكـوف في هدوء وعدم كلفة . ولكنه ظلّ ، رغم تشوّقه إلى أن ينهلهـــــا بعينيه ، ناحياً بصره عنها . اربكه الصمت ، فقال :

– أوه ، تركت كيسي في القارب . سآتي به !

نهض على مهـــــل وأسرع خارج الكوخ . ورجع فاسيلي مسرعاً ، ومال على مالفا ، وقال بسرعة وفي نغمة غاضبة :

– فيمَ جئت برفقته ؟ ماذا أقول له عنك ؟ من تكونين بالنسبة إليّ ؟

فردّت في حدة :

– لقد جئت ، وهذا كل ما في الأمر !

– آه ، أنت . . . أيتها الطائشة ! ماذا عليّ أن أعمل الآن ؟ أألقي بالحقيقة في وجهه ؟ أ'لقي بها كاملة من غيــــر نقصان ؟ إن لي زوجة في البيت هي أمه ! . . . أفلا تفهمين معنى هذا ؟

فسألت مالفا وقد ضيقت عينيها الخضراوين في ازدراء :

– ماذا يهمني من ذلك كله ؟ أتظنني اخافه ؟ أو أخافك أنت ؟ لكم تبدو مضحكاً وانت تقفز أمامه ! أكاد لا أستطيع أن أمتنع عن الضحك !

– قد يبدو لك ذلك مضحكاً ! ولكـــــن ، ماذا عساني أصنع ؟

– كان ينبغي أن تفكر في ذلك من قبل !

– وكيف لي أن أعرف أن البحــــــر سيلفظه إلى هذا الشاطئ كما حدث فعلاً ؟ لم يكن ذلك في حسباني !

أعلن لهما صدى خطوات على الرمل عن اقتراب ياكوف ، فأمسكا عن الحديث . كان يحمل حقيبـــة خفيفة رمى بها في إحدى الزوايا ، وهو يشخص في غضـــب إلى المرأة من طرفي عينيه .

وتابعت مالفا قرش البزرات في لذة .

كان فاسيلي يجلس على جذع الشجرة ، يحك ركبتيـــه براحتي يديه ، حين قال مبتسماً :

– حسناً ، هذا أنت هنا ! وما الذي أغراك على المجيء ؟

– أوه ! حدث ذلك من دون قصد . . . لقد كتبنـــا اليك . . .

– متى ؟ لم أستلم أية رسالة !

– صحيح ؟ ولكننا كتبنا على أية حال . . .

فقال فاسيلي في نغمة قانطة :

– لربما ضاعت الرسالة ! أخذها الشيطان ! ما رأيك ، إيه ؟ إنها لا تضيع إلا عندما يكون المرء في حاجة ماســـة إليها !

فاستفهم ياكوف ، وقد نظر إلى والده في كثير مـــن الحذر :

– لم يبلغك إذن ما جرى في البيت ؟

– وكيف يتـــاح لي أن أعرف ما دمت لم أستلـــم رسالتكم ؟ !

فأخبره ياكوف أن حصانهم مات ؛ وأن جميع ما لديهم من حب مخزون نفد في أوائل شهر شباط ؛ وأنه لم يستطع أن يجد عملاً ؛ وأن العشـــب المجفف نفد أيضاً فأشرفت

البقرة على الهلاك ؛ وأنهم تدبروا أمرهم على صورة ما حتى نيسان ؛ ويومذاك قرروا أن عليه ، هو ياكوف ، أن يلحق بوالده بعد حراثة الأرض ، فيظلّ إلى جانبه طوال ثلاثة أشهر يكسب خلالها بعض المال ؛ وعندها كتب إليه يُعلمه بذلك القرار ، ومن ثم باعوا ثلاثة من الغنم ، واشتروا العشب المجفف والحبوب وها هو ذا قد جاء !

فعلّق فاسيلي على ذلك قائلا :

– إذن ، هذا ما حصل ! هِمْ . . . ولكن . . . كيف ذلك ؟ لقد أرسلت بعض المال ، ألم أفعل ؟

– ولم يكن كثيراً ، أليس كذلك ؟ اجرينا عدة إصلاحات في المنزل . . . كما تزوجت ماريا ، وكلّفنا ذلك مبلغاً منه . . . ثم ابتعنا آلة للفلاحة . . . وأنت . . . لقد مضى عليك خمس سنوات غائباً عنا !

– نعـ . . م ! هذا صحيـ . . . ح ! أقلتَ إن المال لم يكفِ ؟ إن القدْر تغلي ! . .

وقفز مسرعاً خارج الكوخ .

جلس فاسيلي القرفصاء قبالة النار التي تغلي القدر عليها ؛ ومسح رغوة الحساء ورمى بها في النار . كان غارقاً في لجة من التفكير العميق ، فلم تؤثر فيه الأخبار التي حملها ولده إليه كثيراً ، بل استفزت فيه بالأحرى شعوراً بالعداوة للزوجة والابن معاً . أتؤول المزرعة إلى الخراب رغم المال الكثير الذي أرسله إليهم خلال السنوات الخمس الأخيرة ؟ لولا وجود مالفا لأطلعه على شيء مما يدور في باله الآن . كيف تكون له الجرأة الكافية لمغادرة البيت دون أذن والده ،

ولا يكون له من الحكمة ما يكفيه للعناية بالمزرعة بترو ؟ وهذه المزرعة التي لم يك فاسيلي يفكر فيها الا نادراً جداً خلال حياته الخاضلة الحرة هنا قد وثبت الآن ، وعلى حين بغتة ، إلى فكره وبدت له حفرة ليس لها غور أو قاع ، ظلّ يلقي بدراهمه فيها دون جدوى طوال السنوات الخمس المنصرمة ، ورآها شيئاً لا ضرورة له في حياته ، ولا فائدة منه على الاطلاق بالنسبة إليه . حرّك ما في القدر بملعقة ، وتأوه .

بدا اللهب الصغير الأصفر الذي تبعثه النار شاحباً ضئيلاً في لمعان ضوء الشمس . وهبّت أكاليل من الدخان الأزرق الشفاف تمتدُّ من النار حتى البحر لاستقبال ما يرتطم بالشاطئ من رشاش الأمواج . وفيما هو يراقب الدخان شرع يفكر بمرارة في الانقلاب السيئ الذي ستؤول إليه حياته الآن . ستتقيّد حريته من دون ريب ، فلا بدّ أن ياكوف قد ادرك من هي مالفا . . .

كانت مالفا قابعة في الكوخ ، توزع الاضطراب في قلب الشاب بعينيها المبتسمتين أبداً ، المفصحتين عن العبث والاغواء .

قالت على حين بغتة ، محدقة بحدة في وجه ياكوف :

– أعتقد أنك خلّفت «حبيبة قلب» هناك ، في القرية . . .

فأجاب مرغماً نفسه على ذلك :

– لربما !

سألت مالفا في صوت متوان :

– أهي جميلة ؟
فما جزم ياكوف بحرف .
– لمَ لا تجيب ؟ أهي أجمل مني طلعة ؟
رفع عينيه دون إرادة منه ، وصعّد النظر في وجه المرأة ، فإذا هي غامضة لون الخدّين المستديرين ، ثغرها رتل" ، وشفتاها مكتنزتان نديتان مرتجفان تنفلقان عن ابتسامة مرحة هازئة . كان قميصها القطني القرنفلي اللون يلائمها تماماً ، ويظهر تقاطيع كتفيها المملوءتين ، وصدرها الليّن الناهد . لكنه لم يحبّ عينيها الخضراوين ، الضاحكتين ، اللتين ضيقتهما بخبث . فندّت عنه تنهيدة عميقة .
قال ، فإذا رنة توسل واستعطاف ترافق صوته رغم أنه أرادها رنة احتداد وقوة :
– فيم تتحدثين هكذا ؟
أجابت ضاحكة :
– كيف تريدني أن أتحدث ؟
– وتضحكين ؟ لِمَ ؟
– أنا اضحك منك !
فاستفهم ياكوف غاضباً ، وقد خفض عينيه مرة أخرى مرتبكاً بنظراتها :
– لِمَ ؟ ماذا فعلت لك ؟
فما أجابت .
خمّن ياكوف صلتها بأبيه ، الأمر الذي عاقه عن التحدث إليها بحرية تامة . ولم يدهشه اكتشافه . فلقد

بلغه أن الرجـــال الذين يعملون بعيداً عن دورهم يقضون وقتاً ممتعاً متلذذين بالحب . وأدرك أن رجلاً قوي الصحة عاطفيـاً مثل أبيه لا بدّ أن تصعب الحياة عليه دون امرأة هذه الفترة الطويلـة من الزمن . فشعر بالضيق والارتباك في حضرة هذه الأنثى الخوْد ، وفي حضرة والده ايضـــاً . فانتقل تفكيره إلى أمه – تلك المرأة المتعبة المتذمرة التي تعمل مثل أَمَةٍ هناك ، في قريتهم ، دون أن تعرف للراحة طعماً . . .

أعلن فاسيلي ، وقد ظهر في الكوخ :

– حساء السمك جاهز ! هاتي الملاعق ، يا مالفا !

أسفّ ياكوف النظر إلى والده ، وفكّر في نفسه :

«لا بدّ أنها تأتي كثيراً إلى هذا المكان ، مـــا دامت تعرف أين تحفظ الملاعق !»

جاءت مالفا بالملاعق ، وأعلنت أنها تريد أن تغسلها ، وأنها ستأتي بزجاجة الفودكا التي تركت في القارب .

راقبها الأب والابن معاً وهي تغادر الكوخ ، وجنحا إلى الصمت بعد أن نأت عن بصرهما ، ثم استفسر فاسيلي بعد برهة وجيزة :

– كيف التقيتها ؟

– ذهبت إلى المكتب أسأل عنك ، وكانت هناك . . . فقالت لي : فيم تقطـــع تلك المسافـــة على الشاطئ على قدميك ؟ فلنركب قارباً . أنا الأخرى ماضية إليه . وهكذا أتينا . . .

- آ . . . ه ! لطالما فكرت في نفسي وتساءلت : ترى ، كيف أصبح ياكوف الآن ؟

تطلع الابن في وجه أبيه ، وهو يبتسم ابتسامة لطيفة ردّت إلى فاسيلي فيضاً من شجاعة ، فقال :

- إنها ليست قبيحة ، ما رأيك ؟ إيه ؟

فجمجم ياكوف في غموض ، وهو يطرف بعينيه :

- لا بأس بها ، على أية حال .

فقال فاسيلي ملوّحاً بيديه :

- ما عسى أن يصنع الرجل ، يـــا أخيّ ؟ لقد تحملت وحدتي بصبر بادئ الأمر . . . ولكنني لم أستطع ذلـــك طويلاً ! إنها عادة . . . فأنا رجـــل متزوج ! وخلاف ذلك ، فهي ترفأ ثيابي ، وتقوم ببعض الأعمال الأخرى . . . وعموما . . . أنت لا تستطيع من المرأة خلاصاً أكثر من عدم استطاعتـــك الهرب من الموت !

اختتم كلامه في صراحة ، فردَ ياكوف عليه :

- وما علاقتي بالأمر ؟ ذلـــك يخصك وحدك . ليس لي أن أحكم عليك .

وأسرّ في نفسه : «لن تقنعني أن امرأة لعوباً مثلهـــا ترضى البقاء معك لترفأ لك سروالك» .

قال فاسيلي :

- ومع ذلك ، فأنا في الخامســـة والأربعين فقط . . . وأنا لا أصرف الكثير عليها . هي ليست زوجتي . . .

فوافق ياكوف :

- أكيد ، هي ليست زوجتك .

وعاد يسرُّ في نفسه : «ولكنها تبتلع ما في جيوبك على أية حال ، وأنا أراهن على ذلك !»

رجعت مالفا تحمل زجاجة الفودكا وحزمة من البارانكا ، فجلسوا يلتهمون الحساء دون أن يتفوهوا بحرف ، يمصون عظام السمك في صوت مرنان ، ثم يرمون بها على الرمل قريباً من الباب .

أكل ياكوف كثيراً وفي شهية عظيمة . ويبدو أن مالفا اغتبطت بذلك فأشرق وجهها بابتسامة عذبة وهي تراقبه ينفخ خديه اللذين صمدتهما الشمس ، ويحرك بسرعة شفتيه الغليظتين النديتين . أما فاسيلي فأكل قليلاً ، وإن جرّب أن يوحي لهما أن ذهنه ينصبُّ على طعامه وحده . لجأ إلى ذلك كيما يستطيع ، ودون انقطاع ودون أن ينتبه ابنه أو مالفا إلى ذلك ، أن يفكر في سلوكه تجاههما .

كانت صيحات النوارس الضارية تبتر موسيقى الأمواج الناعمة ، وقد خفّت الحرارة ، فراح مجرى من الهواء البارد المنعش المشبع برائحة البحر يندفع داخل الكوخ من وقت لآخر .

وثقلت عينا ياكوف بعد أن طعم هنيئاً ، وتجرّع قدراً من الفودكا ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة غباء ، فراح يفوق ويتثاءب ، وينظر إلى مالفا بطريقة جعلت فاسيلي يخاطبه قائلاً :

– ياشا العزيز ، يا بنيّ ، امض واضطجع قليلاً . خذ قسطاً من راحة . وسنوقظك حينما نهيء الشاي .

فوافق ياكوف ، وقد تجوّر سريعاً على كومة من الأكياس :

– نعم . . . هذا ما سأفعل . ولكن ، الى أين أنتما ذاهبان ؟ ها ، ها ، ها !

غادر فاسيلي الكوخ متعجلاً ، مرتبكاً من ضحك ولده . وزمت مالفا شفتيها ، وقطبت حاجبيها ، وقالت جواباً عن سؤال ياكوف :

– المكان الذي سنقصده لا يهمك ! من أنت ؟ لست غير صبي ! . . أنت لا تفقه شيئاً من هذه الأمور بعد . . .

فقال ياكوف في صوت طنان ، ومالفا تخرج من الكوخ :

– انا صبي ؟ حسناً ! انتظري . . . سأريك ! أتظنين أنك ذكية ؟

ظلّ يغمغم برهة كلاماً لا معنى له . رنّق النوم في عينيه ، فاستسلم له وقد أفعمت وجهه المتوهج ابتسامة رضى ثملة .

غرز فاسيلي ثلاثة قضبان في الأرض ، ووصل ما بين رؤوسها ، ونشر بعض الأكياس الخشنة عليها ، واسترخى في ظلها وقد وضع ذراعيه تحت رأسه ورفع بصره إلى السماء . وعندما جلست مالفا على الرمال بالقرب منه التفت اليها ، فرأت على وجهه أمارات الغيظ والسخط .

استوضحت ضاحكة :

– ما الأمر ؟ ألم يسعدك لقاء ولدك ؟

فهدد فاسيلي بصوت نكد :

- ها هو ذا . . . يضحك مني . . . وأنـت السبب في ذلك !

سألت في انشداه ممزوج سخرية :

- أوه ، والسبب أنا ؟

- ألا تعتقدين ؟

- ايها المسكين ! ماذا تريدني أن أفعـل بعد الآن ؟ أأقلع عن المجيء لرؤيتك ؟ حسناً ، لن أجيء !

فقال لائما :

- يا شيطانة ! إيه ! أنت وإياه سواء ! هو يسخـر مني ، وكذلك تفعلين أنت . . . وأنـت وهو أقرب البشر إليّ ! علام تضحكان مني ، أيها الشيطانان ؟

واستدار عن مالفا ، واعتصم بالصمت .

تشبثت مالفا بركبتيها ، وأخـذت تؤرجح جسدها في هدوء ، وألقت نظرتها الخضراء على البحر الفرح المتلألئ ، وابتسمت ابتسامة المرأة المنتصرة الواثقة من جمالها .

لاح على البعد قارب شراعي يتواثـب على أعراف الماء ، وينزلق مثل طير ضخم أخرق رمادي الجناحيـن . كان بعيداً عن الشاطئ ، يتقهقر باستمرار إلى حيث ينغمس البحـر والسماء في زرقة لامتناهية .

- ما بالك لا تتكلمين ؟

- أفكر .

- تفكرين في ماذا ؟

فأجابت ، وقد رفعت حاجبيها :

- أوه ، لا شيء على اليقين .

واضافت بعد لحظة :

– ولدك شاب رائع حقاً !

فاستوضحها ، والغيرة تنهشه :

– ما شأنك به ؟

– هذا يهمني . . .

فحدجها بنظرة فيها غضب وارتياب ، ونبر :

– حذار ! إياك والجنون ! فأنا إنسان هادئ ، ولكن الويل لك اذا اثرت ثائرتي !

وضمّ قبضتيه ، وأضاف من بين أسنانه المطبقة :

– كان في نيتك شيء حينما وصلت إلى هنا هذا الصباح . . . لست أدري ما هو بعد . . . ولكن ، إيّاك ! لن أكون رحيماً يوم أكتشفه . . . وابتسامتك هذه . . . وكل شيء آخر . . . أنا أعرف كيف أسوس جنسك ، فلا تقلقي !

فقالت مالفا في نغمة لا حسّ فيها ، دون أن ترفع عينيها إليه :

– لا تحاولنّ إرهابي ، يا فاسيا . . .

– إذن ، فلا تلعبي بالنار . . .

– ولا تتوعّدني أنت !

فجأر ، وقد ثارت حمياه :

– ساضربنّك ضرباً مبرحاً إن جرّبت التلاعب عليّ . . .

استدارت إليه ، وأدقّت النظر بفضول في وجهه الثائر ، ونبرت :

– ماذا ؟ أنت تضربني ؟

– ومن تحسبين نفسك ؟ دوقة ؟ نعم ، سأضربك . . .
فسألته في هدوء :
– ومن تحسبني – زوجتك ؟
وأضافت باقناع ، دون أن تنتظر منه جواباً :
– إذا كنت معتاداً أن تضرب زوجتـــــك دون سبب ، أفتحسب أن في مقدورك ان تعاملني عـــلى المنوال ذاته ؟ إعلم ، اذن ، انك على ضلال . سيدة نفسي أنـا ، ولا اخشى أحداً ، ولكنك أنت – أنت خائف من ولدك ! كان من العار أن ترقص أمامه هذا الصباح ! ومع ذلك تجرؤ على التهديد بضربي !
وهزّت رأسهـــا في احتقار ، وأخلـــدت إلى الصمت . فاخمدت لهجتها الباردة وكلمات احتقارها غضبة فاسيلي ، فهو لم يرها من قبل قط بمثل ما هي عليه الآن من جمال حلـــو أخّاذ . نبر :
– هيا ، أفرغي جرابك . . .
كان ناقماً عليها ، ومع هذا لـــم يستطع غير الاعجاب بها ، والإقرار بفتنتها .
واندفعت مالفا تقول :
– سأخبرك شيئا آخر ! أنت تدعي أمام سيريوجكا أنك كالخبز بالنسبة إليّ ، فلســـــت استطيع الحياة بدونك ! ولكنك مخطئ . . . لعلّي لا أحبك انت ، ولعلّي لا آتـــي لرؤيتك أنت ، وإنما لرؤية هذه البقعة من الأرض . . .
قالت هـــذا ، وحرّكت يدها حركـــة واسعة أمامها ، وأضافت :

– ولعلي أتعشق هذا المكان لأنـــه قفر مهجور . ليس فيه غير الماء والسماء ، خال من قوم يثيرون الاشمئزاز في نفسي والنفور في روحي . وجودك هنا لا شأن له . . . الأمر سيان عندي . . . كأنني أدفع مقابل وجودي هنا . . . ولـو كان سيريوجكا يقيم هنا لجئت إليه أيضاً . . . أه ، لو لم يك ههنا إنسان على الإطلاق ! . . مللتكم جميعـــاً ! . . وجمالي يمكّنني من الحصول على رجل أيّان كنتُ ، ومن انتقاء الرجل الذي أريد . . .

فحّ فاسيلي غاضباً ، وقد قبض فجأة على عنقها :

– هكذا إذن ؟ أتلك هي فكرتك ؟

هزها في عنف ، فلم تبد مقاومة رغم ازرقاق وجههـــا واحمرار عينيها . اكتفت بوضع يديها عـــلى يدي فاسيلي المطبقتين على عنقها ، وراحت تحملق في وجهه بثبات .

قال في صوت أبحّ ، وحنق شديد يملك عليه حواسه :

– أهذا هو جنسك ؟ كتمت الأمر حتى الآن ، أيتهـــا الدنسة . . . تعانقينني . . . تداعبينني . . . ساريك !

لوى رأسها وصفعها مرتيـــن ، مشفيا غليله ، بِجُمْع قوّته ، بقبضة يده على رقبتها . كـان يغتبط اعظم اغتباط وهو يحسُّ قبضته تحتكُّ بعنقها الناعم .

همهم منتصراً ، وهو يدفعها عنه :

– إليك هذه ، أيتها الأفعى !

غاصت في الرمل دون أن تئن أو تتأوه أبداً ، وتمدّدت حيث سقطت على ظهرها ، ساكنة ، صامتة ، شعثاء الشعر ،

متوردة الوجه جميلة . . . ومضت عيناها الخضراوان ، من تحت أهدابهما ، بكراهية باردة نحوه . ولكنه ، وهو يتنفس ، هائجا تحت وطأة إحساسه الشهيّ بالرضى لأنه فجّر غضبه ، لم ينتبه إلى نظرتها . وعندما رفع بصره إليها ، مزهوّا مرة أخرى ، افترّ ثغرها عن ابتسامة ، وارتجفت شفتاها الممتلئتان ، والتمعت عيناها ، وبرزت غمازتان على وجهها . فشدّ إليها بصره مشدوهاً ، وصاح وهو يشدُّ على ذراعها بقوة :

– ما هذا ، أيتها الشيطانة ؟

فقالت مالفا همساً :

– فاسكا * ، أأنت من ضربني ؟

– من دون ريب . مَنْ غيري ؟

قال هذا غير فاهم مقصدها ، ورنا إليها محتاراً لا يدرى ما يفعل . أيضربها ثانيةً ؟ ولكن غضبته جنحت إلى هدوء ، فلم يعد يتصوّر أن يرفع يده عليها مرة أخرى .

همست مالفا مرة أخرى :

– هذا يعني أنك تحبني ، أليس كذلك ؟

فبعثت تلك الهمسة دفقة حارة في جسده . نبر بصوت عابس :

– حسناً ، يبدو أنك لمّا تنالي نصف ما تستحقين بعد !

---

* فاسكا – إسم التصغير من فاسيلي فيه شيء من الاحتقار . **الناشر** .

– حسبتُ أنك لم تعد تحبني . . . قلــــت في نفسي : إنه سيطردني دون ريب بعد أن جاء ولده اليه . . .

وأطلقت ضحكة غريبة رنّ صداها عالياً جداً .

تمتم فاسيلي ، وهو يضحك رغماً عنه :

– أيتها الحمقاء الصغيرة ! من هو ولدي ؟ ليس هـــو الذي يفرض عليّ تصرفاتي !

وشعر بالخجل من نفسه ، وبالأسف من أجلها . فأضاف في صوت صارم وقد تذكر كلماتها :

– ليس لولدي دخل في هذا . . . إذا ضربتك فهـــي خطيئتك وحدك . كان ينبغي ألا تغيظيني !

فقالت ، وهي تحتك بكتفه :

– ولكنني فعلت ذلك عن عمد – لأختبرك !

– تختبرينني ؟ فيم ذلك ؟ حسناً ، لقد عرفتِ الآن !

فقالت بثقة ، وقد اغمضت عينيها نصف إغماضة :

– لا تبال ! أنا لم اغضب منك . ضربتني لأنك تحبني ؟ حسناً ، سأعوّض لك ذلك . . .

وخفضت صوتها ، وارشقـــت النظر بثبات فى عينيه ، وقالت :

– أوه ، كيف سأعوّض ذلك !

اعتبر فاسيلي ذلك وعداً منها ، وعــــداً جميلا ، يثير في نفسه فرحاً لذيذاً .

سأل باسماً :

– كيف ؟ كيف ستعوضين ذلك ؟

فأجابت في هدوء ، وشفتاها ترتجفان :

– انتظر ، وسترى . . .

فضمها ضمة عاشق ولهان ، وهتف :

– آه ، أيتها المحبوبة الحلوة !

وأضاف بعد لحظة :

– هل تعرفين ؟ لقد اضحيت أعزّ عليّ مذ ضربتك . صدقاً ! وأنا أشعر الآن أننا من صلب دم ولحم واحد !

حوّمت النوارس فوق رأسيهما ، وراحت أنفاس النسيم المندفعة من البحر تلاطفهما حاملة معها زبد الأمواج حتى قدميهما ، وضحكات البحر ترنُّ دون انقطاع او فتور . . .

تنفس فاسيلي الصعداء وقال ، وهو يداعب المرأة الملتصقة به بحنان :

– نعم ، هذه هي حال الاشياء ! لكم تبدو غريبة جميع هذه الترتيبات في الوجود ! كل شيء أثيم محبوب ! أنت لا تفهمين شيئا . . . لكنني ، أحياناً ، أفكر في الحياة فتخيفني ! بخاصة في الليل . . . عندما لا أستطيع النوم . . . أنظر ، فأرى رقعة البحر أمامي ، وفسحة السماء فوق رأسي ، وكل ما حولي مُعْتَمٌ بظلمة سوداء تجعلني ارتعش هلعاً . . . وأنا وحيد ! فأتصور نفسي صغيراً ، صغيراً جداً . . . والأرض ترتجف تحت قدميّ ، وليس من مخلوق سواي . . . حينئذ ، أتمنى أن تكوني معي . . . فيكون كلانا معاً على الأقل . . .

استرخت مالفا صامتة على ركبتيه وأغمضت عينيها . فانحنى عليها فاسيلي بوجهه الخشن – لكن اللطيف – الذي لوّحته الشمس والريح ، ودغدغت لحيته فاتحة اللون

الرمادية العريضة عنقها . فلم تتحرك المرأة ، غير أن صدرها راح يعلو وينخفض بهدوء وانتظام ، وعينا فاسيلي تتنقّلان آناً إلى البحر تستقران على ذلك الصدر الذي يصاقبه . وقبّلها في شفتيها ببطء ، وبصوت عال ، ورفّ شفتيه كمن يلتهم حساء حاراً طافحاً بالسمن .

مرت ساعات ثلاث على تلك الحال . وأطفلت الشمس ، ومالت تغوص شيئاً فشيئاً في لجة اليمّ ، فجمجم فاسيلي في صوت كئيب :

– سأذهب وأهييء الغلاية للشاي . . . سيستيقظ ضيفنا سريعاً !

تنحّت مالفا عن طريقه فى كسل مثل قطة مدللة . فأرغم نفسه على النهوض ، والتقمه الكوخ .

راقبته المرأة من خلال أهدابها المرفوعة قليلاً ، وتنهدت مثلما يتنهد المرء وقتما يزيح عن كاهله حملاً آده ثقله .

بعيد قليل كان الثلاثة حول النار يشربون الشاي .

صبغت الشمس المتضيّفة البحر بألوان منعشة بهية ، وكانت الأمواج الخضراء تبرق بألوان اللؤلؤ والأرجوان .

وبدأ فاسيلي يسأل ولده عن حوادث قريتهم وهو يحتسي شايه من قدح خزفي أبيض ، ثم يجيب عنها بنفسه بما يتذكره منها . وأرهفت مالفا اذنيها تصيخ السمع إلى حوارهما غير المتعجل دون أن تشارك فيه .

سأل فاسيلي :

– إذن ، لم يزل الرجال يتعاطون الأمور هناك ؟

– نعم ، لكن في شيء من العناء ، وكيفما اتفق . . .

– نحن ، عبيد الأرض ، لا نسأل كثيراً . أليس كذلك ؟ سقف يحمي رؤوسنا ، وما يكفينا من خبز ، وقدح من الفودكا في الأعياد . . . ولكننا لا نحصل حتى على هذا القليل . . . أتحسبني كنت اغادر البيت لو كنت أستطيع ان أرتزق في القرية ؟ انا في القرية سيد نفسي ، ند للانداد . ولكن ، من انا هنا ؟ . . . خادم ! . .

– ولكنك تنال أكثر من كفايتك من الطعام هنا . وكذلك عملك أسهل كثيراً . . .

– كلا ! لا أعترف بذلك ! إن العمل شاق جداً في بعض الاحيان حتى لتؤلمك عظام جسدك كلها . ثم أنك تعمل هنا لسيد آخر . ولكنك هناك ، في بيتك ، تعمل لنفسك . . .

فأفحمه ياكوف بقوله الواثق :

– ولكنك تكسب أكثر .

وافق فاسيلي في أعماق قلبه على ما يقول ولده : فالعمل والحياة في القرية ، أقسى من هنا بكثير . ولكنه لم يرغب ، لسبب ما ، في ان يفهم ولده ذلك ، فأجاب في احتداد :

– هل أحصيت ما نربح من مال هنا ؟ فالحياة ، في البيت ، في القرية ، يا صغيري . . .

فقاطعته مالفا ضاحكة :

– تشبه القبر ، مظلمة محشورة موحشة . . . وخاصة بالنسبة إلينا ، نحن النساء . . . لا شيء غير الدموع .

أجاب فاسيلي ، وقد وتّر نظره إليها عابساً :

– انها متشابهة ، بالنسبة اليكن ، في كل مكان . . .

كما إن النور متشابه أيضاً . أن هنالك شمسا واحدة تشرق في كل ناحية !

فهتفت متحمسة :

– مخطىء أنت ! يجب عليّ ، في القريـــــة ، أن اتزوج شئت ذلك ام أبَيْتُ . والمرأة المتزوجة هناك أَمَةٌ للأبد : تحصد ، وتغزل ، وتعنى بالماشيـــة ، وتنجب أطفالاً . . . وماذا تُرِكَ لها ؟ لنفسها ؟ لا شيء غيـــــر لعنات زوجها ولطماته . . .

فقاطعها فاسيلي :

– ليست الحياة كلها لطمات .

فتابعت مالفا ، متجاهلة مقاطعته لها :

– ولكنني ، هنا ، لا أخصُّ أحداً . أنـــا حرة كطائر النورس . استطيع أن أُحلّق ايان شئت ومتى رغبت ، ولا أحد يستطيع ان يعترض سبيـــــلي ، ولا أحد يستطيع ان يلمسني ! . .

فاستوضح فاسيلي باسماً ، يذكّرها بما حصل في ضحوة النهار :

– وإذا لمسك أحدهم ؟

– إذا لمسني . . . أُعوّض له ذلك !

اجابت مالفا بهدوء وغاض النور من عينيها ، فضحـــك فاسيلي متغاضياً :

– إيه . . . أنت قطة ماهرة ، ولكنك ضعيفة ! أنـــت إمرأة وتتحدثين كالنساء . . . الرجل ، في البيت ، في القرية ،

في حاجة إلى امرأه تكون جزءاً من حياته . . . ولكنها ، هنا ، تعيش ليلهو بها . . .

وأضاف بعد لحظة من صمت :

– ويأثم معها !

وتوقفا عن الحديث .

نبر ياكوف ، وهو يتنهد كئيبا :

– يبدو البحر وكأن لا نهاية له !

شخصوا ، ثلاثتهم ، صامتيـــــن إلى انبساط حوض الماء المترامي أمامهم ؛ في حين هتف ياكوف ، وقد بسط ذراعيه بأقصى ما يستطيع :

– ليته كان يابسة ! أرضاً سوداء ! وليتنا نستطيع ان نزرعها كلها !

– أوه ، هذا ما تحب ان يكون عليه !

قال فاسيلي ضاحكاً بلطف ، وقد أطلق بصره إلى ولده ، مستصوباً قوله ، بينا أشرق وجـــــه الأخير بالرغبة التي تمناها . لقد سرّه كثيراً ان يسمع إلى ولده يتحدث بمثل ذلك الحب للأرض ، فلعله يناديـــــه عما قريب وبالحاح فيعود ادراجه ثانية إلى القرية ، بعيداً عن هذه الحياة الحرة وعما يحيطه هنا من إغراء . وساعتئـــذ يبقى هو ، فاسيلي ، وحيداً مع مالفـــــا ، ويرجع كل شيء إلى مـــا كان عليه في السابق . . .

– ما أروع كلماتـــــك ، يا ياكوف ! هذا ما يريده الفلاحون ! الفلاح قوي على الأرض ، وطالما أنه جبّار عليها فهو يعيش . ومتى خرج منها خسر كل شيء . . . الفلاح الذي

لا ارض له كالشجرة التـــي لا جذور لها ، قد تكون مفيدة لشيء ما ولكنها لن تعمّر طويلاً – فهي ستتعفّن ! وهـــي تفسد ، بالاضافة إلى ذلك ، جمـــال الغابة وروعتها . . . فتلوح عريانة لا ثياب لها . وذلك منظر بائس لا جدال فيه ! إن ما قلت صحيح ، يا ياكوف .

فتح البحر احضانه للشمس المطفلة عازفاً لها ترحاجـــاً وتحية موسيقى أمواجه الفرحة التـــي تلوّنها خيوط الشمس الراحلة بألوان بهية زاهية حلوة . ان الشمس ، منبع النور السني ومبدعة الحياة ، تودع العَيْلَم وزينه بالألوان البراقة لكي يوقظ ، بعيداً جداً عن هؤلاء الثلاثة الذيـن يراقبونها ، يوقظ الأرض الغافية الوسنى بحواجـــب مبهجة من الشروق المتألق .

قال فاسيلي مخاطباً مالفا :

– يا إلهي ، لأشعر بقلبى يذوب عندمـا أرى الشمس تودع الأرض في طريقها إلى فراشها الليلي .

فلم تحر مالفا جواباً .

ابتسمت عينا ياكوف الزرقاوان ، وهما تستشفان البحر حتى الأفق البعيد . وهكذا قضـــوا وقتاً طويلاً ، جلوساً ، يشخصون متأمليـــن إلى حيث فنيت آخـــر لحظات النهار المودّع ، تتألق أمامهم جمرات النار ، والليل وراءهم ينشر أخيلته الغبراء فتحيط بهم وتسبغ على الرمال الصفراء لونـاً أسود من حنك الغراب . واختفت النوارس ، وغرق كل ما يحيط بهم في رداء من السكينة ، وأمسى في شبه غيبوبـــة رقيقة . . . حتى الأمواج السريعة بدت تتسابق إلى الشاطىء

الرملي . وهي أقلّ مرحاً وضجـــة وهديراً منهـــا طوال النهار . . .

قالت مالفا على غير انتظار :

– فيم بقائي ههنا ؟ آن وقت الذهاب .

فارتعد فاسيلي ، وجحَظ إلى ولده ، وتأفف :

– فيمَ العجلة ؟

ثم أضاف :

– انتظري حتى يستفيق القمر . . .

– ولم أنتظر ؟ لست خائفة . وليست هي المرة الأولى التي أذهب فيها وحيدة من هنا وقد أسجف الليل !

أطال ياكوف النظر إلى والده ، وضيق عينيه يخفـــي ابتسامة ساخرة ، ثم تطلع إلى مالفا . تفرّست فيه فأربكته وأذهلته .

قال فاسيلي ، وقد شعر بالحزن والسخط :

– حسناً ، اذهبي !

نهضت مالفا ، وأقرأتهمـــا المساءَ ، وخطت بتؤدة على الشاطىء . تدحرج الموج حتى قدميها وكأنـــه يداعبها . وفي السماء كانت النجوم – زهورهـــا الذهبية – تتلألأ وتبرق بنعومة . وبهت لون قميصها الزاهي في عجسة الليل ، وهـــي تبتعد شيئاً فشيئاً عن فاسيلي وولده اللذين يتأثرانهـــا بنظرهما .

شرعت تغني في صوت عالي النبرة :

يا ليلةَ الشعرِ ردّي حبيب القلبْ
يغفو على صدري يُنشد لحنَ الحبّْ .

وخيّل إلى فاسيلي انها استأنت في السير ، وقفت تنتظر . بصق غاضباً ، وفكّر في نفسه : «إنها تفعل ذلك عمداً لتغيظني ، تلك الشيطانة الماكرة !»

وقال ياكوف باسماً :

– يا للدهشة ! بدأت تغني !

كانت تظهر لهما ، عن بعد ، أشبه برقعة صغيرة من وميض رمادي اللون .

وسبح غناؤها فوق البحر مرة ثانية :

يلهو بنهديّا . . . والليلُ اشواقُ
لا تكتمي شيّا فنحن عشّاقُ

هتف ياكوف ، وقد عدّل وضعه إلى مصدر تلك الكلمات الفاتنة :

– أتسمع ؟

فبلغه صوت فاسيلي الجاد يستفسر :

– إذن ، لم تستطع أن ترعى المزرعة ؟

حملق ياكوف في وجه أبيه بعينين مرتبكتين حائرتين ، وعاد قابعاً في مكانه السابق . لم يحمل إليهما ضجيج الأمواج غير شظايا متناثرة من تلك الأغنية الطائشة :

أنا . . أنا . . وحدي لم أستطع نَوْماَ
فابقَ على وحدى بربّكَ اليَوْماَ

أعلن فاسيلي في صوت مكتئب ، وهو يتململ على الرمال :

– الجوُ حار ! حار بالرغم من هجوم الليل ! يا لها من منطقة ملعونة !

فأجاب ياكوف في صوت متلجلج ، وهو يشيح وجهه عن أبيه :

– إنها الرمال ، فقد احتفظت بحرارة النهار القائظ . . .

واستفسر الآب بحدة :

– هيْ ، أنتَ ! ماذا يضحكك ؟

سأل الابن في براءة :

– أنا ؟ ما عسى أن يضحكني ؟

– حقاً ، فليس ما يدعو إلى ذلك !

وجنحا إلى الصمت .

طرق سمعهما ، علاوة عن صخب الامواج ، أصوات مختلفة أشبه ما تكون بتنهدات ، أو نداء متوسل حنون .

مرّ أسبوعان .

وجاء يوم الأحد مرة أخرى . ومرة أخرى كان فاسيلي ليغوستيف مرتمياً على الرمال إلى جانب كوخه يكوي البحر بعينيه منتظراً أوبة مالفا .

كان البحر المهجور يضحك ، وهو يلاعب انعكاسات الشمس ويمرح واياها ، بينما تثب دفقات صاخبة من الأمواج تتسلّق الرمل ، فترشه برذاذها ، ثم تنهزم حتى البحر لتغرق فيه . وقد ظلّ كل شيء على حاله ، تماماً مثلما كان

عليه منذ اسبوعين ، سوى أن فاسيلي في المرة السابقـــة انتظر عشيقته في ثقة هادئة ، أما اليوم فهو يترقَّب قدومها وقد فرغ صبره وجش قلبه . هي لم تجئ الأحد الماضي - فلا بدَّ من مجيئها اليوم ! وهذا ما لا يخالجه فيه أدنى ريب . إنه يكاد يموت تحرقاً إلى لقياها . لن يتطفـــل ياكوف هذا النهار ، فقد جاء قبـــل يومين يأخذ الشبكة بصحبة عدد من الصيادين ، وقال إنه سيؤمُّ المدينـــة نهار الأحد ليبتاع بعض القمصان . لقد عثر على عمل كصياد بأجر يبلغ خمسة عشر روبلاً في الشهر ، وقد خرج للصيد مرات عديدة حتـى الآن كفرد من أفراد فرقة الصيادين فراح يبدو مرحا ومتحمسا تعبق رائحته - كأمثاله من الصيادين - بالملح والسمك ، كما اتسخت ثيابـــه كالآخرين ايضاً وتمزَّقت في أكثـــر اجزائها . تنهَّد فاسيلي ، وهو يفكـــــر في ولده ، وأسرَّ لنفسه : «وددت ان يحتفـــظ بروحه النقيـــة . . . وإلا يفسد . . . ولربما يرفض عندئذ أن يرجع إلى البيت . . . وفي مثل هذه الحال يجب عليَّ أنا أن اذهب . . .»

كان البحر مهجوراً إلا من النوارس . وبين فترة وأخرى تظهر لطخات صغيرة سوداء على طول أرض الشاطئ الضيق الذي يعزل البحر عن السماء ، تتحرك هناك ثم تختفي . ولم يَبْدُ أي قارب على مرمى النظر ، مـع أن شعاعات الشمس تضرب البحر عمودياً تقريباً . كانت العادة أن تأتي مالفـــا مبكرة .

كان نورسان يتقاتلان في الجـــــوّ بضراوة وشراسة ، فيتطاير ريشهما في الهواء ، ويُدخل صياحهما المتوحش الحادّ

نغماً ناشزاً على صدى الأمواج الضاحك الرنان المتواصل الذي يمتزج في توافق رائع منسجم مع السكون الوقور المهيمن على السماء الفسيحة . فيتردّد على مدى البحر الواسع كتلاعبات خيوط الشمس المبتهجة النشوى . ويسقط النورسان معاً نحو الماء ، وهما متماسكان بمنقاريهما ، فإذا بلغاه انفلتا ، وهما يصيحان آلماً وغضباً ، وانطلقا ثانية إلى الفضاء الحرّ يتطاردان . . . وأصدقاؤهما – سرب كامل من الطيور – يصيد الأسماك في شره وجشع فيتدهور ، غافلاً عن صراع صديقيه ، في المياه الخضراء الشفافة التي لا ترتاح ولا تفتر .

وظلّ البحر خالياً قفراً ، لا تظهر على سطحه عند الشاطىء البعيد تلك البقعة السوداء المألوفة . . .

كحّ فاسيلي في صوت مرتفع :

– ألن تجيئي ؟ حسناً ، لا تجيئي . ماذا تظنين ؟

وبصق بازدراء في اتجاه الشاطىء . فضحك البحر .

تحسحس فاسيلي للقيام ، ونهض ودخل كوخه ، وفي نيته تهيئة الغداء . ولكنه لم يحسّ رغبة في ذلك ، فكرّ راجعاً إلى حيث كان واضطجع هناك .

همهم في دخيلته ، وقد ارغم نفسه على التفكير في سيريوجكا :

– لو يجيء سيريوجكا على الأقل ! لكم هو ساخر ذلك الشاب ! إنه جذوة شر ، يهزأ من سائر الناس دون تمييز أو تفريق . إنه رجل خَصِم ، وهو دوماً مستعدٌ لخوض غمار معركة ما ، قوي كالثور ، وعلى شيء من الثقافة ايضاً . كما

أنه جاب الآفاق كثيراً . . . وعلّته أنه سكير . . . ولكن المرء لا يشعر بالملل وهو مع سيريوجكا . . . هو زير نساء ، وهبنه قلوبهنّ ، يعبث بهنّ ، كما يشاء ويهوى . ومع انه لم يمض عليه طويل وقت هنا ، فهنّ يتراكضن خلفه . ومالفا وحدها ظلّت بعيدة عنه . . . لن تجيئني . يا لها من امرأة حرون ! لربما نقمت عليّ لأني ضربتها ؟ لكن ، أهذا جديد عليها ؟ لا ريب أن الآخرين كانوا يضربونها — واي ضرب ! أفلا يجب عليّ ان أفعل ذلك بدوري ؟

وهكذا ، شرع يفكر في ابنه لحظة ، وفي سيريوجكا أخرى ، وفي مالفا اكثر الأحيان ، وهو يتململ مضطرباً على الرمال ينتظر . ونما قلقه تدريجياً وانقلب ، دون أن يلحظ هذا ، إلى أفكار شك وريبة حاول باستمرار أن يشتتها .

ظل ينتظر حتى هبوط المساء ، يرفض الاعتراف لنفسه بتلك الوساوس . فينهض مرة ، ويتمشى غدوة ورواحاً على الرمال ، ليعود فيضطجع ثانية . واخذت الظلمة تنشر برقعها الحالك على منبسط البحر ، وهو لايبرح يرنو إلى الافق البعيد يترقّب مجيء القارب .

ولم تحضر مالفا ذلك النهار .

وراح ، وهو يستعد للنوم ، يلعن حظه السيئ الذي يعوقه عن الذهاب إلى اليابسة . ظلّ يعمل فكره ، فيُصوّر له بين الفترة والفترة ، وهو غاف ، أنه يسمع صوت تجذيف بعيد ، فيقفز واقفاً ، ويهرع خارج الكوخ ، ويستكفُ براحتي يديه ، ويشخص إلى العباب الأسود الهائج المضطرب . كان لهبان من النار يحترقان بعيداً ، على

الشاطىء ، عند مباني المسمكة . ولكن البحر لا يزال خالياً .

زمزم متوعداً :

– حسناً ، أيتها الشيطانة !

واستدار ، وغطّ في النوم .

واليكم ما حدث في المسمكة ذلك النهار :

استفاق ياكوف مبكراً ، والشمس لم تكد تخرج من خدر الأفق ، ونسيم عليل يرخّم في قلب البحر . فانحدر إليه وفي نيته غسل وجهه ، فرأى مالفا على الشاطىء الرملي . كانت تجلس في مؤخرة قارب للصيد رسا على الشاطىء ، تسرّح شعرها البليل ، وقد دلّت قدميها العاريتين من فوق حافته ، فتوقف برهة يحملق فيها في وَلَه ٍ وشغف .

كان قميصها القطني ، المنحسر عن صدرها الناهد ، منزلقاً عن كتفها ، فبدت تلك الكتف الرخصة بيضاء اللون شديدة الإغراء .

والأمواج تضرب جدار القارب بلطف وتأن ، فترتفع مالفا فوق البحر تارة وتارة تغوص بحيث يلمس الماء قدميها العاريتين .

صاح ياكوف :

– تستحمين ؟

أدارت وجهها إليه ، ورمته بنظرة خاطفة . أجابت ، وهى تسرّح شعرها :

– نعم . . . فيمَ استيقظت باكراً ؟

– لقد استيقظت قبلي . . .

– وهل يجب أن تحذو حذوي ؟

فما أجاب . قالت :

– إن أردت أن تحذو حذوي ، فلا ريبة أنك تواجه مصاعب !

فردّ ياكوف ، وهو يبتسم :

– أوه ، إنها لمرعبة !

جلس القرفصاء على الأرض وشرع يغتسل .

جمع بعض الماء في راحتيه ، ورشّ به وجهه متأوهاً مغتبطاً ببرودته . ثم سأل ياكوف ، بعد ما نشّف وجهه ويديه بذيل قميصه :

– لم تحاولين اخافتي على الدوام ؟

– ولم تشخص على الدوام إليّ ؟

لم يعتقد ياكوف انها تسترعى اهتمامه اكثر من نساء المسمكة الاخريات ، ولكنه الاونة اندفع في الكلام على حين غرة ، فقال :

– تبدين مغرية ، فلا استطيع ان أُحوّل ناظريّ عنك !

فحتّت ، وهي تصوّب إليه نظرة مرح ودهاء :

– لو سمع والدك عن أعمالك لفصل عنقك عن جسدك !

ضحك ياكوف وتسلّق القارب .

لم يفهم ما قصدته مالفا بقولة «أعمالك» ، ولكنها ما دامت قد قالتها ، فذلك يعني انه قد حملق فيها اكثر من اللازم . وبدأ يشعر بالرضى والمرح .

سار على حافة القارب متجهاً اليها وقال :

– وماذا عن والدي ؟ هل ابتاعك ، أم ماذا ؟

جلس الى جانبها وشرع نظره ينحدر فوق كتفها العارية ،

وصدرها الناهد نصف المكشوف ، وجسدها بأسره – جسدها الناعم الطري القوي ، العابق برائحة البحر .

هتف مستحسناً بعد أن تفحصها بانتباه :

– أنت كالقشطة !

فاجابت في اقتضاب دون أن تنظر إليه ، ودون أن تصلح من وضع ثيابها المغرية :

– لكنها ليست لمائدتك !

فتنهد ياكوف .

كان البحر يضطجع أمامهما مترامي الأطراف تحت شعاعات شمس الصباح ، وأمواج صغيرة ساحرة تحملها إلى قلب الوجود نفحات حنون عذبة من النسيم العاطر تضرب هيكل القارب برقة فائقة . وبعيداً في عرض البحر اسودّ اللسان الرملي فبدا كندبة على صدره الحريري . وتجاه ساحة السماء الزرقاء الناعمة ينتصب صاري اللسان كخط رفيع اسود ، وقطعة القماش الحمراء في قمته تخفق بها الريح .

قالت مالفا ، دون أن تنظر إلى ياكوف :

– نعم ، يا فتاي ! قد أكون مغرية ، ولكني لست لك . . . ولم يشترني أحد ، ولست خاضعة لوالدك ايضاً . فأنا أعيش على طريقتي الخاصة . . . لكن ، إياك أن تفكر فيّ ، لأنني لا أودّ أن أقف سداً بينك وبين أبيك فاسيلي ، وأنا لا أريد أن أثير خصاماً أو مشاجرة . . . اتفهمني ؟

فاستوضح ياكوف في حيرة :

– لم تخبرينني بذلك ؟ فأنا لم ألمسك . هل لمستك ؟

– لن تجرؤ على ذلك !

كان في صوتها رنـــة استهزاء أذلّت كبريـــاء ياكوف لسببين : كونه ذكراً ، وكونه إنساناً . وتملكه شعور خبيث شرير ، فالتمعت عيناه .

هتف ، وهو يقترب منها :

– أوه ، لن أجرؤ ، ما ؟

– كلا ! لن تجرؤ !

– نفرض أنني فعلت ؟

– جرّب !

– وماذا يحدث ؟

– سأصفعك على رقبتك بحيث تطير وتهوي في الماء .

– هيا ، افعلي إذن !

– حاول ، والمسني !

ثبّت عينيه المحترقتين فيها ، ثم لفّ ذراعيـه القويتين فجأة حول عطفيها وضمّها إليه في عنف . فأرّث جسدهـــا القوي الحار في جسده تياراً من النار متأججاً لافحاً ، وأحسّ غصة في حلقه كما لو كان يُخنق .

لهث :

– ها أنت ذي ! هيا ! اضربيني ! قلت إنك ستفعلين !

فقالت بهدوء ، وهي تحاول أن تحرر نفسها من بيـــن ذراعيه المرتجفتين :

– إليكَ عني ! دعني أذهب ، يا ياشكا !

– ولكنك قلت إنك ستصفعينني على رقبتي ، ما ؟

– دعني أذهب ! والا ندمت على ذلك !

– لا تحاولي إخافتي ! أواه ! ما أحيلاك !

وضمها إليه في عنف أكثر ، وضغط شفتيه الغليظتين على خدها المورّد . فضحكت في خبث ، وأمسكت ذراعيه بشدة ، واندفعت فجأة إلى الأمام بحركة قوية من جسدها . فانقلبا ، متعانقين ، فوق حافة القارب ، وغطسا في الماء الذي تطاير في قوة وصخب ، ثم اختفيا سريعا وسط بحيرة من رغوة وزبد . وظهر رأس ياكوف فوق لجة المياه بعد قليل ، وشعره يقطر ماء ، والرعب يعلو وجهه العبوس . ثم برزت مالفا بالقرب منه .

شرع ياكوف يزمجر ويصيح ، وهو يلوّح بيديه يائساً ، ويناثر الماء حوله ، بينا راحت مالفا تضحك بشهية وتسبح حواليه ، تقذف وجهه بالماء المالح وتغطس في اليمّ متجنبة ضربات ذراعيه العريضتين .

زمجر ياكوف ، وهو ينفخ الماء من أنفه وفمه :

– أيتها الشيطانة ! سأغرق . . . هذا يكفي . . . محبة بالله . . . سأغرق . . . آه ! الماء أمرُّ من . . . أ . . . أنا . . . أغر . . ر . . ق !

تركته مالفا وسبحت إلى الشاطئ ، وهي تضرب الماء باليدين مثل رجل . وعندما بلغته تسلّقت القارب في خفة ومهارة ، ووقفت عند مؤخرته ضاحكة ، وقد أنحت بصرها إلى ياكوف يسبح في الماء متعجلا محاولا الوصول إليها . والتصقت ثيابها المبللة بجسدها ، فاستبانت أعضاؤها الجميلة من الكتفين حتى الركبتين .

بلغ ياكوف القارب أخيراً ، وتمسك بحافته باحدى

يديه ، وتطلّع في نهم إلى تلك المرأة شبه العارية التي تسخر منه في مرح .

قالت ، بين قهقهاتها :

– تعال ! أخرج من الماء ، ايها الخنزير البحري !

وجثت على ركبتيها ، ومدت له يدها ، وتمسكت بالأخرى بجانب القارب . وتعلق ياكوف بيدها ، وقال متهيجا :

– والآن ، احترزي ! سأردّها لك تغطيسة حلوة !

قال هذا ، وكان ينهض في الماء حتى كتفيه ، وشدّها بعنف نحوه . فانقضت الأمواج فوق رأسه ، واصطدمت بهيكل القارب ، ثم تناثر رشاشها على وجهها . فعبست وضحكت وزعقت على غير انتظار ، وقفزت في ملء الماء مفقدة ياكوف توازنه بصدمة جسدها .

راحا يلعبان في الماء الاخضر مرة ثانية كسمكتين كبيرتين ، يرشان بعضيهما ، ويزعقان ، يغطسان ، وينفخان .

وضحكت الشمس وهي تراقبهما يلعبان ؛ وضحك زجاج نوافذ أبنية المسمكة أيضاً وهو يردُّ شعاعاتها ؛ وطغى الماء وقرقر وهو يصطدم بأذرعهما القوية ؛ وارتعدت النوارس من هذين المخلوقين المتطفلين يتعاركان في الماء ويصخبان ، فراحت تدور وهي تزعق بصراخهما الحاد فوق رأسيهما اللذين يختفيان بين آونة وأخرى تحت الاثباج المتلاحقة المتدفقة . . .

رجعا أخيراً ، متعبين لاهثين لكثرة ما ازدردا من مياه ، إلى الشاطئ ، وجلسا تحت الشمس يستريحان .

قال ياكوف ، وقد بصق وتغضن وجهه عابساً :

– تفو ! هذا الماء نفاية كريهة ! فـــلا عجب أن يكون كثيراً !

فقالت مالفا ضاحكة ، وهي تعصر الماء من شعرها :

– ثمة نفايات كثيرة من جميع الأنواع في العالم تعافهـــا النفس ! خذ الشبان مثلاً . . . يا لله ، ما اكثرهم !

كان شعرها فاحم اللون ، كثيفاً متموجاً رغم قصره .

وافترّ ثغر ياكوف عـــن بسمة خبيثة ، ولكز مالفـــا بمرفقه ، ونبر :

– لهذا السبب اذن اخترت عجوزاً !

– العجوز افضل من الفتى في بعض الأحيان !

– إن كان الأب جيداً فالابن أجود !

– حقا ؟ من أين تعلمت مثل هذا الفخار ؟

– ما أكثر مـــا أخبرني البنات في قريتنا أننى لست قليل الخبرة أبداً !

– وماذا تعرف البنات ؟ اسألني أنا !

– ولكن ، ألست بنتاً ايضاً ؟

حدّقت إليه برهة ، بينما ضحـــك في دهاء . واتخذت مظهر الجدّ فجأة ، وقالت في نغمة تلائم مظهرها :

– كنت بنتاً ووضعت طفلاً ذات مرة !

فانفجر ياكوف في ضحكة عالية ، وصاح :

– متاع ملوّث إذن . . . مَا ؟

فجمجمت مغتاظة ، وقد نأت عنه :

– لا تكن أحمق !

ارتبك ياكوف ، وضمّ شفتيه ، ولم يقل شيئاً .

ظلا صامتين حوالي نصف ساعة ، متمددين في الشمس لتجفيف ثيابهما .

أفاق الصيادون من هجوعهم في العنابر الطويلة الوسخة ذات السقوف قليلة الانحدار . ومن بعيد بدوا جميعاً متشابهين ، ممزقي الثياب ، حفاة ، شعث الشعور . . . كانت أصواتهم الغليظة الجافة تتطاير حتى الشاطئ ، تعلو بينها أصوات خافتة تبعثها مطرقة تنهال ضرباً على قعر برميل فارغ ، فتتردّد أصداؤها مثل قرع طبل كبير . وكانت امرأتان تتشاجران بأصوات صارخة ، وكلب ينبح .

قال ياكوف :

– لقد استيقظوا ! أريد أن أذهب إلى البلدة هذا الصباح . . . ولكن هذا أنا هنا ، أضيّع الوقت بصحبتك . . .

فأجابت مالفا بين جد وهزل :

– أنبأتك أنك ستأسف كثيراً إن حذوتَ حذوي .

فاستوضح ياكوف مبتسما حائراً :

– لِمَ تخيفينني دائماً ؟

– سجّل ما أقول : ما ان يسمع والدك عن هذه . . .

فاستشاط غضب ياكوف لدى ذكر والده مرة ثانية وقال بنبرة غليظة :

– وما شأن والدي ؟ لنفرضنّ أنه سمع ؟ فلم أعد طفلاً . . . هو يظن نفسه السيد الآمر ، ولكنه لا يستطيع أن يفرض عليّ إرادته هنا . . . فلسنا في بيتنا في

القرية . . . وأنا لست اعمى . . . بل استطيع ان أرى انه ليس قديسا . . . وهو يفعل هنا ما يحلو لـه . . . إذن ، فليكفّ عن التدخل في أموري . . .

نظرت مالفا في وجهه هازئة ، وسألت بلهجة فضولية :

– لا يتدخل في أمورك ؟ لمَ ، ماذا تنوى أن تفعل ؟

فسأل ، وهو ينفخ خديه ، ويبرز صدره كمن يرفـــع عبئاً ثقيلاً :

– أنا ؟ ماذا أنوى ان أفعـــل ؟ أستطيع فعل الكثير ! الهواء الجديد نفض عني غبار القرية كله . صدقيني !

فقالت مالفا ساخرة :

– إنها نتائج سريعة !

– سأخبرك شيئاً ! أراهن أني ساربحك من والدي !

– متأكد ؟

– أتحسبينني خائفاً ؟

– أولست خائفاً ؟

فاندفع ياكوف يقول محرّضاً متهيجاً :

– انظـــري هنا ! إياك واغاظتـــي . . . وإلا . . . سأ . . .

فاستفهمت مالفا في برودة :

– ماذا ؟

فأجاب ياكوف :

– لا شيء !

استدار عنها ولم ينبس بحرف . ولكنه بدا شهماً واثقاً من نفسه .

قالت :

– انت فتي مشاكس ! للوكيـــل هنا جرو صغير اسود اللون . هل رأيته ؟ يشبهك تماماً ! ينبح ويتوعَّد عندمـا تكون عنه بعيداً . فإذا اقتربت منه هرب من دربك ، وقد لفّ ذنبه !

فهتف ياكوف غاضباً :

– حسناً ! انتظري . سأريك من أية طينة جُبلتُ أنا !

فضحكت مالفا في وجهه .

دنا منهما على مهل رجل وافي القامة ، صلب العود ، ذو وجـه قاتم تتوّجه مجموعة كثيفة من الشعر الاشعث الأحمر الناري ، يمشي في خطوات متبخترة وقد تمزّق قميصـــه القطني الأحمر المجرّد عن أي حزام على ظهره حتى الياقة ، ولفّ الرجل الكمين حتى كتفيه لوقايتهما من السقوط . كان سرواله عبارة عـــن مجموعة من شقوق مختلفـــة الأشكال والأحجام ، وقدماه حافيتين ، ووجهه مكتنزاً بالنمش ، وعيناه الزرقاوان الواسعتان تتضؤان في كبرياء ، وأنفـــه العريض الافطس يسبغ عليه مظهر صفاقة طائشة .

توقف بعد أن إقترب منهما ، ورقع جسده العاري تلمع في الشمس من خلال شقوق ثيابه التي لا حصر لها . وتنشق الهواء بصوت مرتفع ، وتطلع إليها مستطلعاً ، وأتلع وجهاً هازئاً ، وقال :

– اشتفّ سيريوجكا البارحـــــة جرعة أو جرعتين ، فاضحت جيبه اليوم كسلة لا قاع لها . . . اعطياني عشرين كوبيكاً ، وثقا أنني لن أردها اليكما . . .

فضحك ياكوف من قلبه لسماع حديثه السفيه . بينما رمقت مالفا طلعته الممزقة وتبسمت .

– اعطياني اياها ، أيهما الشيطانان ! سأزوجكما بعشرين كوبيكاً ! فهل ترغبان في ذلك ؟

قال ياكوف ضاحكا :

– أيها البهلول ! أكاهن أنت ؟

– يا أبله ! عملت انا بواباً لدى كاهن في أوغليش . . . هات عشرين كوبيكا !

فقال ياكوف :

– لست راغباً في الزواج !

فثار سيريوجكا ، وهو يتلمَّظ بشفتيه الجافتين المتشققتين :

– لا يهمُ ناولني المال . . . فلن أخبر والدك أنك كنت تلهو بفاكهته وتتذوقها . . .

– لن يصدقك ، ولو اطلعته على ذلك . . .

– بل سيفعل ، إن أنا أخبرته ! وحينئذ سيجلدك !

افتر ثغر ياكوف عن ابتسامة هازئة :

– لست خائفاً !

فقال سيريوجكا بهدوء ، وهو يضيق عينيه :

– في مثل هذه الحال أضربك بنفسي !

تحسَّر ياكوف على العشرين كوبيكاً . ولكن الصيادين كانوا اخبروه من قبل أن من الأفضل الرضوخ لطلب سيريوجكا تجنبا لمشاجرته . فهو لا يطلب كثيراً ، ولكنه ان لم يعط ما طلب فلا بدّ أن يؤذي فريسته اثناء العمل ،

أو يشبعها ضربا بلا أدنى سبب . وعندما تذكر هذا وضع يده في جيبه يصعّد تنهيداته .

قال سيريوجكا مشجعاً ، وهو يرتمي على الأرض بالقرب منه :

– هذا صحيح ! ألقِ اليّ السمع على الدوام فتصير رجلاً حكيماً !

وتابع حديثه مخاطباً مالفا :

– وأنت ؟ هل تتزوجينني قريباً ؟ قرري ! فليس في نيتي الانتظار طويلاً .

أجابت مالفا :

– لست اكثر من حزمة من قماش ممزق . . . إمضِ ورتق ثغرات ثيابك اوّل الأمر ، وبعدها نتحدث في مثل هذا الموضوع !

فحملق سيريوجكا في شقوق ثيابه في شيء من الادانة ، وهزّ رأسه ، وقال :

– يحسن جداً لو وهبتِ لي تنورة مما لديك .

فقالت مالفا ضاحكة :

– ماذا ؟

– نعم ! أنا أعني ذلك ! لا بدّ أنك تملكين تنورة عتيقة لا حاجة بك اليها .

فنصحت له قائلة :

– اشتر لنفسك سروالاً جديداً .

– كلا ! أفضل أن أشترى بثمنه خمرة . . .

فقال ياكوف ضاحكاً ، وهـــو يمسك بيده العشريـــن كوبيكاً :

– أحقاً تفضل ذلك ؟

– نعم ، لم لا ؟ أخبرني أحـــد القساوسة أن على المرء ان يعنى بنفسه لا بجسده ، ونفسي تتطلب شيئاً مـــن الفودكا ، وليس سروالاً جديـــــداً . أعطني المال ! . . وسامضي فأبتاع قليلاً من الخمرة الآن . . . وسأخبر والدك بكل شيء على اية حال .

فأجاب ياكوف ، وهو يحرك يده :

– أخبره !

وطرف إلى مالفا بوقاحة ، ولكزها بمرفقه .

لاحظ سيريوجكا ذلك . بصق ، وقال متوعداً :

– ولن أنسى تلك الجلدة التي وعدتك بها . فسأضربك بعنف عندما أجد وقتاً مناسباً !

فسأل ياكوف ، وقد بدا عليه شيء من اضطراب :

– وفيم ذلك ؟

– هذا شأني . . .

وخاطب مالفا :

– حسناً ! هل تتزوجينني سريعاً ؟

فأجابت بجد :

– قل لي ماذا سنفعل عندما نتزوّج ؟ وكيف سنعيش ؟ وحينذاك أفكر في الأمر ملياً .

فرمق سيريوجكا البحر بنظره ، وضيق عينيه ، وتلمظ بشفتيه ، وقال :

– لن نفعل شيئاً . سنستمتع بوقت جميل .
– ومن أين نحصل على الاكل ؟
فهتف سيريوجكا ، وهو يموّج ذراعه في فتور :
– ايه ! أنت تجادلين كالعجوز أمـــي . . . لماذا ؟ وأين ؟ وكيف ؟ من أيـــــن لي أن أعرف ؟ سأمضي الآن أستقى الخمرة . . .
نهض وغادرهما . . . راقبته مالفا يبتعد ، بابتسامـــة غريبة تلعب على شفتيها . في حين حدجه ياكوف بنظرة عداء . وعندما ابتعد سيريوجكا عن مدى السمع ، قال :
– عربيد وقح ، أليس كذلك ؟ لو كان هذا الزير يعيش في قريتنا للجموه سريعاً . . . وسيجلدونه جلـــدة طيبة ، ويضعون حداً لألاعيبه وخدعه . ولكنهـــم يخافونه في هذا المكان . . .
فنظرت مالفا إليـــه ، وهمهمت من بين أسنانهـــا المنقبضة :
– أيها الجرو الصغير ! أنت لا تفهم قيمته !
– وماذا ينبغى أن أفهم ؟ إن حزمـــةً من أمثاله لا تساوي أكثر من خمسة كوبيكات ، ويجـــب أن تحوي هذه الحزمة مئة منهم على أقل تقدير .
هتفت مالفا بهزء :
– أحقاً تقول ؟ هذه قيمتك انـــت . . . ولكنه . . . ولكنه زار أمكنة عديدة ، وشاهـــد بلاداً عديدة . وهو لا يخاف أحداً ! . . .
فاعترض ياكوف متفاخراً :

- أخائف أنا من أحد ؟

صمتت مالفا وراحت تراقب باهتمام الأمـواج المائسة في دلال وغنج على الشاطئ تحرّك القارب الثقيل . وطفـــق الصاري يتمايل من جهة إلى أخرى ، ومؤخرة القارب تعلـــو وتنخفض ، وهي تردُ الماء في ترجيع عالى الصوت ، كما لو ان القارب يودُ لو ينفصل عن الشاطئ ، ويغوص في البحـر الحر العريض ، غاضباً مكشراً من ذلك الحبل الـذي يثبته في مكانه .

سألت مالفا :

- حسناً ، لِمَ لا تذهب ؟

فاستوضح مجيباً :

- إلى أين ؟

- قلت إنك تريد الذهاب إلى البلدة . . .

- لن أذهب !

- إذن ، امض إلى أبيك .

- وأنت ؟

- أنا ؟

- أوتذهبين حقاً ؟

- كلا ! . .

- لن أذهب إذن .

سألت هي بهدوء :

- أوتريد أن تظلّ معلقاً برقبتي النهار بطوله ؟

فنهض وأجاب في كبرياء ، وهو يبتعد حانقاً :

- أوه ، نعم ! لكأنني إليك في حاجة ماسة !

كان مخطئاً حين قال أنه في غنىً عنها . فهو يجد الاشياء كئيبة دونها . إن شعوراً غريبـــاً قد استفاق في داخله منذ حديثه معها : شعوراً مبهماً يتبرَّم به ، ويحتجُّ ضد والده ، لم يجربه في اليوم السابق أبداً ، وكذلك لم يجربه في الصباح الباكر في ذلك اليوم ، قبل أن يلتقي مالفا . . . وبدا لــــه الآن أن والده ينتصب كالحاجز في وجهه ، بالرغم من أنه بعيد جداً في البحر ، في تلك البقعة الجرداء من الأرض التي تكاد العين تلحظها . . . ثم وضح له أن مالفا خائفــــة من أبيه . . . ولو لم تك خائفة لاختلفت الأمور بينهما .

شرد قرب ابنية المسمكة يرنو إلى الاشخاص المبعثرين فيها . كان سيريوجكا يجلس على برميل مقلوب في ظل الكوخ يعزف على البالالايكا * ويغني ، وهو يكشّر عن أنيابــــه بصورة مضحكة :

آه ، يا سيدي الشرطي ،
كن لطيفا معي وخذني إلى المحطة
فقد كنت في وليمة خمرة . . .

كان قد احتفَّ به عشرون شخصاً أو يزيد ، جميعهــم مثله في أسمال باليــة يعبقون – كأي إنسان آخر في تلك الناحية – برائحة السمك المملح وملح البارود . وكان أربع نساء ، بشعات قذرات ، يجلسن على الرمل يحتسين الشاي بعد أن يصببنه من غلاية واسعة من التنك . فى حين راح

* آلة موسيقية شعبية روسية . **الناشر** .

أحدهم ، وكان ثملاً رغم ان الصباح بعد في أوله ، يزحف على الأرض محاولاً أن ينهض على قدميه ليسقط من جديد . وفي مكان ما امرأة تزعق وتعول ، وأنغام «أرمونيكا» تالف تطرق السمع من بعيد ، وحراشف السمك تلمع في كل مكان .

عند الظهيرة ، وقع ياكوف على بقعة ظليلة بين مجموعة من براميل فارغة ، فاضطجع هنالك واستسلم للنوم حتى هبوط المساء . وبعدما استيقظ راح يجول ثانية حول أبنية الصيد ، يراوده شعور غامض بأن شيئاً ما يجرّه إلى ناحية ما .

إلتقى أخيراً مالفا ، بعد ساعة او ساعتين من التجوال ، متجوّرة على الأرض في ظل شجرة صفصاف فتية ، في مكان جدّ ناء عن أبنية الصيد . كانت متمددة على جنبها ، تحمل كتاباً ممزّقاً . وابتسمت عندما أبصرته يقترب منها .

جلس قربها ، وقال :

– إذن ، هذا هو المكان الذي اخترت الجلوس فيه ؟

فسألت في لهجة تدلّ على ثقتها من أنه فتّش طويلاً عنها :

– أفتشت عني طويلاً ؟

– أنا لم أفتش عنك أبداً !

أجاب ياكوف ولكنه ادرك في الحال انها على حق اذ هو فتش عنها فعلاً فهزّ رأسه في حيرة وذهول .

– أتستطيع القراءة ؟

– نعم . . . ولكن ليس بصورة حسنة . لقد نسيت ذلك . . .

– وأنا لا أقرأ بشكل حسن ايضاً . . . أكنت تذهب إلى المدرسة ؟

– نعم ، إلى مدرسة القرية .

– أما أنا فقد علّمت نفسي .

– حقاً ؟

– نعـم . . . عملت خادمـاً لدى محام في أستراخان ، فعلّمني ولده القراءة .

– إذن لم تعلّمي نفسك !

فحدجته ، وسألت :

– أتريد أن تقرأ بعض الكتب ؟

– أنا ؟ كلا ! . . ولمَ ذلك ؟

– أنـا أحب القراءة . أنظر . لقد سألت زوج الوكيل أن تعيرني هذا الكتاب . وهذه أنا أقرأه . . .

– وعمَّ يتحدث ؟

– يتحدث عن القديس ألكسي .

راحت تقص عليه ، في صوت عميق يوحي بالتأمـل ، كيف أن شاباً من عائلة ثرية مشهورة غادر منزل أبويـه متخليا عن جميع بهارج الحياة ، ثم رجع أخيراً معدماً يرتدي الأسمال البالية الممزقة ، وعاش بين الكلاب في ساحة دار ابويه دون أن يكشف عن هويته حتى يوم وفاته .

وسألت مالفا في صوت مخفوض بعد أن أنهت القصة :

– لمَ فعل ذلك ؟

فأجاب في نبرة لامبالية :

– من يدري ؟

كانت كثبان الرمل التي جمعتها الريح والأمواج الصاخبة ، تحيق بهما . وتسلل ناحيتهما ضجيج غامض مكتوم آت من بعيد – أصوات تنبعث من أبنية الصيد . كانت الشمس قد غربت فصبغت الرمال بلون وردي . والأوراق المبعثرة على أغصان شجرة الصفصاف غير الكثيفة ، تضطرب واهنة في النسيم الخفيف الذي يهبُّ من جهة البحر . وكانت مالفا صامتة لكن ترهف السمع بانتباه إلى شيء ما .

سألها ياكوف فجأة :

– لم لم تذهبي إلى هناك ، إلى اللسان الرملي ، اليوم ؟

– وما شأنك في ذلك ؟

فرمقها في نهم من طرف عينه ، وهو يفكر كيف يبوح بما يصبو إلى الاعتراف به .

قالت متفكرة :

– عندما أكون وحيدة ، يحدق بي السكون ، أميل إلى البكاء . . . أو الغناء . ولكنني لا أعرف أغنية جيدة . وأنا اخجل من ذرف الدموع . . .

بلغ صوتها مسمعي ياكوف خافتاً حنوناً . ولكن ما قالته لم يلمس من شغاف قلبه وتراً ، بل أرّث رغبته فيها وحسب .

قال في صوت مخفوض ، وهو يتقرب منها ، دون أن يمدّ بصره إليها أبداً :

– والآن ، أصغي إليّ ، واسمعي ما سأحدثك به . . . فأنا شاب . . .

فقاطعته مالفا قائلة في حماســة مستفيضة ، وهي تهزُ رأسها :

– وأحمق ، وأكثر من أحمق !

هتف ياكوف بزعل :

– حسناً ، لنفرض أني أحمق ! هل تتطلب هذه الاشياء من المرء ذكاء ؟ حسناً ، قولي إنني أحمق ! ولكن اسمعي ما أردت ان أحدثك به . أتحبين . . .

– كلا ، لا أحب !

– ماذا ؟

– لا شيء ! . .

فقال ياكوف ، وقد أمسك بكتفيها في لطف :

– كفى ، لا تتغابي ! حاولي أن تفهمي . . .

فنبرت في ضراوة ، وهي تدفع يديه عنها :

– امض من هنا ، يا ياشكا ! إليك عني !

هبَّ على قدميه ، وتطلع يمنةً ويسرة .

– حسناً ، طالمـا أن الأمر كذلك لن آسف على شيء مطلقـاً . الأرض تفيض بأمثالك حول هذا المكان . . . أو تظنين أنت أفضل من الأخريات ؟

فنهضت ، ونفضت الرمال عن ثوبها ، وقالت في فتور :

– يا لك من جرو صغير !

مشيا جنباً إلى جنب حتى أبنية الصيد . سارا متمهلَين لأن أقدامهما تغوص في الرمال . كان ياكوف يطلب بفظاظة كي تذعن لرغبته ؛ ولكنها ضحكت منه في برودة ، ولذعته بكلمات قاسية .

توقف ياكوف بغتـــة على مبعدة قريبـة من الأكواخ ؛ وأمسك مالفا من كتفيها قائلا :

– أنت تتعمدين تأجيـج رغبتي ! . . أليس كذلك ؟ لماذا تفعلين هذا ؟ اياك ان تفعليه !

فأجابت ، وقد تخلصت منه وخطت مبتعدة :

– قلت لك دعني وشأني !

أطلّ عليهما سيريوجكا من وراء زاوية أحد الأكواخ . وخطا في اتجاههمـــا ، وهزّ رأسه الاشعث الناري ، وقال بنغمة مرعبة :

– كنتما تتنزهان ، ها ؟ حسناً !

فصاحت مالفا ، وقد استشاطت غضباً :

– اذهبوا إلى الجحيم ، جميعاً !

وقف ياكوف قبالة سيريوجكا يصعّد فيه النظر بعبوس . كانت تفصل بينهما مسافة تقارب عشر خطوات .

وقابل سيريوجكا ياكوف بمثل نظرته . وظلاّ على هذا الغرار قرابة دقيقة مثل كبشين يستعدان للهجوم ؛ ومن بعد افترقا في سكون ، ومضى كل منهما في جهة مختلفة .

كان البحر قد أسجى ، تضيئـــه ومضات ارجوانية من أشعة الشمس الراحلة . واصوات مكتومة تنطلق من أبنية الصيد . وعلاوة على ذلك يطرق السمع ضجيج امرأة سكرى تردّد في هوس أغنية لا معنى لها :

تارارا تارارا
يا امرأة سكرى

تارارا تارارا
يا امرأة حيرى .

كانت كلمات تلك الأغنية الكريهة ، تنسل كالديدان في أبنية الصيد المشبعة برائحة ملح البارود والسمك البالي ، فتفسد موسيقى الامواج العذبة .

كان البحر البعيد وسنان مستكناً في نور الفجر الحنون يتأمل الغيوم اللؤلؤية . وعلى اللسان الرملي صيادون ناعسون منهمكون في حمل عُدّة العمل إلى قارب للصيد .

وهذه كومة رمادية من الشباك تزحف على الرمل إلى القارب ، حيث مُدّت مطوية في قاعه .

وهذا سيريوجكا حاسر الرأس ، نصف عريان كعادته ، يقف في مؤخرة القارب يسأل الصيادين الاسراع بصوته الأجش الثمل ، والريح الرخاء تتلاعب باسماله وتجعّد شعره المشرّب باللون الناري القاني .

صاح أحدهم :

– فاسيلي ! أين المجاذيف الخضر ؟

كان فاسيلي عبوساً مثل يوم خريفي مكفهر ، يكوّم الشبكة في القارب ، وسيريوجكا يرمق ظهره المنحني وهو يلعق شفتيه – إشارة إلى رغبته في أن يجرع شيئاً من الخمرة يطرد بها الصداع بعد ثمل الامس .

سأل :

– ألديك شيء من فودكا ؟

فأجاب فاسيلي عابساً :

– نعم .

– إذن ، لن أبحر في هذه الحال . سأبقى هنـــا على الأرض الجافة .

وصاح أحدهم عن الشاطئ :

– نحن مستعدون !

فأمر سيريوجكا :

– أبحروا !

وقفز من القارب ، وتوجه إلى الرجال قائلاً :

– اذهبوا أنتم ، وسأتخلّف أنا هنا . اعملوا على نشر الشبكة على مدى كاف ، واحذروا أن تنعقد . فإذا نشرتموها بانتظام لا تكن العقد كثيرة !

ودفع القارب إلى المـاء ، فتسلقه الصيادون ، وحملوا مجاذيفهم وثبتوها في أماكنهـا ورفعوهــا ينتظرون الأوامر بالانطلاق .

– واحد !

ارتطمت المجاذيف بالماء بضربة واحدة ، وانطلق القارب إلى فسحة البحر العريض وقد أضاءه نور الفجر المشعشع .

– اثنان !

أصدر القائد من وراء الدفة أمره ، فارتفعت المجاذيف وضربت على جانبي القارب كمخالب سلحفاة عظيمة .

– واحد ! اثنان !

لم يبق عند النهاية الجافة للشبكة المربوطة إلى الشاطئ

غير خمسة رجال بينهم سيريوجكا وفاسيلي . وارتمى أحد الرجال على الأرض ، وقال :

– سأغفو قليلاً . . .

فحذا حذوه آخران ، فإذا ثلاثة أجسام تتلفّع الأسمال البالية القذرة تتجعد وتنكمش منطرحة على الرمال .

استوضح فاسيلي سيريوجكا ، وقد مشيا ناحية الكوخ :

– كيف لم تحضر نهار الأحد ؟

– لم أقدر . . .

– لمَ ؟ هل كنت سكران ؟

فأجاب سيريوجكا في فتور :

– لا ! بل كنت اراقب ولدك ، وكذلك زوجة ابيه .

شخر فاسيلي بابتسامة ملتوية :

– لقد وجدت لنفسك عملاً رائعاً ، ما ؟ أهما طفلان صغيران ؟

– هما شر من ذلك . . . أحدهما أحمق . . . والثانية قديسة . . .

فسأل فاسيلي ، وعيناه تلمعان شرراً :

– ماذا ؟ مالفا قديسة ؟ أهي كذلك منذ زمن طويل ؟

– روحها لا تتفق وجسدها ، يا أخي . . .

– إن لها روحاً آثمة !

فأشرع سيريوجكا نظراته إلى فاسيلي من طرفي عينيه ، ونفخ في ازدراء :

– آثمة ! ما ؟ أنت . . . أنت ، ريفي بليد ! انت لا تفقه شيئاً . . . وكل ما ترغبه في المرأة أن تكون ممتلئة

الثديين . . . وأنت لا تعير أدنى اهتمام لشخصيتها أبداً . . . ولكن أفضل ما في المرأة هو شخصيتها . . . فالمرأة التي لا شخصية لها كالخبز الذي لا ملح فيه . أيمكن ان تعزف على البالالايكا ألحاناً جميلة إن كانت دون أوتار ؟ مغفّل !

سخر فاسيلي :

– هيه ، يا للحديث العذب ! يبدو أنك شربت كثيراً بالامس !

كاد يموت تشوّقاً لسؤال سيريوجكا أين التقى ياكوف ومالفا ، وماذا كانا يفعلان ، ولكنه خجلان من ذلك الخجل كله .

سكب قدحاً من الفودكا حين ضمّه الكوخ ، وقدمه إلى سيريوجكا ، آملاً أن تُثمله تلك الجرعة في الحال وتحلّ عقدة لسانه ، فيخبره قصة الاثنين من تلقاء نفسه .

اشتفّ سيريوجكا القدح ونحنح ، وجلس متألق الوجه قرب باب الكوخ ، وتثاءب وتمطّى ثم قال :

– هذه الجرعة اشبه بازدراد النار !

فهتف فاسيلي ، وقد حيّرته تلك السرعة التي جرع سيريوجكا بها قدح الفودكا :

– ما اخفك في الشرب !

فأجاب الصعلوك ، وهو يهزّ رأسه الاحمر ويمسح شاربيه المبتلين براحة يده وكانت لهجته تشبه لهجة الواعظ :

– بلى ، خفيف الشرب سريعه ، بلى ، انا اشرب

بسرعة ، يا أخي ! فأنا أعمل كل شيء بسرعة دون مماطلة او تسويف على الاطلاق . شعاري على الدوام هو : سِرْ باستقامة أبداً ! وليس مكان الوصول موضع بحث مطلقاً ! إن علينا جميعاً أن نسلك الطريق ذاتها . من غبار إلى غبار آخر . . . وأنت لا تستطيع أن تنجو من ذلك . . .

فاستفهم فاسيلي ، وهو يقود الحديث في تحفظ وحذر إلى الموضوع الذي يشغله :

– كنت تريد أن ترحل إلى القوقاز ، أليس كذلك ؟

– سأرحل حينما أشعر بحاجة إلى الذهاب . فإذا راودتني رغبة ما فلن أتأخر – بل أحققها مباشرة ! فأنا إما ان أحقق ما ابتغيه ، أو احطم رأسي على أحد هذه الصخور . . . كل ذلك واضح جداً وبسيط للغاية !

– ولا أبسط منه ابداً ! يبدو أنك تعيش دون أن تستعمل رأسك . . .

فحدج سيريوجكا فاسيلي بعينين ساخرتين ، وقال :

– أنت تحسب نفسك ذكياً ، أليس كذلك ؟ كم مرة جلدوك في مركز الشرطة ؟

فرمى فاسيلي سيريوجكا بمثل نظرته ، ولم يفه بحرف . فأعاد السكّير القول متفاخراً :

– ما أحسن أن يدفع الشرطي بالعقل إلى رأسك من الخلف ! إيه ، أنت ! ماذا تفعل برأسك ؟ وإلى أين تظنه يقودك ؟ وماذا تستطيع ان تكتشف به ؟ ألست على حق ؟ ولكنني أندفع في الحياة دون مشورة رأسي ، ولست أهتم بما

يجري بعد ذلك مطلقاً ! أنا أراهن أني أستطيع أن اذهب إلى أبعد مما تستطيع أنت . . .

فأجاب فاسيلي ضاحكاً :

– نعم ، أصدق أنك تفعل ! تستطيع ان تمضي بعيداً جداً حتى سيبيريا . . .

فغرق سيريوجكا في قهقهة عالية .

إن الفودكا ، خلافاً لما كان فاسيلي يرجو ويأمل ، لم تؤثر في سيريوجكا أدنى تأثير . فحمي وطيس غضبه وغلت مراجله . إنه يستطيع أن يدعوه إلى قدح آخر ، ولكنه يخاف على الفودكا . وهو لن يستطيع ، من جهة أخرى ، أن يستنبط شيئاً ما دام سيريوجكا صاحياً يقظان بعد . . . ولكن السكير تطرّق الى الموضوع من تلقاء نفسه .

استفسر يقول :

– كيف لم تسأل عن مالفا ؟

فأجاب فاسيلي بعدم اكتراث ، وإن كان يرتجف في واقع الأمر بتأثير نوع من التوتر النفسي :

– وما يدفعني إلى ذلك ؟

– إنها لم تحضر إليك الأحد الماضي ، أليس كذلك ؟ لمَ لا تسأل عما فعلت في هذه الأيام الأخيرة ؟ أنت غيّور عليها . ألست أنا على حق ، أيها الشيطان العجوز ! ؟

فهمهم فاسيلي ، وهو يحرك يده حركة استهزاء :

– هنالك الكثيرات مثلها !

قلّده سيريوجكا بصوت ساخر :

– كثيرات مثلهـــا ؟ إيه ! أيهـــا الجلـــف القروي !

آنت لا تستطيـــع أن تميّز بين العســـل والقطران .

فقال فاسيلي هازئاً :

– لماذا تنفخ في النار وتزيدها حطباً ؟ أجئت إلى هنـا لتعمل عمل عود الثقاب ؟ تأخرت كثيراً إذن ! أم أنك جئت خاطباً جامعاً رأسين إلى وسادة واحدة !

نظر سيريوجكا اليه في صمت لحظة من زمن ، وقال في اقناع وهو يضع يده على كتف فاسيلي :

– أنا ادري أنها تعيش معك . ولست أتدخل بينكما ، فلا حاجة لي إلى ذلك . . . ولكن ياشكا الآن ، وهو ولدك ، يحوم حولها . فانه الأمر سريعاً معه . هـل تسمع ما أقول ؟ فإذا لم تفعل أنت – فعلت أنا . . . فانت رجل طيب . . . غير أنك غليظ القلب ككتلة من خشب . . . وأنـا لا أتدخل في الأمر . . . وإنما أريد لك أن تتذكر هذا !

وأجاب فاسيلي في صوت كالح :

– هذا ظنّك إذن ؟ أنت تلاحقها بدورك ، إيه ؟

– بدوري ؟ ! لوكنت أرغب في ذلك لمضيت إليها منذ أمد بعيد ، وكنت كنّستكم جميعاً من طريقي . . . لكن ، إلى أين اذهب معها ؟

استوضح فاسيلي بأرتياب :

– لماذا اذن تدسُ أنفك في الموضوع ؟

فأذهل السؤال البسيط سيريوجكـا فالتقـم فاسيلي بعينين مفتوحتين ، وضحك طويلا ، وقال :

– وفيمَ أدسُ أنفي ؟ الشيطان وحده يدري ! . . .

ولكن ، يا لها من امرأة ! إنها فلفل وبهار ! وأنا أحبها ! بل لعلّي أنا آسف من أجلها . . .

رفع إليه فاسيلي بصره مرتاباً ، ولكن قلبه حدثه أن سيريوجكا صادق فيما يذهب إليه . قال :

– لو كانت عذراء لم تمسسها يد لأستطعت أن أفهم أسفك من أجلها . وبما أنها . . . فإن ذلك يبدو لي غريباً !

ظلَّ سيريوجكا معتصماً بصمته ، يراقب قارب الصيد يبتعد في عرض البحر وهو يرسم دائرة عريضة ليأخذ اتجاه الشاطئ . واتسعت عيناه وفاضتا صراحة واخلاصاً ، وعلت وجهه سيماء البساطة واللطف .

لانت حدة فاسيلي ، وهو يحملق فيه :

– نعم ، أنت على حق ! فهي امرأة رائعة . . . ولكنها لعوب قليلاً . . . أما ياشكا فسأؤدبه ، ذلك الجرو الصغير !

وقال سيريوجكا :

– أنا لا أحبه . . .

فكزَّ فاسيلي من خلال أسنانه المنطبقة ، وهو يمشط لحيته :

– أنت تقول إنه يتودَّد إليها ؟

فقال سيريوجكا مؤكداً :

– سيحول بينك وبينها . صدقني !

وتفجرت شعاعات الشمس المستيقظة فوق الأفق كمروحة مفتوحة وردية اللون ، ووصلت إلى سمعهما ، علاوة على صوت

الأمواج ، صيحة خفيفة من القارب البعيد في صدر البحر :

- هـ . . . ا . . ي ! هيا جرّوه !

أمر سيريوجكا :

- انهضوا ، أيها الشبان ! هيا ! إلى الشبكة !

بعد وقت قليل اخذ جميعهم يسحبون جزءاً من الشبكة . وكان حبل طويل مشدود ، مرن كالوتر ، يمتد من الماء حتى الشاطئ ، والصيادون يربطون به احبالهم للجر ، ينحنون ويلهثون وهم يجرونه إلى اليابسة .

في أثنـــاء ذلك كان قارب الصيد يتواثب فوق الأمواج بخفة ، وهو يسحب طرف الشبكة الآخر في اتجاه الشاطئ .

ونهضت الشمس ، ، لامعة بهية ، فوق البحر العباب .

التمس فاسيلي من سيريوجكا :

-إذا رأيت ياكوف فأخبره أن يزورني في الغداة .

- حسناً !

وانزلق القارب على الشاطئ ، وراح الصيادون ، وهـم يقفزون منه ، يتخاطفون الجزء الخاص بكل منهم من الشبكة ويجرونها . وشرعت الشرذمتـــان تتقاربان شيئاً فشيئاً ، في حين أخذت غمّازات الشبكة تشكل ، وهي تهتز ارتفاعـــاً وانخفاضاً مع الماء ، نصف دائرة تامة غير منقوصة .

في ساعـــة متأخرة من ذلك اليـــوم ، والصيادون في المسمكة قد انهوا تناول عشاءهم ، تربعت مالفـــا ، متعبة غارقة في التفكير ، على قارب تالف مقلوب وقد مدّت بصرها

إلى البحر الملتف بالدجى . ومن بعيد كان ضوء يلتمع عرفت فيه مالفا النار التي أحياها فاسيلي . كان الضوء ، مثل نفس وحيدة تائهة في عرض اليم المظلم ، يتأجج آونة ويستكنُ آونة أخرى ، وكأنه ينازع سكرات الموت . أحسّت مالفا بالكآبة وهي تراقب تلك البقعة الحمراء ضائعة في القفر ، تخفق بضآلة وسط اندفاعات الأمواج الدائمة . وفجأة صافح سمعها صوت سيريوجكا يرنُ وراءها :

– لمَ أنت جالسة ههنا ؟ .

فاجابت ، دون ان تلتفت إليه :

– وما شأنك أنت ؟

– إن لي شأناً في ذلك !

جنح إلى الصمت ، وراح يرمقها من قمتها حتى أخمصها . لفّ لفافة ، أشعلها ، واقتعد قبة القارب المقلوب .

قال بعد برهة ، في لهجة توددية :

– أنت امرأة مضحكة ! فأنت مرة تختبئين من أحد الناس ، ثم تتعلقين برقبته مرة أخرى .

فقالت في نبرة لامبالية :

– أنا غير متعلقة برقبتك ، ها ؟

– كلا ، ليس برقبتي ، بل برقبة ياشكا .

– أغيّور أنت ؟

– هِمْ . . . فلنتحدث صراحة ، ومن أعمق أعماق القلب ، إيه ؟

اقترح سيريوجكا ذلك ، وهو ينقر على كتف مالفا . كانت

تجلس مجانبة له ، فلم يستطع أن يرى تعابير وجهها حين قالت في قسوة :

– حسناً !

– هل أهملت فاسيلي ؟

– لست أدري .

وأضافت بعد برهة قصيرة :

– فيم تسأل ؟

– لمجرّد السؤال لا غير . . .

– أنا ناقمة عليه .

– لمَ ؟

– ضربني .

– صحيح ؟ ماذا ، هو ؟ وسمحت له ان يفعل ؟ أوه ، أوه !

ذهل سيريوجكا ، فشخص إليها بنظرة جانبية ، وتمطّق بشفتيه ساخراً ، فقالت في حمية :

– لم أكن أدعه يفعل لولا رغبتي في ذلك .

– لِمَ لم تمنعيه آنذاك ؟

– ما شئت أن أفعل .

فقال ساخراً ، وهو ينفخ دخان لفافته ناحيتها :

– هذا يعني أنك غارقة في حب ذلك القط العجوز حتى ذؤابة رأسك . وذلك يدهشني ، فلم أكن أظنّ أنك واحدة من ذلك النوع. . .

فاجابت في صوت لامبال ، وهي تلوّح بيدهـــا لتطرد الدخان عنها :

– أنا لا أحبُّ أحداً منكم !

– هذا كذب .

– وفيم أكذب ؟

استطاع سيريوجكا ان يكتشف في نغمة صوتها انها صادقة حقا . فاستفسر في صوت ثاقب :

– لو لم تحبيه لما سمحت له بضربك ؟

– وكيف أعرف ؟ لمَ تضايقني ؟

قال سيريوجكا وهو يهزُّ رأسه :

– غريبة !

وغرقا في الصمت زمناً طويلاً .

هجمت جيوش الظلمة ، وراحت السحب ترمي خيالاتها الواسعة على البحر وهي تخبُّ الهوينى على طول السماء ، والأمواج تقرقر .

كان الضوء الذي تبعثه النار التي أوقدها فاسيلي فى اللسان الرملي قد انطفأ ، غير أن مالفا ظلت تشخص إلى تلك الناحية ، وسيريوجكا يرنو إليها . قال :

– أخبريني ، أتعرفين ماذا تريدين ؟

فأجابت في صوت مخفوض مخفوض ، وهي تطلق تنهيدة عميقة :

– لو كنت أدري حسب !

فقال مؤكداً :

– إذن لا تدرين ؟ هذا سيئ ! أنا دائماً أعرف ما أريد !

وأضاف ، وقد سيطرت الكآبة على صوته :

- والمصيبة أنني ما أندر ما أريد شيئاً !

فقالت مالفا مفكرة :

- أنا دائماً أريد شيئاً ما . ولكن ، ما هو ؟ لست أدري . أحسُ أحياناً أنني أودُ أركب قارباً وأمضي في البحر . . . بعيداً ، بعيدا كيلا أرى أحداً بعد الآن . واحياناً أحسُ أنني اودُ أن أعبث برؤوس سائر الرجال ، وأجعلهم يدورون كالخذروف حولي ، وأتطلع إليهم وأغرق في الضحك . وأحياناً أحسّ بالاسف من أجلهم جميعاً ، ومن أجلي أكثر منه من أجلهم . وأحياناً أودُ أن أقتلهم جميعاً ، ثم أقتل نفسى . . . وأحياناً أحسُ الحزن ، وأحياناً السعادة . . . ولكن جميع من يحيطون بي يبدون لي بليدين ، خاملين ، يشبهون كتلاً قُدّت من خشب صلب .

فوافق سيريوجكا :

- أنت على حق ، فالناس تافهون . لقد نظرت إليك اكثر من مرة ، وقلت في نفسي : لا أنت سمكة ، ولا قطة ، ولا دجاجة . . . ومع ذلك لك طابع خاص . . . فانت لا تشبهين الأخريات .

فقالت ضاحكة :

- وشكراً لله على ذلك على الأقل !

ارتفع القمر الأضحيان فوق كثبان الرمال عن يسارهما وأراق نوره الفضي على البحر . وطفق يسبح في تماهل ، كبيراً وديعاً ، على طول قبة السماء الزرقاء ، فشحبت أضواء النجوم اللامعة واختفت في ضوئه الساحر .

ابتسمت مالفا ، وقالت :

– أتدري هذا ؟ أفكر أحياناً كم يضحك أن أشعل النار ليلاً في أحد هذه الأكواخ . أية ضجة تنشأ عن ذلك اذن !

فقال سيريوجكا مشدوهاً :

– هذا صحيح !

وربت على كتفها فجأة ، واضاف قائلاً :

– أتدرين ماذا ؟ سأعلمك لعبة محيرة ، وسنلعبها معاً . أتحبين ذلك ؟

فقالت ، وهي تحترق فضولاً :

– طبعاً !

– لقد ألهبت ناراً في قلب ياشكا ، أليس كذلك ؟

فاجابت مقهقهة :

– إنه يشتعل كالاتون !

– أطلقيه في وجه أبيه ! سيكون ذلك مضحكاً وربي . . . وسيحملان بعضهما على بعض مثل دبين . . . فتكيدين الشيخ قليلاً ، والشاب قليلاً . . . ثم نضعهما أحدهما في وجه الآخر . ما رأيك ، إيه ؟

استدارت ، ورنت متروية إلى وجهه المرح الأحمر الباسم . كان يبدو ، وقد أضاءه القمر ، أقلّ نمشاً مما هو عليه في أشعة الشمس الملتهبة آن النهار ، لا يحمل أثراً للحقد ، بل لا يحمل شيئاً غير ابتسامة طيبة خبيثة نوعاً ما .

سألته مالفا في تشكك :

– وماذا يدفعك إلى بغضهما ؟

– أنا ؟ . . أوه ، إن فاسيلي إنسان لا بأس به . وهو شخص طيب . ولكن ياشكا . . . شرير . أنني أبغض جميع

الفلاحين . . . إنهم خبثاء ! فهم يتظاهرون بالفقر والحاجة ، ويأخذون الخبز ، وكل ما يُعطى لهم ! لديهم الزمستفو * ، والزمستفو تقدم لهم كل شيء . . . إن لديهـــم مزارعهم ، وأرضهم ، وماشيتهم . . . ولقد خدمت مرة سائق عربة لدى طبيب زمستفو ، ورأيت الكثير منهم . . . ومن ثم كنت قد تشردت مدة طويلة . كنت أذهب أحيانـــاً إلى إحدى القرى ، وألتمس قطعة من الخبز ، فيشنُّ الجميـــع عليّ هجوماً من كل حدب وصوب . . . من أنت ؟ ما عملك ؟ أين جوازك ؟ . . ضربوني مرات عديدات . . . مرة لأنهـــم كانوا يعتبرونني سارق خيول ، ومرة أخرى بدون ذنب على الاطلاق . . . وحدث أنهم اعتقلوني وحبسوني . . . وهم يشتكون دائماً ، ويدّعون الفاقة . ولكنهم يعرفون كيف يعيشون ! ولديهم على الدوام ما يعتمدون عليه – الأرض ! فهل استطيع أن أقف بوجههم ؟

قاطعته مالفا سائلة بعد أن اصغت إلى كلامه بانتباه :

– ألست من الفلاحين ؟

فأجاب ببعض خيلاء :

– كلا ! أنا مدني . مواطن من اوغليش .

فاخبرته مالفا في نبرة متأملة :

– وأنا من بافليش .

وتابع سيريوجكا :

– ليس لي من يدافع عني ! ولكن الفلاحين . . . هم يستطيعون العيش ، أولئك الشياطين ! إن لديهم الزمستفو ، وأشياء كثيرة أخرى تماثلها !

* إجهزة الادارة الذاتية في الأرياف . **الناشر** .

فاستفسرت مالفا :

– وما هو الزمستفو ؟

– ما هو الزمستفـــو ؟ وحده الشيطان يدري ! لقـد أسسوها للفلاحين ، وهي أدارتهـــم . . . لكن ، فليمضوا وإياها إلى الجحيم . . . ولنعد إلى شأننا – هل ترتبين تلك النكتة الصغيرة ؟ إنها لن تسبب ضرراً ما . بل سيتشاجران ليس غير ! . . لقد ضربك فاسيلي . ألم يفعل ؟ حسناً ، فلينتقم لك ولده !

فقالت مالفا باسمة :

– إنها فكرة جيدة !

– تأملي فقط . أليس مشهداً بديعـــاً أن تشاهدي شخصين آخرين يحطمان أضلاعهما بسببك ؟ وذلك كله لمجرّد كلمـــة واحدة منك ! تهزين لسانك مرة او مرتين . . . ويتشاجران مثل المطرقة والسندان !

وانطلق سيريوجكا يشرح لمالفا طويلاً ، وفي حمية عظيمة – وهو يتحدث بين الهـــزل والجد – جاذبيـــة الدور الذي ستلعبه . قال في الختام :

– آه ، لو كنتُ فقط امرأة حسنة الطلعة ! إذن كنت أثير ما لا يحصى من المشاكل في هذا العالم !

ووضع يديه على رأسه وشدهما بقوة واغلق عينيه وجنح إلى الصمت .

كان القمر ممتطياً قبة السماء عندما افترقا . وازداد ، بعد افتراقهما ، جمال الليل وسكونه . ولم يبق هناك سوى البحر الوقور غير المحدود ، الذي صبغه القمر باللون الفضي

والسماء الزرقاء المتلألئة بالنجمات . وكانت هنالك أيضاً كثبان الرمال وأدغال الصفصاف منتشرة بينها ، وعمارتان طويلتان قذرتا الجدران تبدوان على الرمال كنعشين كبيرين خشني الصنع . بيد ان ذلك كله بدا حقيراً ، زهيداً ، تافهاً ، إذا قورن بالبحر العظيم . وكانت هنالك النجوم أيضاً ، تراقب هذا كله بضوء خافت باهت .

كان الأب والابن جالسين أحدهما قبالة الآخر في الكوخ ، ينهلان جرعات من الفودكا . وقد أحضر الابن الخمرة على أمل إسباغ شيء من المتعة على زيارته لأبيه ، واستدراراً للعطف في فؤاده . فقد أخبره سيريوجكا أن والده ناقم عليه بسبب مالفا . . . وأنه هدّد بضربها حتى الموت . . . وأن مالفا تعلم ذلك . . . ولهذا لم تمنحه نفسها . . . كما أخبره سيريوجكا هازئاً :

— وسينتقم من ألاعيبك ، ويشدُّ لك أذنيك حتى تزيدا عن الارشين * طولاً . فيحسن بك الا تعرّض نفسك لأنظاره أبداً !

استفزت سخرية هذا الشاب الأحمر شعره الشنيعة في صدر ياكوف ، غضبة لاهبة ضد والده . كان تردد مالفا يتوّج ذلك كله : كيف كانت تنظر إليه في كآبة مرة ، وفي اشتياق مرة أخرى ، مما هيَّج فيه النار والرغبة في امتلاكها ، فأضحى من المؤلم أن يتحمل أوارها أكثر من ذلك . . .

وهكذا شرع يرى والده ، وهو في زيارته ، عقبة في

---

* مقياس طول روسي قديم يسوى ٧١ سنتيمتراً . **الناشر** .

سبيله ، عقبة لا يستطيع أن يقفز من فوقها ، ولا أن يدور حولها . لكن الخوف من أبيه لم يراود نفسه مطلقاً ، فجلس قبالته ينظر في جرأة إلى عينيـــه الخبيثتين العابستين كمن يقول :

– تجاسر والْمَسْني !

كانا قد نهلا جرعتين من الشراب ، ومع هذا لم يتفوّها بحرف واحد ، سوى ملحوظة أو ملحوظتين عابرتين عن أمور تتعلق بحياة المسمكة . جلسا يواجه كل منهما الآخر ، في عرض البحر ، يكدّسان الغضب في قلبيهما ، والنقمة ضد بعضيهما ، وكلاهما يعرف أن هذا الغضب سيفور سريعـــاً فيسلقهما معاً .

كانت الحصائر الخشنة التي تغطي سقف الكوخ تخشخش في الريح ، وقطع القشرة تقرع بعضها بعضاً ، والخرقة الحمراء المعلّقة في قمة الصاري تخفق وتلهو محدثة ضجة مرتفعة مرتجفة . . . وكانت هذه الأصوات جميعهـــا خافتة تمتزج وتشبه أصواتاً هامسة ، نائية ، متنافرة ، تترجّى باستحياء شيئاً ما .

سأل فاسيلي في صوت قاس :

– ألا يبرح سيريوجكا سكران ؟

فأجاب ياكوف ، وهو يصبُّ مزيداً من الفودكا :

– نعم ، فهو يسكر كل ليلة .

– سيجرّه ذلك إلى الموت . . . تلك هي إذن الحياة الحرة . . . لا خوف فيها ! لسوف تؤول بدورك إلى مثل هذه الحال . . .

فردّ ياكوف في جفوة :
– كلا ، لن يقع ذلك !
تابع فاسيلي مقطب حاجبيه :
– لن يقع ذلك ؟ أنا أعرف ما أقول . . . كم من الوقت مضى عليك هنا ؟ هذا هو الشهر الثالث . لقد آن وقت أوبتك إلى البيت . أتحمل معك كثيراً من المال ؟
التقط قدحه غاضباً ، وقذف بالفودكا في جوفه . وجمع لحيته في راحة يده ، وشدّها بعزم حتى انحنى رأسه معها .
قال ياكوف في نبرة معقولة :
– أنا لم أستطع أن أدّخر كثيراً منه في هذه المدة القصيرة التي قضيتُ هنا .
– إذا كان الأمر على هذا الغرار فمعناه ألا مبرّر لبقائك هنا بعد الآن . فارجع إلى البيت ، إلى القرية !
ابتسم ياكوف ولم يقل شيئاً .
سأل فاسيلي حانقاً ، وقد أهاجته برودة ولده :
– ما معنى تكشيرك هذا ؟ وكيف تجرؤ على الضحك عندما يتحدث والدك إليك ؟ حذار ! لقد شرعت باستعمال حريتك باكراً جداً ! لسوف ألجمك سريعاً . . .
فصبّ ياكوف مزيداً من الخمرة واشتفّه . استفزه تبكيت والده فغلى غضبه وثار . ولكنه تمالك نفسه ، وحاول ألا يبوح بما يجول في خاطره ليتجنّب تسعير ثورة أبيه . والحقيقة أنه كان خائفاً بعض الخوف من حدة والده ، وحتى من قسوته ، وكلتاهما ارتسمتا في عينيه بوضوح تام .

فاستشاط فاسيلي غيظا وقد لحظ أن ولــده يصبّ الفودكا لنفسه من دونه . قال :

– أمرك أبوك أن ترجع إلى البيت ، ولكنك تضحك منه ، ايه ؟ اقبض ما تبقى لك من أجر نهار السبت و . . . امض إلى البيت سريعاً ! أتسمع ما أقول ؟

فأجاب ياكوف في حزم ، وهو يهزُّ رأسه متشبثاً برأيه :

– لن أمضي !

زمجر فاسيلي :

– ماذا ؟ !

ووضع يديه على البرميل ، ونهض عن مقعده ، وقال :

– مع من تعتقد أنك تتحدث ؟ أكلب أنت فتنبح في وجه أبيك ؟ أنسيت ما أستطيع أن أفعل بك ؟ أنسيت ؟

ارتجفت شفتاه ، وارتعشت تقاطيع وجهه ، وانبثــق العرق من صدغيه . فأجابه ياكوف في صوت مخفوض ، دون أن يلتفت إليه :

– أنا لم أنس شيئاً . لكن أتذكر أنت كل شيء ؟ يحسن أن تسأل نفسك .

– تجسرنّ على تعليمي ! سأحطمك كالجرو الصغير . . .

راغ ياكوف من ذراع والده التي رفعها فوق رأســه ، وجمجم من بين أسنانه المنطبقة :

– لا تتجاسر وتلمسني . . . فأنت لست في البيت ، في القرية !

– اخرس ! فأنا والدك أيان كنّا !

همهم ياكوف ، وهو يضحك في وجـــه والده وقد نهض بدوره في بطء عن مقعده :

– أنت لا تستطيع أن تجرني إلى مركز الشرطة هنا ! فليس من مركز في هذه الناحية .

وانتصب فاسيلي ، وقد احمرّت عيناه ، ومال رأسه إلى الأمام ، وانطبقت قبضتاه بعنف ، ينفخ أنفاســـاً حارة مشبعة ببخر الفودكا في وجه ولده . وارتدّ ياكوف إلى الوراء ، وراح ، وقد خفض جبينه ، يراقب كل حركة من حركات أبيه بانتباه زائد ، مستعداً ليصدّ أية ضربة . . . كان مظهره هادئاً ، ولكن عرقاً حاراً ينبجس من كل مسام جسده ، وكان البرميل الذي جعلا منه خواناً يقوم بينهما .

سأل فاسيلي في صوت أجشّ ، وهو يقوّس ظهره كقطة تستعد للوثب :

– أتقول إنني لا استطيع أن أجرّك !

– الجميع يتساوون هنا . . . فأنت أجير ، وكذلك أنا .

– كذا ؟

– ماذا تظنّ ؟ ما معنى جنونك المفاجئ ضدي ؟ أتعتقد اني جاهل ؟ أنت الذي بدأت الأمر . . .

زمجر فاسيلي ، ولوّح ذراعه برشاقة لم يستطع ياكوف ان يتملّص منها . أصابته الضربة في رأسه ، فترنّح وكشر عن انيابه في وجه والده الغضبان .

حذّره ، وقد جمع قبضتيه ، بينا فاسيلي يرفع ذراعه ثانية :

– كن حذراً !

– ساعلّمك أنت كيف تكون حذراً !
– قف ، أقول لك !
– آها . . . تتوعّد والدك ! والدك ! والدك !

اكتنفهما الكوخ الصغير ، وشوّش حركاتهما ، فتعثرا بأكياس الملح الفارغة ، والبرميل المقلوب ، وجذع الشجرة .

تقهقر ياكوف ببطء أمام والده ، صاداً الضربات بقبضتيه ، شاحب الوجه ، ينضح عرقاً ، وقد كزّ على أسنانه ، وتأججت عيناه مثل عيني الذئب . ووثب الأب يتبعه ، وهو يضرب بقبضتيه دون وعي في ثورته العمياء . وبدا فجأة اشعث الهندام بشكل غريب ، يشبه خنزيراً برياً متوحشاً خشن الشعر .

قال ياكوف في صوت هادئ ينذر بالشرّ ، وهو يمرق من باب الكوخ إلى الفضاء :

– كفّ عن ذلك ، فهذا يكفي ! قف !

فشرع والده يزمجر عالياً وهو يلاحقه ، ولكن ضرباته لم تكن تقع إلا على قبضتي ولده .

شاكس ياكوف أباه ، بعد ما تبيَّن له أنه اكثر خفة منه :

– يالك من مجنون ! يالك من مجنون !
– انتظر ! . . انتظر وحسب . . .

قفز ياكوف جانباً ، وهرول يعدو في اتجاه البحر .

ركض فاسيلي وراءه ، وقد خفض رأسه ومدّ ذراعيه ، ولكنه تعثر بشيء ما فوقع على الأرض . نهض سريعاً على ركبتيه ، وجلس على الرمل معتمدا عليه بيديه . كان مضعضع

القوى بُعَيْدَ ذلك العراك ، فراح يعوي بكآبة من شعور محرق يطلب الثأر ولم يرتوِ ، ومن احساس حاد بالضعف لا حيلة فيه .

صاح في صوت مبحوح ماداً رقبته حيث مضى ياكوف بعدما بصق زبد الجنون عن شفتيه المرتجفتين :

– فلتكن ملعوناً !

استند ياكوف إلى قارب ، وأخذ يراقب والده بانتباه وهو يحك رأسه المتألم ، وقد تمزّق كمُّ قميصه وظلَّ معلقاً بخيط واحد ، وتمزقت الياقة بدورها فراح صدره الابيض المتصبب عرقاً يلمع في الشمس كما لو دهن بالشحم . وعندئذ تملكه الهزء من أبيه . كان يحسب دوماً أنه أقوى منه ، فإذا هو يجده الآن قابعاً على الرمل ، أشعث ، في حالة يرثى لها ، يتهدّده بقبضته من بعيد . ابتسم ابتسامته المتضعة الخبيثة ، ابتسامة رجل قوي وهو يتفرّس آخر واهناً ضعيفاً .

– لتكن ملعوناً ! . . . لتكن ملعوناً إلى الأبد !

وطفق فاسيلي يبعث بلعناته في صوت مرتفع جعل ياكوف يرنو – رغم إرادته – ناحية البحر ، إلى ابنية الصيد ، وكأنه خائف من ان يسمع أحد سكانها صيحات الضعف هذه .

لم يكن هنالك غير الأمواج والشمس ، فبصق وقال :

– هيا تابع صياحك ! من تظنّ أنك تجرح ! أنت لا تجرح إلا نفسك فحسب ، ولا أحد سواك . . . ومادام هذا قد جرى بيننا ، فسأخبرك رأيي صراحة . . .

زمجر فاسيلي :

– أطبق شفتيك ! تنحّ عن بصري ! إمض من هنا !

فقال ياكوف ، وعيناه مثبتتان في والده ، يراقب كل حركة يأتي بها :

– لست راغباً في العودة إلى القرية . . . سأبقي هنا الشتاء بطوله . . . فهذا المكان يروق لي . وأنا لم اجنّ بعد حتى اعود . . . فالحياة رخية هنا . . . في المنزل يمكنك أن تعاملني كما يحلو لك ، أما هنا . . . فانظر !

أعلن هذا ، وضمّ قبضتيه ، ولوّح لوالده بهما ، وضحك . لم تك قهقهته شديدة الارتفاع وإن كانت كافية لتجعل فاسيلي يهبُ على قدميه مرة ثانية ، مجنوناً من الغضب ، ويلتقط مجذافاً ويعدو نحو ولده وهو يصيح في صوت أجش :

– والدك ؟ أتفعل هذا لوالدك ؟ سأقتلك . . .

حينما بلغ القارب يعميه الغضب ، كان ياكوف قد نأى عنه كثيراً ، يركض وكمّه الممزق يرفرف خلفه في الهواء الطلق .

رمى فاسيلي المجذاف وراءه ، ولكنه لم يمتد غير مسافة يسيرة ، ثم سقط الشيخ على الأرض منهكاً مرة أخرى . واستند على جانب القارب بصدره وجعل يخدش الخشب بجنون ، وهو يشخص إلى ولده . فصاح هذا الأخير من بعيد :

– يجب أن تخجل من نفسك ! لقد نضج شعرك الاشيب تماماً ، ومع ذلك يتملكك الجنون بهذا الشكل من أجل امرأة ! إيه ، بخ لك ! ولكني لن أرجع إلى القرية . . . أرجع أنت . . . فليس لديك ما تعمل في هذا المكان . . .

فطغى صوت الأب على صوت الابن ، وهو يصيح :

– ياشكا ، اخرس ! ياشكا ، سأقتلك ! أخرج من هنا !
فتمشى ياكوف الهوينا .

راقبه والده يغادر المكان بعينين كئيبتين توحيـــان باختلال عقلـــه . وبدا له قصيراً فكأن قدميـــه تغرقان في الرمال . . . لقد غرق حتى وسطه . . . حتى كتفيه . . . حتى عنقه . . . لقد اختفى ! وبعد لحظة وجيزة ، وفي مكان يبعد قليلاً عن النقطة التي تلاشى فيها ، عاد رأسه فظهر ثانية . . . ثم كتفاه . . . ثم جسده . . . ولكنه أصغر من قبل . . . استدار ، وتطلع ناحية فاسيلي ، وصرخ بشيء ما .

زعق فاسيلي مجيباً :

– لعنة الله عليك ! لعنة الله عليك ! لعنة الله عليك !

فلوّح ولده بيده اشمئزازاً ونفوراً ، واستدار وتابـــع السير ، و . . . مرة ثانية اختفى وراء كثبان الرمال .

زنّر فاسيلي بعينيه ، مدة طويلـــة ، إلى الجهة التي اختفى فيها ولده ، حتى ردّه إلى وعيه ما أثاره وضع جسده المربك المستند إلى القارب من ألم في ظهره . فنهض منهكاً ، وتأرجح من الألم الذي يعصر كل عضو من أعضائه . وجد حزامه قد التف تحت أبطيه ، فحلّه بأصابعه المخدرة ، وأدناه من عينيه ، ثم رمى به على الرمل ، ومضى في اتجاه الكوخ .

توقف في الطريق أمام حفرة صغيرة في الرمل ، وتذكر أنه وقع في هذا المكان . لولا وقوعه عـلى الأرض لاستطاع اللحاق بولده .

كان الكوخ في حال يرثى لها من التشويش والبلبلة . اجال فاسيلي بصره باحثاً عن زجاجة الفودكا حتى عثر عليها

مرمية بين الأكياس فالتقطها . كانت سدادتها مشدودة بحيث لم يذهب شيء من الفودكا هدراً . إنتزع فاسيلي السدادة في بطء ، ووضع فم القنينة على شفتيه يريد ان يجرع ما فيها ، ولكن القنينة اصطدمت بأسنانه ، وانثالت الفودكا من فمه على لحيته وصدره .

ضجت رأسه برنين غريب ، فخفق قلبه بشدة ، وآلمه ظهره بشكل لا يطاق .

قال فاسيلي بصوت عال :

– لقد اصبحت عجوزاً .

وجلس على الرمل عند مدخل الكوخ .

وكان البحر يتسع أمامه ، والامواج تضحك ، صاخبة لاهية ، كعادتها أبداً .

حدّق فاسيلي طويلاً إلى المياه ، وتذكر كلمات ولده الجشعة :

– ليته كان يابسة ! أرضاً سوداء ! وليتنا نستطيع أن نزرعها كلها !

وطغى شعور مؤلم مُرّ على هذا الفلاح ، فحكّ صدره بقسوة وتطلّع حوله ، وصعّد تنهيدة عميقة . انحنى رأسه كثيرا وتقوّس ظهره كأنه يحمل حملاً أتعبه ثقله . ارتعش حلقومه باضطراب وكأنه يختنق . وسعل بقسوة لينظف حلقومه ، ثم رسم اشارة الصليب ، وصعد ببصره نحو السماء فهبطت عليه مجموعة من الأفكار الحزينة .

. . . من أجل امرأة ساقطة هجر زوجته ، تلك التي عاش

معها شريفاً أكثر من خمسة عشر عاماً . . . فعاقبه اللـــــه بتمرّد ولده . فالحق معك ، يا إلهي !

لقد هزأ به ولده ومزق له قلبه . . . انه يستأهـــل الموت على تكديره نفس والده بمثـــل تلك القسوة ! ولأي سبب ؟ من أجل امرأة ساقطة تعيش في الخطيئة ! . . يـــا لفداحة خطيئته ، هو الشيخ العجوز ، إذ ينسى زوجه وولده ويعاشر تلك المرأة . . .

وهكذا ذكّره الرب ، في غضبه المقدس ، بواجبه . وطعن قلبه بواسطة ابنه منزلاً به عقاباً عادلاً . . . والحق معك ، يا إلهي !

رسم فاسيلي إشارة الصليب ، وهو متكوّر على نفسه فوق الرمل ، وطرف بعينيه ، ونفض عن أهدابه الدموع التي تكاد تعميه .

وغرقت الشمس في البحر ، وراحت حواجبها ارجوانيـــة اللون تذبل ببطء ، وهوّت ريح ناعمة تجيء من البعد الصامت وجه الفلاح المندّى بالدمع ، وهو ما يبرح جالساً في مكانه ، منهمكاً في أفكاره عن التوبة حتى ارتمى نائماً .

أبحر ياكوف ، بعد يومين من مشاجرتـــــه مع أبيه ، يصحبه عدد من الصيادين في عائمة تجرها الباخرة إلى بقعة تنأى عن أبنية الصيد حوالي ثلاثين فرسخاً لصيد الزجر . ورجع وحيداً بعد خمسة أيام إلى أبنية الصيد في قارب شراعي صغير يتزوّد بعض المؤونة ، فوصل ظهراً حين كان الصيادون

يستريحون بعد الغداء . كان الجو حاراً على نحو لا يطاق ، والرمل الساخن يحرق الأقدام ، وحراشف السمك وعظامها تخز كالابر . وأخذ ياكوف طريقه إلى الاكواخ في حذر ، وهو يلعن نفسه لأنه لم يلبس حذاءه . كان يحسُ بالكسل ، فيتوانى عن أن يعود إلى القارب في طلب حذائه . أضف إلى ذلك جوعه الشديد وشوقه لرؤية مالفا .

ما أكثر ما فكّر فيها في الايام المملـــة التي قضاها في البحر ! وهو يتساءل الآن : أتراهـــا لقيت أباه ؟ وكيف عاملها ؟ لربما ضربها ! ولن يكون ذلك بالأمر السيىء — بل سيخلّصها من بعض خيلائها ! فهي في حالها الراهنة ، كثيرة الزهو والسلاطة . . .

كانت أبنية الصيد هادئـــة مهجورة ، ونوافذ الاكواخ مفتوحة على مصاريعها ، وتلك الصناديق الخشبية الواسعة تبدو كأنها تلهث من شدة الحرارة . وكان طفل رضيع يصرخ في مكتب الوكيل المختبئ بين الأكواخ بكل ما وهب له الله من قوة ، وأصوات خافتة تتناهى إلى السمع خلف مجموعة من البراميل .

خطا ياكوف ببسالة جهة الأصوات ، فقد خيّل إليه أن صوت مالفا صافح أذنيه . وعندما بلغها وتطلع إلى ورائها ارتدّ بسرعة ، كاسر الوجه مقطبه ، وتوقف .

كان يجلس خلف البراميل ، تحـــت ظلالها ، سيريوجكا الأحمر الشعر مضطجعـــاً على ظهره وقد وضع يديه تحت رأسه . وعن أحد جانبيه والده ، وعن الجانب الآخر مالفا .

قال في نفسه ، وهو يفكر في أبيه :

«ماذا يفعل في هـــذا المكان ؟ هـل تخلّف عن عملـه الهادئ ليكون هنا أكثر قرباً من مالفا فيبعدني عنها ؟ أوه ، يا للجحيم ! ماذا لو بلغ أمي أخبار سلوكه هنا ! أأذهب إليهم أم لا ؟»

وسمع سيريوجكا يقول :

– حسناً ! ستغادرنا إذن ، أليس كذلك ؟ حسنـــاً ، امض وانبش الأرض . . .

فطرف ياكوف بعينيه فرحاً .

أعلن فاسيلي :

– نعم ، سأذهب . . .

فخطا ياكوف عندئذ في جسارة ، وقال مبتهج النفس :

– تحياتي إلى الجماعة !

التهمه والده بنظرة سريعة ، واستدار عنه . ولم تتحدث مالفا أو تحرك هدباً ، ولكن سيريوجكا هز ساقه ، وقال في صوت عميق واطئ :

– هه ! لقد رجع ولدنا المحبوب ياشكا من الأراضي النائية !

وتابع بنغمة صوته المعتادة :

– إنه يستأهل أن يسلخ ويستعمل جلده طبلاً كجلد الماعز .

فضحكت مالفا في عذوبة .

قال ياكوف ، وهو يقتد الرمل :

– الجو حار !

فرمقه فاسيلي مرة أخرى ، وقال :

- كنت أنتظرك ، يا ياكوف .

أدرك ياكوف أن صوته أكثر هدوءاً من قبل ، وبدا وجهه قد تغير . أعلن :

- عدت أحمل بعض الزاد . . .

وسأل سيريوجكـا أن يعطيه قليلاً من التبغ ليدخن لفافة . فقال هذا ، دون أن تتحرك فيه عضلة واحدة :

- لن تحصل مني على شيء من تبغ ، أيها الاحمق !

وقال فاسيلي متأثراً ، وهو يرسم عدة إشارات على الرمل بإصبعه :

- سأعود إلى البيت ، يا ياكوف .

فأجاب ياكوف ، وهو ينظر ببراءة إلى والده :

- أهذا صحيح ؟

- وأنت ؟ . . . هل ستبقى هنا ؟

- أجل ، سابقى . . . فعمل البيت لا يتحملنا معاً .

- حسناً . لا أريد ان أعترض . إفعل ما يحلو لك ، فأنت لم تعد صغيراً ! ولكن تذكر هذا - انني لا احتمل الكثير . لربما بقيت حياً . . . ولكنني لست على ثقة من قدرتي على العمل . . . فلقد فقدت عادة الأرض . . . وهكذا لا تنسَ . . . أنك تركت أماً في البيت .

كان يجد صعوبة في الحديث ، فتبدو كلماته كأنها تلتصق بأسنانه ، وهو يمشط لحيته بيد مرتجفة .

حلّقت مالفا ببصرهـا إليه ، وأغمض سيريوجكا إحدى عينيه ، وحملق بقسوة بالأخرى - وكانت مستديرة بجّاء -

في وجه ياكوف . وكان هذا يغلي فرحاً . وكيلا يخونه ذلك الفرح قبع صامتاً وهو يشخص إلى قدميه .

قال فاسيلي :

– إذن ، لا تنسَ والدتك . . . وتذكر أنك ولدها الوحيد .

فقال ياكوف منكمشاً :

– لا حاجة لإخباري بهذا ، فأنا أعرفه !

نبر والده ، وهو يرمقه في شك :

– حسناً ، مادمت تعرفه ! وكل ما أقول لك – لا تنسَ !

وتنهد فاسيلي بعمق . وخيَّم السكون عليهم بعض الوقت . وإذا مالفا تقول :

– سيدقُ الجرس قريباً داعياً للعمل . . .

فأجاب فاسيلي ، وقد نهض واقفاً وحذا حذوه الثلاثة الآخرون :

– حسناً ، أنا ذاهب ! الوداع ، يا سيرجي ! إذا عبرت يوماً نهر الفولغا فلا تنسَ ان تزورني هناك . . . قضاء سمبيرسك ، قرية مازلو ، ناحية نيكولو ليكوفسكايا . . .

– حسناً !

قال سيريوجكا هذا ، وهو يهزُ يد فاسيلي وقد رفعها بلطف فى يده القوية المفروشة بالشعر الأحمر ، ثم بسم في وجهه الحزين جاد الملامح .

شرح فاسيلي قائلا :

– ان ليكوفو-نيكولسكوى بلدة كبيرة . . . وهي

مشهورة بما فيه الكفاية ، ونحن نعيش على بعد حوالي أربعة فراسخ منه .

– حسناً ، حسناً . . . سأعمد إلى زيارتك إن مررتُ بتلك الطريق . . .

– وداعاً !

– وداعاً ، أيها الشيخ العزيز !

فقال فاسيلي في صوت مختنـــق ، ودون ان يتطلع إلى مالفا :

– وداعاً ، يا مالفا !

فمسحت بتروٍّ شفتيها بكم قميصها ، ثم وضعت يديهـا البيضاوين على كتفي فاسيلي بسكون وهدوء ، وقبّلتـــه برزانة ثلاثة مرات على خديه وشفتيه . كان فاسيلي مرتبكاً ، يغمغم بشيء ما في صوت متقطع ، فأحنى ياكوف رأسه يخفي ابتسامة ساخرة ، بينا حدج سيريوجكا السماء بعينيـــه ، وتثاءب برقة . قال :

– لسوف يكون المسير شاقاً في مثل هذه الحرارة .

– أوه ، ذلك أمر تافه . . . حسناً ، الوداع ، يـــا ياكوف !

– الوداع !

وقفا متقابلين دون ان يفقها مـــا يفعلان . أيقظت هذه الكلمة المحزنـــة «الوداع» ، وقد ترددت بكثرة وعلى وتيرة واحدة خلال تلك الثواني ، في قلب ياكوف شعوراً بالحنان تجاه والده . ولكنه لم يعرف كيف يعبر عنه . هل يعانقـــه مثلما فعلت مالفا ، أم يصافحه مثلما فعل سيريوجكا ؟ وآذى

فاسيلي ذلك التردد الذي بدا في موقف ولده وتقاسيم وجهه ، ولما يزل يحسُّ شيئاً يماثل الخجل من ياكوف . ولقد أثارت هذا الشعور ذكرى الحادثة في اللسان الرملي وضاعفته قبلات مالفا .

قال أخيراً :

– وهكذا . . . لا تنسَ أمك !

فقال ياكوف ، وهو يبتسم ابتسامة ودوداً :

– حسناً ، حسناً ! لا تقلق . . . سأفعل ما ينبغي فعله !

وهزّ رأسه .

– حسناً . . . هذا كل شيء ! وداعاً ! فليمنحكم الله كل خير . . . اذكرني بخير . . . أوه . . . يا سيريوجكا ! لقد دفنت الغلاية في الرمل ، تحت مؤخرة القارب الأخضر .

فاستفسر ياكوف في عجلة :

– وما حاجته إلى الغلاية ؟

فردّ فاسيلي :

– لقد استلم عملي . . . هناك ، في اللسان الرملي !

شخص ياكوف إلى سيريوجكا ، وحملق في مالفا ، وحنى رأسه يخفي لمعان الفرح في عينيه .

– حسناً ، الوداع ، أيها الاخوان ! أنا ذاهب !

وانحنى فاسيلي ، ثم مضى . فتبعته مالفا . قالت :

– سأرافقك قليلاً . . .

وارتمى سيريوجكا على الرمال ، وأمسك قدم ياكوف ، تماماً عندما أراد هذا الأخير أن يحبو وراء مالفا :

– هيه ! إلى أين ؟
صاح ياكوف ، محاولاً تخليص قدمه :
– انتظر ! دعني أذهب !
لكن سيريوجكا أمسك قدمه الأخرى ، وقال :
– اجلس قربي لحظة ! . . .
– هيه ، كفاك تمثل دور الأحمق !
– أنا لا أمثل دور الأحمق . . . ولكن ، اجلس ، أنت !
جلس ياكوف ، وسأل من خلال أسنانه المنطبقة :
– ماذا تريد ؟
– انتظر واصمت لحظة ! دعني أفكر ، وعندئذ أخبرك .
حدج سيريوجكا ياكوف بعينيه المتصلّفتين متوعـــداً ، فاذعن ياكوف لمشيئته . . .
سارت مالفا وفاسيلي ، في صمت ، برهة وجيزة . كانت ترمي وجهه بنظرات جانبية ، وعيناها تبرقان بشكل غريب . وقطب فاسيلي وجهه وظلّ صامتاً . كانت أقدامهما تغرق في الرمل وهما يسيران ببطء شديد .
– فاسيا ! *
– ماذا ؟
التفت نحوها ، ونحّى بصره عنها سريعاً .
قالت في صوت هادئ ساكن :
– لقد جعلتك تتشاجر مع ياشكا عن قصد . . . فأنتما تستطيعان الحياة هنا دون شجار .

* اسم التدليل من فاسيلي . **الناشر** .

فسألها ، بعد لحظة صمت وجيزة :

– فيمَ فعلت ذلك ؟

– لست أدري . . . هكذا كان !

وهزت كتفيها ، وضحكت ضحكة قصيرة .

همهم موبخاً في صوت غاضب :

– آه منك !

فظلت صامتة .

– انك ستتلفين ولدي ، ستتلفينه تماماً ! آه ، انت شيطانة ، شيطانة ! وانت لا تعرفين خوفاً من الله ! وليس لديك أثر للخجل ! ماذا تفعلين ؟

فاستوضحت ، وكان في صوتها شيء من الضجر والقلق يصعب أن تميّز حقيقته على الضبط :

– ماذا يجب عليّ أن أفعل ؟

فصاح ، وقد احسّ بالغضب الشديد يفعم قلبه ضدها :

– ماذا عليك أن تفعلي ؟ آه ، أنت !

أراد ان يضربها من صميم قلبه ، أن يرميها عند قدميه ، ويدوسها على الرمال ، ويرفسها على صدرها ووجهها بحذائه الثقيل . وجمع قبضتيه ، واستدار الى الوراء .

كان يستطيع أن يرى ، قرب البراميل ، هيئتي ياكوف وسيريوجكا يتطلعان في اتجاهه .

– امضي عني ، امضي عني ! قبل أحطمك أنت يا . . .

وكحّ بالكلمات البذيئة في وجهها . كانت عيناه محمرتين ، ولحيته ترتعش ، ويداه ممتدتين – رغم إرادته

– ناحية شعرها المتسرّب من تحت منديلها .

ومع ذلك شخصت اليه بهدوء بعينيها الخضراوين .

– يجب أن أقتلك ، أيتها الفاجرة ! انتظري . . . ستنالين ما هو مقدّر لك ! . . . سيلوي أحدهم رقبتك دون شك يوماً من الايام !

ابتسمت ، ولم تقل شيئاً .

تنهدت عميقاً ، وقالت في جفوة :

– حسناً ، هذا يكفي ! . . . وداعاً !

استدارت على عقبيها بحدة ، وكرّت راجعة .

زمجر فاسيلي خلفها ، وطحن اسنانه في عنف . ولكن مالفا مشت وهي تحاول أن تخطو فوق آثار خطوات فاسيلي الواضحة العميقة على الرمال ، وكلما نجحت في ذلك محتها بقدمها في عناية . وهكذا تدرجت ، على مهل ، حتى بلغت البراميل حيث حياها سيريوجكا مستطلعاً :

– حسناً . ودّعته إذن ؟

فهزت رأسها إيجاباً ، وجلست بالقرب منه . أسفّ ياكوف النظر إليها وابتسم بحنان ، محركاً شفتيه كما لو كان يهمس شيئاً لا يسمعه أحد سواه .

استعلم سيريوجكا ثانية ، مستشهداً بكلمات تلك الاغنية القديمة :

– والآن ، بعد أن ودعته ، فأنت تحسين بالأسف لفراقه ، ها ؟

فسألت مالفا بدلاً من الجواب ، وهي تهز رأسها جهة البحر :

– متى ستغادرنا إلى اللسان الرملي ؟
– هذا المساء .
– سأذهب معك . . .
– تذهبين معي ؟ عظيم ! هذا ما أودُّ !
وقال ياكوف مؤكداً :
– وسأذهب أنا الآخر !
فسأل سيريوجكا ، وقد ضيق عينيه :
– ومن دعاك ؟
ارتفعت قرقعة أحد الأجراس تدعو الرجال إلى متابعة العمل . وكانت الضربات تتتابع بسرعة ، ثم تموت بعيداً في طي الأمواج الفرحة .
قال ياكوف ، وهو يشخص إلى مالفا بتحدٍ :
– هي ستفعل !
فقالت مشدوهة : – أنا ؟ وما حاجتي إليك ؟
أعلن سيريوجكا بفظاظة وهبَّ واقفاً :
– دعنا نتحدث صراحة ، يا ياشكا ! إن رحت تزعجها . . . فسأجعلك طحيناً ! وإن لمستها باصبعك . . . سأقتلك مثلما أقتل الذبابة ! ضربة واحدة على الرأس – وتمسي في عالم آخر ! ذلك أمر بسيط بالنسبة إليَّ !
وكان وجهه ، وكل جسده ، ويداه العقدتان الممتدتان إلى حلق ياكوف ، كان ذلك كله شهادة مقنعة على أن القتل أمر بسيط بالنسبة إليه .
خطا ياكوف خطوة إلى الوراء ، وهدر في صوت مخنوق :
– انتظر لحظة ! لمَ ، هي نفسها . . .

– يكفي ! من تحسب نفسك ؟ ليس لديـــك لحم ضأن تأكل ، أيها الكلب ! كـــن ممتناً أن حصلت على عظمـــة تقرضها . . . حسناً ، فيمَ تحملق ؟

نظر ياكوف إلى مالفا . كانت عيناها الخضراوان تضحكان في وجهه ضحكة خبيثة ، محتقـــرة ، ساخرة . . . وضغطت نفسها على جنب سيريوجكا في مزيد من تودُّد بحيث انبجس العرق من جسد ياكوف كله .

ابتعدا عنه يسيران جنباً إلى جنب . وحين قطعا مسافـة يسيرة ضحكا معاً في صوت عال . فغرز ياكوف قدمه اليمنى في الرمل عميقاً ، ووقف متوتراً ، يتنفس في ثقل وقساوة .

ومن بعيد ، فوق الرمال الصفراء المهجورة المتموِّجة ، كانت هيئة شخص صغيرة ، سوداء اللون ، تتحرك . عـــن يمينه يلتمع الخضمّ المرح القوى في الشمس ، وعن يساره تنتصب حتى الأفق الرمال الفسيحـــة ، مهجورة ، موحشة ، مقفرة ، مضجرة .

أطال ياكوف النظر إلى تلك الهيئـــة الوحيدة ، وطرف بعينيه المليئتين بالاذى والخبل ، وحك بشدة صدره بكلتا يديه . . .

بدأت أبنية الصيد تدوى بالنشاط والحركة .

وبلغ ياكوف صوت مالفا يتدحرج رناناً رائعاً :

– من أخذ سكّيني ؟

وكانت الأمواج ترشرش بصخـــب ، والشمس تلتهب ، والبحر يضحك . . .

عام ١٨٩٧

ستة وعشرون رجلا وفتاة واحدة

بروح القصيدة

كنا ستة وعشرين رجلاً ، ستة وعشرين آلة حية ، متراكمين في حفرة دكناء من سرداب أسود نعجن العجين منذ طلة الفجر حتى اغماضة عين المساء ، نصنع خبزاً وكعكاً . وكانت نوافذ سردابنا تواجه فضاء منخفضاً محصناً بقطع من القرميد أحال الطين لونها الى الخضرة . وكانت النوافذ مغلقة من الخارج بشبكة حديد لا ينفذ إلينا شعاع واحد من الشمس عبر ألواح الزجاج المغطاة بالدقيق والطحين . وقد سوّر معلمنا النوافذ كيلا يجد شيء من خبزه سبيلاً الى ايدي الفقراء والمستعطين ، أو إلى رفاقنا العاطلين عن العمل ، المتضورين جوعاً وسغباً – كان معلمنا يسمينا عصبة من المتشردين المحتالين ، وينفحنا لطعام الغداء بنفايات منتنة دبّ فيها الفساد عوضاً عن اللحم . . .

كانت الحياة خانقة مزدحمة في ذلك الجب الجاثم تحت سقف منخفض مفروش بالهباب وشباك العناكب . . . كانت الحياة قاسية مقرفة بين تلك الحوائط السميكة الملوّثة ببقع متسخة ولطخ من العفونة اللزجة . . . وكنا نهب من رقادنا في الخامسة صباحاً ، مثقلين بنقص الراحة والنوم ، فلا تدق الساعة السادسة حتى نجلس الى طاولة واسعة ، مكتئبين فاتري الهمة والنشاط ، لنصنع الفطائر الهشة من عجين هيأه رفاقنا أثناء رقادنا . وهكذا نقضي النهار بطوله ،

منذ البكور حتى الساعة العاشرة ليلاً ، وقد جلس بعضنا الى الطاولة يعجنون العجين اللـدن ، وهم يؤرجحون أجسادهم ليذودوا عن أنفسهم الخـدر وفقدان الحس ، بينا يخلط الاخرون الدقيق والماء دون انقطـاع . . . وطوال النهار ، تخرخر المياه وهي تغلي بكآبة وحسرة في القدر حيث تطبـخ الفطائر ، فيما مجرفة الخباز تقعقع بحنق ورشاقة على احجار الفرن ، وهو يقذف دون هوادة قطعاً لزجة من العجين عـلى القرميد الحار . ومنذ البكـور حتى الليل تحترق الاخشاب وتتأرث في احدى جوانب الفرن ، بينـا تأجج اللهب المورد يترجرج على جدران المخبز مرفرفاً فكأنه يكشر في وجوهنـا ساخراً منا . . . وكان الفرن الكبير يشبه رأساً بشعاً لوحش وهمي انبثق من تحت الأرض ، تتقد اشداقه الفاغرة أفواهها بنيران مشتعلة نافخـة تتنفس لهباً لامعاً وهاجاً يلفحنـا ويحرقنا ، فيما الوحش الدميم يراقب عناءنا المستديم مـن خلال فتحتين غائرتين للهواء تتربعان فوق جبهته . إن هاتين الثغرتين اشبه ما تكونان بعينيـن - عينين قاسيتين لا تتأثران أو تحسان ، عيني حيوان غريب تحملقان فينـا بتقطيبة قاتمة لا تتغير ، فكأنهما متعبتان باطالـة النظر إلى عبيد ارقاء لا ينتظـر صدور شيء انساني عنهم ، فهمـا تحتقرانهم بازدراء الحكمة البارد . . .

وينقضي يوم ، ويطل يوم آخر وسط ما تحمل اقدامنـا من دفقات التراب والاوساخ من الساحة الخارجية . ونعجـن العجين في جوّ ذلك السرداب الحار العابـق المخنق ، ونصنع الفطائر المرشوشة بعرقنا ، ونحقد على عملنا بضغينـة

وكراهية وحشيتين ، فلا نأكل قط شيئاً مما تصنع أيدينا ، مفضلين خبز الجاودار الأسود على الفطائر ناصعة البياض .

كنا نجلس الى مائدة طويلة نواجه بعضنا بعضاً – تسعة رجال امام تسعة رجال – تعمل أيدينا وأصابعنا بصورة آلية طوال ساعات لا نهاية لها ، وقد اعتدنا عملنا هذا فلم نعد نراقب حركاتنا أو نلقي بالاً اليها . وقد ألفنا بعضنا كثيراً ، حتى ليعرف كل منا جميع ما يرتسم على وجوه رفاقه من تغضنات وأخاديد . ولم يكن هنالك ما نتحدث عنه – لقد اعتدنا على ذلك ايضاً – فنحن نقبع صامتين طوال الوقت لا تنض شفاهنا بحرف واحد – أللهم الا اذا شرعنا نترامى بالشتائم . فثمة اشياء دائماً يمكن للمرء ان يشتم الآخر بسببها ، خاصة اذا كان هذا الآخر رفيقاً له . . . لكننا نادرا ما كنا نتشاتم – أيلام الإنسان إن كان نصف ميت ، إن كان يماثل صورة حجرية ، إن كانت جميع حواسه كلَّت من وطأة الكد والعناء المتراكمين على ظهره ؟ إنما الصمت مخيف مكروه بالنسبة الى اولئك الذين قالوا كل ما في جعبتهم من اقوال . أما بالنسبة الى القوم الذين لم يتفوهوا بعد بكلماتهم ، فالصمت أمر بسيط ميسور . . . وكنا نطلق حناجرنا بالغناء أحياناً ، فتبدأ اغانينا عادة على هذا المنوال : يصعّد أحدنا فجأة ، اثناء العمل ، زفرة حرّى مثل حصان تحطمت قواه ، وينطلق ينشد في لطف إحدى تلك الأغنيات الطويلة التي يخفف إيقاعها الحنون الأسوان من الحمل الثقيل الجاثم على قلب المغني . كان أحد الرجال يغني ، فيما نرهف نحن اسماعنا في صمت الى تلك الاغنية الوحيدة التي لا تلبث ان

تتلاشى تحت سقف ذلك السرداب الجائر وتموت ، مثل لهيب ذاوٍ ترسله نيران مخيم في سهب فسيح في ليلة خريفيـــة مندّاة تتعلق فيها السماء الرمادية وكأنها سقف من رصاص فوق الارض المنبسطة . ومن ثم ينضم مغن آخر إلى المنشد الاول ، بحيث يسبح صوتان يترنمان بكآبة ورقة في جو تلك الحرارة الخانقة لزريبتنا المزدحمة . وعلى غير انتظار تشترك عدة اصوات ، في وقت واحد ، بترديد الاغنيــة وانشادها – فتهب مجلجلة كالمـــوج ، وتزداد قوة وارتفاعاً ، وتلوح كأنها تحطم الجدران الثقيلـــة الرطبة المسورة سجننـــا الحجري . . .

إن الستة والعشرين يغنون جميعاً ، فإذا أصوات مرتفعة قد انسجمت بطول المران تملأ المعمل ، والاغنية تتلاطم في السرداب باحثة عن مجال لها ، وتتكسر على الجدران الحجرية ، تئن وتنتحب ، وتحزّ في القلب بألم موخز لطيف ، فاتحـــة جروحاً قديمـــة مندملة ، موقظة العذاب المنطـــوي في النفوس . . . ويصعّد المغنـــون تنهيدات عميقة ثقيلة ، ويتوقف أحدهم عن الغناء فجأة ، ويقعد يصغي زمناً طويلاً الى رفاقه يترنمون ، ومن ثـــم يشترك صوته من جديد في الجوقة العامة . وقد يصيح أحدهم ، مغموم الصدر : «أواه . أواه .» ، وهو يغني مغمض العينين ، ولعله يرى عندئـــذ تيار الصوت الجارف العريض وكأنه درب تقود الى المنتأى ، درب واسعة الجنبات تضيئها الشمس البراقـــة ، ويرى نفسه ، هو بالذات ، يسير عليها . . .

ان اللهب الواهر في الفرن مـــا زال يترجرج ويرفرف ،

ومجرفة الخباز ما انفكت تقعقع على القرميد ، والمياه في القدر ما فتئت تبقبق وتخرخر ، وأضواء النار على الجدار ما برحت تخفق في ضحكة صامتة . . . ونحن نغني ، بكلمات عن صنع غيرنا ، ذلك الألم الكئيب في نفوسنا ، والحزن القارض لرجال أحياء محرومين من الشمس ، حزن العبيد . وهكذا كنا نعيش ستة وعشرين رجلاً ، في سرداب بيت حجري كبير ، وكانت حياتنا شاقة شديدة القسوة حتى يخال لنا أن الطوابق الثلاثة للبيت بكاملها على أكتافنا . . .

وكان ثمة شيء آخر ، بالاضافة الى اغنياتنا ، نحبه ونلاطفه وتهتز إليه أفئدتنا ، شيء ربما كان يملأ مكان الشمس بالنسبة الينا . ففي الطابق الثاني من بيتنا معمل للتطريز كانت بين فتياته العاملات تانيا الحالمة بربيعها السادس عشر ، ولقد كانت خادمة مهفهفة . . . وفي كل صباح يروح وجه فتي زهري اللون ذو عينين زرقاوين مرحتين ينضغط على زجاج النافذة الصغيرة المفتوحة في باب معملنا المؤدي إلى الممر ، ويرن صوت حلو نغوم ينادينا :

– أيها المساجين . أعطوني بعض الفطائر !

عندئذ ندير رؤوسنا ، جميعاً ، صوب ذلك الصوت النقي ، ونرنو في لطف وغبطة الى وجه الفتاة الطاهر المبتسم لنا في حلاوة بالغة . كنا نحب رؤية ذلك الأنف المضغوط على الزجاج ، والاسنان البيض الصغيرة تلمع من تحت الشفتين الورديتين المنفرجتين عن ابتسامة عذبة . وكنا نتدافع لنفتح لها الباب ، نزحم بعضنا بعضاً . وهنالك

نلقاها ، جذابة مشرقة ، رافعة مئزرها ، تقف أمامنا ورأسها الصغير محني قليلاً ، ووجهها الوسيم مطوّق كله بابتسامات ودودة حلوة . وكانت جديلة كثيفة طويلة من شعر عسجدي اللون تتدلى من فوق كتفها على صدرها . وكنا ، نحن الرجال القذرين الجاهلين البشعيـــــن نتطلع اليها ونترنى - كانت العتبة ترتفع أربع درجات عن الارض - نتطلع إليها ونترنى برؤوس مرتفعة ، ونتمنى لها صباحاً سعيداً . كانــت كلمات تحيتنا خاصة بها ، مخلوقة من أجلهـــــا فقط . وكان صدى أصواتنا يرنّ أرخم وأرق ، ونكاتنا تتردد أشرق وابهـــــج ونحن نتحدث اليها . كان كل شيء نحتفظ به لها خاصـــــاً بها ، فالخباز يسحب من الفرن مجرفة عامرة بالفطائر الناشفة داكنة اللون ، ثم يصبها بمهارة في مئزرها .

كنا نحذرها قائلين :

- انتبهي ألا يراك المعلم !

فتضحك في خبث ، وتصيح فرحانة جذلى :

- الوداع ، أيها المساجين !

ثم تختفي في طرفة عين كالفأرة الصغيرة . . .

وهذا كل شيء . . .

ونظل مدة طويلة نتحدث عنها بعدمـــا تغادرنا - فنقول ذات الأشياء التي تفوهنا بها في اليوم السابق وما قبله ، لأننا ، ولأنها ، ولأن كل شيء حوالينا باق على عهده كاليوم السابق وما قبله . . . ما أقسى وآلم أن يعيش المرء وكل ما يحفُّ به باق على حاله لا يتغير ، فاذا لم يقتل هذا الروح فيه فان الألم الذي يبثه جمود الأشياء المحيطة به وثباتهـــا

يتفاقم بمقدار ما تطول حياته . . . كنا نتحدث دائماً عـــن النساء بطريقة تجعلنا في بعض الأحيـــان نشعر بالاشمئزاز والقرف من نفوسنا ، ومن حديثنا الفظ المخجل . ولا يبعـث هذا على الدهشة لأن النساء اللواتي نعرفهن لا يستأهلــــن أبداً ان نتحدث عنهن بطريقـــة أخرى . لكننا لم نسمـــح لشفاهنا أن تقول عن تانيا كلمة رديئة قط . بـل لم يجسر أحدنا على لمسها بيده أبداً . وهي لم تسمع منا مرة نكتـــة خليعة . لربما كان ذلك لانها لا تبقى عندنا طويلاً – كانت تنطلق من أمام نظرتنا مثل نجمة تسقط مـــــن السماوات وتتلاشى . . . أو ربما كان ذلك لانها صغيرة رائعة الجمال ، وكل شيء جميل يوحي بالاحترام ، حتى لعصابة مــن الرجال الافظاظ الشرسين . ثم اننا كنا ، رغم العمـــل الشاق الذي يحيلنا الى ثيران بكماء ، مخلوقات بشرية ، فلسنا نستطيـع الحياة ، مثلنا مثل سائر المخلوقات البشريـــة ، دون هدف لعبادتنا . ولم يك ثمة إنسان أروع منها فيما يحيط بنا ، كما لم يك ثمة إنسان يعيرنا اهتماماً نحـــن الذين نعيش في السرداب – بالرغـــم من وجود عشرات من المستأجرين في البيت فوقنـــا . وأخيراً – وربما في المحل الأول – كنـــا نعتبرها شيئاً يخصّنا ، شيئاً ، يدين بوجوده لفطائرنا فقط . وقد نذرنا على انفسنا أن نقدم لها فطائر ساخنة ، الأمر الذي أضحى تضحيتنا اليومية للمعبود ، يكـــاد أن يقارب عبادة مقدسة ، فيضاعف من حبنا لها يوماً بعـــد يوم . وكنا نقدم لتانيا ، بالاضافة الى الفطائر ، كميـــة كبيرة من النصائح – أن تلبس ثيابـــاً دافئـة . ألا تركض بسرعة وهي تصعد

السلالم . ألا تحمل حزماً ثقيلة من الحطب . وكانت تصغي الى نصائحنا وابتسامة عذبة تلهو على شفتيها ، وتندفع عنا ضاحكة دون ان تعمل بنصائحنا . إلا أننا لم نكن نغضب – كنا نكتفي بأن نظهر لها قلقنا عليها وحبنا لها .

وكانت تسألنا ، غالباً ، ان ننجز لها بعض الأعمال . فتطلب منا ، مثلاً ، أن نفتح لها باباً حروناً في القبو لم يلن لها ، أو نقتطع لها بعض الحطب ، فنفعل هذه الأشياء ، وأشياء أخرى عديدة تطلبها منا ، بغبطة وسرور ، بل بشيء من الفخر الخاص أيضاً .

ولكن عندما طلب أحدنا منها ان ترتق له قميصه الوحيد ، نفخت في وجهه بازدراء واستخفاف ، وقالت :

– هذا لا يهمني ، ولن افعل لك ذلك !

وتلذذنا بضحكة طويلة ممتعة على حساب ذلك الشاب الأحمق ، ولم نطلب منها بعد ذلك القيام بأي عمل لنا . كنا نحبها ، وفي هذا القول كل شيء . . . المرء يود دائماً ان يحشر هذا الشخص أو ذاك في حبه ، وأن يكن ذلك جائراً ظالماً أحياناً ، أو مذلاً في أحيان أخرى . وقد يسمم حبه حياة مخلوق حي ، لانه لا يحترم ، وهو يحبُّ ، موضوع حبه وهيامه . كان علينا أن نحب تانيا ونهيم بها ، اذ لم يكن ثمة مخلوق غيرها نستطيع أن نحبه ونهيم به .

ومن حين لآخر كان أحدنا يبدأ الحديث على هذا الغرار :

– ما المغزى من إثارة مثل هذه الضوضاء بسبب تلك الفتاة ؟ ما الذي يلفت الأنظار فيها ؟

وما أسرع أن نطبق على ذلك المتكلم ونرغمه على الصمت في خشونه وقسوة – يجب أن نملك شيئاً نحبه . ولقد وجدناه ، واحببناه ، وذلك الذي أحببنا ، نحن الستة والعشرين ، كان يجب ان يكون راسخا لكل منا ، فهو قدس الاقداس في نظرنا ، وكل من يعارضنا في هذا الأمر عدو لدود لنا . لربما كنا نحب ما ليس في الحقيقة حسناً إلا أن ثمة ستة وعشرين منا على أية حال ، ولهذا نريد موضوع عبادتنا أن يظل طاهراً مقدساً في عيون الآخرين .

لم يكن حبنا أقل ثقلاً من الحقد . . . ولربما كان هذا هو السبب في أن بعض العنيدين يدّعون أن حقدنا أدعى الى الزهو من حبنا . . . إنما ، لماذا لا يتحاشون جانبنا إذا كان ادعاؤهم صادقاً ؟

كان معلمنا يملك ، بالاضافة الى مخبز الفطائر هذا ، مخبزاً للارغفة يقع في البيت ذاته ، لا يفصله عن حفرتنا سوى جدار واحد . وكان خبازو الارغفة ، وهم أربعة أشخاص ، يترفعون علينا ، ويعتبرون عملهم أنظف من عملنا ، ويعتبرون أنفسهم ، بناء على ذلك ، أناساً أفضل منا . لم يزوروا مخبزنا أبداً ، بل كانوا يستقبلوننا بإهانات مزرية حيثما اجتمعوا بنا في الساحة . ولم نك ، نحن الآخرين ، نزورهم أو نطل عليهم – فقد حرّم المعلم أمثال هذه الزيارات خشية أن نسرق القطايف . لم نك نحب خبازي الارغفة لاننا كنا نحسدهم – فعملهم أسهل من عملنا ، وهم يتناولون أجراً أفضل ، وينالون طعاماً أحسن ، ويعيشون في دكان مهواة

فسيحة الجوانب ، وهم جميعاً ممتلئو الصحة كثيرو النظافة ، وبالتالي ممقوتون شنيعون . . . وكنا ، في الطرف الآخر ، صفر الوجوه كثيراً . ثلاثة منا مصابون بالزهري ، وآخرون بالجرب ، وأحدنا كسيح بالروماتيزم المزمن . كانوا يرتدون في أيام الأعياد والراحة الأسبوعية ثياباً نظيفة ، وأحذية عالية تزقزق وتصر لدى كل خطوة . وكان اثنان منهم يملكان آلتي أرمونيكا ، فيخرجون جميعاً لنزهة في الحديقة العامة ، في حين نتلفع نحن بأسمال قذرة ، ونلف أقدامنا بخروق من الخيش أو أحذية مصنوعة من ليف النباتات ، فلا يسمح لنا الشرطي بالدخول الى الحديقة . قولوا الآن ، أكنا نستطيع أن نحب خبازي الارغفة ؟

وتسربت إلينا ، ذات يوم ، أنباء تفيد ان القيِّم على المخبز بدأ يشرب بنت الكرم ، وأن المعلم فصله وعين آخر محله ، وان القيم الجديد جندي سابق يتجول في صديرية من الساتان ، ويحمل ساعة ذهبية السلسلة . وقد دفعنا الفضول إلى إلقاء نظرة خاطفة على ذلك الغندور ، فثمة الواحد تلو الآخر يركض الى الساحة بين الفينة والفينة على أمل ان يصادفه ويجتمع به .

لكنه قدم إلى دكاننا بنفسه . دفع الباب بقدمه ووقف على وصيده ، مبتسماً ، وخاطبنا قائلاً :

– مرحباً . كيف حالكم ، أيها الصبية ؟ الله يساعدكم !

واندفع الهواء الجليدي عبر الباب في سحابة داخنة راحت تدوِّم حول قدميه ، وهو واقف على العتبة يتطلع الينا من أعلى ، تلمع أسنانه الصفر الكبيرة تحت شاربيه الأشقرين

الجميلين . كانت صديريته لا نظير لها حقاً – زرقاء اللون ، مطرزة بالزهور ، تبرق وتشع ، أزرارها مصنوعة من الحجر الأحمر . وكانت السلسلة موجودة أيضاً . . .

ولقد كان شاباً أنيقـاً ، ذلك الجندي ، طويل العود ، قوي البنية ، له وجنتان متضرجتان وعينان بجّاوان مشرقتان تنحدر منهما نظرة حلوة محببة ، نظرة نقية حنون . وكان يعتمر بقبعة من القماش بيضاء متينة ، ويطل من تحت مئزره النقي الصافي رأسان مدببان لحذاء عصري فاخر لماع الجلد .

رجاه قيّم مخبزنا بلطف وأدب أن يغلق الباب . فاذعن في بطء ، وشرع يستفسر منا عن المعلم ، فترامينا بعضنـا على بعض ، نخبره أن المعلم بخيل ، مسّاك ، غشاش ، لئيم ، وَجلاد بالاضافة – اخبرناه بكل شيء يمكن أن يروى عـن المعلم مما يستحيل كتابته هنـــا . فاصغى الجندي الينا ، ورعّص شاربيه ، ورمانا بتلك النظرة اللطيفة الصافية .

قال ، على حين فجأة :

– لديكم في الجوار كثير من الفتيات . . .

فضحك فريق منا في أدب ، ورقت وجوه بعضنا ، وروى أحدنا للجندي أن ثمه تسعاً منهن في الجوار .

واستأنف الجندي كلامه ، فسأل غامزاً بعينه :

– هل استفدتم منهن ؟

فضحكنا ، من جديد ، ضحكة مقهورة حائرة . . . كثيرون منا كانوا يودون أن يتبجحوا امام الجندي بفراهة ليست من نصيبهم ، فلم يستطيعوا أن يفلحوا في ذلك . لم يكن أحد منا يستطيع ذلك . وأقر بعضهم أخيراً ، في صوت هادئ متردد :

– اه ، لا حول لنا فى ذلك . . .

فقال الجندي في اقتناع ، ممعناً فينا النظر :

– آه ، بلى ، انكم لبعيدون عن ذلك كثيراً . . . ليس لديكم الشخصية . . . الصورة الموافقة . . . أنتم لا تعرفون الطلعة . إن الطلعة هي الشيء الوحيد الذي تعبده النساء في الرجل . أعط المرأة جسداً قياسياً . . . وكل شيء يجب أن يكون هكذا . ثم أنها تحب بالطبع شيئاً من القوة العضلية . . . تحب الذراع أن تكون ذراعاً ، وثمة بضاعة ههنا .

واخرج الجندي يده اليمنى من جيبه ، وكمّ قميصه مطوي حتى مرفقيه ، ورفعها أمامنا لرؤيتها . . . كانت له ذراع بيضاء قوية مفروشة بشعر ذهبي مشع .

– الساق ، الصدر ، كل شيء يجب أن يكون متيناً قوياً . . . ومن ثم يجب على المرء أن يعني بهندامه . . . فتكون هيئته متقنة . . . والآن ، ان النساء يتساقطن أمامي . انتبهوا ، فأنا لا أناديهن ولا اغويهن بل هن يتعلقن برقبتي ، وبالجملة أيضاً . . .

جلس على كيس من الطحين ، وأمضى فترة طويلة يروي لنا كيف تحبه النساء وكيف يعاملهن بجسارة واقدام . ثم انصرف . ولم يكد الباب يلفظه وينغلق من خلفه مصرصراً حتى قعدنا جميعاً تخيم علينا سكينة طويلة وصمت مطبق ، نفكر فيه ونتروى فيما روى لنا من اقاصيص . ومن ثم تحدث الجميع فجأة وفي وقت واحد ، فوضح لنا أنه راق في أعيننا . مثل ذلك الفتى البسيط اللطيف ، وكيف دخل علينا ، وكيف جلس ، وماذا قال . . . لم يصدف أحد لرؤيتنا قط ، أو

حدثنا إنسان بمثل ما هو حدثنا ، بطريقة أخوية محببة . . . شرعنا نتحدث عنه ، وعن نجاحاته المتوقعة في المستقبل مع الخياطات اللواتي كنّ ، بعد أن يشاهدننا في الساحة ، يهرعن بعيداً عنا وقد ضغطن على شفاههن ازدراء ، أو ينطلقن ناحيتنا باستقامة فكأننا لسنا نقف مطلقاً في دربهن . وكنا نعجب بهن فقط ، ونحن نراهن في الساحة أو يمررن أمام نوافذنا ، يلبسن في الشتاء قبعات صغيرة جميلة ومعاطف من الفرو ، ويغطين رؤوسهن في الصيف بقبعات مزينة بالازاهير ويحملن مظلات براقة مختلفة الألوان . . . وكنا نتحدث عن أولئك الفتيات فيما بيننا بطريقة تجعلهن ، لو سمعننا ، مجنونات خجلاً وعاراً .

قال الخباز القيم بغتة في نغمة جزع وقلق :

– آمل ألا . . . يفسد الصغيرة تانيا .

فاصبنا جميعاً بالبكم من ذلك البيان . لقد نسينا تانيا نوعاً ما – ليظهر أن هذا الجندي محاها بصورته الكبيرة الأنيقة . ومن ثم انفجر نقاش صاخب . قال بعضهم إن تانيا لن تهتم به ، فيما أكد آخرون أنها لن تقوى على مقاومة فتنة الجندي ، واقترح غيرهم أن نحطم عظام ذلك الفتى إن اتفق وحاول مغازلة تانيا . وأخيراً عزم الجميع على مراقبة ذلك الجندي وتانيا ، وتحذير الفتاة منه . . . وهذا ما وضع حداً لتلك المناقشة الصاخبة .

* * *

مر قرابة شهر واحد . . .

كان الجندي يخبز القطايف ، ويخرج مع الخياطات ،

ويتردد لرؤيتنـــا بين حين وحين ، دون أن يأتي على ذكر انتصاراته – كل ما كان يفعل هو أن يفتل شاربيه ويتلمّظ .

وظلت تانيا تجيُ كل صباح تطلب الفطائر ، مغتبطـة أبداً ، حلوة رقيقة .

حاولنا طرق موضوع الجندي معها – فشرعت تلقبـــه بالدمية الجاحظة عيناها ، وعدة أسماء أخـــرى تبعث على السخرية والهزء ، مما أراح عقولنا وطمأننا . كنا فخورين بفتاتنا الصغيرة ونحن نرى الخياطات يتعلقن بالجندي ، فيما موقف تانيا منه أرّث حماستنا جميعاً ، فأصبحنا تحت تأثيرها ونفوذها نبدي له مواقف الاحتقار والازدراء . وأحببناها أكثر من قبل ، وطفقنا نحييها كل صباح بسرور أعظم ولطف أكثر .

وذات يوم جاءنا الجندي مخموراً بعض الشيء ، فجلس وراح يضحك . ولما استفسرنا منه عن السبب قال :

– لقد تشاجـــر اثنتان منهن من اجلي . . . ليـــدا وجروشا . . . كان يجب أن تروا ما فعلتا ببعضهما بعضاً . قتال حقيقي . ها ! ها ! أمسكت إحداهما بشعر الأخرى ، وراحت تجرها على الأرض حتى الممر ، ثم ترامت فوقها . . . ها ، ها ، ها ! لقد هرشت كل منهما وجه الأخرى ومزقت ثيابها . . . أليس هذا مضحكاً ؟ والآن ، لم لا يستطيـع النســـاء أن يقاتلن بنـــزاهة ؟ لـــم يخمشن وجـــوه بعضهن ، إيه ؟

اقتعد دكة قريبة ، يلوح لنا نظيفاً ، سليم البنيـــة ، بشوشاً ، يضحك بدون انقطاع . جنحنا الى الصمت ولم نقل شيئاً . لقد بدا مقيتاً في اعيننا ، لسبب ما ، هذه المرة .

– فيم أنا شيطان محظوظ مع الفتيات ؟ عجيب ! يكفي لي ان اغمز بعينيّ فقط ، فاذا كل شيء يتحقق .

رفع يديه البيضاوين المفروشتين بالشعر المصقول ، ثم أسقطهما على ركبتيه في لطمة مفرقعة . وراح يراقبنا بنظرة دهشة مسرورة ، وكأنه مذهول هو نفسه لانتصاره دوماً في قضايا الجنس اللطيف . وكانت سحنته المتوردة الريانة تبرق بانشراح متأنق مغرور ، وهو يعاود تمرير لسانه على شفتيه بلا هوادة .

ورمى خبازنا القيم مجرفته في الفرن بغضب ، وقال فجأة في نغمة تهكمية :

– ليس من الروعة في شيء ان تجندل أشجار التوت الصغيرة – بودي أن أعرف ماذا تصنع بشجرة صنوبر .

فسأل الجندي :

– إيه ؟ ماذا ؟ هل تخاطبني ؟

– نعم ، أخاطبك . . .

– ماذا قلت ؟

– لا شيء . . . إنسَ ذلك . . .

– هيا ، استرسل . ما الأمر ؟ ماذا تعني – بشجرة صنوبر ؟

فأضبّ قيمنا ولم يفه بحرف . . . بل راحت مجرفته تتحرك بخفة في الفرن ، يدفع فيه الفطائر المطبوخة ، ويخرج الناضج منها ويرميها بصخب وضجيج على الأرض حيث يتربع أطفال ويسلّكونها بخيطان من الليف . بدا كأنه نسي

الجندي ، لكن هذا الأخير تهيج بغتة ، فهب على قدميه وهرول الى الفرن ، معرضاً نفسه لخطر وشيك قد يناله اذا أصابته في صدره يد المجرفة المتحركة بخفة تشنجية في الهواء.

– آه ، أنظر ههنا – من كنت تعني ؟ تلك إهانة . . . كيف ، ليس ثمة فتاة تستطيع صدي ومقاومتي . ليس في قلبي أثر للخوف . وهأنتذا تلمح بأشياء ضدي . . .

وفي الواقع لاح أنه مستاء غاضب الغضب كله . لمن الواضح أن المنبع الوحيد لاحترام الذات عنده إنما هو قدرته على إغواء النساء ولربما كانت تلك القدرة الصفة الحية التي يستطيع التبجح بها ، والشيء الوحيد الذي يبعث فيه الشعور بأنه مخلوق حي .

ثمة بعض البشر لا تحمل لهم الحياة أفضل أو أرقى من علة النفس أو الجسد . فيتعشقونها طوال الحياة ، اذ هي ينبوع الحياة الوحيد بالنسبة اليهم . وبينا هم يقاسون منها ويتعذبون ، يتغذون منها ويطعمون . إنهم يشكون أمرها للناس ، فيستجلبون بذلك اهتمام جيرانهم وعنايتهم . وهم يحصلون ضريبة من عطف البشر عليهم ، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يملكون في الحياة . جردهم من تلك العلة ، داوهم منها ، يصيروا تعساء أشقياء تماماً ، لانهم سيخسرون المقومات الوحيدة في حياتهم ، ويصيرون قشوراً فارغة . وقد تكون حياة الرجل فقيرة معدمة أحياناً فيضطر رغماً عنه للتعلق بعلة ما ويبني نجاحه على أسس منها . وليمكن القول إن البشر ينصبون على الشر بدافع من الملل ليس غير . . .

وقد لسع الجندي حتى الصميم ، فحمل على خبازنا زاعقاً :

– كلا ، أخبرني ، من هي ؟
فقال الخباز ، وقد استدار اليه بصورة مباغتة :
– هل أخبرك ؟
– حسناً ؟
– هل تعرف تانيا ؟
– حسناً ؟
– حسناً . هيا اذن . أرنا ماذا يمكنك أن تفعل . . .
– أنا ؟
– نعم ، أنت .
– هي ؟ أسهل من البصاق !
– لسوف نرى !
– لسوف ترى ! ها ! ها !
– كيف ، إنها ستـ . . .
– ذلك لن يستغرق شهراً !
– إنك لمغرور ، يا عسكري . أليس كذلك ؟
– أسبوعان . لسوف أريك . من تعني ؟ تانيا ؟ تفو !
– أخرج ، فأنت تعوقني عن عملي .
– أسبوعان ، وتتم الخدعة . آه ، أنت ! . . .
– اخرج . ألم تسمع ؟

وانفجر الخباز في ثورة من غضب فلوّح بمجرفتـــــه . وترامى الجندي الى الخلف مشدوهاً ، ثم رنا إلينا جميعاً فترة من الوقت في صمت ، وجمجم مكشراً :

– حسناً .

وأسرع خارجاً . . .

ظللنا بصمتنا معتصمين طوال تلك المناقشة . كـان اهتمامنا محصوراً بذلك الحوار . لكن لم يكد الجندي يخرج حتى انفجرنا جميعاً في حديث صاخب مرتفع النبرة .

صاح أحدنا في وجه الخباز :

– لقد أطلقت شرارة قضية سيئة ، يا بافل !

فغمغم الخباز :

– اعتن بعملك !

ادركنا ان ذلك الجندي تحفز بكل كيانه ، وان تانيـا اصبحت بالتالي في خطر شديد . ومع ذلك ، فيمـا نحـن نستوعب هذا ، كنا فريسة فضول متوتر مرتعش يريد أن يعرف نتيجة ذلك الأمر . هل ستصمد تانيا أمام الجندي ؟ كنا جميعاً نردد هذا الاعتقاد .

– تانيا ؟ لسوف تقاوم . ولن تكون فريسة سهلة !

كنا مشتاقين بصورة فظيعة لامتحان معبودتنا ، فنحاول بلهفة أن نقنع بعضنا بعضاً أن صنمنا صنم وفيّ سيخرج من هذه المباراة منتصراً . وانتهينا الى التساؤل ما اذا كنـا حرضنا الجندي بصورة كافية ، خائفين أن ينسى الرهـان فنضطر إلى إثارة غروره مرة أخرى . ومنذ ذلك الحين دخل حياتنا اهتمام جديد مثير ، شيء لم نعهده من قبل مطلقاً . ورحنا نتحاور في الأمر طوال أيام ، فيلوح كأننا ازددنا ذكاء جميعاً . فنحن نتكلم بصورة أفضل وأكثر منا قبلاً . كان يبدو أننا نلعب مع الشيطان لعبة ما ، وتانيا هي الضمـان من جانبنا . وعندما بلغنا ، بواسطة خبازي الارغفة ، أن الجندي شرع «يترصد تانيا» ارتفع صياحنا حتى طبقة عالية

جداً ، فيما اصبحت الحيـــاة بالنسبة الينا تجربة مدهشة رائعة حتى لم نعد نلاحظ كيف استفاد المعلم من عواطفنـا المهتاجة فألقى على كواهلنا عملاً اضافياً بزيادة العجيـــن اليومي حتى اربعة عشر بودا * كان يبدو أننا لا نكلّ عـن العمل ، فاسم تانيا يتردد على شفاهنا طوال النهار ، ونحن ننتظر زيارتها الصباحية بنفاد صبر غير مألوف . وكان يهدهد الينا أحياناً أنها ستكون تانيا أخرى عندما تدخل لزيارتنا ، تانيا غير التي عرفناها دائماً .

لكننا لم نحدثها ، على أية حال ، عن ذلك الرهان ، ولم نطرح عليها أبداً سؤالاً ما ، بل كنا نعاملها بذات الطريقة اللطيفة المحببة . لكن شيئاً جديداً تسلل الى موقفنا منها ، شيئاً غريباً عن مشاعرنا السابقة نحو تانيا - وكان هـــذا العنصر الجديد فضولاً حاداً وبارداً مثل شفرة الفولاذ . . .

وفي ذات يوم ، قال لنا الخباز وهو يشرع في العمل :

- يا شباب . لقد آذن الوقت هذا النهار .

كنا عارفين بذلك ، جميعاً من دون حاجة لتذكيرنـا . ورغم هذا جفلنا جميعاً . واقترح الخباز :

- راقبوها . . . فستأتي بعد لحظات !

فعقب أحدنا في نغمة أسف :

- ما حدث قد لا تلتقطه العين !

وثارت مناقشة صاخبة من جديد . في هذا اليـــوم ،

---

* بود - قياس وزن قديم يساوي ١٦،٣٨ كيلوغـــراما . **الناشر** .

أخيراً ، سنعرف مقدار نظافة الوعاء الذي وضعنا فيه جميع الثروات التي نملكها . في ذلك الصباح أدركنا فجأة للمرة الاولى أننا نقامر بمبالغ عظيمة ، وان امتحان صنمنا ربما دمره بصورة نهائية بالنسبة الينا . لقد التقطت أسماعنا ، طوال تلك الأيام ، ان الجندي يلاحق تانيا بشراسة وعناد ، لكننا لم نستوضحها ، لسبب ما ، عن موقفها تجاهه ، فيما هي لم تبرح تتابع زياراتها المنتظمة لنا كل صباح طلباً لفطائرها ، وهي نفسها لم تتبدل . وسرعان ما بلغنا صوتها في ذلك اليوم أيضاً :

– ايها المساجين ! لقد جئت . . .

وبادرنا نفسح لها سبيل الدخول ، وعندما ولجت المكان استقبلناها في صمت وسكون مطبقين ، على غير عادتنا ، ورحنا نحملق بقسوة فيها ، لا ندري ما نقول لها ، وماذا نسألها . وقفنا أمامها في جمع أخرس متبسّل ، فدهشت بوضوح لهذا الاستقبال غير المألوف . وعلى غير انتظار ، أبصرناها تشحب وتصفر ، رانية الينا بقلق ، متململة بلا هوادة . ومن ثم سألتنا بصوت مخنوق :

– لِمَ تبدون هكذا جدّ . . . غريبين ؟

فالقى الخباز بهذا السؤال في نغمة متجهمة ، وقد غرز في وجهها عينين ثاقبتين :

– وماذا عنك ؟

– ماذا عني ؟

– لا شيء . . .

– اذن ، أعطوني الفطائر ، بسرعة . . .

لم تتعجلنا ابداً من قبل .

فعاد الخباز يقول من غير أن يضطرب ، وعيناه لا تبرحان محملقتين في وجهها :

– ثمة متسع من الوقت !

فاستدارت سريعاً ، وغابت عبر الباب . . .

التقط الخباز مجرفته ، مستديراً الى الفرن ، وقال في هدوء :

– حسناً ، لقد ثبت الأمر . فعلها ذلك الجندي . . . ذلك الخبيث ! . .

تراجعنا بتثاقل الى الطاولة مثل قطيع من الغنم يتناكب ويتزاحم ، فقعدنا والصمت مطبق علينا بكلكله ، ثم شرعنا نعمل ببلادة وجمود .

أعلن أحدنا فجأة :

– لربما لم . . .

فصاح الخباز :

– أطبق شفتيك . انتهينا من هذا !

كنا نعرف فيه رجلاً ذكياً ، اكثرنا ذكاء على الاطلاق . ولقد فهمنا من صيحته تلك انه مؤمن بانتصار الجندي ... فأحسسنا التعاسة والقلق . . .

وعندما دقت الساعة الثانية عشرة – وقت الغداء – قدم الجندي الينا . كان ، مثله أبداً ، نظيفاً مهندماً يتطالع في عيوننا باستقامة كما يفعل دائماً . شعرنا بالاضطراب يقعدنا عن التطلع اليه . . .

قال ، وهو يشخر متكبراً :

– حسناً ، يا سادتي الأعزاء ، أتريدون أن أريكم ماذا يستطيع جندي أن يفعل ؟ امضوا الى الممر واسترقوا النظر من الخصاص . . . أفهمتموني ؟

مضينا الى الممر ، وتزاحمنا فوق بعضنـــا ، نضغط وجوهنا على الشقوق المفتوحة في الحائط الخشبي المطل على الساحة . ولم ننتظر طويلاً . . . سرعان ما قدمت تانيا الى الساحة بخطوات عجلى ونظرات قلقة ، وهي تقفز فوق حفـر من الثلج الذائب والطين ، لتختفي عبر باب القبو . عندئـذ نهض الجندي وتقدم وهو يصفر بشفتيه ، ثم دلف الى القبو بدوره ، يرعص شاربيه ويداه مغروزتان في جيبيه .

كانت السماء ترسل شآبيب الغيث ، فنرى قطرات المطر تساقط في البرك المتغضنة من وقع وطأتها عليها . كان يوماً رمادياً رطباً ، يوماً قارساً حقاً . وكان الثلج لا يزال يتراخى على الأسطحة – بينا توضعت على الأرض بقع سود من الطين تناثرت هنا وهناك . . . وكان الثلج ، على الأسطحة أيضاً ، مغطى بفروة سمراء من الوسخ . ان الانتظار في ذلك الممر بارد لا يطاق . . .

كان الجندي أول من خرج من القبو . راح يسير الهوينا عبر الساحة ، يرعص شاربيه ويداه لا تبرحان في جيبيه – انه كما عهدناه دائماً .

ومن ثم خرجت تانيا . . . وعيناها . . . عيناها تشعان فرحاً وسعادة ، وشفتاها تفتران عن ابتسامة عذبة . كانت تسير كما لو في حلم ، وهي تتأرجح في مشية متهرعة غيـر ثابتة . . .

كان ذلك أقسى من أن نتحمل . فهرولنا جميعاً ، دفعة واحدة ، الى الباب ؛ وانطلقنا الى الساحة ، ورحنا نصفر ونزعق لها في لغط قوي حاد وحشي .

أوجس قلبها فزعاً عندما لمحتنا ، فوقفت جامدة كتمثال ، وقدماها غارقتان في بركة قذرة . تحاوشنا عليها ، ورحنا نمطرها اللعنات في طرب حقود وفي تيار من التجديف والقدح المخجل .

فعلنا ذلك على مهل ، وبهدوء تام ، مدركين أن ليس ثمة درباً للفرار من تلك الدائرة التي طوقناها بها ، واننا نستطيع الهزء بها بملء قلوبنا . لم نضربها . كانت تقف بيننا ، تدير رأسها من جهة الى جهة ، مصغية الى شتائمنا واهاناتنا . ولقد رميناها بأعنف ما فينا من قسوة ، بأعنف ما فينا من شراسة ، بركام ما تجمع في قلوبنا من سخط وسخ مسموم .

فرغ وجهها من الحياة ، واتسعت عيناها الزرقاوان اللتان كانتا تلوحان مفعمتين سروراً وسعادة قبل لحظة واحدة ، وأمسى تنفسها لاهثاً ، وأضحت شفتاها ترتعشان وترتجفان .

وكنا نحن ، وقد حاصرناها ، نصب جام نقمتنا عليها — أفلم تسرقنا وتنهبنا ؟ كانت تخصنا ، وقد صرفنا عليها أثمن عواطفنا ، ومع أن أفضل تلك العواطف لم تك سوى صدقات شحاذ معدم ، فقد كنا ستة وعشرين وكانت واحدة ، ولم يك ثمة ألم مبرح يخطر في بالنا يجدر بذنبها ! أواه ، لكم أهناها ! . . .ولم تنبس بحرف ، بل أخذت بكل بساطة

تحملق فينا بنظرة رعب واضح ، وقشعريرة مديدة تهز جسدها هزاً . . .

قهقهنا ، ونبحنا ، وزمجرنا . . . وشاركنا بعض الناس . . . وقد نتش أحدنا كم قميص تانيا . . .

توهجت عيناها فجأة ، ورفعت يدها فى ايماءة بطيئة لتصلح من وضع شعرها ، وقالت بصوت عالي الجرس ، لكن هادئ النبرة ، في ملء وجوهنا تماماً :

– آه ، أيها المساجين التعساء ! . .

وهجمت علينا باستقامة وكأننا لم نكن هناك ، كأننا لم نقف في دربها . وفي الحقيقة أن ذلك هو السبب في أن أحدنا لم يجروء على اعتراض سبيلها .

بعدما تخلصت من دائرتنا أضافت في صوت مرتفع النبرة ، من غير أن تلتفت الينا ، وفي نغمة تطفح سخرية وكبرياء :

– آه ، يا قطيعاً نجساً من الخنازير . . . يا وحوشاً . . .

وسارت باستقامة فخورة بجمالها .

بقينا واقفين وسط الساحة ، في ملء الطين ، تحت المطر والسماء الرمادية الخالية من الشمس . . .

ورجعنا أدراجنا بتثاقل الى سردابنا الحجري الرطب . وظلت الشمس ، كعهدها في الأزمان الخوالي ، لا تنحدر الينا من خلال النافذة ، في حين انقطعت تانيا عن المجيء . . .

١٨٩٩

في اميركا

مدينة الشيطان الاصفر

. . . فوق الأرض والمحيط يتدلى ضباب ممزوج جيداً بالدخان ، وغيث ناعم بطيء ينهمر فوق الأبنية القاتمة المنبثة في أرجاء المدينة ، ولا يوفّر المياه الموحلة للمكلأ .

والمهاجرون يتراصون على جانب السفينة يحملقون في صمت بأعين متسائلة تطفح بالآمال والمخاوف ، بالخشية والفرح .

سألت فتاة بولونية بصوت خافت ، وهي تحدّق مشدوهة في تمثال الحرية :

– من هذا ؟

فأجاب أحد الحاضرين :

– إله أميركي . . .

إن الشبح الضخم للمرأة البرونزية قد اكتسى بالزنجار من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، ومحياها البارد ينظر من خلال الضباب إلى بيداء المحيط ، فكأن البرونز يترقب من الشمس أن تبعث النور في عينيه الميتتين . ولم يك هنالك غير قليل من الأرض تحت قدمي «الحرية» التي تبدو وكأنها تنبثق من أعمق أعماق المحيط على قاعدة من أمواج

متحجرة . وكانت ذراعها المرتفعة عالياً جداً فوق المحيط وصواري السفن تضفي على وقفتها شيئاً كثيراً من عظمة وجمال متكبر . وكان يبدو أن المشعل الذي تطبق عليه بيدها على وشك التأجج كل لحظة ، وأنه سيطرد عما قريب هذا الدخان الرمادي ، ويغمر كل ما يحيط به بضياء عظيم البهاء واللمعان .

وكانت بواخر جبارة من الحديد ، أشبه ما تكون بأبالسة العصور السابقة للتاريخ ، تنزلق على مياه المحيط فيما حول تلك القطعة الصغيرة من الأرض التي ينهض عليها التمثال ، وقوارب بخارية كثيرة تراوح وتغادي ، سريعة مثل كلاب البحر المتضورة جوعاً ، والصفارات التي تزمجر بصورة غاضبة تذكر بأصوات العمالقة الذين ورد ذكرهم في الأقاصيص والأساطير ، وصفير حاد يتردّد محملاً بالغضب والحقد ، ومراسي السفن تهبط وتصعد في ضوضاء من السلاسل الفولاذية تصمّ الآذان ، وأمواج المحيط تتلاطم عنيفة شديدة قاسية .

كل ما يحفُّ بك يعدو ، ويستحثُّ الخطوات ، ويهتزُّ بعنف وشدة ، ومراوح السفن وإطاراتها تصفق الماء بغربات متسارعة ، والمياه مفروشة بزبد أصفر خددته غضون كثيرة عميقة .

ويلوح أن كل شيء — الحديد ، والحجر ، والماء ، والخشب — يحتجُّ بعنف ضد حياة خالية من الشمس مجردة من الأغاني والسعادة ، مقيدة في عبودية عمل قاس يرهق ويضني . كل شيء يئن ، ويزمجر ، ويصرُّ بأسنانه ،

خاضعاً مستكيناً لارادة قوة خفية معادية للإنسان . وقوة محتجبة عن البصر ، باردة شريرة ، تعمل في كل مكان على صدر المياه الذي يحرثه الحديد ويمزّقه ، وتدنسه لطخ البترول وتوسخه ، وتفسده قطع النجارة ، وفتات الخشب والقش ، وبقايا الطعام المتفسخة المتعفنة . هذه القوة هي التي تدفع ، مهيبة منتظمة أبداً ، كل هذه الآلة الجبارة الضخمة التي لا تزيد البواخر والأرصفة عن أن تكون أجزاء تافهة منها ، ولا يعدو الإنسان أن يكون مفصلاً عديم الأهمية فيها ، نقطة غير منظورة في تيه هذه الزينة القذرة والشيطانية من الحديد والخشب ، قطرة ضائعة في اختلاط السفن والقوارب والنقالات التي لا تحصى ولا تعدّ .

وهذا حيوان ذو قائمتين ، مسود بالهباب والزيت ، مذعور من الضوضاء المرعبة مذهول بها ، مأخوذ في قبضة رقص هذه المادة الجامدة المعراة من كل حياة ومرهق تحت وطأتها ، يتطلع إليّ على نحو غريب ، وقد وضع يديه في جيبي سرواله . وجهه ملطخ بطبقة كثيفة من الشحم الوسخ وفي محياه لا تلمع عينا الإنسان الحيّ ، بل بياض الأسنان ليس غير .

المركب يتقدم في بطء عظيم بين حشد السفن والبواخر الأخرى . وجوه المهاجرين اتخذت لوناً رمادياً خاصاً مميزاً ، وعلتها سيماء البلادة والبلاهة : إن شيئاً من ملامح قطيع الغنم يكسو أعين الجميع على حدّ سواء ، فيقفون هناك على

السطح بكماً لا ينطقون ببنت شفة ، يشخصون إلى الضباب الكثيف في صمت مطبق .

إن شيئاً يتجاوز حدود التصور يولـــد في هذا الضباب وينمو باضطراد ، طافحاً بزئير مدوٍ أصم ، مرسلاً نحــو القادمين أنفاساً تفهة ثقيلة ، متقدمــاً لاستقبالهم بضوضاء صاخبة يميز المرء فيها شيئاً كثير الكآبة عظيم القبح في وقت واحد . .

إنها المدينة ، إنها نيويورك . . . هذه منازل يعد كلٌ منها عشرين طابقاً ونيفاً تنهض عـــلى الشاطئ ، ناطحات للسحاب خرساء قاتمة مظلمة . هـــــذه الابنية المربعة ، المجردة عن كل أثر للجمال ، المسطحة والملقاة هناك كتلة واحدة ضخمة ، تصعد في الفضاء وتتطاول ، مضجرة كئيبة ، يعرض كل منها غرور ارتفاعه المتكبر المتصلف ، وصورته المشوهة القبيحة . والنوافذ جرداء من الأزاهير ، والمرء لا يبصر للأطفال فيها أثراً .

إن المدينة تبدو عن بعد أشبه ما تكون بفك عملاق ، أسود الأسنان متنافرها في الأبعاد ، تصعد نحو السماء سحباً من دخان كثيف ، لاهثة مثل رجل شره سمين بدين حتى درجة بعيدة .

ويخال للمرء ، حين يدلف إلى المدينة ، أنــه يسقط في معدة مصنوعــة من حجر وحديد ، معدة التهمت ملايين من البشر ، وهي تعمل الآن على طحنهم وتمثلهم .

وهذه الطرق حلقوم جشـــع تنزلق الأقدام على بلاطه ، تتيه فيه على غير هدى أو تتهاوى في أعماقه تلك اللقـــم

الحالكة التي تتغذى هذه المدينة بها . وإنك لتحسُّ في كل مكان ، الى الاعلى منك ، وإلى الأسفـل ، وفيما يحدق بك ، الحديد الذي يحيا ويزمجر في احتفالات انتصاراته الصاخبة . إن الحديد ، وقد استدعته قوة الذهب إلى الحيـاة وبعثت النشاط في أوصاله ، يحيط الإنسان بشبكته العنكبوتية ، ويصمّ سمعه ، ويمتصّ دمه ودماغه معاً ، ويلتهم عضلاته وأعصابه جميعاً ، ويستند على الحجر الأبكم كيما يكبر ويكبر دون انقطاع ، ويمدُّ دوماً حلقات سلاسله على نطاق أوسع فأوسع أبداً .

والقاطرات تزحف أشبه بديدان ضخمـة الجثة ، تجرُّ وراءها الشاحنات والحافـلات ، وزمارات السيارات تهدر فكأنها الاوز المسمن ، والكهرباء تزمجر بأغنيتها الكئيبـة المملة ؛ أما الهـواء الخانق – هذه الاسفنجـة الندية – فمُشرب بألف صدى يخور . . . إنه يثقل على هذه المدينة القذرة ، وقد دنّسه دخان المعامـل وأفسده ، ويظل جامداً لا حراك به هناك ، عاليـاً ، بين الجدران المرتفعة المغطاة بالهباب .

إن تماثيل قاتمة تنتصب في الساحات والحدائق الصغيرة ، حيث أوراق الأشجار المغبرة تتدلى ميتة لا حياة فيها مـن الأغصان الجامدة . إن وجوهها متوجة بطبقة سميكة مـن الشحم ، وعيونها التي كانت تلتهـب فيما مضى حباً للوطن امتلأت الآن بابخرة المدينة ودخانها . إن هؤلاء البشر مـن

البرونز لا يحيون . . . إنك لتقـول عنهم ، وقد ضاعوا في شبكة ناطحات السحاب ، إنهـم أقزام يستظلون الخيال الأسود الذي تلقيه الجدران العالية . لقد ضلوا الطريق في تيه الجنون الذي يحيط بهم ، فهم ينظرون في أسىً ، جامدين في أمكنتهم ، نصف عميان ، مرهقي الفـؤاد حزناً وغماً ، إلى اضطراب الناس المحموم عنـد أقدامهم . ويمرُّ الناس - صغاراً سوداً مذعورين - أمام هذه التماثيل وهم يخبون ، فلا يوجـد بينهم من يديـر انظاره صوب محيا هؤلاء الأبطال . . . إن طناطل الرأسمال المخيفة قد بددت مـن الأذهان ذكرى صنّاع الحرية .

ويبدو أن رجال البرونز يرزحون ، جميعاً ، تحـت وطأة ذات الفكرة المضنية :

«أهذه هي الحياة التي أردت أن أخلقها ؟»

الحياة المحمومة تغلي من حولهم وتفور مثل حساء مرفوع على النار ، والبشر الصغار يركضون ، ويدوّمون ويتلاشون في هذا الغليان ، فكأنهم حبيبات مـن السميد السابح في الحساء الغالي ، أو قطـع نجارة ضائعة في البحر الخضـم العظيم . . . إن المدينة تزمجر وتبتلعهـم ، الواحد تلو الآخر ، في حلقها الذي لا يرتوي له غليل .

لقد ترك بعض الأبطال أيديهم تتدلى إلى جانب أعطافهم ، ولكن الآخرين منهم رفعوها فوق رؤوس الناس ، وكأنهـم يحذرونهم :

- قفوا ! هذه ليست الحياة ، بل هذا جنون ليس غير ! إنهم جميعاً زائدون في تيه حياة الشوارع ، وليس أحد

منهم في مكانه في هذه الزمجرة الوحشية من الطمع الجشع ، في هذا السجن الضيق من الأهواء المفجعة والمحزنة من الحجر ، والزجاج ، والحديد . .

ولسوف يهبطون جميعاً ، ذات ليلة ، عن قواعدهم ، ويذهبون في الشوارع بخطوات المهانين الثقيلة ، يحملون كآبة عزلتهم ووحدتهم إلى الخارج من هذه المدينة ، نحو الحقول حيث القمر يتألق ، وحيث الهواء عذب وهادئ .

وعندما يعمل إنسان طوال حياته في سبيل وطنه فهو يستحق أن يترك في هدوء بعد مماته .

إن أناساً يحثون الخطى على الأرصفة ، يذهبون ويغدون في جميع الاتجاهات ، تبتلعهم المسام العميقة للجدران الحجرية . إن زمجرة الحديد الظافرة ، وعواء الكهرباء الثاقب ، وضوضاء أعمال بناء شبكة جديدة من المعدن ، وتعمير جدران جديدة من الحجارة ، ان هذا كله يخنق أصوات الناس ويكتمها مثلما تغطي العاصفة التي تهب على المحيط صيحات الطيور .

إن وجوه الناس هادئة جامدة ! يبعث ذلك على الاعتقاد أن أحداً منهم لا يدرك بؤس كينونته عبداً للحياة ، وطعاماً للمدنية الشيطانية . إنهم يظنون ، في شغفهم بأنفسهم ، أنهم سادة مصائرهم ، فتعكس عيونهم أحياناً الشعور باستقلالهم ، دون أن يخطر لهم قط فيما يبدو أن ذلك إنْ هو إلا استقلال الفأس في يد النجار ، أو استقلال المطرقة في

يد الحداد ، أو استقـــلال الآجرّة في يد البنّاء الخفي الذي يبني لهم جميعاً ، وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة ، سجناً واحداً مترامي الأبعاد يضيق بهم على الرغم من ذلك ولا يتسع لهم جميعاً . أنت تلقى كثيراً من الوجوه الطافحة طاقة ، ولكن ما تلحظه فيها بصورة خاصة هي الأسنان بالأحرى من أي شيء آخر . إن حرية النفس لا تلمع في أعين البشر أبداً ، بحيث أن تلك العزيمة المجردة عن الحرية تذكـــر بالبريق البارد الذي يندّ عن موسى لم تسنح الفرصة لفلّ شفرتهـا . إنها حرية الآلات العمياء بين يدي الشيطان الأصفر . . . الذهب !

هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مدينة شيطانية حتى هذه الدرجة ! إن البشر لم يبـــدوا لي قط ، حتى الآن ، بائسين مستعبدين حتى هذه الدرجة البعيدة . كما أني لـــم أجدهم أيضاً ، في الوقت ذاته ، في أي مكان آخر ، راضيـن عن أنفسهم بهذه الصورة المبكية المضحكة معاً ، كما هـــم عليه في هذه المعدة الشرهة القذرة ، معـــدة مخلوق أكول جعله النهم أبله ، وأحمق ، فهو يلتهم الأدمغة والأعصاب دون كلل ، مرسلاً أثناء ذلك زمجرة وحشية لا تصدر إلا عن الحيوانات الكاسرة وحدها . . .

والحديث عن البشر ها هنا يؤلمني ويرعبني . . .

إن حافلة «المترو الهوائي» تنطلق ، مزمجرة عاوية ، على الخطوط الحديدية بين جدران منازل شارع ضيق ، عـــلى ارتفاع ثلاثة طوابق محاطة بصورة متشابهة بقضبان الشرفات

والسلالم الحديدية ، والنوافذ مفتوحة على مصاريعها يستطيع المرء أن يشاهد في جميعهـــا تقريباً أشكالاً بشرية انصرف بعض أصحابهـــا الى العمل ، يخيطـــون شيئاً أو يحصون ويعدون ، منحنية رؤوسهم فوق مكاتبهم ، بينما جلس آخرون الى النوافذ بكل بساطـــة وهدوء ، واستندوا بجذوعهم الى قضبانها الحديدية ، وراحوا يشخصون الى الحافلات التـــي تمرُّ من أمامهم في كل لحظة متسارعة متلاحقة . إن الشيوخ والشبان والأطفـــال يعتصمون جميعاً بخرس متشابـــه ، ويحتفظون بذات الهدوء الرتيب . لقـــد اعتادوا على هذه الانطلاقات المجردة عن كل غاية . اعتادوا ان يفكروا أن تلك هي الغاية بالضبط ، فأنت لا تجد في عيونهم لا الغضب ضد سيطرة الحديد ، ولا الحقد على انتصاره .

ويزعزع مرور هـــذه الحافلات السريع جدران الدور ، ويرسل الانتفاض في صدور النساء ورؤوس الرجال على حدٍّ سواء ، كما أن أجساد الأطفال الملتصقـــة بشباك الشرفات ترتجف هي الأخرى آلفة هذه الحياة البشعة كشيء طبيعـــي محتوم لا مناص منه . إن الفكر لا يستطيع ان يحيك نسيجه الجريء الرائع ، والأحلام الطافحة حياة واقداماً لا تتمكن مـــن أن تولد الى الوجود في هذه الادمغـــة المزعزعة باستمرار لا يعرف معنى للراحة أو سبيلاً اليها .

وهذه عجوز ترتدي ثوباً ممزقاً ، قذراً ، مفكوك الأزرار ، يلوح محياها طوال ثانية قصيرة ، وإذا الهواء المتعفـــن المسموم – وقد تملكه الرعب وسيطر عليه – يفســـح المكان للحافلات المتلاحقة ، ويندفع في ذعر في هاوية النوافذ

فيلعب بشعر العجوز ويطايره مثـــل جناحي عصفور رمادي يختلج ، فتسرع المرأة وتغلق عينيها المطفأتين الرصاصيتين وتختفي . .

ويستطيع المرء أن يلمـــح ، في داخل الغرف العكرة المضطربة ، قضبان الأسرّة الحديدية المغطاة بالأسمال ، وما يتفسَّخ على الموائد من آنية قذرة تغيب فيها بقايا الأطعمـــة الرخيصة . ان المرء ليودُ أن يـــرى في النوافذ ورداً ، او انساناً يمسك كتاباً بين يديه ويقرأ . لكن الجدران تعدو ، يخال لك أنها تذوب في مثل لمح البصر ، بينما يأتي موجهـا القذر لملاقاتك من الجانب الآخر ، وفي خضمّ التيار السريـع يهوّم الناس الصامتون وقد أنهكهم الارهاق .

إن بريقاً كاسفاً يندُ عن جمجمة صلعاء ومض خلـــف زجاج نافذة مغبَّرة . . هذا هو يتأرجح ، في حركـة رتيبة ، فوق لست أدري أية آلة يعمل عليها . . وهذه فتاة رشيقة القد ، حمراء الشعر ، تقتعد نافذتها تحيـــك جورباً صوفياً . إن عينيها الغامقتين تعدان ما فيه من عرى ، وإذا موجة من الهواء تدفعها الى داخل الغرفة دفعاً ، ولكنها لا تحيد بعينيها عن العمل الذي انصرفت اليه بكليّتها ، ولا تصلح من وضع ثوبها السابح في الفضاء . وهذان صبيان في الخامسة مـــن عمرهما اتخذا مكانهما على احدى الشرفات وراحا يبنيان بيتـاً بقطع صغيرة من الخشب ، ما أسرع ما يتزعزع ، ويتهاوى ، فيسرع الصغيران ، ويلتقطان بأيديهما الصغيرة جداً قطع الخشب كيلا تسقط في الطريق مـــن خلال فرجات شباك الشرفة ، دون أن يتطلعا ، هما الآخران ، الى ما عكّر عليهما

صفو المهمة التي أنهمكا في انجازها . ان بعض الوجوه الأخرى تتبلّج أيضاً باستمرار في النوافذ ، كيما تعود فتختفي بعد لحظات أشبه بأنقاض شيء كبير جداً ، لكنه انسحق وانطحن وصار هباء منثوراً .

إن الهواء ، وقد طرده سباق الحافلات المجنون ، يموج ثياب الناس وشعرهم ، ويصفعهم في وجوههم بأمواج متوالية ساخنة خانقة ، ويدفعهم ويزحمهم ، ويملأ آذانهم بألف ضجيج وضجيج ، ويذُرُّ في عيونهم غباراً دقيقاً حادّ اللذع ، يعميهم ويصم سمعهم بعواء طويل لا ينقطع .

إن هذا العواء الوحشي ، هذا النباح القاسي ، هذه الزمجرة المخوفة ، هذا الارتجاج الدائم لحجارة الجدران ، هذا الرنين المذعور لزجاج النوافذ ، هذا كله سيضايق الإنسان الحي الذي يفكر ويعمل ذهنه ، ويخلق في دماغه أحلاماً وصوراً ولوحات جميلة رائعة ، الإنسان الحي الذي يصنع رغبات خاصة به ويصهرها ، الذي يحسّ عذاباً قلقا يضنيه ويثقل عليه ، الذي يريد ويفكر وينتظر . ولسوف يتمرد هذا الانسان ويثور ، فينطلق الى الخارج ويحطم هذا الفحش المقيت : «المترو الهوائي» . سوف يُسكت – هو سيّد الحياة – زمجرة الحديد الوقحة وعويلها . . إن الحياة جُعلت من أجل الانسان ، ويجب أن يتلاشى من الوجود كل ما يمنع هذا الانسان من الحياة ، أو يعترض عليه سبيل الوجود .

إن البشر الذين يقطنون دور مدينة الشيطان الأصفر يتحملون ، بكل هدوء وصبر ، كل ما يمسخ الانسان ويفتك به !

وفي الأسفل ، تحت شبكة «المترو الهوائي» الحديدية المتعانقة ، في غبار الطريق وأقذاره ، أطفال يلعبون في صمت وهدوء . في صمت ! إنهم يضحكون ويصيحون مثل سائر أطفال العالم تماماً ، ولكن أصواتهم تغرق وتضيع في الضوضاء غير المنقطعة التي تسيطر عليها وتخمدها ، مثلما تغرق قطرات المطر في البحر العظيم . إنك تقول ، إذا رأيتهم ، إنهم ورود نثرتهم يد وحشية قاسية من نوافذ الدور في أطيان الطريق حيث تتشرب أجسادهم روائح المدينة الدهنية ، فتشحب وجوههم ويعلوها الاصفرار الشديد ، ويسري السم في دمائهم ، وتثور أعصابهم مهتاجة بالنداء المشؤوم الذى يصدر عن المعدن الصدئ ، والعواء البربري المتوحش الذي يندّ عن تلك البروق المستعَبَدة .

ويتساءل المرء : «هل يستطيع هؤلاء الأطفال ان يصبحوا رجالاً سليمين ، جريئين ، ذوي عزة ؟» ولكنه لا يسمع ، كجواب عن تساؤله ، إلا الصرير الحاد ، ورنين الضحكات الفذة ، والصفير الحانق . . .

إن القاطرات تعدو أمام «الحي الشرقي» ، حي الفقراء ، حفرة قذارات المدينة وأوساخها . ههنا الطرقات أخاديد عميقة تقود الناس الى مكان ما في أعماق المدينة حيث ينتظرهم – فيما يتصوَّر المرء – ثقب جبار لا يسبر غوره ، مرجل أو قِدْر كبيرة ينتهي الجميع الى السقوط فيها ، حيث يسلقون ليُستخرج الذهب منهم ، كما أن الطرقات ههنا تعجُّ بالأطفال .

أنا أعرف الفقر معرفة وثيقة ، ومحياه الأخضر الشاحب

المتعظم مألوف لديّ كثيراً . لقد شاهدت ، في كل مكان ، عينيه اللتين كدرهما الجوع وألهبتهما الشهوة الكلبة ، عينيه المحتالتين الحقودتين ، أو الخاضعتين في اتضاع وتذلل ، واللاإنسانيتين دوماً على أية حال . ولكن بؤس الحي الشرقي يتجاوز في الهول ، كل ما شاهدت حتى الآن .

إن الأطفال ، في هذه الطرقات المنتفخة بالناس مثلما تنتفخ الأكياس بالحبوب ، ينبشون في المزابل وينقبون على حافة الأرصفة ، ويستخرجون منها خضاراً نصف متعفنة يلتهمونها بعفنها على الفور ، غارقين في أحضان الهواء الخانق من حولهم ، المشبع بغبار حاد قارص شديد اللذع .

وعندما يعثرون على كسرة من خبز عفن آسن ينشب الشجار فيما بينهم ، فيتقاتلون ، وقد ملك عليهم مشاعرهم ، ويرتمون بعضهم على بعض مثل كلاب شرسة مفترسة أرمضها السغب . انهم يغطون الشوارع ويتدفقون فيها قطعاناً جائعة ، حتى لتقول إنهم أوز شره تبعثر في كل مكان وتفرّق . إنهم ينقبون على الدوام ، في الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً ، بل بعد ذلك أيضاً ، في تلك العفونة ، جرائيم بائسة للشقاء ، وتوبيخاً حياً موجهاً الى طمع الأغنياء المستعبدين للشيطان الأصفر .

وفي زوايا الشوارع الوسخة تنتصب أنواع من الأفران أو المحارق يغلي فيها شيء ما ، ويصعد البخار مدوياً في الهواء من أنبوب رقيق ينتهي بصفارة حادة ، فيتغلب لحن هذا الصفير الحاد الثاقب على سائر أصوات الشارع الأخرى ، ويمتد الى ما لا نهاية ، فكأنه خيط متجمد بياضه يعمي

الأبصار ويغشيها ، ويلتف حول عنقك ويلقي الاضطراب في افكارك ، ويثير النقمة في صدرك ويدفعك الى حيث لا تدري ، ويهتز دون أن يتوقف ثانية واحدة في رائحة العفونة التي تلتهم الهواء ، يهتزّ ساخرا ، وهو يثقب في وحشية هذه الحياة التي تسيل في الوحل والطين .

إن الوسخ هو عنصر كل شيء ههنا ، يتسرب في كل مكان ، ويتغلغل في جدران المنازل وفي زجاج النوافذ ، في ثياب الناس وفي مسام جلودهم ، في أدمغتهم ورغباتهم وأفكارهم على حدّ سواء .

وتلك الثقوب السود للأبواب ، على طول هذه الشوارع تثير في الذهن فكرة جروح متقيحة مفتوحة في حجر الجدران ، ويخيّل الى المرء ، عندما يرى درجات السلالم الوسخة ، والمفروشة بالأقذار ، أن كل شيء في الداخل قد تفسّخ ، وأن القيح يسيل منه مدراراً غزيراً ، مثلما يسيل من أحشاء جثة متعفنة ، وأن البشر يبدون كالديدان .

هذه امرأة وافية القامة ، بجّاء العينين القاتمتين الكبيرتين ، تقف قرب أحد الأبواب وبين ذراعيها طفل صغير . إن ثوبها مفتوح عند الصدر ، وثدييها المزرقين يتدليان متهدلين شاحبين ، مثل كيس نقود طويل رخو . أما الطفل فيبكي ، ويخمش بأصابعه جسد أمه الطري المتضوّر جوعاً ، ويضربه بمحياه ، ويسحق شفتيه عليه ، ويلجأ الى السكوت فترة وجيزة ، ثم يعاود البكاء بصوت أشد ارتفاعاً من ذي قبل ، وهو يضرب الصدر الأمومي بيديه وقدميه . . . ولكن

الأم تظل واقفة في جمود ، وكأنها قُدَّت من حجر صلد ، عيناها المدوَّرتان كعيني البوم تشخصان بثبات وعناد الى نقطة واحدة لا تتبدل . . هذه النظرة لا تستطيع أن ترى شيئاً إلا ويكون خبزاً . . إن المرأة تضمُّ شفتيها بعنف وإحكام ، وتتنفَّس من أنفها ، فيرتجف خيشوماها عندما تستنشق الهواء الكثيف ، المحمّل بروائح الطريق الكريهة النتنة . هذا الكائن الانساني إنما يعيش بذكرى الغذاء الذي ابتلعه في العشية ، ويحلم بكسرة الخبز التي ربما يأكلها في يوم من الأيام . . وإن الطفل ليصيح ويزعق ، وهو يحرك جسده الصغير الأصفر في اختلاجات شديدة . ولكنها لا تسمع صياحه ، ولا تحسُّ ضربات قدميه أيضاً . .

وهذا شيخ باسق القامة ناحل القد ، رأسه أشبه ما يكون برأس الطير الجارح ، وشعره الأشيب مبعثر في الهواء تلعب الريح به وتلهو ، وأجفانه الحمر تطرف على عينيه المريضتين ، ينقب بعناية فائقة في كومة من الأقذار ويستخرج قطعاً صغيرة من الفحم ، ويستدير في ارتباك – وكأنه ذئب ساغب – كلما اقترب بعض الناس منه ، ويروح يتمتم بشيء ما من بين شفتيه المنطبقتين .

وذاك فتىً في مقتبل العمر ، شاحب الوجه كثيرا ، هزيل الجسد حتى الدرجة القصوى ، يستند الى أحد أعمدة المصابيح ، يتطلع الى الطريق بعينيه الرماديتين ، ويهزّ رأسه المجعّد من حين لآخر . إن يديه غارقتان عميقاً في جيبي سرواله حيث تتحرك الأصابع في عصبية ونزق شديدين .

إن الإنسان واقـــع تحت الأبصار في هذه الشوارع ، يستطيع المرء أن يسمع صوته الحانق ، الحقود ، المفعـــم بحب الثأر والانتقام . ههنا يبدو الإنسان بوجهه المتضور جوعاً ، الطافح هياجاً قلقاً وعذاباً مضنياً . من الواضح أن الناس يحسّون ، ومن الظاهر أنهم يفكرون أيضاً . إنهـــم يدبون دبيب النمـــل في أوحال حفـــر الطريق ، يحتكّ بعضهم بالبعض الآخر مثل الأقذار الجارية في جدول من المياه العكرة ، يدوّم بهم الجوع الذي لا يرحم ، ويفاقم من رغبتهم الحادة في أن يطعموا أي شيء في متناول اليد .

هؤلاء الناس قد قبعوا في انتظار بعض الغذاء ، يحلمون بالسعادة التي سيجنون فيما إذا أكلوا حتى الإحساس بالشبع والاكتفاء ، ويبتلعون الهواء المفعـــم بالسموم ، وفي أعماق نفوسهـــم المظلمة الحالكـــة تولد أفكار شديدة السميّة ، وعواطف خداعة ماكرة ، ورغبات خبيثة مجرمة .

إنهم يلوحون كالجراثيم الممرضة في معدة المدينـــة . وسوف يأتي اليوم الذي يسممونها فيه بذلك السموم التى تنفحهم هذه المدينة بها اليوم بكرم وسخاء .

إن الفتى الواقف قرب المصباح ، المستند اليه ، يهزُ رأسه من حين لآخر ، وأسنانـــه الساغبة منطبقـــة بعنف شديد . ليضوّر لي أني أخمّن ما يفكر فيه هذا الفتى ومـــا يتوق اليه بكل ذرات نفسه : أن تكون له ذراعان جبارتان وأجنحة قوية في ظهره . . . هذا ما يريده فيما أعتقد ، وهو يريد ذلك كي يستطيع ذات يوم أن يرتفع فرق المدينة ، وأن يغرس ذراعيه فيها مثل رافعتين من فولاذ ، وأن يطحن

كل شيء ويحيله كتلة من الأقذار والهباء المنثور : الآجر واللآلى ، الذهب وأجساد العبيد ، الزجاج وأصحاب الملايين ، الوسخ والبشر البلهاء ، المعابد والاشجار المسممة بالطين ، وناطحات السحاب السخيفة أيضاً ، كل الأشياء على حدّ سواء ، المدينة بأسرها دون استثناء شيء منها ، وأن يجعل من ذلك كله كومة واحدة ، عجينة واحدة ، خليطاً من الوحل ومن دماء البشر ، تيهاً حقيراً وفوضى يختلط حابلها بنابلها . . إن هذه الرغبة الرهيبة لأمر طبيعي في دماغ هذا الشاب ، مثل خراج على جسد إنسان مدنف . فحيث يتراكم عمل العبيد يضيق المكان بكل فكرة حرة وخلاّقة ، بل لا يمكن أن يزدهر هناك إلا أفكار الخراب والدمار من دون سواها ، أزاهير الانتقام السامة ، واحتجاج الحيوان المهتاج . وذلك أمر يسير على الادراك لأن القوم الذين يشوّهون النفس الانسانية لا يستطيعون أن ينتظروا أية محبة أو شفقة من قبل الإنسان .

إن الانسان يملك الحق في الثأر ، وهؤلاء القوم بالذات هم الذين يهبون له هذا الحق !

النهار ينطفىء في سماء عكرة مغطاة بالهباب ، والأبنية الضخمة تصبح أثقل وأشد كآبة أيضاً ، وبعض النيران تشتعل هنا وهناك في أحشائها الكالحة ، وتومض مثل عيون صفر في وجوه حيوانات غريبة لا مناص لها من أن تسهر طوال الليل على الخيرات الجامدة المجردة عن الحياة ، الموضوعة في جوف هذه القبور المنتنة .

ولقد ختم الناس نهارهم دون أن يفكروا في فائدة

عملهم ، أو فيما إذا كانوا هم أنفسهم في أدنى حاجة إلى هذا العمل . وهؤلاء هم يستحثون خطاهم طلباً للنوم وسعياً وراء الراحة . إن أمواجاً قاتمة من الأجساد البشرية تجتاح الأرصفة وتغمرها ، والرؤوس جميعـــاً مغطاة بذات القبعات الصفر المتشابهة ، وسائر الأدمغة - إن العيون تتحدث عن ذلك - قد أغفت منذ الآن واستسلمت للرقاد . لقد انتهى العمل ، ولم يبق هناك ما يفكرون فيه ، لأنهم جميعاً لا يعملون فكرهم إلا من أجل صاحب العمـــل وحده ، ولا تراودهم أفكار خاصة بهم أبداً . إذا كان هناك عمل فلسوف يكون هناك خبز وتكون أفراح حياة رخيصة قليلة التكاليف ، وفيمـا عدا ذلك فإن إنسان مدينة الشيطان الأصفر لا يجد ما يرغب فيه ويتوق إليه البتة .

وهؤلاء الناس يسعون إلى فراشهم ، الى جانب زوجاتهم ، إلى جانب أزواجهم . . وفي أثنـاء الليل الجاثم بين جوانب الغرف ، حيث يختنقون بوطأة الهواء الثقيل ، يطفح العرق منهم وتغمر اللزوجة سائر أعضائهم - سوف يتبادلون القبلات كيما يولد ، من أجل المدينة ، غذاء جديد طازج يسدُّ جوعها الذي لا يشبع . . .

إنهم يسيرون ولا يندُّ ضحك عنهم ، ولا يتردّد لهم حديث يشوبه المرح ، ولا ترى لهم ابتسامات تشعّ وتضيء !

السيارات تنقنق دون انقطـــاع ، والسياط تقرقع في الهواء دون هوادة ، والخطوط الكهربائية تدوي بأغنيتهـــا المهيبة دون أن تعرف للراحة معنى ، والقاطرات تجري في

ضوضاء وصخب دائبين . ومما لا ريبة فيه أن الموسيقى تعزف في مكان ما .

وهؤلاء باعة الصحف الصغار تبحُّ أصواتهم بالهتاف المستمر اعلانا عما عندهم من صحف ، بينا يمتزج لحن بغيض صادر عن أرغن بربري بصيحة ثاقبة تدفُّ من مكان ما في هذا العناق نصف المفجع ونصف المضحك معاً ، والذي يضمُّ القاتل وبهلول السرادقات . إن الناس الصغار يتحركون دون إرادة مثل حجارة تتدحرج من أعالي الجبل .

وتشتعل الأضواء الصفر متزايدة العدد أكثر فأكثر ، وتتراقص كلمات متأرثة على الجدران ، تتحدث عن الجعة ، وعن الويسكي ، وعن الصابون ، وعن موسى جديدة للحلاقة ، وعن القبعات ، ولفائف التبغ ، والمسارح ، في حين لا تتناقص أبداً زمجرة الحديد الذي يتدفق دوماً ، على طول الشوارع ، تحت الدفع النهم للذهب الأصفر ؛ لا بل إن هذا العواء غير المنقطع لأبعد مغزى الآن ، بعد أن أخذت الأنوار تشعّ في كل حدب وصوب ، فهو يكتسب معنى جديداً ، وقوة أشدّ وطأة أيضاً .

إن نور الذهب السائل ، هذا النور الذي يعمي الأبصار ، يسيل من جدران البيوت ، ومن اللافتات ، ومن نوافذ المطاعم . . إنه يهتزُّ ، في وقاحة وشماتة ، ظافراً في كل مكان . . . إنه يجرح الأعين ويشوّه الوجوه ببريقه المتجمد ، وتراقصه الماكر يفضح الرغبة الحادة في ابتزاز بقايا أجور الناس من جيوبهم ، فهو يجمع ومضاته إلى بعضها ليجعل منها كلمات من النار تدعو - خرساء صامتة -

العمال نحو ملذات رخيصة بخسة الثمن ، وهي تعرض عليهم أموراً ملائمة تتناسب وأذواقهم . .

إنها لرهيبة حقاً كمية النور في هذه المدينة ! ويجد المرء ذلك جميلاً للوهلة الأولى ، لأنه يرسل الغبطة في القلب إذ يثيره . إن النار ، لعنصر حر ، ابنة الشمس المتكبرة ، عندما تنتشر وتزدهر رائعة غزيرة ، فإن أزاهيرها تخفق وتحيا أجمل من سائر أزاهير الأرض طراً . إنها تطهر الحياة . إنها تستطيع أن تفني كل ما هو عتيق ، ميت ، قذر .

ولكن عندما يرى المرء ، في هذه المدينة ، إلى النور سجيناً في بلور شفاف ، فهو يدرك أنها – مثلها مثل كل شيء آخر – قد أخضعت ههنا للعبودية أيضاً . إنها تخدم الذهب ، ولا تخدم إلا الذهب وحده . إنها بعيدة ، فى عداوة ونفور ، عن البشر ، نائية كثيراً .

إن النار ، مثل كل شيء آخر – مثل الحديد والحجر والخشب – تتآمر هي الأخرى على الانسان . إنها تعميه ، إنها تدعوه :

– تعال إلى هنا !

كي تضيف في التوّ واللحظة :

– أعطِ مالك ! . .

ويلبي النَاس نداءها ، فيشترون بضاعة سيئة الصنع لا حاجة بهم إليها ، ويتطلعون إلى مشاهد تعمي بصائرهم وقلوبهم .

ويراود المرء شعور بأن كتلة كبيرة من الذهب تدور ، في مكان ما في مركز المدينة ، بسرعة مخيفة ، وهي ترسل

نباحاً مقيتاً يعبِّر عن لذتهـــا وسرورها . إنهـــا تنشر عبر الشوارع غباراً دقيقاً يسعى الناس طوال النهار ، في شره ، كي يطبقوا على حباته ويستولوا عليها . ولكن كرة الذهب ، حينما يهبط المساء ، تأخذ في الدوران في اتجاه معاكس ، وتثير إعصاراً من النـــار لا حرارة فيه يمتصُّ البشر كي يسترد منهم غبار الذهب الذي جمعوه أثناء النهار . وإنهم ليردون دوماً اكثر ممـــا أخذوا ، فإذا كرة الذهب ، في الغداة ، قد ازدادت حجماً وغدا دورانها أكثر سرعة أيضاً ، والصياح الظافر الذي يطلقه الحديد – عبدها – أعنف وأشدّ ارتفاعاً ، وصخب سائر القوى التي استعبدتها أكثر إرهاقاً وضجيجاً .

وتروح كرة الذهب ، وقد ازدادت نهماً وقوة عنها في العشيـــة ، تمتصُّ دم البشر ودماغهـــم ، كي يستحيل هذا الدماغ وذلك الدم – إذا حلّ المســاء ثانية – معدناً أصفر متجمداً . إن كرة الذهب هي قلب المدينة وخفقانهـــا هو ينبوع الحياة ، وتضخمها هو معنى الحياة .

ولذا فأن الناس يقضون أيامـاً طويلة مديدة وهـــم يحفرون الأرض ويخددونها ، ويصهرون الحديد ويجمدونه ، ويبنون المنازل ويشيدونهـــا ، يتنفسون دخان المعامـل ويزفرونه ، ويمتصون بكل مسامهم قذارة هواء مريض يعجُّ بالسموم : هكذا يبيعون جسدهم الجميل .

وذلك سحر بغيض يخدر فكر البشر ، ويجعل منهم آلات ضائعة في يد الشيطان الأصفر ، المعدن الذي يستنزف منه الذهب دون كلل ، يستنزف منه لحمه ودمه جميعاً .

إن الليل يأتي من بيداء المحيط ، ينفخ على المدينة أنفاسه المالحة الندية ، فتخرقه الأنوار الباردة بآلاف من الخطوط ، وهو يتقدم باستمرار ويلفّ مشفقاً بشاعة المنازل وعار الشوارع الضيقة بأردية قاتمة ، مغطياً أسمال البؤس القذرة يخفيها عن الأبصار . وإلى الأمام منه يبدو ذلك العواء المتوحش الصادر عن الجشع المجنون فيمزق سكونه ويعكّر هدوءه في قسوة شديدة . ولكن الليل يتابع مسيره فيطفىء ببهاء عظيم البريق الوقح الذى يندُّ عن النار المستعبدة ، ويغلق بيده العذبة قروح المدينة المتقيحة ويواسيها .

ولكنه حينما يتغلغل في تيه الطرقات تعجز أنفاسه الندية عن التغلب على أبخرة المدينة الفاسدة وبعثرتها . إن الليل يحتكُّ بحجر الجدران الذي ادفأته الشمس ، ويزحف على صفيح السطوح الصدىء ، وفوق طين الشوارع اللزج ، ويتشرب الأغبرة السامة ويبتلع الروائح المتصاعدة من كل مكان ، ومن ثم يستقرُّ ، وقد سقطت أجنحته ، جامداً معدوم القوى على سطوح المنازل وفي حفر الطرقات ؛ لم يبق منه سوى الدياجير فحسب ، أما نداه فقد تلاشى بعدما امتصّه الحجر والحديد والخشب ورئات البشر المتدرنة . إن الليل قد خلا من كل سكون ، وتجرّد عن كل شاعرية .

وهذه المدينة تنام في جوّ خانق محموم ، وهي تزمجر مثل حيوان ضخم . لقد التهمت كثيراً من الغذاء أثناء النهار ، فهي تحسُّ الحرّ الآن ، وتستشعر الضيق ، وترى أحلاماً ثقيلة رديئة .

وتنطفئ الأنوار وهي تنتفض . لقد تحققت مهمتها البائسة في تحريض الناس وخدمة الاعلان . وهذه المنازل تبتلع البشر ، بعضهم في إثر بعض ، في أحشائها الحجرية القاسية .

إن رجلاً هزيلاً وافي القامة ، محدودب الظهر ، يقف في زاوية من الشارع : هذا هو يدير رأسه ببطء ذات اليمين وذات اليسار ، وترسل عيناه الكدرتان نظرة ضجرة عن يمين أولاً ، ثم عن شمال . إلى أين يذهب ؟ الشوارع كلها متشابهة ، والدور تتراشق النظر بذات اللامبالاة وذات الجمود من غشاوات نوافذها البيض الشاحبة .

ويطبق حنين خانق على عنقك بيده الدافئة ، ويعوق تنفسك ، ويسدُّ عليك مجاري الهواء . إلى الأعلى من السطوح تركد السحابة الشفافة المتشكلة من الأبخرة النهارية المتصاعدة من المدينة البائسة الملعونة . ومن خلال هذه الابخرة ، في أعالي السماء ، التي لا تطال ، يتراقص نور النجوم الشاحبة في سكون .

ويخلع الرجل قبعته ، ويرفع رأسه ، ويتطلع الى فوق . إن ارتفاع المنازل في هذه المدينة يبعد السماء عن الأرض أكثر من أي مكان آخر . وإن النجوم لصغيرة وحيدة .

ويتردد عن بعد صوت بوق نحاسي مذعور فتنتفض ساقا الرجل الطويلتان بصورة غريبة ، ثم يتوغل في إحدى الطرقات . إنه يتقدَّم في بطء وتمهُّل ، مطرق الرأس ، وهو يؤرجح ذراعيه كثيراً . لقد تقدم الليل ، وراحت الشوارع تقفر أكثر فأكثر ، وأشباح بشرية صغيرة ، منعزلة ، تمحّي في الظلمات فكأنها ذبابات صغيرة . وفي زوايا الشوارع

ينتصب رجال الشرطة جامدين في ثيابهم الرمادية ، وأيديهم ممسكة بالهراوات . . . إنهم يمضغون التبغ ، وهم يحركون فكوكهم في بطء شديد .

ويمرّ الرجل أمامهم ، من أمام أعمدة الهاتف ، من أمام جمهرة من الأبواب السود التي ترسم ، في جدران المنازل ، حلوقها المغفورة على هيئة مربعات واسعة . وتزمجر قاطرة كهربائية عن بعد وتعوي ، بينما يروح الليل يحتضر ، مخنوقاً في أقفاص الطرقات العتيقة . . إن الليل قد مات .

وذلك الرجل يتقدم بخطوات موقعة ، ويتأرجح جسده الطويل المنحني إلى سائر الجهات . إن في هيئته شيئاً يفكّر ، شيئاً ينمُّ عن الحزم ، بالرغم من بعض التردد فيه .

لعله لص سارق !

جميل أن يرى المرء إنساناً يحسّ الحياة في شباك المدينة السود !

إن النوافذ المفتوحة تعبق برائحة خانقة من العرق البشري .

وهنالك أصوات صمّاء ، غير مفهومة ، تتحرك ناعسة في الظلمات الخانقة ، المحملة بالعذاب والقلق .

لقد رقدت مدينة الشيطان الأصفر المظلمة واستغرقت في نوم يقطعه الهذيان .

١٩٠٦

انشودة نذير العاصفة *

الريـــاح فوق منبسط المحيط الوسيـع تجمّع سحب العاصفة ، وفي المدى المترامي بين السحب والمحيط هبّ نذير العاصفة يُحوّم أشبه بشعاعة من وميض أسود .

آونة يداعب الموج بجناحيـه ، وأخرى ينطلق مثـل السهم ، يشقُّ السحب صائحاً في احتداد وقوة ، فيما السحب تكشف عن خفة وطرب في بحّات الطائر الشجاعة .

في تلك البحّات كان يرنُّ صدى التوْق إلى العاصفة ! . . كان يتقد لهيب عاطفته ، وأجيج غضبه ، وثقته بالنصر .

وطفقت طيـور النورس تئنُّ من الخوف – تئنُّ وهي تتلاطم فوق المياه ، وتروح تخبىء خوفها في أعماق المحيط السوداء .

وكانت طيور الغوّاص تنوح هي الأخرى ، فهي لا تفقـه معنى للطرب الطاغي المتدفق في معنى النضال . وأزيز الرعد يفعمها رعباً .

وكانت طيور البطريق الخرقاء تربض بين شعاب الجبال ، في حين لم يكن يقتحم السماء بفخارٍ غيرُ نذير العاصفة ، محوّماً فوق المحيط على ذرى المياه المفضّضة !

وشرعت سحب العاصفة تزداد اقتراباً من المياه ، وتتفاقم سواداً ، فيما الأمواج المغنية تتسامق في شوقها إلى العاصفة المقبلة .

---

* يقصد الكاتب به طائر النوء الذى يرمز عنده الى بشيـــر الثورة . **الناشر** .

وضرب الرعد ضربته ، فهبّت المياه تتعارك مع الرياح في ضراوة ، فتضمّها الريـاح إلى صدرها في عنف في عناق مستميت ، ومن بَعْدُ تطوّح الأمواج الزمردية فتحطمها على الصخور .

إن نذير العاصفة يحوّم ويصيح أشبه بشعاعة من وميض أسود ، شاقـــاً عباب سحب العاصفة مثل السهم ، باتراً تجمعات المياه . . .

انه يندفع مثل الشيطان ، مثل شيطان العاصفة الأسود ، ضاحكاً ناشجاً . . . إنه يضحك من سحب العاصفة ، وينشج من فرط سروره !

إن هذا الشيطان الحكيم يسمع منذ زمن في غضب الرعد تعب هذا الرعد ، تفعمه الثقة من أن السحب لن تحجب وجه الشمس ، لن تحجب وجه الشمس !

وتزمجر الرياح . . . وتتحطم الرعود . . .

وتنتشر أومضة البرق عبر سحب العاصفة فوق منبسط المحيط الواسع ، فيما اندفاعات اللهيب تقع أسيرة بين يدي المياه فتطفئ أوارها ، وتتلوى الانعكاسات الحلزونية منطفئة هي الأخرى في الأعماق .

– العاصفة ! العاصفة سرعان ما تنفجر !

إن نذير العاصفة الشجاع يحوّم بفخـــار بين وميض البروق ، فوق المحيط المزمجر الغاضب ، وصدى صراخـــه يرنُّ متهللاً مثل نبوءة الانتصار . . .

– ألا فلتنفجرنَّ العاصفة بملء غضبتها وزئيرها ! . .

١٩٠١

المحتويات

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو – الاتحاد السوفييتي

مؤلفات مكسيم غوركي المختارة بستة مجلدات تحتوي على الكتب التالية:

المجلد ١ - طفولتي

المجلد ٢ - بين الناس . جامعياتي

المجلد ٣ - قصص (عام ١٨٩٢ - عام ١٩١٢)

المجلد ٤ - قصص (عام ١٩١٢ - عام ١٩٣٦)

المجلد ٥ - الأم

المجلد ٦ - مسرحيات

تفتتح المؤلفات بمقدمة عن مكسيم غوركي كتبها الكاتب الاعلامي البارز ومؤرخ الأدب والفن ، أول مفوض سوفييتي للثقافة ، الأكاديمي أناتولي لوناتشارسكي (١٨٧٥ - ١٩٣٣) .

